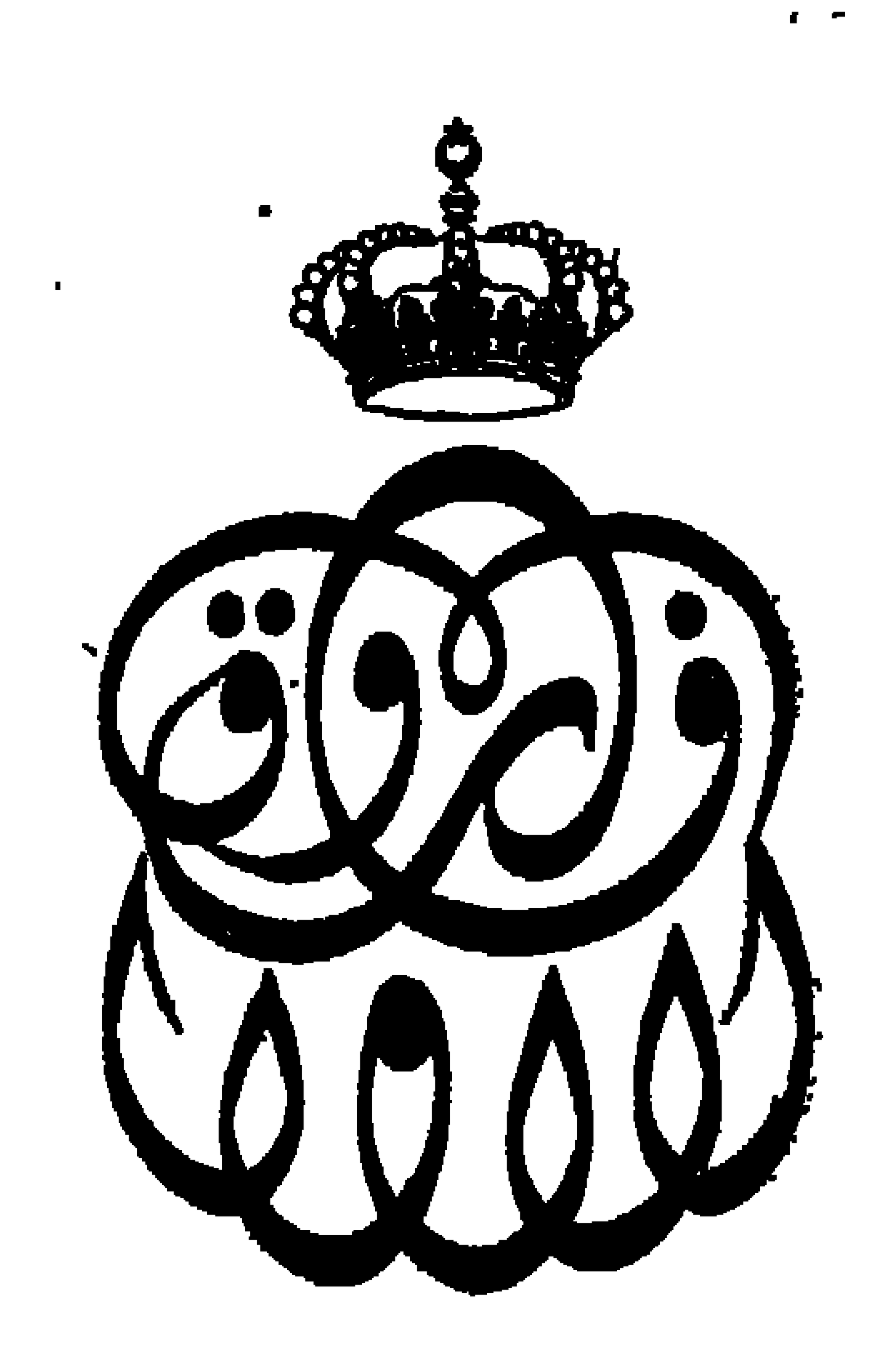








بقلم

أحمد رفيق

الجزء الأول

من المقدمة



صاحب الجلالة فاروق الأول ملك مصر



صاحبـــة الجلالة ملـكة مصر

لم يطبع من هذا الكتاب غير نسخة واحدة على ورق مصقول صقلا خاصاً لترفع لحضرة صاحب الجلالة الملك حفظه الله وأبقاه . وأمده بحوله وطوله، وعلى القلوب ولاه ، وهى رقم واحد، وأما باقي ما طبع على هذا الورق فأرقامه مسلسلة من ٢ الي ٢٥١ ، وأعدت للاهداء للكبراء والعظماء والمكتبات العامة ، وجميع ما طبع خارج عن النطاق التجاري .

حضرة صاحب الجلالة فاروق الاول ملك مصر

مولاى !

فى العشرين من ينـاير سنة ١٩٣٨ ، فى هـذا اليوم الذى تنعقد فيه أشعة الشمس تاجا على مفرق هذا العصر ، وتنطبع ساعاته غرراً فى صفحة الدهر ، تسطر يد الله فى سجل القدرة ، بمداد اليمن والبركة ، عقد قرانـكم على سر العنصر الـكريم . ومعدن الشرف الصميم ، سليلة المجد ينطق بأوصافها ، والشرف الرفيع يفصح عن أسلافها ، من اخترتموها جلالتـكم زينة حياتـكم ، وحلية وجودكم ، دونها زينة السماوات بالـكواكب ، وحليتها بالنجوم الثواقب ، جعل نورها منذ الخطبة الملـكية ينساب ذائبـاً طرز به الواشى الأعظم حواشى الـكون إيذانا بالفرح بهذا اليوم السعيد فى الأيام ، كمليكنا فى ملوك الأنام .

واستعداداً للاحتفال بهذا اليوم الذى يبز برواثه محاسن الدهور المشهورة، ويتعالى بفضله على أفضال الأزمنة المذكورة ، يهيء الشعب المواكب ، ملتحمة تتدافع بالمناكب ، وترتل أناشيد شمائلـكم ، كنسيم الأسحار ، يجرى على صفحات الأنوار ، وتوقع على أوتار القـلوب قصيد سجاياكم ، جمعت المروءة أطرافها وحرست الحرية أكنافها ، وتغنى لحن السعادة تطل من علياء السماء ، وظلها المديد يغشى ملـككم ، ورواؤها البديع يكسو عرشكم ، بينما هذا الشعب الوفى يهتز لزفافـكم طربا ، ويتيه بمناقبكم عجباً ، ويمشى خاشعاً وأفكاره سارحة فى تدبر طهارة معدنـكم ، ثملة من انتهال عذب ديموقراطيتكم أنتم يامن تعمدت القدرة الألهية أن تـكونـكم فى صباحة ، أنقى من الوضاحة ، وتصطنعكم زهرة

فيحاء، شذاها أزكى من الطيب، وحفيفها أرق وأشجى من حفيف ورق الغصن الرطيب. وجمالها أبهى وأشهى من النغم، وألذ وأحلى من التوقيع المنسجم، لتُجَمّل العبقرية بكم فيزكو جوها بعطركم وتثمر خير الثمرات.

مولاى!

إن الشعب المصرى الوفى ليحيّ فى هذا اليوم المبارك زينة العبقرية، ويهتف من الأعماق ضارعاً إلى الحق جل وعلا أن يطيل بقاء مولانا ما عرف النسل والولد، ويسأله أن يديمه ما بقى الأبد، وأن يصل هذا الاتصال الحميد، والعقد الفريد، بأكمل المواهب، ويقرنه بأحمد العواقب، وينبته نجباء الأولاد، فى وفور من الأعداد، ويؤيدكم بالرأى الصائب تستخلصون به من صدور الأمور، أعجاز ما فى الصدور، ويمتعكم بهمتكم تعزل السماك الاعزل سمواً، وتجر ذيلها على المجرة علوا، وتحفظكم فى مستوى تذليل الخطوب إذا صعرت خدودها، ووفرت أجنادها، وكثرت أعوانها، حتى تملكوا ما طلعت الشمس عليه، وانتهى النور اليه.

مولاى!

لقد جعل الشعب يتبارى فى حلبة الاستعداد لرفع هداياه للسدة الملكية بمناسبة هذا اليوم الذى ارتقبوا سعوده، وتحفزوا لاجتلاء وروده، أما أنا فدفعت عقلى وقلبى، دمى ونفسى، حياتى ووجودى، إلى المباراة فى هذه السبيل، فكانت نتيجة هذه المباراة ذائباً من أعز ما أملك: اصطنعت منه إطاراً للصورة الصحيحة التى رأيتها ورآها معى الشعب المصرى فى شخص جلالتكم المحبوب.

فاسمحوا لى يا صاحب الجلالة أن أرفع إلى عتباتكم كتابى «فاروق الاول» هدية بمناسبة هذا اليوم المذكور، مع تهانىّ الخالصة بما أوليتم، وشكرى لله على ما أعطيتم، راجيا أن تتنازلوا وتتفضلوا بأيلائى شرف قبوله

يعيش الملك! تعيش مصر!

يناير سنة ١٩٣٨ من خادمكم المخلص المطيع

احمد وفيق

مقدمة

يعلو شجرة البلوط الصغيرة قشرة ناعمة يجرى من تحتها عصير حار ينبىء باقبال عبقرية القوة و السيادة والحنان.

فجذعها يتغلغل فى بطن الأرض لامتصاص الغذاء الصالح للدوام والبقاء. والساق النحيلة تنمو وتربو تأهبا لمصارعة الأهواء، وكبح جماح الاعاصير وإخضاع الزعازع، والوقوف قوية للزلازل لا تتزعزع، وأمام عدوان لزمان لا تروع، ولا تتوجع.

والفروع تمتد وتهتز و تورق لتعانق السماء، و تلوذ بها شعوب الأجواء، وتلقى على الأرض ظلالها الوارفة يتفيؤها الأنسان.

فهى اذن دنيا تقبل بخيرها ونعيمها وحنوها.

فهناك فى القمم العالية آلاف الطيور والعصافير تأوى الى موئلها تشدو وتصدح، وملاك الحب يرفرف بجناحيه عليها، والأمن يكتنفها، والصفاء يستشرفها، والدفء لا يشوبه إلا أن يكون نديا وَكِفا، تتساقط من جوانبه دموع الرحمة ذرفتها عيون السماء

ومن حول الأقدام نبتت الأعشاب الحلوة، اختفت بينها البنفسجة العطرة، ولاحت زرابى انبثت من الورد والريحان، اقتعدها الأخلاص والوفاء، فلا تسمع إلا أحاديث الحب ومناجاة القلوب.

وهكذا يشب صاحب الجلالة فاروق الأول دنيا تكونت مزاجا من الحنو العائلى وكرم الطبع وجلال الملك.

فهذه الصورة الجذابة الحلوة التى كفل لها الدستور الصون والقداسة

وضمن لها الشعب الحب والولاء والوفاء والاخلاص ، حتى انطبع النص الدستورى على القلوب ، وجرى مع الدم فى العروق ، فتملك المشاعر واقتاد الحياة القومية ، وأصبح الرمز الصادق للأمة بسيادتها — هى الصورة التى ألهمتنى هذا الكتاب .

فكتاب « فاروق الاول » ليس مجرد دراسة تاريخية ، وإنما هى دراسة تاريخية علمية تحليلية استقرائية ، تتناول أصول السلف وأهم ظاهرات الحياة المصرية الداخلية والخارجية ونتائجها النفسية فى الفاروق ، كما تتناول أثر البيئة التى عاش فيها جلالته .

يخضع الانسان فى تكوينه لعاملين :

(١) عامل الجنس الماثل فى قانون التوارث بشقيه الخاص والعام

(٢) وعامل البيئة أو قانونها

فاذا أهمل المؤرخ الاعتماد على واحد من هذين القانونين وهو يحكم على رجل من رجال التاريخ ، أو يستخلص من الوقائع صورة هذا الرجل ، كان حكمه فاسداً وصورته مشوهة ، ولذلك كان حقيقاً بنا أن نبين بعض قواعد أولية لهذين القانونين حتى نلم بأطرافهما قبل أن نخوض موضوعنا .

قانون التوارث

التوارث قانون « بيولوجى » يقضى على السلالة بأن تكون تكراراً للكائنات الحية التى انحدرت منها ، فشأن هذا القانون للنوع هو إذن كشأن الشخصية للفرد .

فبالتوارث ، أو بتكرار الكائنات الحية ، يعيش فى أعماقنا جوهر لا يتأثر ولا يتغير مهما تعددت التقلبات ، وبه تستمر الطبيعة فى التوالد لاخراج ذاتها وتقليد نفسها على توالى الأزمان .

هذا شأن قانون التوارث من الناحية الجسدية ، أما من الناحية الروحية فانه يقضى بأن ينتج الأصل شبيها به ، ولكن هذا الرأى نظرى إلى حدما ، لأن ظاهرات الحياة لاتخضع لنظام حسابى دقيق ، ولأن هذه الظاهرات تزداد تعقيداً إذا ماانتقلت بها من عالم الحياة النباتية إلى عالم الحياة الحيوانية أو الانسانية .

ولكن مهما كانت الصعوبة فى تقدير التشابه فان مرد تقدير الانسان إلى ناحيتين ، وهما ناحية التكوين ، أى جهة الوظائف التى تترتب عليها حياة الانسان الجسدية ، وناحية المحرك أى جهة الأعمال التى تتألف منها حياته الفكرية وحياته النفسية .

فهل هاتان الصورتان اللتان تتشكل فيهما الحياة الانسانية خاضعتان لقانون التوارث ؟ وإذا كان الأمر كذلك فالى أى حد تخضع الناحية الجسدية والناحية الفكرية والنفسية من هذا القانون ؟

لقد درس العلماء هذا الموضوع من الناحية الجسدية درساً عميقا ، وقام الاجماع على أن التوارث الجسدى يشمل انتقال عناصر الجسم المكتسبة ووظائفه سواء أكان من ناحية تكوينه الداخلى أم الخارجى ومميزاته وتغييراته المكتسبة دون العارضة .

أما من الناحية الفكرية والنفسية فان هؤلاء العلماء لم يستطيعوا أن يسبروا غورها حتى الآن ، وكل ماوصلوا إليه هو بعض ملاحظات جاءت نتيجة مشاهدات وتجارب .

ولكن ليس فى الوسع أن يحكم الانسان على إنسان، إلا إذا عرف أولا وقبل كل شىء هل موضع الحكم رجل سياسى أوعادى ؟ لأنه إذا كان من الجائز أن نلجأ إلى الطريقة التحليلية فى بيان أثر التوارث فى نفس الفرد العادى فان من

المستحيل تطبيق هذه الوسيلة على الرجل السياسى فى صورة مطلقة. لأن مثل هذا الرجل لا يعمل فى أية لحظة إلا بقوة جميع مواهبه حتى ينتج عملا معينا، ومعنى هذا ان جميع مواهب الرجل السياسى تعمل لزاما فى وقت واحـــد لتخرج أى عمل ترغب فى القيام به، اذ لا قيمة لأى مجهود من مجهوداته المنفردة إلا اذا عاون فى الثمرة النهائية لكده وتعبه، واذن فالغرض الذى يدركه السياسى من وراء جده هو إنتاج يترتب على وسائطه المشتركة

إن المفكر أو العالم يستطيع ان يعيش بمعزل عن العالم ليسبح فى أرقى طبقات التفكير وأسماها، دون ان يحس شيئا مما يدور حوله أو يؤدى تفكيره إلى إنتاج أى شيء، والفنان فى وسعه ان ينعم بأجمل الأحلام وهو بعيد عن المجتمع، وفى مقدوره أن يلتذ بأبهى خيال دون أن يتأثر بالوجود المحسوس، أما الرجل السياسى فلا مناص من ان يتوافر فيه الذكاء القادر على استيعاب الخاص والعام، وإدراك الحقيقة والمجاز فى وقت واحد، وإلا فان عجزه عن التعميم يجعله قصير النظر لانحصار عمله فى التقليد والعادة

وليس فى مقدور السياسى أن يحتذى العالم والفنان والمفكر بوجه عام فيكتفى بما يصل اليه أيهم من النتائج العامة التى يستخلصها من أبحاثه، لأن طبيعة مهمة السياسى تقتضى حتما أن يفصل فى أية مسألة خاصة معينة، الامر الذى لا مناص معه من أن يلم بالجزء والكل وأن تؤدى أفكاره إلى أعمال ونتائج على نقيض النظرى المضارب، ولكن من الواجب عليه فى الوقت نفسه أن يتخذ من النظريات وسيلة لتحقيق العمل الذى جعله غاية له، وهذا مالا يدركه إلا إذا كانت إرادته حديدية تعمل فى ثبات ودأب وتمتاز بالأقدام والشجاعة والثقة بالذات والقدرة على التأثير فى المستضعفين والمترددين والعاجزين

فالخصائص التى يجب ان تجتمع فى الرجل السياسى لتعمل فى وقت واحد وفى السرعة والطمأنينة والثقة التى تتطلبها لحظة من اللحظات، سواء لحظات

الهدوء أو الخطر ، هى اذن موهبة الملاحظة التفصيلية السريعة البعيدة الغور ، وحضور الذاكرة الأمينة التى تعرض نتائج النظريات فورا على السياسى ، وتعرضها فى دقة وفى غير تردد ، وسرعة الخاطر التى لا تؤنسها الظروف المباغتة ولا توهنها قوة الحوادث ، والارادة الصلبه ، والقوة الجسمانية التى هى أساس كل عمل من الأعمال.

ولقد دلل التاريخ على ان جميع الصفات الروحية تنتقل كلها أو بعضها بالتوارث ، وإذا قلنا بعضها فما ذلك إلا لأنه قد يحصل ان الوحدة الأصليه تتكسر عند انتقالها الى الخلف فلا ينال منها غير شطر بسيط.

ومع ذلك فمن الواجب عند ماندرس التوارث فى التاريخ ان نلحظ أثر مجد الآباء والأجداد وعلاقات النسب والسلطان المكتسب ، فان كل ذلك له نفوذه إلى حد بعيد وقد يكون نفوذه كل شىء فى بعض الاحيان، وإذا أردت دليلا على صحة ماتقدم فراجع تاريخ النبلاء فى انجلترا وفرنسا وتاريخ كافور وبسمرك . . . إلخ . .

النتائج النفسية لقانون التوارث

إن أول مايتبادر الى ذهن الانسان عند دراسة النتائج النفسية لقانون التوارث ، هو التساؤل عما إذا كانت جميع الأشكال التى يتشكل فيها النشاط الروحى تنتقل بالتوارث فى درجة واحدة، أم أن فى الوسع ترتيبها وفاق قوة انتقالها وضعفه. ولذلك نرى اجتنابا للافاضة فى شرح النظريات العـــديدة المعقدة ان نقول ان جميع أشكال النشاط الروحى تنتقل طبقا للترتيب الآتى:

(١) ينتقل جزء عظيم من الغرائز التى يتألف منها مجموع الحياة النفسية ولقد اختلف العلماء فى تعريف الغريزة ولكن هناك تعاريف ثلاثة تواضع

الفلاسفة والطبيعيون على أنها أدق التعاريف .

فأولها يقول : إن الغريزة عمل يقرب من أن يكون آليا لا دخل للارادة فيه ، ومن الراجح أنه خلو من التمييز ، وتقوم به الحيوانات قصداً إلى الوصول إلى غرض معين باستخدام جسمها وأخلاقها .

ويقول التعريف الثانى ، إن الغريزة مرادف للرغبة والميل والنزعة ولهذا يتكلمون عن غريزة الخير والشر وغريزة السرقة والقتل — الخ ،

أما التعريف الثالث : فانه يفهم الغريزة على أنها اسم يشتمل على جميع الاحداث الروحية التى تقع فى داخلية الحيوان ، بما فيها أشكال النشاط الفكرى التى انحطت عن صورة نشاط العقل الانسانى ، وهذا راجع إلى الزعم بأن الحيوان يتمتع بحاسة الذكاء .

على أنه قد يكون هناك تعاريف أدق من تلك، فقد قال هارتمان «ان الغريزة عمل يتفق وغرض ، وانما دون بيان هذا الغرض» وقال «دورين» : «إنها العمل الذى لا نستطيع إتمامه الا بتعاون العادات مع مؤثر خارجى فى المجموعة العصبية ولا دخل لارادتنا فيه »

والغريزة إما مركبة أو بسيطة . فالمركبة هى مجموعة غرائز بسيطة، والبسيطة هى إحدى العادات . .

أما الفارق بين الغريزة والذكاء فيمكن تلخيصه فيما يلى

(ا) الغريزة طبيعة ، أى أنها خلقت فى الانسان قبل أى اختيار ذاتى ، أما الذكاء فينمو فى بطء وبالجمع بين التجارب وتكديسها .

(ب) تبلغ الغريزة حد الكمال بوجه عام عند الخلقة ، أما الذكاء فانه يتحسس ويجرب ، ويفوت عليه الغرض ، ويسقط فى الخطأ ، ثم ينهض باصلاح

(ج) الغريزة تعمل فى اطمئنان آلى ، ومن هنا يكون انعدام التمييز ، فهى إذن لا تعرف الغرض الذى ترمى اليه ، ولا الوسائل التى تستخدمها فى الوصول إلى أغراضها ، مع أن كل شىء يلوح أنه مقود بالفكرة ولا شية من الفكرة فيه ، كذلك هى تلوح كأنها لا تتطور ولا تتقدم ولا تتأخر ولا تتبدل ولا تنعدم . على عكس الذكاء فانه ينمو ويضمر ، ويكسب ويخسر . وينقص ويتكامل .

(د) إذا كانت خاصية بقاء الغريزة ليست مطلقة فان تبديلها يقع على الاقل داخل نطاق ضيق حتى ليمكن أن يقال إن بقاءها هو القاعدة وأما التغيير والتبديل فيها فهو الاستثناء ، بعكس الذكاء فقاعدته التغيير والتبديل .

ومن ذلك نستخلص أن الغريزة ليست أداة فى مرونة العقل ، فهى لا تستطيع إذن أن تتلاءم مع الأوساط والظروف ، ولا أن تلابسها كالعقل الذى يلين ويتغير فى آلاف من الطرائق . ولكن التجاريب قد دللت على أن الغريزة مرنة لحدما ، عندما تؤثر فيها مؤثرات ذات بأس وسلطان ثابت . وهناك سببان هامان يحدثان هذا التغيير وهما البيئة والعادة . فالجو والأرض والغذاء والأخطار القاسية المحيطة هى المؤثرات التى تخضع لها طبيعة الأنسان وتتمكن من تغيير غرائزه . وهذه التغييرات أو الغرائز المكتسبة تمر فى النفس وتنتقل بالوراثة (راجع التوارث النفسى لتيوفيل ريبو ص ٢٥ وما بعدها ومشكلة الحياة لبوردو)

ومن أهم العوامل المؤثرة فى الأنسان، تلك التى تحدث تفاعلها خلال الحمل حتى الوضع ، ذلك بأن الجنين يتكون على استعداد روحى للخضوع للحالة المؤقتة أو الدائمة التى يكون عليها الأب والأم ساعة الأنشاء . فما بال خضوعه للغرائز المكتسبة !

ان الغضب والسورة أشد فى تأثيرهما من انفعلات أحوال السكر التى أجمع

العلماء على أنها تؤثر تأثيراً شديدا فى الجنين . « راجع لوكاس جزء ٢ ص ٥٠٤ » .

أما أثر الثورة للحق والعدل والقانون أو للعظمة والمجد، فى التوارث، فاننا نستطيع أن نستخلصه من كلمة عن أبناء الثورة الفرنسية الذين حاربوا فى صفوف جيوش نابليون وهى كلمة ننقلها عن الفصل الثانى من اعترافات الفريد ده موسيه » واذا كان قد أرسلها أحد فحول الشعراء فانها كلمة لا جدال فى صحتها من الناحية العلمية . قال :

أبناء الثورة الفرنسية

« وضع الأمهات الفرنسيات جيلا قوى المراس ، نحيلا عصبيا ، بينما كان الآباء والأخوة يحاربون مع الامبراطور فى المانيا . ولقد حملت الامهات هذا الجيل خلال معركتين ، فتربى فى المدارس على نغمات الطنبور ، ونقر الطبول ، آلاف مؤلفة من الأطفال ، كانوا يرقبون بعضهم البعض بنظرات جملها الحزن ورصعتها الكآبة وهم يحاولون فتل عضلاتهم الضئيلة . أما آباؤهم فكانوا يظهرون بغتة ليرفعوا أبناءهم إلى صدورهم وقد وشحها الذهب ، وسطعت الأوسمة من فوقها ، ويضموهم بين أذرعهم، ويضعوهم فى حنو وشفقة داخل مهادهم ، ثم يمتطون صهوات جيادهم ، مولين وجوههم شطر الميدان .

« كان رجل واحد يعيش فى أوروبا وقتئذ ، أما باقى الخلائق فكانوا يبذلون قصارى الجهد فى سبيل امتلاء رئتيهم بما استنشقه ذلك الرجل ثم تنفسه . ولقد كانت فرنسا فى كل عام تهديه ثلثمائة ألف شاب . ولعمرك إن هذا العدد كان الجزية التى تدفع لقيصر . وإذا لم يتسن له الحصول على هذا القطيع

عجز عن اقتفاء أثر حظه ، بل إن هذا القطيع كان الحرس الضروري له حتى يتمكن من اجتياز أوروبا .

« لم يمر بفرنسا في أي وقت سابق ليالي تأرقت فيها الجفون كليالي هذا الرجل ، وما انقضت عليها أيام أطل فيها على العالم شعب من الأيامى والثكالى، وهن واقفات خلف رُبى القلاع والحصون ، كأيام ذلك العاهل ، ولم يسد فرنسا صمت كذلك الذي أطبق على هؤلاء الذين كانوا يتحدثون عن الموت إبان حكمه . ومع ذلك فالقلوب كانت مفعمة بالفرح ، فياضة بالحياة ، مليئة بدقات طبول الحرب . أما العيون فانها لم تعهد شمساً أظهر وأنقى من تلك التي جففت كل هذه الدماء . حتى لقد قيل إن المولى قد خلق هذه الشمس خصيصا لهذا الرجل . فلقبها الناس بشموسه في معركة « استرليتز » . ولكن الواقع هو أن نابليون خلق تلك الشموس بمدافعه الدائبة على الانطلاق والتدوية ، حتى أن السحب لم تكن بمستطيعة أن تتجمع الا في الأيام التالية لمعاركه .

« فهذا الهواء الذي تشبعت به تلك السماوات النقية التي بزغ في كبدها المجد الساطع ، وتلألأ فيها الحديد اللامع ، هو الهواء الذي استنشقه أطفال ذلك العهد الذين أيقنوا أنهم أعدوا ليكونوا قرابين في مذبحة الأمم ، فجعلهم يعتقدون أن الجنرال « مورا » معصوم من العطب ، منيع لا تناله قذيفة ، بعيد لا تدركه رصاصة . وإذا ما رأوا الامبراطور يمر على القنطرة والرصاص من حوله يتهاطل في صفير وتدوية ، قدروا له الخلود في عالم الأحياء ، بل بلغت بهم عقيدة نكران الذات ، أن فرضوا الموت لزاما في المعارك الدموية ، ذلك بأن الموت كان في ذلك الحين حلوا مستعذبا جميلا رائعا في ثوبه القرمزي الساخن !

ولا يلوح أمامهم الا كالأمل سواء بسواء . فاذا هو حصد السنابل الصغرى التى لما تبلغ سن الشباب ، فما ذلك إلا لأنهم قد بلغوا حقا سن الشيخوخة فى نظر الموت الذى لا يخطىء فى تقدير اعمار الرجال الذين أدركوا هذه السن فالشاب كهل إذا مات فى الميدان . ولذلك كانت جميع المهاد الفرنسية دروعا ، وجميع النعوش تروسا . حتى انك ما كنت تعثر فى فرنسا على شيخ ، فاما جثث هامدة وإما أنصاف آلهة »

وبعد أن سقط نابليون ، جلس على انقاض العالم شبيبة حزينة مفكرة . فجميع هؤلاء الأطفال كانوا نقطاً من دماء متقدة محرقة، طفت على وجه الأرض ، إنهم ولدوا فى الحرب وللحرب ، فمر بأحلامهم خلال خمسة عشر عاما صور ثلوج موسكو ، وشمس الأهرام . وإذا كانوا لم يبارحوا مدنهم . فقد ألقى إلى روعهم أن كل حلقة من حلقات الدفاع عن هذه المدن، تؤدى إلى عاصمة من عواصم أوروبا ، فارتسم فى أدمغتهم عوالم متعددة ، ولكنهم كانوا ينظرون إلى البطحاء ، ويرفعون رؤوسهم إلى السماء ، ويديرونها فى الطرق والمنعطفات فلا يجدون إلا فراغا .

وساد السكون ، ولكنهم مع ذلك قد رأوا رجلا يصعد المنبر ، وبيده عقد أبرم بين الملك والشعب ، فأحاطوا به فى صمت ، وأخذ هذا الرجل يقول « إن المجد شىء جميل ، وكذلك الطمع فى الحرب ، ولكن هناك ما هو أجمل ! هناك ما نسميه الحرية . »

« رفع الاطفال هاماتهم ، وذكروا أجدادهم الذين تكلموا عن الحرية، فكان فى هذه الكلمة ما خفقت له قلوبهم كما تخفق للآمال الحلوة ، أو ما هو أبعد منها وأخذتهم هزة عنيفة عند سماع هذه الكلمة . ولكنهم شاهدوا فى الطريق أثناء عودتهم ثلاث سلات بها ثلاثة صبية ؛ اقتادوهم فى هذا الشكل إلى « كلامار » وكل جريرتهم أنهم نطقوا بهذه الكلمة فى صوت جهورى ؛ فعلت شفاه الأطفال ابتسامة

غجيبة أمام هذا المنظر المحزن .

ولكن خطباء آخرين صعدوا المنبر ، وعددوا علنا نتائج المطامع ونادوا بأن المجد غالى الثمن ، وأبانوا فظائع الحرب ، واستمروا طويلا يندودون بالأوهام الانسانية التى كانت تتساقط من حولهم تساقط أوراق الشجر فى الخريف ، والجميع يصغون ويفركون جباههم بأيديهم وكأن حمى شديدة أيقظتهم .

وقصارى القول إنهم ترقبوا الظرف المناسب للانفجار . وكان ذلك عندما اجتازت أفكار « بيرون » وآراء « جيته » حدود فرنسا ، « ذلك بأن صوغ أفكار عامة ما هو إلا تحويل ملح البارود إلى بارود ، ولقد امتص العقل الساخر اللاذع ، الذى تجلى به « جيته » العظيم ، عصير الفاكهة المحرمة كما يمتص الأمبيق روح الأزهار ، حتى خيل لمن لم يقرأه أنه جهل كل شىء . وحملت الفرقعة عباد الله البؤساء على أجنحتها إلى هاوية الشك العام ، كما تحمل الرياح الأتربة

مواهب الملاحظة

إن مواهب الملاحظة بالحواس الخمس تنتقل بالتوارث وتتسلسل مع مختلف صور النشاط المرتبطة بها ارتباطاً مباشراً

العواطف

أما العواطف فإنها تنتقل فى قوة إذا كانت بسيطة ، أى خاضعة للجسم وتنتقل فى ضعف إذا كانت مركبة ، أى لها ارتباط بالروح . أما إذا كانت خاضعة لتكوينها الجسدى والعقلى معا ، أى إذا تألف منها ما يسمى بالخلق ، فان انتقالها يكون وسطا بين هذا وذاك .

وتتجلى نتيجة وراثة العواطف فى شكل مزدوج ، فتارة تجعل من الممكن إنتاج عواطف مركبة عن طريق تكديس العواطف البسيطة ، وتارة أخرى تجنح

الى الماضى وتحن اليه فتكشف عن جوهره بدافع عداء الوسط المحيط. ذلك لأن فى النفس غرائز وحشية ، وميولا رحالة ، ورغبات دموية جامحة، لا يقرها الزمن ولا يخضعها ، وقد اختفت فى قرارة كياننا حية ، ولكن مغمضة الطرف ، وعلى أهبة التجلى دائما .

فى الذكاء

ينتقل الذكاء الفطرى بالوراثة . ولكنه كلما نما بالاكتساب ازداد انتقاله بالتوارث صعوبة . إلا أنه ينتقل على أية حال الى حدما ، ويجدر بنا هنا أن نلاحظ أن عمل الذكاء دائما ما يتغلب على عمل الغريزة ، وهذا أثر من آثار المقاصة . فكل عضو تزداد قوته ، تؤدى هذه الزيادة الى إضعاف قوة عضو آخر .

وفى هذه الحالة ترى التوارث يقوم بمهمتين : فبالنسبة للذكاء تراه عاملا على الاحتفاظ بما يكسبه كل جيل من الاجيال ويكدسه ليكون هذا الكسب وسيلة لمكاسب أخرى أوسع نطاقا كالربح المركب يزداد رأس ماله فيزداد ربحه على التوالى . أما بالنسبة للغريزة فان التوارث يعمل على استمالتها الى الضعف ويضمن استمرار توافر هذا الضعف على توالى الأزمان . وبما أن قانون التوارث يجعل استرداد ما تفقده الغريزة متعذرا ، فانه يمهد لحظ جديد من خسارتها وضعفها ، وإذن فقانون التوارث يؤدى بحركة واحدة الى نتائج متعارضة .

العادات

ولقد اختلف العلماء بلقاء انتقال العادات بالتوارث ، ولكن المشاهد أنها

تنتقل بالتوارث ، وأن العادات تكون فى النهاية قوانين ونظما واخلاقا تتحكم فى الأنسان وفى الجماعة .

الذاكرة

وكذلك الذاكرة فانها تنتقل رغم اختلاف العلماء فى ذلك . لأن التجاريب دلت على انتقالها ، وإذا كانت لاتنتقل بالوراثة الا أنها تنتقل على أية حال ، وإذا اختفت فى ابن فقد تظهر فى حفيد .

قانون « الملابسة »

وإذاكان لانزاع فى تأثر الجنين بغرائز الوالدين فان هناك من العوامل ماله من السلطان القوى المعرقل لقانون التوارث بعد الوضع . وقد حاول «هيكيل» أن يرتب هذه المؤثرات تحت عنوان عام هو «قانون الملابسة » ورد هذه العوامل إلى الغذاء والهضم بأوسع المعانى « راجع تاريخ الحلقة الطبيعية لهيكل جزء ٩ » . ويكفى هنا أن نقول إننا دائما مانشهد مصرع الحرية والاختيار فى صورة أبشع مما يمكن تصورها عندما ننظر إلى هذا النضال المستمر فى أعماقنا بين الأخلاق الفردية والأخلاق النوعية، أى بين الشخصية والتوارث. ولكن الناس قد أبوا التسليم بذلك ونسوا أن للوراثة سلطانا على تكويننا وأخلاقنا أقوى من نفوذ المؤثرات الخارجية ، مادية كانت أو أدبية ، ولمن ينسون ذلك كل الحق إذ لم يعتمدوا على التجاريب ولم يعرفوها .

قانون البيئة

وأثره فى التوارث الخاص

لقد عنى أخيرا علماء الطبيعة والنفس والأجناس والتاريخ ، بنفوذ الوسط

الطبيعى، وأبانوا كيف يؤثر الجو والهواء والأرض والماء والنظام الغذائى وطبيعة الأطعمة والأشربة وكل ماهو طبيعى ، فى جسم الانسان ، وكيف لا تصل الاحساسات الصماء إلى مواطن الضمير وإنما تدخل بلا انقطاع فى الجسد لتعمل بمعاونة النمو على تكوين مايسمى بالطبع والخلق ولا حاجة بنا إلى شرح ذلك فله كتبه الخاصة .

أما نفوذ التربية فمثله كمثل سلطان الطبيعة. لأن التربية ماهى إلا وسط أدبى ينتهى إلى أن يخلق فى الانسان عادة ، بل عادات . ذلك أن معنى التربية الصحيحة ليس فى دروس الآباء والأمهات والأساتذة فحسب، وإنما هو أيضا فى العادات والعقائد الدينية ، والمطالعات: والأحاديث العادية والمباغتة، وهى فى جملتها مجموعة من النفوذ الصامت والمؤثرات الخفية التى تعمل فى العقل كما تعمل المرئيات فى الجسم فتؤدى بصمتها الى تربيتنا، أى إلى اكتساب عادات .

على ان الواجب يقضى بأن لا نعتبر التربية من العوامل الانشائية المطلقة وأن نحلها مكانها المشروع فى عالم الابداع والخلق مع تغليب التوارث عليها ، ذلك بأن وجود التوارث سابق على وجود التربية . وتاريخ حياة أغلب العظماء شاهد على ذلك كما أن حياة المفكرين والفنانين والمخترعين تدل على أن التربية ضئيلة القيمة إذا قيس أثرها بأثر التوارث ، فاذا قيل إن سلطان التربية كان مطلقا وحاسما فى بعض الطبائع كان هذا القول حقا ، ولكنه لا يكون كذلك فى المجموع .

فالتربية وسيلة صناعية فى مبدئها، تخلق فينا طبيعة ثانية تلوح فى نظرنا أنها جبت الجوهر، ولكنها لا تصل الى هذه القوة فى أغلب الأحيان.فكم من رجال تحلوا بهذه التربية ولكنها لم تهدم غرائزهم ! فهى إذن ليست إلا دهانا لماعاً ينهار فتيتا عند أول صدمة، لتظهر الطبيعة الأصلية بنهمها ووحشيتها،أو فضائلها وقناعتها.

ولقد يدهش الانسان فى بعض الأحيان عندما يرى أن شعوبا بلغت شأواً بعيدا

من المدنية والوداعة والإنسانية وحب الخير إبان سيادة السلام، لا تلبث أن تنقلب عقب إعلان الحرب، أو عند اصطدام مطامعها بحقوق الضعفاء، وحوشا كاشرة تهبط إلى أحط دركات القسوة والوحشية، ولكنه إذا ما فكر مليا علم أن الحرب ماهي إلا عود لمبدء الخليقه، وسيادة الهمجية والوحشية، وما وظيفة هذه الحالة إلا أن تبعث إلى الحياة تلك الطبيعة البشرية المتلائمة معها، والسابقة على أي ثقافة، وتخرجها من مكمنها في حماستها وبطولتها وعبادتها للقوة والمطامع الأشعبية، ولذلك قد حق قول كارليل «ليست المدنية إلا غلافا يستر طبيعة الإنسان الوحشية وهي تحترق بنار جهنمية»

فاذا كان لزاما علينا ألا ننسى كل ذلك فمن الواجب في الوقت نفسه أن نعلم أن التربية وإن لم تكن كل شيء، إلا أنها قطعت بالعالم أشواطا بعيدة في المدنية والرقي، حتى وصلت بنا إلى ما نحن عليه من رفاهة وترف، فهي لذلك عامل لا يستهان به، وفي وسعها أن تخمد أنفاس الغرائز إلى حين.

هذه أهم القواعد التي نسترشد بها في رسم الصورة الصحيحة لحضرة صاحب الجلالة الملك.

وإذن يجب ان يتناول هذا الكتاب الكلام عن كل أصل من أصول الفاروق من ناحية الجنس وناحية البيئة وناحية الأعمال في إيجاز يتناسب والظرف الحالي، حتى ننتقل من هذا الكلام التاريخي العلمي إلى الفاروق ذاته، فنتناول نشأة جلالته، وبيئته، وسجاياه، وفعاله، وأمل البلاد فيه.

فالكتاب إذن من جزئين، الجزء من بابين ويتناول فصولا حسب الترتيب الآتي -

الباب الأول — اصول الفاروق

الفصل الأول - محمد علي

الفصل الثاني - ابراهيم

الفصل الثالث ـ اسماعيل

الباب الثانى ـــ حلقة الاتصال بين عهدين

الفصل الأول ـ عرض

الفصل الثانى ـ فؤاد الأول

الجزء الثانى ـــ فاروق الأول

ويتناول بابا واحداً يشمل الفصول الآتية :

الفصل الأول ـ نشأته وولايته العهد

الفصل الثانى ـ فاروق الملك

الفصل الثالث ـ مناقبه وفضائله

الفصل الرابع ـ أمل الأمة فيه

فمن هذين الجزئين اللذين جاءا فى الواقع مقدمة لتاريخ حكم حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول الذى سنخرجه بأذن الله ـ نرى النور ينفذ وينساب خلال الظلام ، ليشق سبيل الهدى والسلام ، فهنيئاً لمن استخلص منهما العظة والاعتبار ، وثاب إلى رشده بعد طهر واستعبار ؟

الباب الاول

أصول صاحب الجلالة الفاروق

الفصل الاول

محمـــــــد على

الجنس

كان الشرق خزانا تفيض سيوله الانسانية على جميع بقاع العالم ، وإذا أنت استوضحت التاريخ أصول جميع الأمم ، أجابك فى غير تردد : إنها جميعاً دخيلة فى بلادها ، نزحت من الشرق واستوطنت الغرب ، وتكونت فى بداية الأمر قبائل فشعوباً ، ثم جعلت وحدتها تتألف رويداً رويداً كلما ذاعت المدنيـة وانتشر الرقى . فها هى ذى مصر وانجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا - واسبانيا ودول أوروبا الشمالية والولايات المتحدة كلها شعوب نزحت فى بادىء الأمر من آسيا إلى أوروبا ، ثم من هناك إلى أمريكا .

أما الملوك الذين سادوا الدول وحكموها منفردين، أو مع شعوبها متعاونين متضامنين، فان الكثير منهم لم يكن لهم بهذه الدول صلة ، وانما استدعتهم أو اختارتهم ليكونوا ملوكها ، أو هيأت المقادير لهم سبل اعتلاء العروش لحاجات وضرورات قومية . ومن هؤلاء الشخصيات الفذة المغفور له ساكن الجنان محمد على باشا رأس الأسرة الملكية الذى اختارته مصر والياً عليها ، كما اختارت فرنسا نابليون ، وانجلترا الأسرة الملكية الحاضرة الخ

تقلد محمد على باشا ولاية الحكم المصرى بارادة زعماء الشعب ونزولا على رغبتهم فى ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ . فارادة الأمة الماثلة فى زعمائها هى التى مكنت له من القبض على ناصية السيادةالقومية . فمن انحدر هذا العاهل العظيم ؟

لقد انحدر هذا العاهل العظيم من جنس يباهى العالم بعظمائه ويفاخره بدهاته وساسته الذين كان على رأسهم « الاسكندر المقدونى و « اسكندربج » و « كريسبى ألخ »

إن جنس البيلاسيج « Belasges الذى انحدر منه الألبانى ، ملك الجبال ، الذى تأصل فيه حب الصيد والجندية ، واحتقاركل عمل يصطنع من المرء عبداً ذليلا ، أو رقيقاً خسيسا ، هو جنس لايخضع إلا لعادته ، ولا يسترشد الا بمشورة بندقيته ، ولا يستهدى الا بنصيحة سيفه ، ولاارتباط لعمله السياسى الا بطبيعته التى لاعلاقة لها الا بطبيعة بلاده . وما طبيعة بلاده الا السمو فى كل شيء .

ولقد قرر المؤرخون أن هذا الشعب العظيم يكاد يكون الشعب الأوروبى الوحيد الذى اجتاز التاريخ محتفظاً بشبهه الأصلى فهو صلب الطبيعة ، انحدر من سلالة « البيلاسج » وأقام بجباله قبل أن يكون له تاريخ ،كما انحدر الأغريق من ذلك الجنس ونزحوا جنوبا .

وجاءت قصائد « هوميروس » Homére ناطقة بأوصاف هذا الشعب ، ولايزال إلى اليوم مقيما عليها ، محتفظاً بها . « فأخيل » Achille فى شجاعته المبرقة المرعدة ذات الجلبة والصخب والتدوية ، وفى خلقه العنيد الثائر على الوجود الظالم ، هو فى نظر الغرب ، الحر الطليق من قيود العبودية والذل ، والرمز الصحيح البارز لألبانى اليوم .

وتجد الأسكندر الأكبر ألبانى المنبت ، وإذا كان هذا العاهل ، تلميذ ارسطو ، قد تكلم لغة الاغريق واختارها واسطة فى التعبير العالى عن إرادته .

فان لغته القومية الأولى كانت تعاوده وتتغلب على لغة الثقافة إذا ما ثارت ثائرته، حتى لقد قال « بلوتارخوس ، ضمن رثاء « كليتوس » Clitus ، كان الاسكندر يخرج من خيمته ساعة هياجه وثورته مبتدرا خدمه وحشمه « باللغة المقدونية » وهى لغة لايجوز أن تكون الا كما زعم العلماء ، تلك اللهجة البيلاسيجية التى لاتخرج لغة الألبانيين الحالية عن أن تكون بقاياها وأنقاضها، رغم مادخل عليها من كلمات سلافية وتركية ولاتينية ويونانية .

ولقد اكتسح الألبانيون أمبراطوريات آسيا العتيقة وهم يقتفون خطوات الأسكندر وخلفائه ، بينما كانت جبال « إيبيروس » (Epire) و « ايليريا » (Illyrie) تؤدى مهمتها التاريخية ، فقد كانت هذه الجبال بمثابة خزانات تغمر بسيول رجالها ، تلك السهول الفتية الرابية التى أحاطت بها .

وجاء بعدئذ حين من الدهر زلزل فيه الألبانيون أركان روما بقيادة (بيروس Pyrhus) ملك (أبيروس) ولكن عندما قلب الزمان لهذا الملك ظهر المجن ، وغلب على أمره واندحر ، خضع الألبانيون مكرهين لحكم روما وقاسوا ظلم استغلالها إياهم .

ولما كان هذا الجنس قد امتاز بنشاطه الفولاذى وكفايته الحربية النادرة وأهليته الغريزية لأسمى الخدمات العمومية ، إذا ماوصل اليها ، فانه قد بقى بعد جلاء الرومانيين عن بلاده كما كان يوم نشأته، محتفظاً بطبائعه وعاداته وخلقه .

وجاءت سيول الجيش السلافى زاحفة مكتسحة العوائق التى قامت فى سبيلها ، وإذا كانت هذه السيول العاتية العادية قد حاولت عبثاً أن تنخر بعض قواعد الجبال الألبانية ، وتمكنت من أن تحيط بها ، وتلتطم بسفوح صخورها حتى تسللت من بعض المنافذ إلى عدة أماكن ، فان قواها قد خارت فى النهاية وعجزت عن أن تغمر البانيا بطوفانها لتدمر قوميتها تدميرا .

ولما نشبت معركة (قوصوى Kossova) ، رأينا الألبانيين ينحازون للسلطان

مراد ، ويشدون أزره ضد العدو المشترك . ويعاونونه فى سحقه ، ولكن عند ما حاول الأتراك إخضاع الألبانيين لقوانينهم ، أسرع هؤلاء إلى ضم الصفوف حتى لا حوا أمام العدو كالبنيان المرصوص القوى الأركان ، تسلحوا بيقين الحرية ، واعتصموا بيمين الولاء للوطن وحقوقه ، وعملوا على المقاومة تحت لواء زعيم الوطنية الألبانية وقائد نهضتهم القومية (اسكندربج) الذى سما اسمه يومئذ فوق الأسماء ، وتعالى ذكره فى جميع الأنحاء ، وطبقت شهرته مختلف الأجواء ، حتى قدسه الألبانيون فى كل قرية وكوخ ، وجعلوا منه عنوانا على مقاومة الأجنبى فى إرادة لا تلفها شهوة ، وضمير لا يعميه مطمع ، وذمة لا ينتابها زيغ ، واتخذوا منه رمزاً للاستقلال والحرية وأشادوا به فى أناشيدهم وقصائدهم واغنياتهم ، يرسلونها فى يقظتهم ، ويترنمون بها فى أحلامهم ، وينشدونها فى خلوتهم واجتماعاتهم ، وفى إسرارهم واعلانهم .

ولما مات (اسكندربج) وتغلب الأتراك ، خضع الالبانيون ، ولكنهم لم يكونوا فى خضوعهم تحت رحمة الأتراك وتصرفهم ، إنما قبلوا السلطان متبوعا بحكم عقيدتهم الدينية ، وأبوه سيداً بحكم الرابطة السياسية ، قبلوه بعيدا عنهم ، صديقا يواسونه فى أحزانه ، ويشاطرونه النعيم فى هناءته ، ولكنهم رفضوه جلادا للحرية ، مبيداً للاستقلال ، مستغلا للعقول والأبدان .

ومع ذلك فان شطراً من الألبانيين كان قد أزمع الهجرة إلى إيطاليا الجنوبية وصقلية ، ولا تزال سلالتهم هناك ، ومنهم العدد الوفير الذى امتاز بخدماته السياسية الجليلة التى أدوها لايطاليا ، وعلى رأسهم (فرنسيسكو كرسبى) ذلك السياسى العظيم ، وأما من بقى فى جباله فقد نال من الخليفة امتيازات خاصه -

لم يكن الطبع الارستوقراطى الالبانى قابلا لتعود الاختلاط بالرعية العثمانية ، ولذلك بقى الالبانى محتفظا ببندقيته ، رمزا لنبالته وحريته ، وأداة القصاص والثأر ، حفيظاً مقدساً لشرفه ، ولكن رغما من ذلك فان مطالب الوجود

قد سادت حياة هذه الجبلى وحكمتها . فلكى يقوم بسد حاجاته ، كان لزاما عليه السعى فى كد وجد وراء الموارد التى نضب معينها فى بلاده، فجعل هذا النضوب يقفز من غور الأرض فاغرا فاه لابتلاع هذا الحارس الجبلى القوى البأس والسلطان . وهنا هبط هذا الرجل من أعالى الجبال إلى القرى والمدن العامرة، فلما أحس الناس دماثة خلقه ، ولين عريكته ، أقبلوا على عشرته فسهل عليه تعود مختلف أنواع الحياة فى سرعة ، ما دام فيها صالحه ومنفعته وسد حاجته ، وكشف فى أعماله عن مهارة متأصلة خارقة للعادة ، إذ دفعته إلى مواطن الرقى وتسنم ذروات الشرف واكتناز الثروة ، ولاحت عليه أشراط دلت على حذقه ، فمنها العزم عند الشدائد ، وفتق الحيلة إذا ما تجلت الرغائب ، وانبعاث أشعة التضامن العميق مع مواطنيه ، من حركاته وسكناته .

على أنه وهو فى تلك الهجرة قد وجد تسليته وعزاءه عن بعده عن وطنه، فى دوام التفكير فى ذلك اليوم السعيد الذى يستأنف فيه شهود جباله وهو داخل أكواخ أجداده أو بيوت آبائه، ويستعيد فى حرية تامة عمله بالتقاليد القومية التى لا ينساها ولا يستنكرها أبدا ، فسواء أكان الألبانى عاملا أجيرا ،أم وزيرا خطيرا ، أم حمالا فقيرا أم جنديا بسيطا ، أم قائداً عظيما ، فانه كان يشطر حياته وفؤاده شطرين ، يمثل أحدهما فى خدمة متبوعه فى همة واخلاص وأمانة، ويمثل الآخر فى شغفه بوطنه الصغير وواديه المزدان بتخـــومه الصخرية الجرداء وقريته المتواضعة . وحنانه الذى يتخلل الأناشيد القومية التى سمعها فى ليالى الشتاء ، وحبه لقبيلته الأصلية وأقاربه المقيمين فى بلاده ، وكل ذلك سواء أكان فى حالة البؤس أم فى مقعد العز والجاه والرخاء !

ان ما قدمناه عن الألبانى لا يكفى لتعرف خصائص نفسية محمد على العظيم . ولذلك يجدر بنا أن نعلم أيضا أن الألبانى قد تفوق باقدامه وشجاعته وجرأته ومكره ، حتى أنه تمكن من أن يؤدى أجل الخدمات لتركيا واستطاع بين

فترة وأخرى أن يحكم الامبراطورية العثمانية . فلقد خلع عليها رداء المجد والعظمة بالانتصارات التى أحرزتها أسرة « كبرولى » الصدر الأعظم وحاول فى شخص على باشا أن يؤسس امبراطورية تركية البانية فى (ايبيروس) وتمكن فى شخص مصطفى باشا من سحق الثورة اليونانية ، ثم رأيناه بعد ذلك يعود وينقلب على السلطان حتى كاد يخلعه ويطوح بأسرة عثمان وتسنى له فى شخص محمد على أن يحرك مصر من تحت الأنقاض ، وينهض بها أمة عريقة ذات عظمة وجلال بحكم غريزتها التى تحاكى غريزة الألبانى فى قدمها وشدتها ، وعدم تغيرها فقد زاحمت مصر تركيا فى الوجود وكادت تنتزع منها عرش الخـــلافة لولا تدخل الدول الأوروبية .. الخ

أما قوة المقاومة الكامنة فى نفس الشعب الألبانى ، تلك التى مكنته على مجرى العصور التاريخية من الاحتفاظ بخلقه وشخصيته فانها ترجع الى ثبات نظمه الاجتماعية ، واستقرار عاداته بانتقال التقاليد شفويا من جيل الى جيل ، دون تغيير أو تبديل كما كانت عند ناشئتها الأولى ، وما تلك التقاليد غير نزعة الاستقلال ، والحرية ، وعزة النفس ، والاقدام ، وغريزة الأخذ بالثأر محوا للعار ولما طغت أمواج الاستقلال وأخذت تنزع عن القبور جنادلها ، وتذرى ذرات الأكفان فى الهواء لتبعث القوميات وتنهض بوحداتها ، وهزت صيحات الحياة ، الشرق البلقانى خلال القرن التاسع عشر - تمكن الروح الجديد من أن ينفذ من مسام الصخور الألبانية ويحرك سكانها الذين لم يكن فى مقدورهم أن يصموا آذانهم عن سماع الصرخات الداوية فى كل مكان ، ودوى النفخ فى الصور لبعث الأموات من القبور ، وتحصيل الأمانى التى جاشت فى الصدور ولكن رغم ذلك ألفينا الألبانيين مسلمين ومسيحيين جنبا إلى جنب مع الأتراك أمام العدو المشترك الماثل فى « صربيا » شمالا و « اليونان » جنوبا ، وهو عدو أقلق بال الألبانيين أكثر مما أقلق الأتراك بالهم ، اذ لم يعن هؤلاء باعتداء على شبه

استقلال ألبانيا وحريتها، ولأنهم اكترثوا بالافتئات على حق أهلها في سكنى جبالهم. ومع ذلك فقد امتاز خلال حرب الاستقلال اليونانية، أبطال عديدون من الألبانيين الذين شذوا عن مسلك أمتهم. فذادوا عن الحرية بدمائهم ودافعوا عن حقوق القوميات بأرواحهم. إنصافاً للحرية والقوميات وإن كانت الحرية والقومية لم يعتد الأتراك عليها في ألبانيا .

لقد انضم الألباني للتركي ضد العدو المشترك. ولكن الألبانيين كانوا ينهضون ويضربون ضربتهم كلما جنح التركي إلى العبث بكرامتهم أو مال إلى الافتئات على شرفهم القومي .أو حاول ان ينتقص امتيازا من امتيازاتهم . أو أراد الاعتداء على عادة من عاداتهم أو شعيرة من شعائرهم. اذ رأينا الالبانيين رجالا ونساء وأطفالا ينهضون مؤثرين الانحدار الى الهاوية على خيانة ضمائرهم أو الخضوع للظالم «على» حاكم يانيا

ولما أراد الأتراك في عهد التنظيمات سنة ١٨٣٠ ان يديروا بلادهم وفاق المركزية الأوروبية ثار الالبانيون. ولكن رشيد باشا جمع زعماءهم في مؤتمر «مو ناستير» ثم اغتال حياتهم . فكانت هذه المذبحة الحقيرة داعية الى عصيان الألبانيين حتى حرب القرم ،

وفي سنة ١٨٧٨. وقعت أزمة استمرت حتى سنة ١٨٨٢. وقد لاحت ألبانيا خلال هذه الازمة حصناً منيعا قام في وجه أوربا لصد تيار مطامعها وعرقلة سياسة غدرها بالأمم الضعيفة ، حتى انتهى الامر بهذه الأمة الصغيرة المتراصة المتضامنة العناصر ، في غير شهوة ولا إجحاف بحقوق بعضها ، ان فرضت على أوروبا إرادتها في شهامة وشمم وكبرياء. فكانت سابقة تاريخية يجدر بالأجيال الحاضرة أن تعنى بتقديرها .كما يخلق بالعصور القادمة أن تقدرها وتستخلص منها أقوم درس في الثبات على الحق ومتابعة الاصرار على تحقيق الغايات القومية في عناد وإعنات وصلف ونزاهة ،.لا تعرف ثمنا لقلب مكابرة العدو التي

صدق ، وباطله إلى حق ، وزخرف دهانه وتمويهه إلى أحجار كريمة طبيعية.

لقد قضى مؤتمر برلين فى سنة ١٨٧٨ بأن يلحق بالجبل الأسـود بعض مناطق ألبانية

وفى الجلسة الثانية عشرة من جلسات هذا المؤتمر ، دوّن محمد على باشا المفوض العثمانى الثانى فى المحضر ملاحظة، طلب بمقتضاها «أن لا يضم إلى الجبل الأسود فى سبيل توسيع أراضيه الحالية، إلا مناطق من جنسه ، وعلى شريطة أن تكون غالبية أهلها يدينون بدينه . ورأى من الظلم أن يضم إلى الجبل الأسود أراضى يسكنها ألبانيون مسلمون أو كاثوليك (راجع ماكس سوبيليه ـ المسألة الشرقية منذ معاهدة برلين ص ٤٩)

ولكن كبار الساسة والدهاة الذين جعلوا بقيادة بسمرك، يقتطعون الاراضى ويوزعون الأزواج ، قد اعتبروا إرادات الشعوب عديمة القيمة ، غير أن هذه الشعوب كانت فى هذه الدفعة معتزمة الذود عن حياتها ، فلما طلب الجبل الأسود من تركيا أن تنفذ المعاهدة ، تولى الالبانيون بأنفسهم الاجابة على الجبل الأسود ، إذ تألف اتحاد لمقاومة تجزئة الأراضى الالبانية وتوزيعها على الجبل الاسود والصرب واليونان ، وشكلت اللجنة المركزية لهذا الاتحاد فى أول يوليه سنة ١٨٧٩ بمدينة «بريزرن» وتفرع عنها ثلاث لجان أقامت احداها فى هذا البلد والثانية فى «اشقودره» والثالثة فى «أرجيرو كاسترو» ليراقب كلٌ منها التخوم المهددة من ناحيته ، ولكن عندما ثارت العاصفة تخطت كل حد . ففى رعاية هذا الاتحاد تكونت ألبانيا المستقلة التى نظمت نفسها ، وحكمت وسادت بلادها وفرضت الضرائب على أبنائها وجبتها ، ورفضت الاذعان للعهود التى قطعها سلطان تركيا للدول ، وهنا أعلن امبراطور تركيا عجزه عن شل هذه الحركة وقمعها ، فوقعت أوروبا فى حيرة ، ولم تر بدا من أن تسلك واحداً من سبيلين :

فاما استعمال السلاح ، وأما الخضوع وتمزيق المعاهدة . وبعد مداولات

ومفاوضات، اقترحت ايطاليا حلا وسطا يقضى بأن يلحق بالجبل الاسود بعض الاراضى الواقعة شمال «أشقودره» بدلا من تلك التى نصت عليها معاهدة برلين لأن أغلبية هذه الاخيرة كانت من الالبانيين المسيحيين ، الا أن هؤلاء انضموا إلى الثائرين المسلمين وكتبوا بسلاحهم صحيفة تضامنهم ومجد الدفاع عن وطنهم، ذلك بأنهم أصلوا جيش الجبل الاسود عندما دخل حدود هذه المنطقة، وابلا من قنابلهم ، وردوه بحد سيوفهم على اعقابه مذموما مدحوراً .

وهنا أعلن الالبانيون الباب العالى «أنهم يرون أنهم مكرهون على أن يخلوا عن أنفسهم طاعتهم للدولة العليــــة وولاءهم لها ، بما أنهم لم يعــــدوا من رعاياها ، وأنهم سيدافعون بأنفسهم ، ولحسابهم عن حياتهم واستقلالهم الذى اعتزموا الحصول عليه وتوكيده»

ولما أراد مؤتمر برلين تحويل قراراته والحاق المنطقة البحرية المحيطة بثغر «دولسينيو» رأى الألبانيون أن هذه المنطقة بعيدة عن موطنهم القومى ، فعدلوا عن المقاومة ، ولكن أهالى هذه المنطقة قاوموا وانتهى الامر بهم إلى الخضوع أمام قوة أوروبا ؛ وبهذه الطريقة تمكنت ألبانيا بعد مقاومة دامت سنتين من أن تفرض إرادتها على الدول العظمى التى خضعت ، وحورت فى قرارات مؤتمر برلين ، وعدلت فى نصوص المعاهدة تعديلا رسميا ثابتا من النصوص والمحاضر (راجع أوروبا وتركيا الفتاة للمسيو رينيه بينون ص ٢٩٦ إلى ٣١١).

فما تقدم نستطيع أن ندرك صورة صحيحة من طبيعة الجنس الذى انحدر منه محمد على باشا ، ويتسنى لنا أن نفهم وسيلة دعاية الألبانيين لانفسهم وفكرتهم . فقد قدروا للأعلان عن غرائزهم وبث الدعاية لفكرتهم وسيلة وحيدة هى صليل السيف ، وتدوية المدافع ، وصفير الرصاص ، وزئير الاسود ، ولعمرك إنها وسيلة يندمج بها الفاعل فى فعله ، ويتجسد بها الخيال حقيقة من

اللحظة الأولى ، وليس أعز ولا أصح من استحالة الفكرة مادة بمجرد ولادتها .

البيئة

ولكن البيئة التى عاش فيها محمدعلى أكسبتهعادات جديدة تأثر بها جوهره الجنسى ، فالجو والغذاء والملبس وما إلى ذلك هو الذى أثر فيه هذا التأثير ولو أن هناك عوامل أخرى .

لقد أحاط بمحمد على زعماء مصر ورجال الدين فيها كما أحاط به مجلس شورى أعضاؤه من المصريين ، وآخر غير رسمى من العلماء والساسة الاجانب الذين أخلصوا له ، أومن الموظفين الذين استقدمهم من فرنسا وأوصاه بهم خيراً شارل العاشر ثم لويس فيليب ملكا فرنسا ، فتأثر بهذه البيئة أيضا ، لاسيما من ناحية إدخال الرقى والمدنية ونشر العلوم والمعارف والعدل وتنظيم الادارة والجيش والتدرج فى سبيل الشورى مع الاقدام والحزم والكرامة . فكان لمصر من محمد على وخلفائه أكبر معوان على تسنمها أعز الذروات وأسماها فى مختلف نواحى الحياة القومية والحياة الدولية .

أسرة محمد على

قال « هيرودوت » « إن مصر هبة النيل » ، ولا مراء فى ذلك مادام النيل قد حمل لمصر خصب الأرض وأرغم الحكام على أن يتلقوا أوامره .

ونحن نقول « إن مصر هبة الأسرة المحمدية العلوية » . لأنهم حملوا لها الخصب الذهنى والأدبى والعلمى والمادى ، وأرغموا الناس على ولوج أبواب

الرقى والرفاهية .

إن أسرة محمد على هم الذين خلقوا مصر الحديثة ، واستنقذوا لأنفسهم حقوقا وامتيازات خلعوها على مصر ونزلوا عنها لمصر ، فكانت جذوع مصر الحديثة فى أسرة محمد على تتغذى من عصيرهم وتنمو بحيويتهم .

فأسرة محمد على هى ماضى مصر الحديثة وحاضرها ، وتاريخ أسرة محمد على هو تاريخ مصر الحديثة ، وعرش أسرة محمد على هو عرش مصر الحديثة . إن أسرة محمد على كانت ولا تزال العروة الوثقى بين ماضى مصر المجيد وحاضرها . بل إنها كانت العنصر الجوهرى فى مصيرها ، والأساس الضرورى لسياستها وسيادتها واستقلالها .

صورة محمد على

ساعد الثورات مخيف مزعج ، ولكن يدها ميمونة مباركة ، فالثورات تضرب فى حزم ، وتحسن الاختيار فى عزم ، وإذا هى أخفقت وفشلت فانها على الرغم من ذلك تترك فى الوجود قبساً من نور الله يشق الطريق إلى الخلاص النهائى ، فكبوتها لا تكون أبداً تنازلا عن غرضها ، وانما تكون استجماما لنهضة أشد وأقوى .

ولكن من المستحيل تمجيد الثورات على طول الخط ، فبعضها شقى ، وبعضها سعيد ، والتعس منها من خادع نفسه فارتكب شططاً معاجزاً وخذولا .

فى وقت يكاد يكون واحدا ، فى وقت عمت الثورة العالم بحكم تضامن أجزاء الطبيعة البشرية ، بويع عظيمان ولدا فى سنة واحدة ، وجلس كلاهما على عرش بلد بأسم الشعب . أحدهما محمد على الذى جلس على عرش مصر بأرادة شعبية ثورية صحيحة ، وجلس هو واسرته الى الآن . والثانى نابليون الأول وقد جلس

على عرش فرنسا ولكنه هو وأسرته ذهبوا هباء.

كان محمد على يجمع بين الفضائل الخاصة وأكثر ما يمكن من الفضائل السياسية، يُعْنَى بصحته وحظه وشئون مصر باعتبارها شئونه، ويقدر قيمة اللحظة، ولكنه لم يكن يعرف دائما قيمة الراحة، ولا قيمة الحياة كلها إذا تطلبها المجد، تراه صابراً مصابراً جذلا قانعاً بما شاء الله له من ظفر ونصر، كما تراه رجلا وأميراً فى وقت واحد، يعرف اللغة التركية وحدها، ولكنه يتكلم جميع لغات المصالح القومية، يمثل رجل المبادىء السياسية أبدع تمثيل، ولكنه كان بذاته أسمى من المبدأ السامى، وهبه الله عقلا بعيد الغور، وكفاية يقدر بها الدم الذى جرى فى عروقه. فكان سلوكه منطبقاً وقدر نفسه.

لقد كان أميراً بدمه الألبانى النقى الطاهر المستبسل، قانعاً بلقب سمو أمير البـــلاد وواليها ما دام الشرع يقضى بذلك، ولو بلغ يومئذ مرتبة الجلالة لقطرت الشعبية منه، كما تقطر اليوم من حفيده الفاروق، والأناء بما فيه ينضح.

ولقد كان محمد على اقتصاديا فى الأعماق، لا يعرف الأسراف إلا فى أداء الواجب والدفاع عن بلده أو تحقيق الغرض السامى. وعندئذ ترى عدته الانفس والأموال والثمرات. ولكنه يبذل كل ذلك فى بساطة واطمئنان وعزم، وثبات تحكمت فيه المصلحة العامة المباشرة والغير المباشرة. يزع رجال الدولة دائما عن قرب وبنفسه، عاجزاً عن الحفيظة والضغينة، كفء للاعتراف بالجميل، غير أنه كان خصباً فى الوسائط والوسائل وفى السحر وستر النية والقصد. لا ترجح السلطة الكرامة معه، وإلى هذا يرجع نجاحه.

كان دقيقاً، يقظاً، منتبهاً، حكيما، لا يتعب، جريئاً ضد تركيا، عنيداً ضد انجلترا، حذرا من فرنسا، لا يتطرق اليه اليأس ولا الوهن: ولا يغطف على الكرم المخاطر، ولا يستسلم إلى الأوهام، ولا يلتى إلى الغضب أو الخوف أو الخور الزمام.

يخاطر فى ابتسام ، مقدام لأنه جندى ، وشجاع لأنه مفكر ، لا تفاق القوة باله ، على استعداد دائم لهدر حياته دون عمله ، ولو كان بعض أوروبا لبعضها ظهيرا ، يخفى إرادته فى غلافة من إشراق سلطانه حتى يشعر المتحدث اليه بقوته فيتم له الخضوع على أنه ذكاء لا على أنه ملك ، أوتى قوة الملاحظة لا قوة التنبؤ ، فى حاجة دائمة لأن يرى حتى يحكم ، ذوق سليم متوثب نفاذ ، وحكمة عمليـة ، وكلام منقاد للفكرة ، وذاكرة فوارة ، وهذا ما حاكى به قيصر والاسكندر ونابليون .

كان يلم بأطراف الوقائع والتفاصيل ، ويعرف أسماء الأعلام ، ولكنه كان يجهل الميول والشهوات وعبقريات الجماهير ، والأمانى الخفية ، وبذرة الانتقاض النفسى الخبىء الغـامض المتحفز ، وقصارى القول إنه كان يجهل ما يمكن أن نسميه التيارات الخفية فى محيط الضمائر ، سلم بسلطانه الشعب عن طيب خاطر ، وتوثقت الصلة بينه وبين مصر فحكم وساد ، كان هو وزير وزرائه ورئيس مجلس الزعامة ، أبدع فى الاستهتار بصغار الوقائع ، فحال دون أن يكون الصغار عائقاً أمام ذيوع الفكرة ، يمازج قدرته المنشئة للمدنية والنظام والتنظيم بروح مشجع مستنهض ، مغر بالاقتداء ، وبذل الفداء ، فهو شخصية سامية فذة عرف أن يفرغ شخصيته على مصر ليخلق منها شخصية دولية قامت أوروبا وقعدت لتكبيلها وغلها .

كان محمد على شخصية بين عظماء عصره ، ولا يزال يشغل أسمى مرتبة بين أشهر رجال التاريخ الذين حكموا الممالك ودوخوا العـالم ، لأنه أجب المجد ، وأوتى الاحساس بكل ما هو عظيم بقدر ما أوتى الاحساس بكل ما هو نافع .

فأنت تجد أفضاله التاريخية ثلاثة ، ما يهم منها مصر ، وما يهم منها الحـكم ، وما يهم منها الوالى نفسه ، وكل هذه الأبواب إشعاع وإشراق .

لحق مصر فى النهوض كان محمد على به ضمينا ، وحقهـا فى الرقى كان

به محمد على كفيلا ، وحقها فى الاستقلال والحرية كان به محمد على زعيما .

أما الحكم فقد تفجرت سجلاته ينابيع من النور ، نور الله الذى استمده محمد على من الوحدة الالهية ليبدأ فى تحقيق الوحدة القومية ، وحدة وادى النيل ، و نور العلم الذى عم الآفاق المصرية ، ونور الفتح الذى أشرق فى سبيل استرداد حق مصر .

وأما ما يهم الوالى فكان حب الشعب ، وقد كسبه محمد على بسياسته التى تفوقت قوميتها على عائليتها .

لم يكن محمد على متواضعاً فيما يخص حقوق مصر .

ذلك بأنه كان ملكا رحيما أكثر مما كان أبا كريماً. فساعدت الفضائل المواهب ومحمد على الجندى كان محمداً علياً الملك ، إنه كان مجاهداً فى الحالتين

إنه كان الرجل سواء أحمل اللقب أم تجرد منه ، وكان السيف البتار، جنديا عند الحاجة . وسياسياً عند الضروره .

مراحل التطور الفكرى

حتى عهد محمد على

يقر فى أعماق كل شعب أعمال فكرية تمت فى بطء ، وهى أعمال تعتبر أساساً للتغيير أو التبديل المترتب على انتقال جزء من الحياة الجسدية والروحية بحكم الوراثة (راجع كتاب المسيو تيوفيل ريبو ، وكتاب المستر أدوين جرانت كولسن الاستاذ بجامعة برنستون ـ التوارث والبيئة) ، وبناء على هذا الرأى تكون مصر قد أصابت ثلاثة أطوار عامة .

العصر القديم

لقد احتفظت مصر بملامحها الخاصة خلال الأزمان القديمة ، ولذلك فأن حضارتها قد ارتدت فى تلك الأيام الخالية رداء المدنية الحاميّة ، وقد أخذ هذا النماء الأزلى الخشن عدة سبل ، ولكن تعاقب الأزمان قد أذاب الفوارق الطفيفة التى تميز بها الخلق الأساسى لمجموع الأمة ، ولهذا فأن مصر قد استمدت من طبيعة أخلاقها وتكوينها وجوها ونفسها مبادىء رقيها بوحى من عبقريتها الخاصة المستقلة عن أى نفوذ خارجى أو سلطان أجنبى .

ومهما كان عدم ملاءمة الظروف ، إبان تلك العصور القديمة ، للكد والكدح ، فان مصر قد تطورت تطوراً سامياً،وارتقت رقياعظيما أساسه أعمال الكهنة الذين كانوا الرأس المفكر، والعقل المدبر،وإذا كان رقى الشعب المصرى فى ذلك الحين قد قام على الأنانية ، فانه كان مع ذلك رقيا صحيحاًواقعياً ،فجميع الثروات والكنوز التى تكدست فى طيات الظلام قد عصمت من يد التبديد والزوال ، وماكان فى المقدور محاولة إطفاء نور الحضارة المصرية إلا ريثما يتمكن من السطوع فى قوة اشد مما كان عليه ، فمصر الحامية قد قامت باداء رسالتها فى عالم الحضارة والمدنية دون أن تجرأ أمة من الأمم على أن تدانيها ، أو تجسر على الوقوف بمصباحها أمام الشمس المصرية إلا إذا أعشت أمام زهو النور المصرى وسطوعه .

كانت الأمة المصرية القديمة شعباً مبتكراً فى نواحى حياته المادية والروحية والفنية والدينية والفلسفية والعلمية ، ولذلك أحرز رقياً سامياً ،وأقام دعائم مدنية قوية إلى أن آل إلى الضعف تحت سيطرة لأجنبى .

إن الجنس المصرى القديم كان نبيلا ، وهذا النبل كان غريزة فيه ، كمنت فى أعماقه قوية متحفزة وثابة إبان الظروف الحاسمة ، لذلك فان النبل يسوده إذا

ماطفح الكيل ، ويحفزه إلى أن يأتى بالمعجزات ، إذا كانت القيادة بيد زعماء أشراف تجردوا من الغايات والشهوات ، وحتى الاختلاط لم يكن سبباً فى دهورته، وهذا ما يتبين لك عند ماتبحث الدماء المصرية بعد انتقال الدماء العربية لها، لأنها كانت دماء قوية لاتؤثر تأثيراً رجعيا، وإنما تنهض بمن تأثر بها . على نقيض العهد الرومانى الذى ضعضع المصرى ، ولكن لم يقض على جوهره الأصلى .

ولما نفذت المسيحية إلى ضفاف النيل ، فقدت ملامح مصر من خصائصها البارزة . وبما أن حياة الشعب المصرى قد اعتصمت طوال الأزمان السالفة بالمعبد والهيكل ، فانها قد ذهبت بذهاب معبوداتها وتوارت المدنية التى عمرت قرون عديدة بتوارى العبادة واندثار الدم المصرى القديم .

وهنا أخذت الأمة المصرية تتحسس كيانها فى أعماقها . فأعياها البحث . وأنهكها التنقيب ، لأن ذوبان العقيدة قد أدى إلى ذوبان الجنسية والشخصية ،

على أن مصر المسيحية كانت مجرد وهم من الأوهام ، أو نوعا من أنواع الانتقال . ولما كان أمثال هذا الدور الخداع مما يشعر الأنسان باستحالة النمو الاجتماعى لانعدام شروط النماء وأسبابه التى لاوجود لها إلا فى حرية العمل وثبات النظام واستقرار الحكم ، فقد قنع الشعب المصرى فى هذه الفترة التى استمرت عدة قرون بأن لايعبأ إلا بما يسد رمقه ، أما عقيدته الجديدة فلم تكن له إلا بمثابة العلم يرفرف على الجيوش التى لا قائد لها ، ومع ذلك فقد رأيناه يغير هذه العقيدة كلما سمحت له الظروف بذلك ، وإذا كان قد اعتنق المسيحية فلم يكن ذلك عن عقيدة ، بل بوحى روح المعارضة لبلاط بيزانطه ، حتى أنه عند ما جاء عمر بن العاص مصر وجد الشعب المصرى على هذه الحال من الزعزعة والفوضى الدينية .

العصر الحربى

ظهرت العبقرية العربية فجأة، وقد مثلت فى دين كمنت فى أعماقه قوة من مبادىء

وتعاليم لاتقهر ، ولم يكن لعمرو بن العاص الا أن يظهر أمام المصريين حتى تحولت مصر المسيحية بحكم نسيان آلهتها إلى مصر الأسلامية بدافع انعدام غيرة أهلها على مسيحيتهم ، دون أن يعمل السيف فيهم ليؤمنوا بالله وبوحدانيته .

وعندما تم الفتح العربى تبدل المصرى تبـــدلا تاما من حامى إلى سامى ، وبذلك اختفت أبرز مميزات الجنس الحامى ، وجرى فى مصر دم الشباب والتجدد تحت سلطان القوة التى نشطت بالأسرة العربية ، وصار لمصر الأسلامية مدنيتها الخاصة .

على أن النشاط المكتسب أو المستعار الذى دفع الشعب المصرى إلى اليقظة والنهوض لم يسمح لمصر، رغما من قوته، بأن تؤدى رسالة تحاكى تلك التى أتمتها فى عهدها القديم إذا اختلطت بالساميين واتبعت مصيرهم .

وقد امتازت نهاية هذا العهد بدمار اجتماعى سقطت المدنية تحت اطلاله وانقاضه على شواطىء النيل، حتى إذا ما انقرض هذا العهد كانت فترة خراب ولم تكن فترة تدهور وانحطاط ، فكبكت البلاد فى الجهالة ، وغرقت فى العبودية والذل ، وناءت بأحمال الخضوع لعتاة الجبابرة والظلمة المستبدين ، وعم الليل الذهنى جميع الأنحاء حتى لم يعد فى المقدور أن يخطر ببال الانســـان التفكير فى الخلاص ، وأمست مصر فى حاجة إلى عضد أو محرك لنهضة قومية «راجع تفصيل هذه الخلاصة بالعصر القديم والعصر الأسلامى فى « مصر القديمة والحديثة «لتيير» . ولكن أبى الله عليهـــا ذلك وأصابها بالفتح التركى .

عصر الأتراك

وقد جاء بعدئذ فتح الأتراك ، وكان لنظام الحكم الذى رزحت تحته

البلاد من عهد الفتح العثمانى أسوأ الأثر فى حالتيها السياسية والعمرانية ،إذ زال عنها الأستقلال الذى كان مصدر عزها وعظمتها ، وصارت مسرحا للفتن والمشادة بين السلطات الثلاث التى تنازعت الحكم فيها ، فحال دون ذلك قيام حكومة ثابتة مستقرة ترفع من شأن مصر ، وتقيم العدل ، وتحفظ الأمن بين ربوعها ، وتعنى بمرافقها ، ولا غرابة إذن إن اقترن نظام الحكم بعد الفتح العثمانى بتاخر البلاد وتقهقرها ، وتناقص عدد سكانها ، ولو قارنت بين حالتها فى ذلك العهد وحالتها من قبل حينما كانت مملكة مستقلة فى عهد الدول الفاطمية والأيوبية والبحرية والبرجية لرأيت أن البلا قد رجعت القهقرى خطوات واسعة .

لقد أهمل الولاة العثمانيون والبكوات والمماليك أمر الرى وتوزيع المياه وإقامة القناطر والجسور وحفظ الأمن ، فجفت الترع ، وتلفت الأراضى ، وتعطلت الزراعة وضاع الأمن . وذهبت الثروة العامة ، وهاجر الكثير من سكان القطر إلى البلاد المجاورة .

الصناعات والفنون

« واضمحلت الصناعات والفنون التى كانت تزدان بها مصر فى سالف العصور ، ولقد بدأت مصر فى الاضمحلال عقب الفتح العثمانى مباشرة بسبب اضطراب الاحوال وكثرة الفتن ، وفقدان الأمن . وإسراف الجنود العثمانية فى السلب والنهب ، أضف إلى ذلك أن السلطان « سليم » بعد أن استقر له الأمر فى القاهرة جمع رؤساء الصناعات المتخصصين فى الفن والصناعة ، ونقلهم إلى الاستانة ، لينشروا فيها صناعتهم وفنونهم ، فكان ذلك سبباً فى نضوب معين الصناعة والفن فى البلاد ، واختفت صناعات كانت عامرة . .

وجاء الولاة والحكام والمماليك الذين تركت لهم إدارة البلاد فكان حكمها آفة على الصناعة والتجارة ، وكانت مصادرتهم الأموال التجارية من أهم أسباب ركود الحركة التجارية ، فاختفت رؤوس الأموال من أيدى الأهالى ، وغلب عليهم الفقر ، وكبكب الشعب فى حالة محزنة من الضنك والفاقة .

« وفتكت بهم الأمراض والأوبئة التى كانت تجتاح البلاد وتجتاح الآلاف من الناس ، وتأخذهم أخذاً وبيلا . كل ذلك والحكام يصرفهم الجهل عن مقاومتها . وليس فى البلاد طب ولا أطباء . والناس تحت رحمة المنجمين والحلاقين » .

فى العلوم والآداب

« . . أما فى عهد الولاة العثمانيين والبكوات والمماليك فقد اضمحلت الآداب العربية وخمدت القرائح ، وركدت حركة العلم ، ولا غرابة فى ذلك فان القاهرة صارت مركز ولاية تابعة للأستانة بعد أن كانت عاصمة دولة مستقلة ، بل عاصمة العالم العربى كله . وصارت مخاطبة السلاطين والولاة باللغة التركية بعد أن كانت العربية لسان الحكومه لغاية انتهاء دولة السلاطين البرجية وتقهقرت البلاد وساءت إدارتها ، فأثرت هذه الاسباب مجتمعة فى حالة العلوم والآداب وآلت الى الاضمحلال والزوال ، واندثرت المدارس التى كانت زاهرة فى عهد الفاطميين والأيوبيين وخلفائهم السلاطين البحرية والبرجية . وتبددت خزائن الكتب التى يرجع انشاؤها إلى عهد الفاطميين ولم يبق منها إلا بعض المكاتب الملحقة بالمساجد كمكتبة الازهر التى كان بها الى عهد الحملة الفرنسية نحو ٢٣ الف مجلد .

ولقد قال المرحوم على باشا مبارك يصف إهمال المدارس فى مصر مدة

ثلاثة قرون متوالية : « ومن ابتداء القرن الثانى عشر . يعنى مدة ثلاثة قرون (يقطع معظمها فى عهد الحكم العثمانى) قد أهمل أمر المدارس وامتدت أيدى الاطماع إلى أوقافها ، وتصرف فيها النظار على خلاف شروط وقفها . وامتنع الصرف على المدرسين والطلبة والخدمة فأخذوا فى مفارقتها . وصار ذلك يزيد فى كل سنة عما قبلها لكثرة الاضطرابات الحاصلة فى البلاد حتى انقطع التدريس فيها بالكلية ، وبيعت كتبها وانتهبت ، ثم أخذت تتشعث وتتخرب من عدم الالتفات إلى عمارتها ومرمتها . فامتدت أيدى الناس والظلمة إلى ربيع رخامها وأبوابها وشبابيكها حتى آل بعض تلك المدارس الفخمة والمبانى الجايلة إلى زاوية صغيرة تراها مغلقة فى أغلب الأيام ، وبعضها زال بالكلية وصار زريبة أوحوشا أو غير ذلك ولله عاقبة الأمور » (راجع تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر للاستاذ المحقق عبد الرحمن الرافعى بك ـ جزء أول ابتداء من ص ٤٣)

هذا طرف من حالة مصر أيام العثمانيين والمماليك وهو يدل دلالة واضحة على التقهقر والاضمحلال ، والجنوح إلى الانقراض . وتلك نتيجة سلطان الاستبداد والعتو الوبيل .

فماذا كانت مصر فى حاجة إليه بعد شقائها بالحكم التركى وحكم المماليك وابتزازهم الاموال ، وأهراقهم الدماء وتحطيمهم كل عامر ، وتدميرهم كل قائم ؟ هل كان الأنقاذ نوع من العلاج يسعف به الطبيب نبض القلوب وقد أوشك أن يقف ؟ لا ، وإنما كان الخلاص فى حياة جديدة ،فى قوة قاهرة ترفع عن غرائز مصر الجوهرية الأصلية مافوقها من غلافات واكنان علتها طبقات الصدأ الكثيفة حتى تتوهج فضيلة العمل والكد والجد والانتاج وعبقرية الابتكار .

مصر كانت فى حاجة إلى قوة تبطش بالجراثيم الفضولية التى تعلقت بدمائها

فحالت دون جريها جريا طبيعياً حتى كاد الأمر يفضى إلى تصلب فى الشرايين يستعصى الشفاء منه .

فلما جاء الفتح الفرنسى بمصائبه وفتكه الذريع ، وفظائعه المروعة ، وجرائمه الهائلة، وجدت مصر، فى كل ذلك الافناء، المحرك الضرورى الذى تنشده لخلاصها وقامت بأول حركة قومية تناضل بها عن كيانها وتنشىء وجودها وشخصيتها الحرة المستقلة بما جرى فى مناحيها من دماء ، وتدعم هذا البناء بما فاض من أرواح .

العهد العلوى

لقد دنونا بفضل الاضطهاد الفرنسى من النهضة العلوية . فعلى أية حال وجد محمد على مصر وعلى أية حالة تركها ؟ لقد خيم سلطان الفوضى والاضطراب والشقاء على مصر ، فالموت كان يتخطف الأهالى . والأوباء تحصد الآجال ، أما الزراعة التجارة والصناعة فقد انعدمت جميعاً أو كانت فى حكم العدم . وأما إيرادات الدولة فكانت أقل من مليونى جنيه يلتهمها السفه والنهب والتبديد المزرى .وأما الجهل فحدث عنه ، ولا حرج أن تصفه بأى وصف . ولما جاء محمد على استطاع بفضل حكمته وسياسته أن ينفخ فى مصر من روحه، وينهض بها عدة سنوات .

فالترع الرئيسية حفرت ، وتوزيع مياه الفيضـــان نظم ، والزراعة نهضت ، والتجارة راجت ، والأمن خيم ، والرفاهة بدأت ، وعادت مصر سيرتها الأولى ، وأمست مصدر الغلال والحاصلات لأوروبا ، فأخذت الأرض زخرفها وازينت وأخرجت من كل زوج بهيج : فمن قطن إلى نيلة إلى قصب السكر ، ثم جرى تيار الحصاد فى شدة إلى ميادين الاستهلاك وكذلك نهضت

الفنون ، ونشط العلم والحيـاة ، وقامت الادارة على قواعد أساسية نظامية ، وفتحت المدارس الحربية والبحرية والطب والألسن لتوزيع غذائها الأدبى والعلمى على التلاميذ ، وتأسست المستشفيات للمرضى وذوى العاهات والمجاذيب وصينت العادات ، واحترمت المذاهب ، والنحل ، وفرضت لها الحماية من أى اعتداء ، وانتشر التلقيح ضد الأمراض والحميات فى جميع بلاد القطر ، واتخذت الوسـائل الصحية لوقايه الناس والمحافظة على الصحة العامة ، وقصارى القول إن محمـــد على نهض بمصر وهو يدرك تمام الأدراك ماهيـــة الدولة واختصاصاتها .

لقد أدرك محمد على كل العظمة التى تنطوى عليها كلمة دولة ، فتصورها فى غير صورة الظالم الذى يأمر باسم مصلحة الأنانية ، فى صورة الوكيل الشرعى عن مصالح الجميع ، إنه تصورها بمعناها الصحيح ، فلا هى السلطان الذى تقاوم ميوله السياسية فى لحظة ما ، ولا هى الأسرة الحاكمة المتحكمة التى ترفض أن نوليها حكمنا ، وإنما هى مجموع الأهالى ، الذين كانوا ويكونون وسيكونون ، أى تصورها الأمة بماضيها وعبقريتها ومجدها ومصيرها ، ولذلك فانه حدد وظائفها وعنى من أجل هذا التحديد بتقدير طبيعة الدولة ، على أنها أصليا نظام أكراه وشدة تحت تصرفه سلطان القانون وسلطان الضريبة

فمهمة دولة (محمد على) كانت مهمة الدولة العصرية تماما ، أى تلك التى تقوم على أن تكفل الدولة للأفراد والجماعة وجوه الخير التى لانزاع فى أنهـا لا تأتى إلا ثمرة الاكراه ، الاكراه القانونى الآمر الناهى ، والأكراه المـالى القاضى بفرض ضرائب معينـة . بشرط أن لاتؤدى نتيجة هذا الأكراه إلى القضاء على وجوه أخرى أفضل من تلك وأهم وأعلى بالنسبة للجماعة ، ولذلك رأينـا تصرفات محمـد على داخل الدولة وخارجها ترمى جميعا الى أن تكون اختصاصاتها هى اختصاصات الدولة العصرية وأهمها مهمة المحافظة على الأمن

المهمة الاولى للدولة

المحافظة على الأمن فى الداخل والخارج

لقد رأى محمد على ان الخليق بالشعوب العصرية، إذا هى أرادت أن تعنى بمصيرها، أن تحتفظ للدولة من الناحية السياسية والعسكرية بنظام منيع قوى لايتطرق اليه الضعف والوهن، فلا يكل أو ينى فى تحمل مختلف التضحيات المادية سواء أكانت خاصة بالزمن أم بحياة الرجال أم بموارد رؤوس الاموال، ذلك بأن أسباب الخلاف بين الأمم قد تصدر عن ظروف اقتصادية ، وإذن فالواجب على أى شعب أن لا يرتكب جريمة عدم التبصر والانحطاط الانسانى بأهمال أول التزام تمليه الطبيعة عليه وهو الدفاع عن النفس ورد الخطر عن الطبقات التى بدأت بتنظيم حياتها ، ولما يصبح جسمها قويا مستعدا للدفاع عن نشاطه بطريق المنافسة والمزاحمة

ان أول مصلحة للأمة رآها مؤسس الأسرة المالكة هى أن تقوم الدولة على نظام وطيد من المنعة والقوة وبعد النظر والهمة يكفى لأن يضمن طمأنينة الأهالى ويصونها من عبث الأجانب ، وليس فى الوجود اعتبار آخر أووظيفة أخرى تفضل هذا الواجب أو تلك المهمة ، والأمر الذى يخشى منه فى هذا العصر أن دولا لاتؤدى هذه المهمة على وجه الكفاية وتعمد إلى بعثرة جهودها وتوزيعها على مهمات ثانوية يحسن الافراد والجماعات الحرة أداءها ويتقنوا تنفيذها ينتهى الأمر بها إلى اهمال أهم مهماتها الجوهرية

وإذن فالذمة قد حتمت عليه ان لايخدع نفسه ولا يضلها بالنظريات الفلسفية القائمة على أعمق الأفكار وأنبلها بلا شك، ولكنها، من ناحية التطبيق على

الانسانية، مشكوك فيها أو مقطوع باستحالتها، كذلك المبدأ القائل باحلال الدولة الصناعية، أولا وقبل كل شيء، محل الدولة العسكرية، وإذا كان محمد على قد أخذ بذلك فلكي لا يؤدى الأمر بالدولة إلى إهمال واجب الدفاع عن المصلحة القومية ضد أجنبي، أو إلى تغيير شكل هذا الواجب تغييراً كلياً.

إن مسألة الطمأنينة ضد الأجنبي تمتد إلى البحر كما تشمل اليابس، وتتناول الرعايا المقيمين فى الخارج والداخل، وتنصب، إلى حد من الصعب تحديده لأول وهلة، على المراكب والبواخر، ثم على المشروعات ورءوس الأموال الوطنية فى الخارج إذا تهددت بالخطر أو نزلت بها المظالم الفادحة، حتى تضمنها الدولة أو تتقاضاها إذا كان قد حل أجلها، أو دفع الخطر عنها إذا كانت تستغل وتستثمر، وأما حماية مصالح الأفراد، وأرواحهم فى الداخل فمعروفة، ومن واجب الدولة السهر على الامن العام فى عناية ويقظة.

على أن محمد على قد رأى أيضا أن من الواجب على الدولة ألا تنسى أن مهمتها الخاصة بالقاء الطمأنينة إلى روع الافراد والجماعات الحرة فى الداخل، أو العمل على رد عادية الأجانب هى مهمتها الجوهرية الأولى التى لا يجوز للافراد ولا للجماعات الحرة أن يحلوا محلها فى أمر العناية بها، كما أن أى تراخ فيها من شأنه أن يضر بالنظام الاجتماعى ضرراً بليغاً، ولذلك فان مصر التى استرشدت بهدى هذا المصلح العظيم وخضعت لقيادته، وأعربت عن ارادتها الخلاص من الفوضى باختياره والياً عليها. قد ترسمت سبيلا جديدة أدركت بها قسطاً من السلطان أرغم الدول على أن يحسبوا حسابها. ويضعوا فى الميزان الدولى قوتها ونظامها، إذ بلغ جيشها النظامى المدرب والمسلح بأحدث المعدات الحربية زهاء مائتى ألف جندى.

أعمال هذا الجيش

كانت الفترة التى أعقبت جلاء الفرنسيين، ثم الانجليز عن مصر، فياضة بالحوادث.

والمفاجآت ولكنها مع ذلك فلا يجوز أن تكون غير عتبة لحكم محمد على .

لقد عرف هذا العبقرى بالغريزة أن يجعل مصر خلال أربعين عاما موضع عناية أوروبا واهتمامها ، إذ قبض مرتين على مصير الشرق ، ووصل بمصر فى لحظة من اللحظات إلى أن تمثل دور إحدى الدول العظمى ، رغماً من ضآلة عدد سكانها وقلة مواردها المحدودة ، ولكنا نرى أنه لو عرف فى الوقت المناسب أن يكبح جماح أمانيه لغير موقف العالم إزاء مصر ، ولا ستمر معدن الأمة المصرية مشحوذاً ساطعاً .

كانت أول معركة اشتبك فيها محمد على هى معركة أبى قير ضد الفرنسيين سنة ١٧٩٩ ، ولم تمض عليه ست سنوات حتى تمكن من أن يحمل الشعب المصرى على المناداة به والياً على مصر ، فأقر الباب العالى هذا الاختيار فى ٩ يوليه سنة ١٨٠٥ . ثم أخذ منذ ذلك الحين يعمل على تحقيق غرضين : غرض داخلى وهو الخلاص من منافسيه ، وغرض خارجى وهو إضعاف سلطان تركيا دون قطع صلته بها . وهذه أعمال تؤدى بطبيعتها إلى تقوية مصر . ومصر القوية هى ما تتخيل فيها انجلترا عدوها اللدود الواقف لها بالمرصاد دائماً أبدا حتى يقطع عليها طريق الهند بمعانيه السياسية الأنجليزية التى سنبينها عند الكلام عن مفاوضات انجلترا مع روسيا بخصوص مصر وغيرها فى سنة ١٨٥٣ قبيل حرب الروسيا وتركيا . وكذلك حاولت انجلترا فى سنة ١٨٠٧ أن تفتح باب القضية المصرية لمصلحتها، ولكن الشعب المصرى لم يمكنها من ذلك ، إذ أجلاها عن دياره وعزة النهوض تتلألأ فى جبينه .

ولما كانت إنجلترا دخلت فى حرب مع الروسيا ضد تركيا فانها عهدت إلى الاميرال لويس ، بعد فشله أمام الاستانة ، بأن يحتل مصر ، فأنزل جنوده فى الأسكندرية بتاريخ ١٧ مارس ، ثم أخذوا سبيل التوغل فى البلاد ، ولكنهم ردوا على أعقابهم وجلوا فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧ بفضل بسالة الشعب

المصرى وتضامن زعمائه واتحادهم على صيانة الأراضى المصرية طاهرة من رجس الأجنبى، وقيام عوامل سياسية - فى القارة الأوروبية بمناسبة حروبات نابليون - عرف الشعب المصرى أن لايدعها تفلت من بين يديه

بين الشعب المصرى

والانجليز

فى ٩ محرم سنة ١٢٢٢ هجرية جاءت أنباء من الاسكندرية إلى القاهرة تفيد أن عمارة بحرية مؤلفة من ٤٢ مركباً بقيادة الأميرال الانجليزى لويس وصلت إلى الثغر، وأن هذا القائد طلب أن ينزل بجنوده إلى البر فأجيب بالرفض، الا إذا كان يحمل من السلطان فرمانا يبيح له ذلك، فرد القائد بأن ليس معه هذا الفرمان، ولكنه جاء للمحافظة على ثغر الاسكندرية من غارة الفرنسيين الذين قد يهبطون أرض مصر خلسة، فما كان من حاكم الاسكندرية الا أن أبى بتاتا الاذعان لما أراد أن يستبيحه القائد البريطانى الذى أنذره بوجوب التسليم بنزول الجنود البريطانية بطريقة سلمية، والا نفذ انذاره كرها بعد أربع وعشرين ساعة.

وصل هذا النبأ إلى القاهرة فاجتمع مجلس الوزراء والحكام والأعيان وتشاوروا فى الأمر وكتبوا إلى محمد على بالحضور من الصعيد، ولكن مهلة الانذار كانت قد انقضت، ولذلك أطلق الانجليز قنابلهم، فهدموا جانبا من البرج الكبير والأبراج الصغيرة وسور المدينة، وانتهى الأمر بنزول الانجليز، وعقد مشارطة كانت بمثابة بسط الحماية على الاسكندرية.

وفى نفس هذا اليوم وصلت أنباء تفيد أن الانجليز نزلوا إلى ثغر رشيد . وما جاء يوم ٢٤ محرم حتى وصلت إفادة أخرى تفيد وصولهم الى ثغر رشيد. يوم ٢١ ودخولهم المدينة . ولكن أهل البلد ومن معهم من الجنود كانوا قد استعدوا للنزال ، وأقاموا المتاريس فى الأزقة والمنعطفات وحصنوا المنازل. فلما وصل الانجليز الى وسط المدينة ضرب المصريون حولهم النطاق من كل ناحية وأوسعوهم ضرباً وتقتيلا حتى ألقوا ما بأيديهم من أسلحة وطلبوا الامان خاضعين ، والى سادتهم ساعين حافدين فى ذلة وانكسار جناح ، فأسر المصريون البعض وفر الباقون مهطعين يولون وجوههم شطر دمنهور فقابلهم كاشفها فى حماسة وغيرة ، وأبلى فيهم بلاء حسنا ، وقتل بعضهم وأسر الآخرين .

وصلت هذه الانباء الى القاهرة مع الأسرى ، فأقيمت الأفراح ، وأطلقت المدافع ، ودعا السيد عمر النقيب الى حمل السلاح ، والتأهب للقتال والكفاح.

لقد فشل الانجليز فى تلك المعـــارك ولكنهم لم يقلعوا عن غايتهم ، ثم وقفوا بناحية الحمادين قبلى رشيد ، ومعهم المدافع وافر العدد ، ونصبوا المتاريس من ساحل البحر إلى الجبل عرضاً ، وفى ٥ صفر أحاطوا بثغر رشيد وطوقوه وأطلقوا عليه القنابل فتهدم الكثير من الدور والأبنية ، ومات عدد وفير ، غير أن حمية الأهالى وما وصل اليهم من إمدادات جاءت من مديرية البحيرة قد دفعهم إلى الخروج للانجليز وإعمال السيوف والحراب فى مقاتلتهم ، ولما وصل خبر انتصار الأهالى على الانجليز وتشتيت شملهم عادت الطمأنينة إلى النفوس، وطمع المصريون فى أعدائهم ، واجترءوا على مهاجمتهم ، وقويت حميـــة أهل البلاد ، وتأهبوا للمحاربة فى تضامن غريب ، أعقب ما كان فى القـــلوب من أحقاد ، واشتروا الأسلحة ، ونادوا بالجهاد ، وكثر المتطوعون ، ونصبوا لهم بيارق وأعلاما ، وجمعوا من بعضهم النقود ، وأنفقوا على من انضم اليهم من

الفقراء والمعوزين . وخرجوا فى مواكب وطبول وزمور ، فلما وصلوا إلى متاريس الانجليز داهموهم من كل ناحية ، وصدقوا فى الحملة عليهم ، وألقوا بأنفسهم فى النيران دون مبالاة برمى الأعداء ، واختلطوا بهم ، وأدهشوهم بالتكبير والصياح حتى أسكتوا نيرانهم ، وأخمدوا أنفاسهم ، فألقوا السلاح وطلبوا الأمان خاضعين صاغرين ، وهكذا يضرب الله الحق بالباطل فيدمغه .

انتهت معركة رشيد بانتصار الأعلام المصرية واندحار الجيوش الانجليزية أمام الشعب المصرى ودون تدخل والى مصر . أما من سلم منهم فأنه انجلى عن رشيد موليا وجهه شطر الأسكندرية فتعقبهم الجند ودار التقاتل إلى ان كتب الله النصر النهائى لمصر . فحقت كلمة الحق على المبطلين . وأخذوا ابتداء من يوم ١٣ رجب سنة ١٢٢٢ يعودون إلى مراكبهم والخزى يحدو أعلامهم . والعار يطل من طيات ألويتهم .

وما جاء اليوم السابع عشر من شهر رجب الموافق ١٤ ديسمبر سنة ١٨٠٧ حتى طهرت الأراضى المصرية من أعدائها بعد معاهدة أبرمها محمد على مع انجلترا فكانت غزوة السيادة الخاوجية الى جانب النصر والظفر فى ميدان القتال.

قضى الشعب المصرى على دسائس انجلترا ، وعرف محمد على بعد ذلك أن يخلص من المماليك الذين والوا تلك الدولة ، وقبل بعضهم فى مهانة وذلة أن يتعاقد معها على قبول حمايتها . ثم انتهز الوالى فرصة الحروبات التى أضرم نابليون نارها فى أوروبا ليوطد دعائم مركزه ويقوى سلطانه . والعاقل الحكيم من استطاع أن ينتهز الفرص، ويفهم تأثير الحوادث الخارجية فى كسب قضاياه أو خسرانها .

سياسة محمد على

فى الحجاز

بدأ محمد على من ناحية السياسة الخارجية بأرضاء الدولة العلية ، فسير حملة إلى الحجاز على الوهابيين ولكنها لم تنجح فى بادىء الأمر . غير أنه عاد فسير أخرى على رأسها ابراهيم الذى غادر القاهرة فى ٣ سبتمبر سنة ١٨١٦ عن طريق قنا والقصير فوصل ينبع فى ٢٩ سبتمبر . ومنها قصد إلى المدينة ثم سار بجيشه إلى نجد بعد أن أقام النقط العسكرية لحراسة خط الرجعة إلى فرضتى ينبع وجدة حتى لا ينقطع المدد عنه. فاحتل الرس ومدينة عنيزه . وغيرهما، وفى أوائل أبريل سنة ١٨١٨ وصل أمام مدينة الدرعية . وكان بها عبد الله بن سعود على رأس أغلبية جنوده . ولما كانت هذه المدينة مترامية الأطراف وليس فى مقدور إبراهيم تطويقها وارغامها على التسليم فقد أشار عليه أحد أركان حربه بحصار القرى الأربع المحيطة بمدينة الدرعية الواحدة بعد الأخرى حتى إذا ما احتلها جميعاً تسنى له حصار المدينة الرئيسية فى سهولة . فأخذ إبراهيم بهذا الرأى . ولما طال الحصار ورأى عبد الله بن سعود أن المصريين قد احتلوا ثلاث قرى من ضواحى المدينة ، جنح الى السلم والتسليم ، فطلب فى ٩ سبتمبرسنة ١٨١٨ وقف رحى الحرب رجاء المفاوضة فى الصلح . وحضر عبد الله بن سعود إلى معسكر ابراهيم فأكرم وفادته . وبعد مفاوضة طويلة سلم مدينة الدرعية على شريطة ألا يتعرض للأهالى بسوء ، وأن يتعهد بالسفر الى الاستانة ورد الكوكب الدرى وسائر الجوهرات والتحف التى أخذها الوهابيون عند استيلائهم على المدينة . ثم عاد ابراهيم لمصر بعد أن ظفر بالفتح المبين الذى لم يستطع أن يظفر به مردة الأتراك من الغزاة والفاتحين .

فى أوربا

ولما ثارت جزيرة كريت فى سنة ١٨٢٣ طلب محمد على من السلطان أن يعينه والياً على كريت حتى يثبت له ولاءه بإطفاء الثورة وقمع العصيان. فأجابه سلطان تركيا الى طلبه. ولما تم للجيش المصرى اخضاع هذه الجزيرة كانت اليونان تغلى غليان القدر، وروحها الثائر يفيض فى أغانيها صبوة وفتوة، ودفء الحياة يمرق من أناشيدها الحربية فتطفو فروسيتها فى كل بقعة أغريقية باعثة القومية والمجد الاثيل، ونيران الوطنية تذكو فى صدور أبنائها فتتدفق حميتها جارية فى العروق، دفاعة للنهوض والوثوب، وذكريات أبطال الأساطير تغمر الوجود الأغريقى بنفحاتها الحماسية فتلهب القلوب وتحلق بالعقول فى عالم الطهر والحرية والخلود.

فمن لسحق هذا الروح الذى لا يموت، واطفاء هذه النار التى لا تخمد، والحماسة التى لا تخفت؟ من لتمزيق العلم الخالد، واخماد الصيحة الأزلية؟ من لابادة الحق الحى على طول الدهر ومطاردة النور المنبثق على كر الأيام؟ من لمحق الحرية والفكرة السياسية حتى ينشر مكانها كفنا عاما من الظلمات والسواد؟

كان البراطرة المستعمرون ظلمة وعتاة يهيئون لتحقيق ظلمهم بتسيير التابعين لهم من ولاة، والخاضعين لهم من شعوب، فى قضاء لبانتهم. ولا رد على أمرهم غير الطاعة العمياء، وهل هناك أبسل من المصرى إذا اقتاده زعيم لا يعرف التوقف عن العمل الا إذا أدى مهمته؟ هل هناك من يتفوق على المصرى فى بطولته إذا اندفع وراء قائد لا تقوم روحه على الوثبة والدفعة بل تقوم على فضيلة الدأب والاستمرار والثبات حتى تحقيق العمل كى لا يكبوء

وسط الطريق ، ولا يكل ، ولا يتعب بعد مرحلة لا يلبث أن يرجعها ليستأنفها ثم يرجعها ليستأنف شطراً منها . وهكذا يبقى فى دائرة مفرغة ، وهو يظن أنه يتقدم ؟ هكذا رأينا سلطان تركيا يولى وجهه شطر مصر ليستنجد واليهـــا حتى يطفىء الثورة اليونانية بجنوده . فمـــا كان من محمد على إلا أن لبى الطلب واختار ابنه ابراهيم البطل الباطش لاداء مهمة القيادة وهو متشبع بأن فى قبوله ثمنا لاستقلال مصر .

سار ابراهيم على رأس الجيش المصرى إلى بلاد اليونان ، وهناك زلزل الأرض حتى غارت بمن عليها تحت أقدامه ، فراراً من إقدامه ، ولنعلن نبأ كل ذلك فى الفصل الثانى عند الكلام عن (ابراهيم) ولكن المهم أن فرنسا اعترفت بسيادة مصر الخارجية ، إذ عقدت معها محالفة غرضها جلاء الجنود المصرية عن بلاد اليونان

فى سوريا

تم لانجلترا إضعاف مصر بحرق أسطولها بالاشتراك مع فرنسا وروسيا ، ولكن شارل العاشر ملك فرنسا عاد يعمل على استرداد نفوذه الأوربى، فأوفد المسيو بيسون لاصلاح الاسطول المصرى الذى بلغ ثلاثين سفينة فى مدة وجيزة وفى سنة ١٨٣٠ أوعز المسيو ده بولينياك رئيس الوزارة الفرنسية إلى محمد على أن يغزو الجزائر . ولما تأهب لذلك جعلت انجلترا تدس له الدسائس لدى الباب العالى حتى يعزله فيفشل مشروعه وتتضاءل قوة مصر بزوال حكمه ، إلا أن محمد على وجه جنوده إلى سوريا .

سار ابراهيم على رأس جيشه المصرى إلى سوريا ، فكان ذلك داعيا أوروبا إلى التحالف ضده مرة ثانية ، وإذا نحن قلنا ضده فلأن حياة ابراهيم هى فى حياة

عمال محمد على ، فهذا الفارس المقدام ، والقائد العظيم ، والعالم الحربى كان الساعد الأيمن فى بناء مجد محمد على » . ولقد سار إبراهيم إلى سوريا عندما تراخت العلاقات بين محمد على وتركيا عقب الحرب الاستقلالية اليونانية ، رغما من أن السلطان قد أراد أن يرفع إبراهيم إلى مكانة اسمى من مكانة والده نكاية فى الأخير ، حيث انعم عليه بلقب أمير مكة كى يتقدم جميع الوزراء فى التشريفات .

لم يعبأ إبراهيم بهذه السعاية ، وقاد الجيوش المصرية ، فكانت أول حركة حربية يجب عليه القيام بها هى حركة الاستيلاء على حصن عكا الذى فشل أمامه نابليون .

لم يجزع إبراهيم أمام قوة هذا الحصن ، ولقد سمعناه يقول : « إذا كان نابليون قد اخفق أمام عكا ، فأنى سأكون أسعد منه حظاً » . فتحققت نبوته ، إذ تقدم بجيش قوامه ٣٥ ألف جندى ، وحاصر هذا الحصن المنيع ستة أشهر ، وفتح فيه فى النهاية عدة ثغرات ، وفى ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ هجم المصريون على المدينة التى لم يبق فيها غير أربعمائة مقاتل من ٢٥ ألف جندى .

كانت النتيجة الضرورية لهذا النصر الساحق أن يسقط الشرق بيد الظافر ، ولذلك جعل ابراهيم ينقض انقضاض الصاعقة على الجيوش التركية فيبيدها أو يبعثرها فى الفلوات بعد أن ينزل بها التنكيل والتقتيل ، فدخل دمشق فى غير مقاومة ، وفى ٩ يوليه اصطدم بجيش تركى تحت إمرة والى حلب ، فهجم على جناحه الأيسر وسحقه بمدافعه وفرسانه وتمت الكارثة التركية ، واستولى إبراهيم على حلب فى ٢٦ يوليه ، ثم طوق فى ٢٩ يونيه جيشا تركيا تحصن فى « بيلان » بسفح جبل توريس ، ولما قطع إبراهيم خطوط الرجعة على الأتراك ، فرت فلول الجيش العثمانى نحو الأسكندرونه ، فاستولى إبراهيم على ٢٥ مدفعاً وألفى أسير ومخازن المؤونة ، وتراجع الأتراك إلى جبال توريس ، وبدأت

معارك آسيا الصغرى .

تقدم ابراهيم بجيشه المصرى إلى كونيا . فاشتبك فى القتال مع جيش تركى قوامه ستون الفا بقيادة رشيد باشا. فتقهقر هذا الجيش فى غير انتظام أمام ثلاثين الف مصرى ، وفى ٢٨ فبراير سنة ١٨٣٣ اتجه الجيش المصرى نحو « كوتايا » وهدد « بروصه » وانفتحت طريق الأستانه . وكاد ابراهيم يقتلع عرش السلطان محمود لولا أسراع دول أوروبا بالتدخل .

كان مبدأ المحافظة على كيان تركيا هو المعتقد السياسى الظاهر لرجال الحكومات الأوروبية فى ذلك الحين ، ولكنه كان فى الحقيقة ذلك الستار الذى يخفون وراءه مطامعهم . ولذلك فزعت الحكومات الأوروبية من تطور الدولة المصرية الجديدة التى هددت بابتلاع الشرق وتجديد دم الشباب فى مناحيه ، وخشيت أن تقضى هذه النهضة على أمانيها وشهواتها الاستعمارية ، فتقدم المسيو ده فارين الوكيل السياسى الفرنسى بالاستانة لابراهيم يقترح عليه أن تتنازل تركيا لمحمد على عن الوية عكا ونابولس وصيدا وفلسطين . ولكن محمد على أبى إلا أن يضم سوريا وجزءا من الفرات ومنطقة أطنة بآسيا الصغرى . ولما يئس السلطان محمود من نجاح مساعى فرنسا وروسيا وأنجلترا لدى محمد على ألقى بنفسه فى أحضان روسيا . فوصل إلى الاستانه اسطول روسى أنزل الى البر ١٢ الف جندى . فكانت هذه الحركة المسرحية سببا فى انقلاب موقف الدول التى آثرت أخف الضررين ، وضغطت على السلطان حتى أصدر فى أبريل سنة ١٨٣٣ خطاً شريفا بالتنازل لمحمد على عن جميع الاراضى السورية ومنطقة أطنه تنازلا يجوز الرجوع عنه وألغاء مفعوله . وهذا ما سمى بمعاهدة كوتايا سنة ١٨٣٣ فتراجع ابراهيم بجيشه المصرى . ولكن روسيا انتهزت ضعف السلطان وأمضت معه فى ٨ يونيه سنة ١٨٣٣ معاهدة « انكيار سكيلسى » التى ضمنت بها كيان البلاد العثمانية وحمايتها .

سلطان مصر فى آسيا

انتهت سنة ١٨٢٣ على هذه الحال ، ولكن مصر كانت قد بلغت شأوا بعيدا من القوة والمنعة وامتد سلطانها فى بلاد العرب والسودان ، فاصبح البحر الأحمر مصريا طولا وعرضا ، فقد كانت سواكن ومصوع بالشاطىء الأفريقى ملكا لمصر ، وجدة بالشاطىء الأسيوى ، وكادت الجنود تفتح بلاد العرب كلها وجاب خورشيد بك حاكم جده بلاد الحجاز على رأس جيش قوامه أربعة آلاف مقاتل وعشرة مدافع ، ثم تقدم حتى مدينة « القصيم » على مسيرة عشرة أيام من البصرة ، واحتل الخليج الفارسى فرفرف العلم المصرى على المحيط الهندى ثم بنى اسطولا حربيا فى شط العرب ، وفتحت أمامه الطريق الى بغداد ، وكادت مصر تتم الاستيلاء على جميع طرق الهند برا وبحرا بالعرف السياسى البريطانى عندما احتجت انجلترا على هذا التوسع ، فأصدر محمد على أمره إلى تابعه خورشيد بك بالتقهقر والاقتصار على احتلال الاراضى المقدسة . وفى سنة ١٨٣٨ قبضت انجلترا على منطقة عدن مقابل مائة وخمسين ألف فرنك فتهدم نفوذ مصر ، وأخذ ظله يتقلص فى تلك النواحى ، ولكن ذلك لم يكف أعداء مصر .

السياسة المصرية والتوازن الأوروبى

أخذ سلطان محمد على يطرد فى النماء بعد أن أجلى الشعب المصرى الجنود الانجليزية عن مصر فى سنة ١٨٠٧ حتى أصبح هذا السلطان حائلا دون تنفيذ الفكرة الاستعمارية البريطانية أو الفرنسية فى وادى النيل . ولقد أدى نماء هذا السلطان إلى ربط السياسة المصرية ربطاً محكما بالحياة الأوروبية والسياسة الأوروبية ، ولكن مع ذلك فأن هذا العهد قد امتاز بتغلغل النفوذ الفرنسى السلمى

لأدنى فى مصر تغلغلا شاذاً ، فقد توددالوالى الى الفرنسيين توددأ وصل إلى حد الهيام بمدنيتهم على عكس موقفه ازاء انجلترا ، فانه كان حذرا كل الحذر من السياسة البريطانية التى لم ينس اعتداءاتها على كيان مصر ، ولم تبرح مخيلته اشباح عدوانانها التى كانت تظهر فى الساعات الحاسمة من تقرير مصير وادى النيل ، ولذلك فانه وجه همه إلى التعاون مع فرنسا على النهوض بالبلاد وترقية السكان والاستعانة بمستشارين فرنسيين حربيين وفنيين .

ولكن أمانى محمد على تخطت كل حد، فهو لم يقصرها على وادى النيل وانما وجه عنايته شطر الشرق حيث كانت دائما مقابر الأمانى الكبار ، فلقد زينت له أمانيه أن يمهد لمصر سبيل القيام بمهمة خاصة فى الشرق لاتروق دول أوروبا وتدفعها إلى الكيد له ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، على أن نجاحه المبدئى المتكرر فى هذه الأصقاع لم ينسه واجباته نحو الباب العالى ، ذلك بأنه كان سياسياً ماهراً فهم أن السيادة التركية الاسمية كانت تكفيه شر مطامع أوروبا الاستعمارية ، بعكس مالو كان فى عزلة عنها ، فان هذا الموقف كان يعرضه لامحالة لأخطار كبيرة تفوته دفاع الكتلة العثمانية عنه ، ودفاع من يدافع عن هذه الكتلة من الدول ذوات المصالح فى ذلك ، ولهذا فان ساسة الأستانة لم يفهموا إخلاصه وولاءه للسلطان على الوجه الصحيح رغما من أن هذا الولاء وذلك الاخلاص يرجعان إلى مصلحة قدّرها التمحيص العميق تقديرا تاما .

لقد أراد محمد على أن تقوم سياسته على قاعدة أن تكون السلاسل التى تربطه بالسلطان واهية إلى أبعد حد ولكنه ما كان يريد أن يأبى تحملها . وإذا كان قد حاول فى بعض الأحيان قطع كل علاقة مع متبوعه ، فان ذلك لم يكن يقع إلا تحت تأثير الحوادث التى لم يستطع التنبؤ بها ، وكانت مفاجأتها مدعاة إلى إقلاق حكمه واضطراب حياته . وبغض النظر عن بعض ماوقع منه إزاء تركيا ، فان فى المقدور القول بأنه لم يفكر فى النصف الأول من حكمه

فى أن يحرر مصر تحريرا تاما يخشى منه على كيانها إذا ما أنشب غول الاستعمار أظافره فيها ، ذلك بأننا سمعناه يقول للسياسى النمسوى (بروكش أوستن) « Brokesch - Osten » : إنك أجنبى وتجهل الطريقة التى يفكر المسلم على قاعدتها . . . أفهل تدرى أية نتيجة تلحقها بى تجزئة الامبراطورية العثمانية ؟ إن كل مسلم يتجنبنى ويخرج على فى كراهية وبغض وابنى فى مقدمتهم » .

ثم صرح لمندوب فرنسا المسيو (ده بواله كونت De Bois-le Comte) بعد معركة كونيا بقوله : إنى على استعداد فى أية ساعة لأن أقطع للعالم عهداً بأنى لن أسعى أبداً إلى التحرش بالسلطان » ، راجع ص ١٩ ، ٢٠ من القضية المصرية لده فريسينيه » .

ولقد قام البرهان على ذلك فى كريد وفى حرب الاستقلال اليونانى ، فكان لزاما أن يؤدى هذا السلوك إلى رضاء السلطان عنه مقابل ما ضحاه فى سبيل مساعدته من جنوده وأسطوله وأمواله ، ولكن غيرة السلطان محمود من قوة تابعه الرهيب أضلته وأضرمت فى صدره نار الحقد على تابعه ، وجعلته يعمل على إذلاله ، وسحب قائمقامية عكا منه ، فكان هذا هو السبب فى إضرام نار الحرب فى الشام وآسيا الصغرى على ما تقدم بيانه وهى تلك التى انتهت بمعاهدة كوتايا فى سنة ١٨٣٣ ، ولكن أعداء السلطان لم يلبثوا أن عملوا على إذكاء نار الفتنة فى سوريا سنة ١٨٣٤ ، فقمعها ابراهيم قمعاً شديداً . ولكنها كانت فتنة لها ما وراءها ، فقد كشفت عن نيات السلطان محمود نحو محمد على إذ وجه هذا السلطان قواته نحو مجرى الفرات فهدد بذلك تخوم حكومة والى مصر الذى اعتزم عندئذ قطع العلاقات بينه وبين تركيا ، وبعث إلى الباب العالى مذكرة طلب فيها الاعتراف بتوارث هذه الأملاك . فكان الجواب أن اجتازت الجنود التركية نهر الفرات فى ٢١ أبريل سنة ١٨٣٩ بقيادة حافظ باشا وأن أعلن السلطان خيانة محمد على وعصيانه .

كانت خطة الأتراك الحربية على جانب من المهارة ، ذلك بأنهم لم يهاجموا سوريا من سلسلة جبال توريس ، وإنما حشدوا قواتهم التى بلغت مائةوخمسين ألفاً على نهر الفرات أمام الحدود المتجردة من وسائل الدفاع ، وأخذ حافظ باشا يسترشد بآراء أركان حرب من الضباط الأوروبيين ، ولا سيما الألمان . أما معسكر ابراهيم فكان فى حلب ولذلك انقضى شهر حتى تمكن الجيشان من الالتحام فى نصيبين .

أوى الأتراك إلى حصن منيع يعصمهم من ضربات ابراهيم ، ولقد أقام الضباط الأوروبيون حول هذا الحصن استحكامات قوية ، ولذلك لم يفكر البطل ابراهيم فى أن يهاجم الأتراك مواجهة ، ففى ٢٣ يولية سنة ١٨٣٩ أخذ يطوق العدو من الجناح الأيسر فى ثبات وجرأة نادرين ، ولكن حافظ باشا القائد العثمانى لم يتحرك خلال هـــذا التطويق رغم نصائح الضباط البروسيين .

وفى ٢٤ يوليه وقف الجيش المصرى البالغ أربعين الفا فى ثلاث خطوط مائلةوحمل حملة شعواء على الميسرة التركية . ولكن هذه الحملة لم تجده ، ولقدنصح أحد الضباط الفرنسيين حافظ باشا أن يهاجم الجيش المصرى بالسلاح الأبيض فتردد ، ولذلك انتهز المصريون هذا التردد وأعملوا مدافعهم فى العدو فتقهقرت الطوابير الكردية بينما كان سليمان باشا يتقدم بجناحه الأيمن من الجيش المصرى، وسرعان ما تعثر الجيش التركى وذاب،فالتقط المصريون خمس عشرة الف بندقية القاها المشاة الأتراك، واستولوا على ١٧٠ مدفعا و١٥ الف أسير وسقط المعسكر التركى بين أيدى المصريين الذين التقطوا صور التلغرافات والنياشين التى كان يحملها حافظ باشا . ونجت سوريا من غارة الأتراك.، وفشل مشروع السلطان محمود الذى توفى بعدستة أيام من وقوع هذه الكارثة ،وتولى عبد المجيد فى السادسة عشرة من عمره وقد تملك الذعر الاستانة وانحاز الأسطول التركى إلى محمد على وجاء الى الاسكندرية

لينادي بوالى مصر سلطانا على تركيا وخليفة للأسلام، بينما كانت أوروبا تطيش إعجاباً، وتذهل تقديراً، أمام انتصارات إبراهيم على تركيا وضباط أوروبا (راجع كتاب مصر ابتداء من سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٩٠٠ لمؤلفه لويز بريهيه ص١٣٣ إلى ١٤٤)

الساعة الحاسمة

كانت السياسة الدولية ترى فى المناداة باستقلال تركيا سببا جوهريا من أسباب الاحتفاظ بالتوازن الأوربى، وشرطاً من شروط السلام العام. ولكن الدول كانت تعمل فى هذه السبيل بألوان خاصة، واحساسات متباينة نستطيع أن نستخلصها من أقوال المسيو جيزو أحد وزراء فرنسا فى ذلك الحين ونقلا عن مذكراته «لخدمة تاريخ زمنى - جزء رابع»

«كان لأنجلترا والنمسا فكرة بسيطة ثابتة وذلك أنهما لم يهتما إلا باستبقاء الدولة العلية ضعيفة مضعضعة. والدفاع عنها ضد أعدائها حتى لا يتعجلا تجزئتها الا لمصلحتهما، ولم يكن للروسيا الا فكرة واحدة أيضا، ولكنها أبسط من السابقة، وانما كانت فكرة خاصة بها وثابتة لا تتغير اى تغيير، وهى بقاء تركيا دون تقويتها أو تدعيمها مع بسط حمايتها وسيادتها عليها، وأما بروسيا التى كانت بعيدة عن الموضوع فانها كانت تجنح عادة الى تأييد النمسا وانجلترا مع مراعاة احساس روسيا، وأما سياسة فرنسا فانها كانت معقدة وخاضعة للظروف. فقد كانت تريد خدمة السلطان ووالى مصر فى آن واحد: خدمة لنفوذها ومصلحتها، وبهذه السياسة يمكن أن يقال إن فرنسا أرادت استبقاء تركيا وتوسيع سلطان مصر، فالباب العالى كان أذن أمام حليفين بالمعنى الصحيح، حليف منافق يريد حمايتها، وصديق وزع قلبه وحبه».

ولقد قال المسيو جيزو أيضا : « ترجع سياسة فرنسا فى هذا الموضوع الى حملتنا الجليلة الشأن التى أرسلناها الى مصر فى سنة ١٧٩٨ ، وشهرة قوادنا وجنودنا وعلمائنا الماثلة فى الذكريات والتأثرات التى خلقتها وقائعهم الحربية واعمالهم ونهضات تصوراتهم وافكارهم وأوهامهم دون الرجوع الى رعاية عوامل الأمن والتوازن ، فلقد ارتبط بهذا الميدان الذى تألق فيه المجد القومى الفذ مصلحة بعيدة الغور ، فمصر التى فتحها جيش فرنسي ووصفها معهد علمى أصبحت إحدى مواضع الاعجاب الشعبي الفرنسي وتطلع الأمة الفرنسية، ولذلك فأن مصيرها كان موضع العناية الفائقة منا وتعلق بأحساسنا القلبى ، وسيد مصر الجديد ، ذلك الحاكم المجيد الجدير بالأعجاب أيضا والذى قاد زمامها وقتئذ فى زهو وبهاء وسطوع ، كان وهو يتوجه إلينا حليفا طبيعياً أيدناه بعطفنا وحماستنا أكثر مما أيدناه بدافع الاهتمام بالتفكير فى تحقيق شأن من الشئون أو بدافع المصلحة » . ولكن المسيو ده فريسينيه علق على ذلك فى ص ٢٥ من كتابه «القضية المصرية» بقوله : « ولكن الالوان السياسية قدضعفت قوتها منذ ذلك الحين ، وكلما تقدم الزمن تضاءل تدخل التصورات والأوهام فى الموضوع وأخذنا نسترشد « بالاهتمام بعوامل الأمن والتوازن فى مسلكنا » .

ولما وقعت معارك آسيا الصغرى وجاءت معركة « كونيا » كالصاعقة ، خمدت جذوة الميول السرية التى اشتعلت فى نفوس الدول ، وسرعان ماتوحد الغرض المشترك ، وعملوا جميعاً على وقف تقدم والى مصر ، وانتشال الامبراطورية العثمانية من وهدة الخراب ، ولم ينتظر السلطان منهم إلا أن ينقذوه ، ولذلك ألقى بنفسه فى أحضانهم .

ولكن محمد على طلب أن يكون له سوريا وجزء من العراق ومنطقة أطنه (مفتاح آسيا الصغرى) ولقد شجعه على ذلك قنصل فرنسا فى الأسكندرية على عكس المسيو فارين القائم بأعمال السفارة الفرنسية فى الاستانة فانه بذل

جهده فى الحصول على شروط أقل قسوة بالنسبة لسلطان تركيا ، إذ عرض على ابراهيم ألوية عكا ونابلس وصيدا والقدس كما قدمنا ، وأما الأميرال روسان الذى عين سفيرا لفرنسا فى ١٧ فبراير سنة ١٨٣٣ فانه جرح عزة محمد على من اليوم الأول لتعيينه ، إذ كتب فى ٢١ فبراير يقول : «إن التصميم على المزاعم التى أثرتموها من شأنه أن يجر على رأسكم نتائج مشئومة لاشك فى أنها تثير مخاوفكم ، وستبر فرنسا بالعهد الذى قطعته ، إذ فى مقدورها ذلك ، وإنى زعيم بأنها تريد ذلك ، ولهذا فلم يبق لى إلا أن آمل فى أنكم لن تكرهونا على الالتجاء إلى الضرورة القاسية التى تفضى إلى مهاجمة دولة هى الى حد من صنعنا (يشير الى مصر) واطفاء سطوع مجد أنا واحد من المعجبين به ، ولكن محمد على رفض الاذعان بتاتاً .

ولما وصل اليه المسيو « دى بوا له كونت » بعد ذلك بستة أسابيع فى مهمة شبه رسمية وجده فى حالة غضب شديد من جراء هذا الانذار ، فقد قال له « وبماذا تريد أن أجيب على سفيركم ؟ إنى لااستطيع أن أقول له « ياعزيزى ، لأنى اكون كذابا والحالة هذه ، ولا يمكننى ان اظهر له حقدى ، لأنى اجرح بذلك احساس حكومتكم » وفضلا عن هذا فان لفرنسا بمصر قنصلاً معتمدا لدينا ، وكان من الواجب أن تخاطبنى حكومتكم عن طريقه ، أما علاقاتى بالسلطان « فان جميع القواعد المرعية كانت تحتم على أن أتابعها وحدى دون تدخل وسيط » .

وفى الواقع كان محمد على يتفاوض مباشرة مع الباب العالى بطرق مختلفة ، ولقد كان السلطان محمود يصغى له تارة ، ويتوجه تارة أخرى إلى الروسيا التى كانت دائما على استعداد لتقديم معونتها الخطرة اليه ، وبعد كثير من الاضطراب القلق أفضت المفاوضات إلى نتيجة من الجانبين . ففى ١٥ أبريل سنة ١٨٣٣ اجتاز الأسطول الروسى البوسفور ، وأنزل ١٥ الف جندى فى سكودار لحماية

الاستانة ، وفى ٥ مايو صدر فرمان بمنح محمد علي سوريا ومنطقة اطنه ، وبعد ذلك بعشرة أيام أخذ ابراهيم فى الجلاء عن آسيا الصغرى . فانتهى أمر الحرب بسلام . ولكن بشروط ألقت بذور الشحناء بين الدول الأوربية . ولاسيما بعد إبرام معاهدة « انكايارسكيليسى » فى ٨ يوليه . وهى المعاهدة التى فرضت بها روسيا حمايتها على تركيا . ولكن الدول لم تطق صبرا على هذه المعاهدة فأدت المساعى إلى تصريح من القيصر بأنه لن يطبقها .

الموقف بعد ١٨٣٣

لقد سويت الازمة التى حدثت بين الباب العالى ووالى مصر على النحو الذى أبناه ، ولذلك كان من الجائز القول مع المسيو جيزو : إن الموقف فى مستهل سنة ١٨٣٤ قد بقى منه « العداوة المتأصلة بين الباب العالى ومحمد على ، والمركز الصعب الدقيق الذى وقفته فرنسا بينهما . والسحب التى تولدت عن ميلها نحو والى مصر ميلا صريحا أدت إلى تعكير الصفاء بين انجلترا وفرنسا ، ومضاعفة الكراهية التى أثارها ذلك النضال فى نفس القيصر نيقولا ضد لويز فيليب وحكومته » فمن الواجب إذن أن نعرف قيمة سوء التفاهم الذى قام بين انجلترا وفرنسا وكانت نتيجته تلك الأزمة الخطيرة التى وقعت فى سنة ١٨٣٩ وسنة ١٨٤٠ ، وضاعفت مسافة الخلف بين هاتين الدولتين.

لم تكن انجلترا بقادرة على أن تخفى مخاوفها الخاصة بمصر وبالطرق الكبرى المؤدية إلى الهند . ولذلك فانها كانت وفاق ما قاله المسيو « ده فريسينيه » وزير خارجية فرنسا « على استعداد دائم لأن تنضم إلى فرنسا لتحول دون أن تحتل دولة ثالثة هذه الطرق كما كانت على استعداد دائم أيضا لأن تنقلب على فرنسا إذا رأت أن نفوذها فى مصر قد تخطى الحد . ولذلك فانها لم تكن راضية عن

الرعاية التى تمتعت بها فرنسا لدى محمد على ، ورغما من أن هذا المركز الفرنسى كان أدبياً بحتاً ، فان انجلترا كانت تنظر اليه بعين الريبة. وهذا الاحساس الخفى كان واضحاً فى أعماق جميع المناقشات التى كان يقوم بها هذا الزبون المشاغب الذى شوش الأذهان ، وليس من شك فى أن المفاوض الانجليزى كان يسترشد بهذه القاعدة عند ما كان يفصح عن عداوته ولا يرغب فى الصلح بتاتاً خلال المفاوضات الطويلة التى سبقت اتفاقية سنة ١٨٤٠ »

ولكن السلطان لم يرض عن الامتيازات التى استمدها محمد على من اتفاقية كوتايا سنة ١٨٣٣ ، ولذلك وقعت حرب سنة ١٨٣٩ التى انتصر فيها ابراهيم فى نصيبين على نحو مابيناه آنفاً ، ولقد أحدث تقدم جيش السلطان محمود من نهر الفرات قصداً إلى مقاتلة جيش إبراهيم تأثيرا شديدا فى وزارات الخارجيـــة ودارت المفاوضات بينها على الفور ، ولقد كان اعتداء السلطان واضحا حتى فى نظر المتحيزين ، فكتب الأميرال روسان سفير فرنسا فى الأستانة ، وهو سياسى لم يشتهر بميله لمحمد على. بتاريخ ١٦ مايو سنة ١٨٣٩: يقول « إن السلطان يريد أن يهدم تابعه أو يموت». وقال اللورد بونسنباى سفير انجلترا بتاريخ ٢٠ مايو: « إن السلطان يؤثر الموت على أن يفلت تابعه الثائر من ضرباته القاتلة »، أما الكولونل كمبل قنصل إنجلترا فى الأسكندرية فانه لم يستطع إلا أن ينصف محمد على . فقد قال : « إن المسلك المهتاج الذي يسلكه السلطان بعيدا عن نصح السفراء فى الأستانة لن يكون سبباً فى نفاد موارده فحسب، بل إنه سيضعف نفوذه الأدبى فى تركيا . بينما المسلك المعقول الذى يسلكه ابراهيم باشا وفاق تعليمات والده الذى أشار عليه بالكف عن أى عمل عدائى ، سيرفع من شأن محمد على ، ويضاعف نفوذه فى أعين الامبراطورية العثمانية » .

وفى الحال ظهر على الوزارة البريطانية رغم تحيزها للسلطان محمود أنها لا تستطيع أن تخفى الضعف الذى يلحق بتركيا إذا هى اعتدت على محمد على ،

ولقد اتضح هذا المسلك من المفاوضة الهامة التى جرت بين اللورد بالمرستون وزير خارجية بريطانيا والمسيو « ده بوركنى De Bourquenay » متولى أعمال سفارة فرنسا بلندرا فى ٢٥ مايو سنة ١٨٣٩ بخصوص وضع قواعد اتفاق بصدد هذا الموضوع .

لقد قال اللورد بالمرستون : « إنى أجعل بدء خطتنا أن يكون الغرض من سياستنا المشتركة هو الاحتفاظ بالأمبراطورية العثمانية على اعتبار أن ذلك من الضمانات التى راعيناها فى سبيل التوازن الدولى ، وعندنا كما فى فرنسا رأى يميل إلى إنماء قوة مصر ، ولكن الوزارة البريطانية لا تشاطر هذا الرأى الذى لا يخرج عن أنه احدى الصعوبات العديدة التى تصطدم بها فى طريقها الخاصة بالمسائل الشرقية

« إن واقعة اعتداء السلطان على محمد على لها أهميتها الأدبية ، إذ فى العالم مبدأ يسمى العدل، وهذا هومالا نستطيع إنكار قوته إذا رأينا أن نلقى المسئولية على المعتدى ، ولكن من الواجب فى الوقت ذاته أن نذكر أننا لم نكفل قط تسويات كوتايا ، ولم نوقع أى اتفاق يؤدى إلى إنكار صفة التابع فى الظافر وصفة المتبوع فى المغلوب . . وليس فى وسعنا أن نريد أن نرى والى مصر الظافر يجر بظفره الجديد الأمبراطورية العثمانية إلى حافة الخراب والتهلكة ، وأن يرغمها على أن تلقى بنفسها فى أحضان الروسيا مرة أخرى ، ولا فى وسعنا أن نريد أن يثأر السلطان لنفسه بانتصارات أولية (مشكوك فيها) فيدع بذلك السلام الأوروبى فى خطر طوال الزمن الذى يرغب فيه أن ينازع والى مصر فتوحاته الأخيرة ، وربما ما كان منها فى حيازته منذ زمن قديم ،فواجبنا الأول هو أن نسرع بوقف الاصطدام المشئوم الذى شرع فيه سلطان تركيا ومحمد على ، ولكن ماهى الوسيلة العملية المؤدية لذلك ؟ وما هى حدودها ؟ » ، ثم استطرد اللورد بالمرستون إلى الكلام بصدد إرسال أسطولين أحدهما فرنسى والآخر انجليزى إلى شواطىء سوريا ومعهما تعليمات متفق عليها بين الدولتين

ثم خاض فى توجيه دعوة إلى وزارتى فينا وبرلين قصدا إلى الاشتراك فى العمل الذى تفرضه الظروف ". وأما فيما يتعلق بروسيا فقد قال وزير خارجية إنجلترا أنه سيسوى على مقتضى الظروف ، أى تبعاً لما إذا كانت هذه الدولة تنفذ أو لا تنفذ معاهدة أنكايار سكيليسى »

لاح الاتفاق بين باريس ولوندرا تاما ، حتى لقد رأى اللورد بالمرستون أن يكرر قوله: « إن كل شىء مستحيل دون هذا الاتفاق ، وكل شىء يسهل تحقيقه بذلك على الأقل » ، ولكن الساسة ما كانوا ينطقون دائما بلهجة واحدة بل إنهم ما كانوا من الناحية العملية يطبقون هذه القاعدة فى دقة ، فلقد حدث فى شهر يونيه سنة ١٨٣٩ مثل هذا الاختلاف ، فالأميرال روسان سفير فرنسا فى الأستانة وجه بناء على أوامر حكومته أقسى الانذارات للباب العالى حتى يكبح جماح نشاطه الحربى ، أما اللورد بونسنباى سفير إنجلترا فانه امتنع عن الاشتراك فى هذه الانذارات ؛ فأحدث هذا الاختلاف أثرا سيئاً فى الأستانة ، حيث رأى السلطان فيه مشجعاً على الاستمرار فى استمراء مرعى عدوانه وعناده ، وفى ٨ يوليه تحادث القائم بأعمال سفارة فرنسا فى لوندرا مع اللورد بالمرستون بهذا الصدد ، فاحتج وزير خارجية إنجلترا بأن تعليماته للسفير كانت دائما : « حولوا دون انفجار الحرب » وتأييدا لرأيه عرض وزير الخارجية البريطانية على أنظار متولى أعمال السفارة الفرنسية سبعة أو ثمانية تلغرافات كرر فيها هذا القول : ثم أردف كلامه بقوله: « والآن لا أستطيع أن أنكر عليك أن الرأى الخاص للورد بونسنباى - وهو رأى لا أشاطره إياه - كان دائما معارضة الحالة التى نجمت عن اتفاق كوتاياه» فأعرب المسيو ده بوركنيه عن خوفه من أن هذا الرأى الذى ارتآه سفيره فى الأستانة « والذى تنم عنه التلغرافات ذاتها قد يؤدى إلى نتائج تعرقل عمله السلبى » فلم يخف اللورد بالمرستون عنه أنه هو أيضا يخشى ما يخشاه المسيو ده بوركنيه .

فهذه القاعدة ، قاعدة التعامل فى وزارة الخارجية البريطانية بوجهين : وجه للوزير، ووجه للسفير، قد لاحظها المسيو ده فريسنيه وزير خارجية فرنسا عندما قرر فى الهامش رقم واحد من ص ٣٦ من كتاب « القضية المصرية » قوله « ولقد حدث لى شخصياً أن لاحظت هذه الملاحظة عدة مرات ، فالممثلون البريطانيون السياسيون كانوا رغما مما يصلهم من التعليمات المتفقة مع ما يصدر لممثلى فرنسا فى مصر يقفون مواقف تختلف اختلافا محسوسا عن مواقف الممثلين الفرنسيين ، ولكن الوزير البريطانى الذى أخبرته بذلك قد أظهر تردداً فى سبيل وقف هذا الشذوذ »

ولكن رغما من هذا الاختلاف فى تنفيذ ما اتفق عليه فيما بين فرنسا وانجلترا فان الوزارتين كانتا فى الظاهر على اتفاق تام ، حتى لقد قررا برنامجا واحدا اقترحه الماريشال « سوت ، Soult » رئيس الوزارة الفرنسية ووزير خارجيتها ، ولكن غموض النص قد أدى إلى تأجيل إيضاح العبارات المضطربة الغامضة المقلقة ، فلقد قيل فى تلغراف ١٧ يونيه : « ستكون مهمة الأسطولين المشتركة قائمة على وساطة مسلحة ترغم قوات مصر والباب العالى على الخضوع » و « قد يكون من الضرورى ظهور العلم النمسوى بجانبهما إذا أردنا أن ندرك النتيجة المرغوب فيها إدراكا تاما » ، وأما فيما يتعلق بالتسوية النهائية — وهى النقطة الدقيقة فان المارشال « سوت » اجتنب الكلام فيها واكتفى بأن يقول : « لقد أصبحت الضرورة التى تتطلب تولية محمد على على شطر من أملاكه الحالية على الأقل معترفا بها ومقررة بطريقة تكاد تكون عامة إذ فهم الناس أن العظمة التى بلغها محمد على تجعله فى حاجة إلى أن يطمئن على مستقبل أسرته بحيث تكون بعد وفاته بمنجاة من انتقام الباب العالى وهذه الحالة تتجلى تجليا مجسما فى أعماق نفسه حتى أنه لا يستطيع أن يتمشى مع الأفكار السليمة الا إذا هو نال ترضية من هذه الناحية ولا يسعنا من جهة أخرى أن

نغتبط بالأمل فى أن يقبل الباب العالى منح محمد على هذا الشطر من القوة الأذبية إذا نحن لم نمنح الباب العالى على سبيل المعاوضة مزية تمكنه من ضمانة مادية ضد ما يحتمل من مشروعات عدو يقوى على حساب الامتيازات التى خولتها الدولة العلية إياه. أما طبيعة الامتياز الذى نخوله للباب العالى ومداه فليس من السهل تحديدهما ».

ولكن اللورد بالمرستون قد رأى بهذا الصدد أن لامناص من رد سوريا بأسرها إلى تركيا، وأما فى برلين فقد رأوا أن السلطان يستطيع أن يكتفى بجزء من هذه الولاية ، « وأما نحن (فرنسا) ياسيدى فأننا نقر بأن للباب العالى الحق فى عوض فعلى، ولكننا نرى أن اللحظة التى تحدد فيها مدى هذا العوض لم تحن بعد »

كان العوض الذى اقترحت فرنسا منحه للباب العالى مقابل امتيازات محمد على هو فى الواقع منشأ الصعوبات ، والسكوت عن بيانه فى اقتراح الماريشال سوت رئيس الوزارة الفرنسية قد جعل حل الخلاف بين تركيا ومحمد على أكثر وعورة وأصعب استحالة مما كان عليه وقت الأدلاء بالاقتراح الفرنسى

وبينما كانت وزارات الخارجية تمحص الحالة وتجد فى حلها وفاق أهوائها كانت الحوادث تجرى سراعا وفى شدة بآسيا الصغرى ، وعبثا حاول مندوبو الدول الذين أوفدوا إلى القاهرة والأستانة سعيا فى استصدار أوامر بوقف الحركات العسكرية ، ولما وصل أمر محمد على إلى إبراهيم بوقف القتال كان الجيش التركى قد سحق نهائيا ، وكل ما استطاعه إبراهيم وقتئذ هو أن يقف فى مكانه دون أن يتقدم فى انتظار أوامر أخرى ، أما السلطان محمود فأنه مات غماً وكمدا فى ٣٠ يونيه سنة ١٨٣٠ ، تاركا العرش للسلطان القاصر عبد المجيد ، وأما الأسطول العثمانى فانه انحاز لمحمد على ، ووصل إلى الأسكندرية ليبايعه بالخلافة ويكون تحت تصرفه .

المفاوضات المباشرة فى سبيل تسوية

تصدع بنيان الدولة العلية ، ولاحت عليه علامات الدمار ، ولكن مستشارى السلطان نصحوا إليه أن يقاوم إلى النهاية ، حتى يجرد محمد على من قوته وينزع عنه سلطانه ، غير أنه قد صرح للصدر الأعظم أن يكتب باسم السلطان لمحمد على كى يقول له :

«لقد أباح محمد على باشا والى مصر لنفسه أن يتخذ اجراءات حاطة من مقام والدنا المجيد ، فوقع حتى الآن كثير من الحوادث بسبب ذلك ، وأخيراً قد تم بعض الاستعدادات ، ولما كنت لا أريد أن تقلق راحة رعاياى أو تهدر الدماء الاسلامية ، فأنى أنسى الماضى ، فاذا ما أدى محمد على واجب الخضوع والتبعية فى دقة فانى أخصه مقابل ذلك بالعفو السلطانى وأنعم عليه بنيشان رفيع القدر يماثل تلك النياشين التى يحملها اعلى وأشهر وزرائى ، وامنحه وراثة حكم مصر لابنائه من بعده »

على أن الباب العالى قد قطع شوطا آخر أبعد مما تقدم ، إذ تسلم اللورد بونسنباى فى ٢٢ يونيه من مترجم السفارة الانجليزية بيانا جاء فيه « إن الباب العالى على استعداد تام لان يفاوض محمد على على القواعد الآتية التى اقترحتها حكومة سان جيمس (وكلمة سان جيمس هنا جاءت خطأ ماديا كما لاحظ ذلك المسيو ده فريسينيه بصحيفة ٣٩ من كتابه القضية المصرية):

(ا) أن يحصر أرث حكومة مصر فى أبناء محمد على .

(ب) أن تكون حكومة سوريا كلها لابراهيم باشا .

(ج) أن تكون حكومة مصر لابراهيم باشا عقب وفاة محمد على وتعود سوريا على الفور إلى السلطة المباشرة للباب العالى كما كانت الحال فى الزمن السابق .

قبل محمد على أن تكون هذه القواعد أسسا للمفاوضات حتى لا يؤدى إلحافه إلى حمل الدول على العمل ضده ، وإذا فتح باب المفاوضات استطاع أن يبذل قصارى الجهد لتعديل هذه الشروط إلى ما يفضلها .

الدول وشروط التسوية المباشرة

أما تأثرات الدول بهذه المقترحات فقد اختلفت تبعا لمصالحها . فالروسيا قد رأت فى هذه المفاوضات المباشرة وسيلة للخلاص مما التزمت به فى معاهدة أنكيـــارسكيليسى دون أن تضيع عليها المصلحة التى تجنيها من مركزها الممتاز وعزلتها عن الدول الأوربية مع بقائها الدولة الحامية لتركيا بأبخس الأثمان ، على عكس ما إذا هى اشتركت مع الدول فى عمل إجماعى . فأنها فى هذه الحالة كانت تفقد حتما كل هذه المزايا . ولقد أخبر المسيو ده بوركنيه متولى أعمال سفارة فرنسا فى لندرا وزارة الخارجية الفرنسية نقلا عن زميله الروسى المسيو ده كيسلف De Kisselef «أن الوزارة الروسية تتنحى عن أى تدخل فى شؤون تركيا الداخلية .. أما وقد اعتزم الباب العالى أن يسير اليوم إلى الأمام فى سبيل التقرب ، ووجه بالفعل إلى مصر مقترحات لتسوية معقولة . فمن الواجب أن ندع المفاوضات تجرى فى الاستانة وأن تقتصر مساعداتنا على الوساطة والخدمات . وإلا فلا يكون هناك دولة عثمانية مستقلة» أما حكومتا لندرا وباريس اللتان أقرت خطتهما حكومتا فينا وبرلين فانهما عنيتا عناية كبرى بأن تدور المفاوضات على أعين أوروبا وبواسطتها ، حتى أن المارشال سوت كتب يقول : «إن دول أوروبا وإن كانت توافق كل الموافقة على مشاعر التوفيق التى أظهرها الباب العالى إلا أن الواجب يقضى عليها أن تلزمه بأن لا يتعجل أى

شيء وأن لا يفاوض والى مصر الا عن طريق وساطة حلفائه» فصفق اللورد بالمرستون وزير خارجية انجلترا اعجابا بهذه اللهجة التى جاءت ترجمة صحيحة للفكرة التى أكنها فى أعماقه كما قال المسيو فريسينيه تعليقا على هذا الخطأ السياسى ص ٢٠ من كتاب القضيه المصرية. ثم أردفه بقوله: «إننا نلمس هذا الخطأ الأولى الذى كان لزاما عليه أن يبادر بأحاقة أتعس النتائج ببلدنا. وفى الواقع كان أمام وزارة فرنسا سياستان. أولاهما أنه كان فى مقدورها كما أدلى بذلك تلغراف المارشال (سوت) أن تعترض على تسوية مباشرة وتحتفظ بالمفاوضة للدول. وفى هذه الحالة كان من الواجب عليها أن تكون على استعداد لأن تقبل شروطاً نراها غير مرضية لوالى مصر. ذلك بأن استعدادات الوزارات الأخرى كانت معروفة لدينا ولم يكن بينها واحدة تعطف على محمد على بقدر ما كنا نعطف عليه. أما وزارة لندرا فانها صارحته العداء. وأما السياسة الثانية فهى أنه إذا كنا قد خشينا هذا المصير الذى لا مناص منه فقد كان الأحرى بنا منذ البداية أن نلتزم لهجة متباينة مع تلك التى قرأناها الآن (لهجة سوت) وأن نعترض على أى وساطة بين السلطان وتابعه، وأن نقتصر على عمل خاص وشبيه بالرسمى يفضى إلى جعل التسوية معتدلة بقدر الأمكان. أما أتعس الخطط فكانت تلك التى انطوت على الاشتراك مع الدول الاخرى ثم رفض اتباع خطواتها بعد ذلك حتى النهاية. وهذا ما كان يقضى علينا قضاء واضحا بالخروج فى وقت ما من جماعة الدولة الاوروبية والظهور أمام العالم بمظهر العاجز. اللهم إلا إذا كان الغرض إرادة الالتجاء إلى حظ السلاح. وهذه المرحلة من الأهمية بمكان عظيم يدعو إلى دراستها لأنها مرحلة مهدت للحوادث التى جرت فى سنة ١٨٨٢.

غرض الدول

لقد كان غرض الدول الأربع مزدوجا . ذلك بأنهم كانوا يريدون أولا أن يستبقوا الباب العالى فى المنحدر الذى أحله به فزعه ويمكن أن يؤدى على مر الأيام إلى تقلص ظل الامبراطورية وتحللها . وأما غرضهم الثانى فهو أنهم كانوا يريدون أن ينتزعوا من الروسيا مركزها الممتاز الخاص الذى أدركته بعد معاهدة «انكيار سكيليسى» بدفعها إلى الوقوف بجانب الدول الأوربية . وأما القيصر نيقولا فانه رأى من جهته فى النهاية أن خراب تركيا التى يحميها من شأنه أن يحمله تضحيات جسيمة ، ولذلك آثر ، عن بعد نظر أن ، يتقرب من الدول ، وصرح بأنه على استعداد لأن يعمل بالاشتراك معهم إذا هم صمموا على أن يديروا المفاوضات المصرية التركية بأنفسهم . وبناء على ذلك حرر ممثلو فرنسا وانجلترا والنمسا وبروسيا والروسيا مذكرة إجماعية سلموها للباب العالى فى ٢٧ يوليه سنة ١٨٣٩ وهذا نصها :

المذكرة الاجماعية

«لقد وصل فى هذا الصباح إلى الموقعين على هذا من لدن حكوماتهم تعليمات تقضى بأن يكون لهم الشرف بأن يحيطوا الباب العالى علما بأن الاتفاق قد توطد فيما بين الخمس الدول العظمى على المسألة الشرقية، وأن يدعوه الى وقف أى أعتزام نهائى تقرر دون اشتراكهم إلى أن يتم أثر المصلحة التى يعنون بها من أجله »

تقررت سياسة فرنسا بهذه المذكرة التى شجعت أعداء محمد على على الانتقاص من امتيازاته واقتطاع ما ناله بحد السيف من حقوق مكتسبة حتى لقد قال.

للورد بونسنباى فى هذا اليوم نفسه :

« إن مسعانا قد خول الصدر الأعظم القوة والشجاعة اللتين يعينانه على مقاومة والى مصر والدفاع عن حقوق السلطان ومصالحه .. هذا إلى أنه يفتح الطريق أمام كل ما يمكن أن ترى حكومة صاحب الجلالة بأن عمله حسن ومفيد »

المحادثات السياسية الدولية

انتهى شهر أغسطس فى محادثات دارت بين وزارتى خارجية باريس ولندرا دون أن يتقدم الموضوع خطوة ، بل ازداد الغموض ، حتى أن وزير خارجية فرنسا كتب إلى القائم بأعمال السفارة فى لنــــدرا يقول : « إن والى مصر لا ينتظر أكثر مما كان له الحق فى طلبه » ولكن هذا الوزير لم يحدد هذه المطالب . ولقد كانت فرنسا فى الواقع تريد أن تكون سوريا كلها لمحمد على تغطية لمطامعها الخاصة هناك . أما اللورد بالمرستون فكان صريحاً فى اعتراضه، ولا يبخل بأدلته التى لا يفيض معينها فى سبيل تأييد رأيه . فلقد قال للمسيو بوركنيه : « إننا لا نحصل على هذا الغرض (سلامة الأمبراطورية العثمانية) إلا إذا فصلنا السلطان عن تابعه بواسطة الصحراء فليبق محمد على سيدا فى مصر وليحصل على الوراثة التى كانت دائما هدف مجهوداته ولكن ليمتنع الجوار ، حتى يمتنع التصادم المحتمل الوقـوع بين هاتين الدولتين العدوتين، على أننى افرض ان مصر وسوريا اصبحتا وراثيتين فى اسرة محمد على وأتساءل كيف تستطيع أوروبا ان تغتبط اذا ماجاء اقل حادث وقطع آخر وأوهن صلة تربط هذين القطرين بالامبراطورية العثمانية »

ولقد عاد الجنرال سباستيانى الى سفارة فرنسا بلندرا ، وفى الوقت نفسه

وصل البارون «برنو» من بطر سبورج لمتابعة المفاوضات، اما مهمته الأصلية فكانت التصريح للورد بالمرستون بان حكومته ستتبع خطاه ، اما مهمة الأول فكانت اشق حيث كان الغرض منها تحويل مجرى خطة انجلترا ، ولكن بداءة عمله لم تكن موفقة ، فقد كتب الى رئيس الوزارة الفرنسية فى ٥ سبتمبر سنة ١٨٣٩ يقول: « انى لا استطيع أن اخفى عن سعادتكم استعداد الوزارة الانجليزية لاستخدام وسائل الشدة ضد محمد على سواء أكان ذلك للحصول على اعادة الأسطول العثمانى (وهو الأسطول الذى جاء فجأة الى المياه المصرية) أم لارغامه على أن يقبل فقط وراثة مصر كقاعدة للتسوية التى تتم مع الباب العالى، وهو استعداد وان كان من الممكن فى بعض الاوقات تخفيف غلوائه وتحقيق انكماشه أزاء بعض النقط بسبب تشبث فرنسا ، الا انه كان يعود دائما الى الوضوح بعد انتهاء الضغط » اما اللورد بالمرستون فكان لاينفك يكرر ان الواجب يقضى بارغام محمد على على أن يكون « بعيدا عن أن يقدر على هذا الضرر وبذلك يعجز عن أن يجعل من المحتمل أن ينتهى أمر الضربات التى أنزلها بالامبراطورية العثمانية حاسمة »

ولكن سياسة هذا الوزير قد لاح عليها الرغبة فى تقريب مسافة الخلف بين فرنسا وانجلترا تقريبا ظاهريا، ولذلك قد رأينا الجنرال سباستيانى يكتب الى وزير خارجية فرنسا بتاريخ ١٣ اكتوبر يقول : « ولقد قبل (لورد بالمرستون) فى ١٣ اكتوبر بعد مناقشات طويلة أن يضيف الى حصر وراثة مصر فى اولاد محمد على، وضع يده بالوراثة أيضا على لواء عكا، أما مدينة عكا وحدها فتبقى تابعة للباب العالى » ولكن ضغط الرأى العام الفرنسى على الحكومة قد حال دون قبول ذلك المقترح ، فان انتصارات ابراهيم باشا قد أثارت حماسة الشعب الفرنسي وجعلته يقرن اسم ابراهيم باسم سوريا ، ويرى من الظلم الفادح حرمانه من ثمرة ظفره ، وقد ادى هذا الرفض الى أن يقول

بالمرستون لسفير فرنسا ردا على مذكرته الخاصة برفض اقتراحه : « يمكنني أن اصرح لك اليوم باسم مجلس وزراء انجلترا أن الامتياز الذى سلمنا به بخصوص جزء من لواء عكا قد سحبناه »

إستدعت حكومة فرنسا سفيرها عقب هذا الفشل ، وعينت جيزو على أنه الرجل الذى يعطف على محمد على وتقدره الحكومة البريطانية لروابط خاصة .

أبطأ جيزو فى السفر حيث وصل فى فبراير سنة ١٨٤٠ وكانت وزارة سوت قد سقطت فى ٢٩ فبراير ، وعين المسيو « تيير » فى أول مارس رئيساً للحكومة وقد كان تيير لا يرى رأى سلفه ، ويخشى الرأى العام خشية شديدة .

ولذلك وجد المسيو جيزو فى مركز حرج ، صمم معه على أن لا يقترح شيئاً ولا يقبل شيئاً . ثم أخذ سبيل العمل وسعى فى ضمان معاونة ممثل النمسا وروسيا . وفى ٥ مايو اقترح عليه مسيو «نيومان» سفير النمسا شطر سوريا إلى شطرين بين محمد على والسلطان ، وفى ٧ مايو كان هذا هو اقتراح بالمرستون الذى أعلن أن النمسا ستنضم إلى انجلترا وروسيا فى إجراءات العنف اذا أبى محمد على هذا الحل ، ولكن «تيير» أجاب فى ١١ مايو بأنه « يرى أن محمد على لا يقبل تجزئة سوريا ، ونحن على يقين من أنه لن يقبلها ، اذا عولنا على ما خبرناه فيه من استعدادات » فكان هذا الرفض بمثابة قطع المفاوضات ، اذ كان من الواضح أن انجلترا لن تتخطى حدود مارسمته ، وبذلك أساءت فرنسا الى محمد على إساءة كبيرة لاسيما اذا علمنا أنه قبل شروطا أقل من تلك ، وفى هذه الاثناء وقعت حادثة كان من الممكن استغلالها لفائدة محمد على لو أن خطته الحكيمة اتبعت ، فقد حصل أن عزل الصدر الأعظم عدو محمد على اللدود ، فلما علم والى مصر بهذا الحادث اغتبط اغتباطا عظيما ، وشعر كأن الصلح قد تم بينه وبين متبوعه ، وأسر إلى المسيو كوشليه Cochelet قنصل فرنسا الجنرال بنيته فى السعى لدى الباب العالى فى الصلح ورد الأسطول العثمانى ضمانة لذلك .

فأرسل هذا القنصل تلغرافا إلى حكومته يقول فيه: «إن محمد على لا يشك فى أن هذا السعى الاختيارى من جهته يؤدى إلى تسوية حبية مباشرة للمسألة التركية المصرية.

ولكن المسيو تيير أرسل هذا التلغراف إلى سفيره جيزو فى ٣٠ يونيه سنة ١٨٤٠ وأضاف اليه: «إن حالة كهذه من شأنها أن تؤدى إلى حجج يحول التمسك بها والاعتماد عليها دون إبرام أى شىء فى لندرا. ولقد بعثت الى الاسكندرية والآستانة لأنصح بالاعتدال ولكنى قصرت الأمر على ابداء نصائح وعنيت بمنع ممثلينا من أن يعتبروا القضية قضيتهم وأن الموضوع يهم الحكومة الفرنسية خاصة بحيث لا يكون غرضهم من المفاوضة الا الوصول الى تسوية مباشرة صريحة. واذا ألقيت على عاتقنا مسئولية عمل كهذا كان فى مقدورك أن تنكر ذلك»

ولكن رغما من هذا التعليق الذى يشعر بخطر الاقدام على هذا العمل فان الظواهر قد دلت على أن نصائح فرنسا كانت مغرضة ولا أمل منها الا أن تجنى هذه الدولة فائدتها. وهذا ما فهموه فى لندرا، فقد رأى مفوضو الدول فى هذا المسعى

(١) هدما لمذكرة ٢٧ يوليه سنة ١٨٣٩ وإحباطا للعمل المشترك الذى قامت به الدول الخمس، (٢) انتصارا تاما وشخصياً لفرنسا فى الاسكندرية والاستانه وكيدا للورد بالمرستون فى العمل على اخفاق مناورة محمد على ومرامى الحكومة الفرنسية. وفى ١٧ يوليه سنة ١٨٤٠ استدعى المسيو جيزو وسلمه المذكرة الشهيرة التى سيأتى نصها. وهى مذكرة قال إنه حررها خوفا من الا يعبر عن فكرته تعبيرا دقيقا تاماً».



مذكرة بالمرستون

للمسيو جيزو سفير فرنسا

« لم يقتصر ما وصل الى الحكومة الفرنسية خلال المفاوضات التى بدأت فى العام الماضى على جميع الأدلة المتكررة الواضحة التى لا تنازع ، تلك التى تدل على رغبة بلاط كل من النمسا وبريطانيا وروسيا فى الوصول إلى اتفاق مع الحكومة الفرنسية بخصوص التسويات الضرورية لتهدئة الخواطر فى الشرق الأدنى ، بل وصل اليها أيضاً أدلة على الأهميــــة الكبرى التى تعلقها دائماً أبداً هـــذه الأبلطة على الأثر الأدبى الذى يحدثه اتحاد وتعاون الخمس الدول فى القضية التى لها نفعها الخطير الخطر، والمرتبطة بأوثق رباط بمسألة حفظ السلام الاوربى. ولقد رأى الأربعة أبلطة بعين مليئة بالأسف أن جميع مجهوداتهم قد ذهبت عبثاً، ورغماً من أنهم عرضوا أخيراً على فرنسا أن تشترك معهم فى تنفيذ تسوية بين السلطان ومحمد على تقوم على أفكار اقترحها سفير فرنسا بلندن فى نهاية العام الماضى، فان الحكومة الفرنسية لم تر فى وسعها الاشتراك فى هذه التسوية ، وجعلت تعلق تعاونها مع الدول الاخرى على الظروف التى رأت هـذه الدول أنها لا تتفق والاحتفـاظ باستقلال الامبراطورية العثمانية وكيان املاكها ، ولا مع راحة اوروبا فى الايام المستقبلة .

« فالدول الأربع لا يسعها إزاء هذا الموقف، الا أن تعمل وفاق أمر من اثنين، إما أن تسلم للظروف المستقبلة زمام كيات الشئون التى تعهدت بتسويتها مع الاقرار بعجزها وتعريض السلام الأوروبى لأخطار تنمو على مر الأيام، واما أن تعتزم السير الى الامام دون معاونة فرنسا، حتى تصل بفضل مجهودها المشترك الى فض مشاكل الشرق الأدنى فضاً ينطبق والعهود التى قطعتها هذه الدول الأربع مع السلطان وتؤدى الى تأكيد السلام فى مقبل الأيام .

« ولما كانت الدول قد وقفت بين هذين الشقين من الخيار وكانت مشبعة بوجوب السرعة فى العمل على أن تحل هذا المشكل من فورها حلا يتفق والمصالح الخطيرة المرتبطة به . فقد رأوا من واجبهم اتباع الشق الثانى من هذا الخيار ، وبناء عليه قد أبرموا مع السلطان اتفاقية معدة لحل المشاكل الحاضرة القائمة فى الشرق الادنى على وجه مرض .

« ولقد شعر ممثلو الدول الأربع وهم يمضون هذه الاتفاقية بالأسف الشديد على بعدهم مؤقتاً عن فرنسا فى مسألة أوروبية الجوهر ، ولكن الامر الذى يخفف عنا غضاضة هذا الألم هو التصريحات المتكررة التى صرحت بها حكومة فرنسا ومدلولها أنه ليس لديها ما تعترض به على التسويات التى ترغب الدول الأربع فى أن يحملوا محمد على والسلطان على قبولها ، وانها لن تقاوم بأى حال ماعسى أن تتخذه الدول الأربع، باتفاقهم مع السلطان ، من الأجراءات الضرورية للوصول إلى الحصول على رضا والى مصر ، وأن السبب الوحيد الذى حال دون اشتراك فرنسا مع الدول بهذه المناسبة يرجع إلى اعتبارات مختلفة الأنواع تجعل من المستحيل على حكومة فرنسا أن تشترك فى اجراءات العنف ضد محمد على .

« والدول الأربع تأمل أملا صادقا فى أن يكون بعدها عن فرنسا

بصدد هذا الموضوع قصير الأمد. وأن لا يمس أى مساس علاقات الصداقة المخلصة التى ترغب هذه الدول من أعماق قلبها فى الاحتفاظ بها مع فرنسا ، ولكن هذه الدول فضلا عن ذلك تتوجه فى إلحاح إلى حكومة فرنسا كى تحصل منها على الأقل على عونها الأدبى رغما من أنهم لا يستطيعون أن يأملوا فى معاونتها المادية .

« إن نفوذ الحكومة الفرنسية قوى فى الأسكندرية ولا تستطيع الدول الاربع الا أن تطلب باسم الصداقة مع فرنسا أن تستخدم هذا النفوذ لدى محمد على فى حمله على قبول التسويات التى سيقترحها عليه السلطان .

فاذا استطاعت فرنسا أن تساعد بهذه الطريقة مساعدة فعالة فى وضع حد لمشاكل الشرق الأدنى كان لهذه الحكومة حظ جديد من الشكر والتقدير لدى جميع محبى السلام »

ولقد احتج المسيو جيزو على هذه المذكرة وبعث إلى المسيو تيير بتاريخ ١٧ يوليه تلغرافا يقول فيه « إن لورد بالمرستون قد ناهض ملاحظاتى فى ضعف وأفضى باحتجاجات مليئة بالصداقة المخلصة الأكيدة رغما من اختلافنا الجزئى الوقتى » — « ومع ذلك فانه لم يفصح لى عن تفاصيل الوسائل التى ستستخدمها الدول الأربع حتى تلزم الباشا العودة إلى حظيرة الطاعة »

رد فرنسا على مذكرة بالمرستون

باريس فى ٢١ يوليه سنة ١٨٤٠

(لقد رغبت فرنسا دائما فى أن تسير متفقة مع بريطانيا العظمى والنمسا وبروسيا وروسيا إزاء المسأله الشرقية ولم تسترشد أبدا فى مسلكها إلا بما فيه مصلحة للسلام ، ولم تنظر مطلقا إلى المقترحات التى عرضت عليها إلا من

الناحية العامة . دون أن يكون لمصلحتها الخاصة أى تدخل ، إذ ليس ثمة دولة أكثر منها تجردا من المطامع فى الشرق .

ولما كانت قد نظرت إلى الموضوع من هذه الناحية فقد اعتبرت من قبيل التصميمات المشئومة ، كافة المشروعات التى رمت إلى أن تنتزع قوة واقتدارا من محمد على جميع الأراضى التى يحتلها الآن من الامبراطورية التركية ، ولا ترى فرنسا فى هذه التصميمات خدمة لمصلحة السلطان . لأن معنى هذا هو الجنوح إلى أن تهبه مالا قدرة له على إدارته أو الاحتفاظ به . كذلك ترى فرنسا أن هذا الأمر ليس من مصلحة تركيا بوجه عام ولا من مصلحة الاحتفاظ بالتوازن الأوروبى لأن فيه إضعاف تابع يمكن أن يساعد مساعدة قوية فى الدفاع المشترك عن الامبراطورية العثمانية ، دون أن تكون فى هذا الاضعاف أية فائدة للسلطان ، ومع ذلك فأن كل هذا ليس إلا مسألة نظرية يمكن أن تتشعب الآراء حولها ، ولكن فرنسا قد عارضت دائما فى كل مشروع يؤدى تنفيذه الى الالتجاء للقوة . لأنها لا ترى جليا الوسائل التى يمكن أن تكون تحت تصرف الدول الخمس ، وقد تلوح لها هذه الوسائل أنها غير كافية أو أنها أشأم من الحالة التى يراد معالجتها .

فما ارتأته فرنسا فيما مضى لا تزال ترتئيه الآن . وهنالك من الأسباب ما يحملها على أن تقدر أن هذا الرأى ليس خاصا بها . ومع ذلك فأن الدول لم توجه اليها فى الظروف الأخيرة أى اقتراح عملى محدود لترد عليه وتبدى رأيها فيه . لذلك ما كان من الواجب أن يسند اليها ـ بسبب رفض خارج عن ارادتها ـ التصميم الذى ابلغته انجلترا إياها باسم الدول الأربع ، بلا مراء ، وفضلا عن هذا فأن فرنسا تعلن من جديد دون الإفاضة فى المسألة التى قد يمكن أن تنجم عن اتخاذ أجراء كهذا قبل فرنسا . بأن هذه الدولة الفرنسية ترى أن المسلك الذى ينحصر فى اتخاذ قرارات لا وسيلة إلى تنفيذها ، أو لا يمكن تنفيذها

الا بوسائل غير كافية أو خطرة، انما هو مسلك قليل التدبر والتبصر فى العواقب. ومما لا شك فيه أن عصيان بعض أهالى لبنان هو الفرصة التى رأت الدول أن يقتنصوها ليجدوا فيها الوسائل التنفيذية التى لم تتح لهم حتى الآن. فهل من الوسائل المرغوب فيها أو المفيدة على الخصوص للامبراطورية التركية. أن نعمل على هذه الوتيرة ضد والى مصر؟ انكم تريدون أن يقوم شيء من النظام والطاعة فى جميع أجزاء الامبراطورية التركية. ولكنكم تثيرون روح العصيان فيها. أنكم تضيفون الى تلك الفوضى العامة فوضى جديدة تأسف لها جميع الدول من أجل مصلحة السلام! وهل تنجح الدول فى اخضاع هؤلاء الأهالى للباب العالى بعد أن أثارتهم ضد الوالى؟

من المؤكد أن جميع هذه المسائل لم تحل، ولكن اذا كان هذا العصيان قد قمع، وكان الوالى قد استأنف حيازة سوريا حيازة صحيحة مؤكدة وضاعف عمل الدول غيظه وحنقه حتى أمسى اقناعه اليوم أصعب مما كان بالأمس بحيث لا يجيب على انذارات الدول الا بالرفض البات فماذا تكون الوسائل التى ستلجأ اليها الدول الأربع؟

من المؤكد أن هذه الوسائل التى قضت الدول الأربع فى سبيل السعى وراءها سنة، لم تكتشف حديثاً. بل أنهم خلقوا بعملهم خطراً جديداً هو أخطر الاخطار، فالوالى الذى أثارته الوسائل التى استخدمت ضده، الوالى الذى ساعدته فرنسا فى كبح جماحه، فى مقدوره أن يجتاز جبال طوروس ويهدد الاستانة مرة أخرى.

فماذا تصنع الدول الاربع فى هذه الحالة: وأية طريقة يتبعونها فى الدخول الى الامبراطورية العثمانية ومساعدة السلطان هناك؟ ان فرنسا ترى ان الدول قد مهدت هناك لخطر اشد على استقلال الامبراطورية العثمانية والسلام العام، من ذلك الذى تهدد به مطامع والى مصر.

فاذا كانت الدول لم تحسب حساب هذه الاحتمالات... هذه الاحتمالات

التى ستكون نتيجة المسلك الذى ستسلكه ، فانها ستلقى بنفسها فى سبيل جد مظلمة وجد خطرة . اما اذا كانوا قد حسبوا حسابها وكانت وسائل مقاومتها قد تقررت فمن الواجب على الدول الاربع ان تحيط اوروبا بها، وعلى الخصوص، فرنسا التى يسألونها اليوم معونتها الادبية. ويستمدون منها مساعدة نفوذها فى الاسكندرية.

ان معاونة فرنسا الادبية فى الخطة المشتركة امر لزام عليها ، وليس من دولة سواها ترى من واجبها القيام بذلك فى الموقف الذى يلوح لنا أن الدول أرادت أن تضع نفسها فيه ، وفرنسا لا يمكنها بعد الآن الا أن تندفع فى هذا الموقف بحكم ما يجب عليها نحو السلام ونحو نفسها أما الخطة التى ستتبعها فى الظروف الخطيرة التى أوقف الاربع دول ، أوروبا فيها ، فستكون مرتبطة بالحل الذى تحل به جميع المسائل التى عينتها فرنسا فى هذه المذكرة.

ان غرض فرنسا سيكون دائما السلام والاحتفاظ بالتوازن الحالى بين دول أوروبا ، مع رصد جميع وسائلها على تحقيق هذا الغرض المزدوج »

اجتناب التصادم

ولقد صدرت الاوامر المعتدلة إلى أميرالية الأسطول الفرنسى حتى يجتنبوا كل سوء تفاهم وكل خلاف. وكذلك فعل بالمرستون أزاء رجال أسطوله حتى لقد قال : « إننا لن نضرب أى حصار . . فمحمد على ليس ملكا . ولذلك فليس لنا حق أعلان الحرب عليه ، وللسلطان وحده حق تطويقه بالحصار وله أن يصنع ما يريد بقواته الخاصة . أما نحن فلن نعتدى على المصالح التجارية ولا مصالح المحايدين. إذ أن ذلك ليس فى مكنتنا، وهكذا كان تبصر الحكومتين مخففا من شدة الظروف وحدتها . وداعيا إلى الأمل فى اجتناب ما يقلق السلام العام .

معاهدة لندرا

أمضيت اتفاقية لندرا فى ١٥ يوليه سنة ١٨٤٠ بين الباب العالى والدول الأربع. وهى وثيقة أبلغت لفرنسا بعد إبرامها فى ١٦ سبتمبر. وهذه المعاهدة مع ملحقاتها جاءت عملا حاسما فى تاريخ مصر حيث أقامت صرحها الجديد وأبانت حقوقها وواجباتها نحو تركيا.

ملحق التجرد من المطامع

وفى ١٧ سبتمبر أبلغ اللورد بالمرستون المسيو جيزو، اتفاقا بتجرد الدول الأربع من المطامع كان المفوضون قد أمضوه بتاريخ ١٦ سبتمبر وهذا نصه:

« إن مفوضى كل من بلاط النمسا وبريطانيا العظمى وبروسيا وروسيا بعد تبادل أبرام المعاهدة التى وقعوها فى ١٥ يوليه الماضى قد قرروا أملا فى إظهار حقيقة تجردهم عن المطامع - ذلك التجرد الذى استرشدت به دولهم عند إمضاء هذا العهد — أن يصرحوا رسمياً بأن هذه الدول الموقعة على هذه الاتفاقية، لن تسعى عند تنفيذ الالتزامات الناجمة عنها، فى سبيل الحصول لنفسها على أى توسع فى الأراضى أو أى نفوذ خاص أو أى امتياز تجارى لرعاياهم بما لا يمكن لرعايا الدول الأخرى أن يحصلوا عليها

ومفوضو الدول المذكورة قد قرروا أن يسجلوا هذا التصريح فى هذا البروتوكول.

ومفوض الباب العالى الذى قام بقسط عادل من الشكر على الولاء والتجرد عن الغاية فى سياسة دول الحلفاء الأربع، قد أحيط علما بالتصريح الوارد بهذا

الملحق واخذ على عاتقه أن يبلغه لبلاطه.

التنفيذ

وتنفيذاً لهذا الاتفاق — اتفاق لندرا — أبلغ السلطان فى ١٦ أغسطس لمحمد على إنذارا قابله والى مصر أسوأ مقابلة إذ صرح فى اليوم التالى لقناصل الدول الأربع الذين طلبوا مقابلته بقوله: «أنى لا أردّ ما أخذته بالسيف الا بالسيف» وفى نفس هذه اللحظة وصل الأميرال الانجليزى نابييه (Napier) إلى بيروت وأمر حاكمها سليمان باشا بالجلاء عن المدينة وعن سوريا، بينما كان الأميرال ستوبفورد (Stopford) واقفاً أمام الاسكندرية لتعزيز إنذار السلطان، أما فرنسا التى أدت سياستها الحمقاء إلى هذه النكبة فانها ضغطت على محمد على حتى يقبل الصلح، وفى ١٧ سبتمبر أبلغ المسيو تيير سفيره فى لندرا أن والى مصر قد قصر مطامعه بناء على مساعيه،على وراثة مصر وحكم سوريا مدة الحياة، وقد قبل أن يتنازل إلى هذا الحد، ليحصل على معونتنا ويلزمنا بأن ندافع بكلياتنا وجزئياتنا عن قضيته، ولقد كانت هذه هى نيته الواضحة؛ والآن وبعد أن ضغطنا عليه إلى أن قبل الوصول إلى هذا الحد، فقد كان لزاما علينا أدبيا أن نشد ازره إذ ارتد إلى دائرة الصواب والاعتدال بناء على طلبنا»

ولكن المسيو جيزو لاحظ فى اليوم التالى أن الاتفاق على هذه القواعد بعيد الاحتمال، فلقد قال له اللورد بالمرستون «إننى لا أرى أن هذه هى الحدود التى يمكن أن نصل معها بوالى مصر إلى حلّ فى النهاية، فالباب العالى (اقرأ انجلترا) لن يقبل منح سوريا كلها لابراهيم، وإبراهيم هو محمدعلى.. ولاتفاقية ١٥ يوليو غرض جدى، ومن الواجب الوصول الى هذا الغرض»

ولـكن الحوادث سبقت تبادل المذكرات .إذ أطلق الاسطول الانجليزى قنابله فى ١١ سبتمبر على بيروت وأنزل جنودا تركية للعمل فى سوريا . وأخذ السلطان يطبق نص اتفاق لندرا فى شدة ، فأعلن فى ١٤ سبتمبر عزل والى مصر وعين محمد عزت باشا خلفا له . ولما وصلت هذه الأخبار إلى باريس فى ٢ أكتوبر أحدثت فيها آثاراً كبارا . فاجتمع مجلس الوزراء بصفة استثنائية.وكلف المسيو جيزو فى ٨ أكتوبر بأن يبلغ اللورد بالمرستون، مذكرة معتدلة اللهجة ولـكنها حاسمة . وقد انتهت المذكرة بهذه الـكلمة التى تشعر بقيام سبب الحرب .

« إن فرنسا وهى مستعدة لأن تشترك فى أى تسوية مقبولة يمكن أن تـكون أساساً للضمان المزدوج، لـكيان السلطان ووالى مصر. ستكتفى الآن بأن تصرح بأنها لا تستطيع من جهتها أن تقبل تنفيذ اعلان العزل الذى صدر من الاستانة »

ولذلك فهمت الوزارة البريطانية أنها ذهبت إلى حد بعيد جداً.فى ١٥ أكتوبر أخبر اللورد بالمرستون ، اللورد بونسنباى سفيره فى الاستانة « بأن من اللائق بممثلى الدول الاربع فى الأستانة أن يشددوا على السلطان فى أنه إذا خضع محمد على سريعاً وتعهد بأن يرد الأسطول التركى ويسحب جنوده من سوريا كلها وأطنه وكريد والأماكن المقدسة ، فلا يعيده والياً على مصر فحسب ؛ بل إنه يمنحه الولاية الوراثية على هذا الأقليم »

كان هذا الأرضاء غير كاف أزاء الحالة النفسية التى كان عليها الشعب الفرنسى الذى أثارت خواطره اتفاقية لندرا إذ اعتبرهـا مقدمة لتحالف ضد فرنسا حتى رأى الناس أن من الواجب القيام بتلك الأستعدادات الشبيهة بالحربية التى أشار اليها تيير . وقد صدرت أوامر الملك فى ٢٩ يوليه بدعوة طبقتين من الأسنان العسكرية وزيادة الوحدات البحرية.أما أوامر شهر أغسطس وسبتمبر فأنها أمرت بأنشاء أورط جديدة مع فتح اعتمادات بمبلغ ١٠٨ مليون فرنك.

فكانت هذه الاجراءات باعثا على تحمس الرأى العام الذى ضغط على الحكومة حتى تشجعت واستدعت اسطولها من الشرق الأدنى حيث كان هناك بمثابة العنصر الملتهب . وحشدته فى «تولون» ليكون على أهبة السفر إلى الأسكندرية إذا هوجمت مصر . ولكن هذا العمل السياسى الذى لم يتفق والفن الحربى فى شىء قد شوه الروح الحربى حتى . لقد وصف بأنه « الفرار » أمام الانجليز ، وترك سوريا . وفى خلال هذا الاضطراب دعى البرلمان الفرنسى للاجتماع فى ٢٨ أكتوبر . وأخذ الناس يتحدثون عن تخلى تيير عن الحكم .

أما نية فرنسا فتتضح من قول المسيو فريسينيه « لقد لاح أننا نسينا أن كثيرا من الخصوم والمنافسين لن يسمحوا لنا بأن نبسط نفوذنا على مصر وسوريا بواسطة محمد على وأن نتصرف إلى حد بعيد فى مصير الامبراطورية العثمانية . فما لم توافق انجلترا عليه من ناحية روسيا فليست على استعداد لأن تسمح به لفرنسا . لقد انقضت ساعة الأوهام ومن الواجب اليوم أن نقدر الواقع أمامنا وأن نقرر قرارا هائلا فاما السير فى سبيل الحرب أو النكوص على الأعقاب (راجع ص ٧١ من كتاب المسألة المصرية لفريسينيه)

دعى البرلمان إلى الاجتماع . فعرض المسيو تيير على الملك مشروع خطبة العرش كما هى العادة وكانت هذه الخطبة معتدلة اللهجة ولكنها حاسمة فى موضوعها القائم على التحدى . فقد جاء فيها :

« إن الحوادث تتتابع فى سرعة قد يمكن أن تؤدى إلى تغييرات خطيرة ، ولذلك فأن الأجراءات التى اتخذتها حكومتى حتى الآن يمكن أن لا تكون كافية . وإذن فمن المهم استكمالها بأجراءات جديدة تتطلب اشتراك المجلسين . ولهذا قد اضطررت لدعوتهما إلى الاجتماع ، ولاشك فى أنهما سيريان مثلى أن من الواجب على فرنسا التى لم تكن الدولة الأولى التى اسلمت مقاليد سلام العالم لحظ الحرب، أن تكون على أهبة العمل فى اليوم الذى ترى فيه توازن العالم مهددا تهديدا جديا :—

إن فرنسا شديدة التمسك بالسلام. ولكنها تشترك بثمن يحط من كرامتها ، فأبى لويس فيليب أن تسند إليه خطبة بهذه اللهجة · ورأى أنه ليس من اللائق فى الوقت الذى تنادى فيه الدول بنصائح الجنوح إلى السلم والاعتدال أن يجنح هو وحكومته إلى لهجة عدائية تهديدية أزاءها . فاستقال تيير وزملاؤه. وألف المسيو سوت الوزارة وضم اليه المسيو جيزو وزيرا للخارجية فتغيرت خطبة العرش والقيت فى ٦ نوفمبر وقد جاء فيها على لسان الملك :

« لقد رأيت الحاجة ماسة إلى اجتماعكم حولى قبل موعد الاجتماع العادى للمجلسين . ذلك بأن الأجراءات التى اتخذها امبراطور النمسا وملكة بريطانية العظمى وملك بروسيا وامبراطور روسيا بالاتفاق مع بعضهم لتسوية علاقات السلطان بوالى مصر، قد فرضت على واجبات خطيرة

« إن كرامة بلادى هى شغلى الشاغل بقدر سلامتها وراحتها · وباستمرارى على هذه السياسة المعتدلة السلمية التى جنينا ثمارها منذ عشر سنوات. قد مكنت فرنسا من أن تدرأ الأخطار التى كان من الممكن أن تتولد عن حوادث الشرق . أما الاعتمادات الاستثنائية التى اعتمدت لهذا الغرض فستعرض عليكم فى الحال ، وستقدرون بواعثها ، وأنى لآمل فى أن لا يطرأ ما يكدر السلام العام فهو ضرورى لمصلحة أوروبا المشتركة ولسعادة جميع الشعوب ورقى المدنية ، وأنى لأعتمد عليكم فى مساعدتى على الاحتفاظ به كما أعتمد عليكم اذا دعا شرف فرنسا والمركز الذى تشغله بين الأمم إلى بذل جهود أخرى »

كانت هذه الأقوال حكيمة ، لكنها ما كانت تروق فى أعين العزة القومية لأن التقهقر كان واضحا خلالها . ولقياس المسافة بين أمس واليوم يجب الرجوع إلى المناقشة التى حدثت فى عام ١٨٣٩ . ففى اليوم التالى لانتصار المصريين على الأتراك فى معركة نصيبين. طلب وزير البحرية الفرنسية فى ٢٥ مايو سنة ١٨٣٩ اعتمادا قدره عشرة ملايين فرنك لزيادة القوات البحرية فى الشرق

الأدنى ولقد جاء فى نهاية تقرير المسيو «جوفرا» الذى كان ترجمة صحيحة لأحساس الرأى العام ما يأتى « هناك مسألة يجمع العالم عليها. ولا يمكن أن تتغير، الا وهى أنه لا يجوز لفرنسا الا أن تقوم بدور جدير بها فى المسائل الشرقية » فليس من الواجب أذن مهما تكلفت فرنسا أن تكون تسوية هذه المصالح الكبرى سبباً فى إسقاطها من المركز الذى تشغله فى أوربا. فهى لن تتحمل هذا الأذلال، ورد الفعل الداخلى قد يكون خطرا. فلتفكر الوزارة إذن جديا فى هذه القضية. ولننظر اليها على أنها من كبريات المسائل التى ائتمنت عليها، لأنها من أهم القضايا التى لفرنسا. ولتترك التردد ولا تعيش بالنسبة لهذه القضية تبعاً لظروف يوم بيوم، فلتضع خطة لسلوكها، حتى إذا ما تحددت سياستها دعمتها بزيادة القوات التى ترى ضرورتها، ومن المؤكد أنها لن تشكو ذلك ».

التحقيق فى مجلس النواب

لم يكن الرأى الذى ساد فرنسا هو ما شرحناه فيما تقدم بل هناك رأى آخر قال به المسيو كارنيه (Carné) فى جلسة أول يوليه سنة ١٨٣٩

وقف هذا النائب فى مجلس النواب الفرنسى يصيح « إن من مصلحة فرنسا أن تعمل فى سرعة قبل وقوع الظروف المحتمل وقوعها، وأن تعمل وحدها وهى تصرح : أنها تحمى مصر وتدافع عنها وتأخذ تحت رعايتها قومية هامة بالنسبة للتوازن الأوروبى وأنها ستسير وحدها معتزمة مصممة على أن تشطر الدولة العثمانية شطرين لا يمكن أن يبقيا ملتئمين » ثم أضاف هذا النائب إلى هذا الرأى فكرة صائبة وهى « وجوب أن يكون الاستقلال المصرى ضمن القانون العام الفرنسى على اعتباره قضية مسلم بها. » ولكن المسيو جيزو كان وقتئذ لا يزال مجرد نائب فاعترض على هذا الرأى لمناقضته السياسة الفرنسية

التقليدية ، « وهى تنحصر فى المحافظة على التوازن الدولى الأوربى بصيانة كيان الدولة العلية وفاق حالة الأزمان وداخل حدود المستطاع وهما قانونان لايمكن بغيرهما أن يقوم الحكم فى الدول . وإذا أنا بحثت عن أسماء الساسة الذين قاموا بتطبيق هذه القاعدة فانى سأعتمد على هنرى الرابع وريشليو ولويس الرابع عشر ونابليون ، فجميع هؤلاء عملوا بهذا المبدأ ولم يعملوا بسواه » ولكن جميع الخطباء كانوا مجمعين فى ذلك الحين على أن تكون فرنسا هى الحكم الفصل فى هذا الموضوع ، الا أن شيئاً من ذلك لم يقع ، ولم يتقرر شىء وفاق رأى فرنسا التى لبثت فى عزلتها بعيدة عن العمل الرسمى .

ولقد تناقش النواب فى هذا الموضوع بجلسة ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٤٠ فتدفقت الفصاحة ولكن كانت النتيجة عظيمة ، فقد قرر المجلس فى النهاية « أن فرنسا ستكون على استعداد لحرب تمليها العدالة والكرامة القومية ، ولكن الأمر الذى تريده فرنسا ، وتنصح به أوروبا وتنصح به نفسها أنما هو صلح شريف يكون هو الضمانة الممكنة لهذا التوازن الأوروبى الذى إذا طال أمد زعزعته كان خطرا على الجميع لايعدله خطر . وهذه الفكرة هى التى استرشدت بها حكومة الملك منذ بداية الازمة الشرقية ، وهى التى حددت أعمال الوزارة التى تألفت فى ١٢ مايو سنة ١٨٣٩ ، وعندما انسحبت الوزارة لم تستنكر هذه الفكرة ، أما اليوم والصعاب قد ازداد خطرها وتفاقم شرها دون ان تتغير مصلحة البلاد ، فان هذه الفكرة لاتزال الغرض من الوزارة الجديدة التى تألفت ، فنسا استوحت الجهود الأولى التى بذلها نفودنا فى سبيل وقف المشكلة التى هددت الشرق منذ ثمانية عشر شهرا ، وهى التى ترسمناها لندرأ بها حماية خاصة عن الاستانة ونضع حدا لأمدها .

« إن فرنسا وهى الأمينة على الفكرة التى تغلبت على كل شىء منذ سنة ١٨٣٠

تريد أن ترى الشرق قد وقى شر الحرب ، والدولة العلية بعيدة عن أن ترسف فى أغلال حماية دولية حتى تأخذ مكانها فى القانون العام الأوروبى ويضمن الجميع استقلالها . . » .

« . ثم ختم الماريشال سوت القرار بقوله « إن حكومة الملك لا تناقش الأمور الواقعة ، فهى كانت تعرفها عند ما أخذت على عاتقها مسئوليات العمل فى المستقبل ، وعند ما رأت أن ذكريات فرنسا لها دائما قوتها . وقد تضاعفت تلك القوة منذ عشر سنوات حتى أصبحنا لانود معها إلا دوام السلام دون الحرب . . . لا ياسادتى إنى لاأظن أنه كان هناك مشروعات أو نيات ترمى إلى سب أمتنا ، فالجميع يعرفون فى كل مكان من أوروبا ، ماذا بذلت فرنسا وماذا فى مقدورها أن تفعل .

ثم وقف المسيو تيير ليبرر موقفه مبينا الصعوبات التى خلقتها له مذكرة ٢٧ يوليه سنة ١٨٣٩ الاجمالية تلك التى « حالت دون أن ينال الوالى الظافر من السلطان كل ما كان يجب أن يناله » وشرح لماذا رفض لواء عكا دون الحصن وقال إنه « كلف المسيو جيزو أن يطلب وراثة مصر وسوريا » ولما لم يحصل على ذلك « فقد قرر أن يعتدل — وهاهو اليوم يعترف بذلك بعد أن تمت الأمور الواقعة وأصبح لايخشى حدوث مايكدر الصفو » ولكنه على أى حال فان سفيره لم يحذره العاقبة بل اكتفى بأن يوجه اليه معلومات غير محدودة على الاطلاق »

وهنا صعد المسيو جيزو المنبر بعد هذا الاتهام ، ووقف فى الملحمة بالسلاح الأبيض أمام وزيره وتلا فقرات عديدة من تلغرافاته وعلى الخصوص هذه الأسطر ذات المغزى البعيد المدى الذى بعث بها فى ١٦ مارس سنة ١٨٤٠ قال : —

« ترى الحكومة البريطانية أن لها فى الشرق مصلحتين غير متعادلتين بلا

شك . ولكنهما مصلحتان واقعتان حقيقيتان لها فى اعتبارها المكان الأعلى من العناية ، فهى تخشى الروسيا فى الاستانة ، وفرنسا تخنقها فى مصر ، فهى تريد أن تقيم فى الاستانة حاجزا بين تركيا والروسيا سواء بقوة الامبراطورية العثمانية ، أو بقوة تدخل أوروبا تدخلا نظامياً ، وترغب فى أن تضعف والى مصر خوفاً من « أن يكون عضواً قوياً وحليفاً نافعاً لفرنسا فى البحر الابيض المتوسط »

وعندئذ وقف المسيو لامارتين مقرر خطبة العرش وهو يقول : لقد رأينا فى دهشة على منضدة لجنة الرد على خطاب العرش التى اتشرف بأنى أحد أعضائها . لقد رأينا خلال ثمانية أشهر بينما كانت الوزارة تقوم بحل أعقد مشكلة، أن عدد التلغرافات التى تبودلت بهذا الصدد بين وزير الخارجية وسفيره فى لندرا لم تزد على سبعة أو ثمانية تلغرافات ، كانت نصوص هذه التلغرافات جميعها تقريباً ، تعهدات يراد بها كسب الوقت ، والسعى الى آجال جديدة أو قبول آجال جديدة »

أما مسألة الحرب فقد اجتنبت وإن كان شبحها قد تُرك يطل من خلال القرار النهائى على نمط ماجاء فى خطبة العرش ، ولا سيما بعد أن قال المسيو «أوديلون بارو » «انى لا أعرف اذا كان الأمعان فى التطرف فى الاحتجاجات قد جرح قلوبكم أولا ؟! أننى لا أعرف اذا كانت عزتكم القومية قد تألمت من هذا الأفراط فى الاحتجاج أولا . مما لاشك فيه أن الاحتفاظ بالسلام أفضل ، ولكنى أناشدكم باسم كرامة البلاد أن لاتتكلموا عنه كثيراً . أناشدكم باسم كرامة البلاد أن تحتفظوا بنبالة الصمت »

وقضى الأمر وفازت انجلترا وصدرت الفرمانات التى غللت محمد على والأمة المصرية ، ودخلت هذه الفرمانات فى أحكام القانون الدولى .

بعد الحرب

لقد كانت مهمة الجيش المصرى بادىء انشائه قاصرة على الغزو والفتح، وهى مهمة كانت بدورها واسطة انهاك للقوى والحيوية، ووسيلة استنفاد للثروة وعدم عناية تامة بوسائط العمران، ولما انتهت الحروبات، اعتمد محمد على على الجيش المصرى فى بسط النظام وبث الطمأنينة، أما الدفاع عن الشواطىء المصرية وحماية التجارة فعهد محمد على بأمرها إلى اسطول التحق به عشرون ألف بحار، وكان هذا الاسطول يستمد معداته من المصانع المصرية البحرية التى كان كثير من الدول تغبط مصر عليها.

لقد كان محمد على هو ذلك الرجل الذى جاء فى ساعته المناسبة لينهض بعمل ضرورى. إنه جاء لمصر ليمثل الفكرة العسكرية المصرية. وقد اختير بفضل ذلك النوع من القدر الذى يكشف عن نفسه فى أحرج الفترات من حياة الشعوب ويسمى الظروف. فأن عمله بأجمعه. وسر قوته كان كلاهما فى نقل الحضارة الغربية ونظمها بالامر، كالساعة تدق فتخطو الانسانية خطوة الى الأمام. لا تراجع ولا تقهقر فى خطواتها ودقاتها. بل كالقلب ينبض إيذاناً بالحياة وينبض فى نظام عسكرى لا اختلال فيه. ولا اعتلال ما دام سليما.

ولكن المدة التى انقضت بين نهاية الحروبات وانتقاله إلى جوار ربه لم تكن تسمح بأن تتغلغل جذور الأصلاح فى الأرض. لذلك كانت كالدهان تغير لونها وتحطمت وتناثرت بمجرد أن حكم عباس. وهذا ما دعا محمد على فى آخر أيامه إلى أن يقول،

« إن أحفادى وحدهم يستطيعون أن يحصدوا ما بذرت » فحيث سادت

فوضى عميقة كتلك التى تسود هذه البلاد . وحيث يحدث تحلل تام ينتاب جميع التقاليد القومية للدولة كالواقع فى مصر . وحيث يعيش شعب عاد إلى سيرته الأولى من الوحشية والهمجية والجهل وانعدام الأهلية لأى عمل حاسم لا يمكن أن تنهض المدنية وتنمو إلا فى بطء شديد (راجع مصر لأبرس . ص ١٨)»



الفصل الثانى

ابراهيم

رأيت الصورة العامة للجنس الذى انحدر منه ابراهيم بن محمد على عند الكلام عن ساكن الجنان محمد على باشا، ولكن الصورة العامة للجنس لا تؤدى وحدها إلى استخلاص الحقيقة الجلية الناصعة لشخصيات الرجال وروحهم ولذلك يجب أن نعرف من حاربهم ابراهيم فى بلاد الاغريق وهو على رأس الجيش المصرى ثم نلقى بعد ذلك نظرة على أعماله لنستخرج مما انعكس على هذه الأعمال من أشعة نفسيته، صورة خصائصه التى إذا مزجناها بصورة الجنس الألبانى تسنى لنا معرفة الطبائع والغرائز والخلق والذكاء وجميع الحركات التى سيرت ابراهيم فى حياته العامة، وإذا تم ذلك قدرنا المجهود الشاق الذى قاساه الجنود المصريون فى الحرب حتى عقدت لهم فيها ألوية الظفر فى كل مكان

فى اوكار النسور والعقبان

ذهب ابراهيم على رأس جيش مصرى لاخضاع بلاد المورة فمن حارب ؟

لقد ذهب ليحارب الراعى اليونانى فى قمم الجبال وهو ينشد «ثروتى فى سمهرى وسيف ودرع جميل، فبالسمهرى ازرع وبالسيف أحصد وبالدرع أطأ العنب الناضج»

ورجل الشعب وهو يغنى ! « سأحمل سيفى تحت فرع من الغـــار وأقلدهرموديوس واريستوجيتون عندما قتلا الظالم ، واقاما المساواة بين الناس فى آثينا انك لم تمت ياعزيزى هارموديوس . فالناس يقولون انك على العهد مقيم فى الجزيرة السعيدة ، حيث آشيل ذو الخطوات الجبارة ، وديوميد ابن تيديه — انى سأحمل رمحى تحت فرع الغـــار وأقلد هارموديوس واريستوجيتون عندما قتلا الظالم وأقاما المساواة بين الناس فى آثينا ، بارك الله فى مجدك ياعزيزى هارموديوس واريستوجيتـون وليبق هذا المجـد أبد الدهر بعد أن قتلتما الظالم وضمنتما المساواة بين الناس فى آثينا » .

والجندى وهو يوقع « ونحن ايقاظ دائما ، فاما اللسان وأما الحسام والسنان »

والضابط وهو يسلم الروح ويناول ابنـــه سيفه وبندقيته وهو يقول له ، أى بنى ! لقد وليت اليوم أمر القيادة بعدى . فاحفر لى مقبرة عريضة عميقة حتى أقف فيها بقامتى ، ثم اجعل لها نافذة على اليمين حتى أسمع منها دوى بندقيتك « خلال المعمعة » .

والضابط الجريح وهو يقول لجنوده : « أيها الجند البواسل : ها أنا قد جرحت فانتزعوا رأسى ، وادفنوه حتى لا يشمت العدو بموتى ، وماذا يهم الموت مادامت دماء الأبطـال تنبت صلب السيوف ؟ »

والنساء وهن يصحن « اذبلى أيتها الأشجار الخضراء ؟ وليجف عصيرك والتزمى الصمت البليغ يابلابل أولمب ! فها نحن أولاء قد دحرنا ، ونزل بنا الدمار ! فلتنزلن عليكم اللعنة ماخضعتم للعدو ، ولتزهق أرواحكم وتتحجر أجسادكم دون أن تتحلل ، ما أقمتم على ذل حتى تكونوا مثلا للجيف الدنيئة يأنف التراب مواراة سوءاتها ، ويعاف الطير والحشرات نهشها » .

وإذا ما انتهت المعركة يسمع ابراهيم وجنوده الرجل التركى بعـد إذ يرى

فى مدينة كوردبل امرأة فى ميدان القتال قد انحل مشدها وبان ثديها الذهبي تحت القميص الأبيض الشفاف يقول : « إننا نقاتل امرأة ! اننا نهاجم فتاة ! ألا إن سيف العذراء هو الذى يطيح برؤوس جنودنا فيا للهول ! » وإذا ما وقع فى يده اسلاب فلا يقع الا مهد كتب عليه « السيف وحده هو الحرية والشرف والحياة ! » .

ذهب ابراهيم على رأس الجيش المصرى ليخضع هذا الروح وهو ينشد أناشيد الحياة فى النفير . وينفث زفرات الأوجاع والآلام على نغمات تنهدات القيثار .. ويشهد أن « تزولكاس » بعد أن خرج ظافرا منصورا من عشرين معركة دحر فيها العدو ، أحاط به جنوده خائرى القوى من الجوع جامدى الألسن من العطش . مشرفين على الموت ليقولوا له فى صوت أجش ! « أليس فى وسعنا أن نقاتل يا حضرة القائد تحت حرارة يوليو وشمس أغسطس المحرقة . وها هى بنادقنا تتقد وتذوب ، ولم تعدلها شهية لتناول الرصاص غذاء » فما كان من « تزولكاس » إلا أن استل سيفه وأجاب : « أيها الجند ! هلموا إلى سيوفكم فاستلوها ، وإلى الأمام حتى تعلم المدن والقرى أن « تزولكاس » قاتل ثلاثة آلاف تركى تحت حرارة يوليو وشمس أغسطس المحرقة . ثم هاهو يواصل المعركة ثلاثة أيام وثلاث ليال ويمر فى النهاية بجنوده فوق أشلاء العدو ويحلق فى اتجاه قمم الجبال الشامخة ، كالباشق » (١)

فأية فروسية دفعت ابراهيم وجيشه المصرى إلى مجاهدة الروح اليونانى

« ١ » (جميع المقتبسات الخاصة بنفسية الشعب اليونانى إبان ثورته الاستقلالية مستعارة من كتاب « أثينا وروما وباريس » لمؤلفه هنرى هوسيه عضو الاكاديمى الفرنسية . باب الغناء الشعبي فى اليونان ص ١٥٩ إلى ١٧٤)

وسحقه ، وأية غريزة نصرته على الطبيعة العالميـة الماثلة فى الحرية ؟ وأى قوة نفذه ؟ وأية عبقرية إلى الظفر قادته ؟

لقد حمل ابراهيم على رأسه تاجا مزدوجا من الفروسيـة والعبقرية فألقى به الرعب فى كل ناحيـة نزل بها ، ولـكنه لم يكن الرعب على اطلاقه ، بل كان رهب الروعة وخشوع الجلال استولى على الأعداء فألقوا مقاليدهم إليـــه وسلموا فى سلاحهم وركعوا مستسلمين . فماذا صنع ؟

ماذا صنع ابراهيم ؟

أقلع ابراهيم من الأسكندرية فى نهاية سنة ١٨٢٤ على رأس ١٢ الف جندى من البيادة ، وألفين من الألبانيين . وألفـين من الفرسان . وسبعمائة من الطوبجية . و ١٥٠ مدفعا جبليا أقلتها نقالات مصرية فى حراسة ٥٤ بارجـة حربيـة . فتمكن ابراهيم من أن ينزل إلى بر الموره فى سنة ١٨٢٥ وفى أشهر قليلة فتح الجزء الأكبر منها ، ودخلت الجنود المصرية « تريبوليتزا » ثم تقدم إلى الأمام ولـكنه بعد أن أباد أغلب الفيالق اليونانية وقف عند «نو يلى» حيث كان الأسطول البريطانى راسيا .

وفى السنة التاليـة أبحر من الاسكـندرية أسطول مصرى قاصداً إلى بلاد اليونان وعليـه عشرة آلاف مقاتل . فاعتزم ابراهيم غازى المورة أن يرفع سمعة المصرى إلى الجوزاء . بعد أن خط اسمه بأحرف المجـد فى مختلف الانحاء فتقدم واستولى على ميسولونغى فى ١٢ ابريل

كان آخر جيش من جيوش الدفاع عن حرية اليونان واستقـلالها قد التجأ إلى وكر « ميسولونغى » وكان الجيش التركى قد حاصرها بقيادة رشيد

باشا ولكنه أخفق فى اخضاعها ، وكاد يعود أدراجه خائبا فشيلا . فأنزل ابراهيم جنوده فى « تيراس » وسار سير الجد إلى أن وصل إلى هذا الحصن المنيع الذى أسماه ملجأ ، زراية به واحتقارا له . فعزا الأمر على رشيد باشا الذى أذله إبراهيم حتى تخلى له عن القيادة . فضيق الحصار ثم ضيقه ، وبعد حصار أذاق المدافعين والأهلين مرارة البؤس والقحط ، وبعد اطلاق ثمانى آلاف قنبلة على المدافعين اليونانيين الذين حصدت آجالهم حصدا ، حاول الجيش اليونانى أن يشق له طريقا بين صفوف المصريين ، فتركهم ابراهيم يعملون إلى أن لحق بهم الأهالى واندمجوا فى جيش المحاربين ، فأطبق عليهم من كل ناحية وأبادهم إلا من التجأ إلى القلعة فانهم آووا إلى مخزن البارود الملغم ، وبعد أن باركهم القسيس وصاح « اذكرنا يا آلهى » أضرم النار فانسف المحقق ونام المدافعون تحت الأنقاض .

استولى المصريون على هذا البلد وحكموه . ثم أخذ المدد يصل إلى ابراهيم بعد المدد ، ولكن أوروبا تكالبت عليه وتحالفت . كما تحالفت من قبل ضد نابليون ، وكان من نتائج هذا التحالف أن بيتوا له جريمة الغدر بالاسطول المصرى الذى أحرقوه غيلة فى عشرين أكتوبر سنة ١٨٢٧ على نقيض القوانين الدولية .

ولكن ابراهيم رغم هذه المؤامرة الدنيئة على القوانين الدولية . ورغم هذه الوحشية التى سطرت حجة الخيانة فى تاريخ الدول الأوروبية ورغم عودة فلول الأسطول المصرى إلى مياه الأسكندرية قد صاح صيحته الشهيرة فى وجه فرنسا ! « انى لا أفهم كيف استطاعت المدافع الفرنسية أن تطلق قذائفها على سفنها » . (يراجع ص ٢٤ من كتاب « القضية المصرية » لده فريسينيه وزير خارجية فرنسا) . ثم اندفع وهو متأثر بغريزة الانتقام للشرف والكرامة والقانون والقصاص لعزة النصر إلى أن يتخذ من مدينة تريبوليتزا رأسا

انسانيا يحلقه بالموسى ويذر الملح فوقه حتى لا ينبت (الشعرفيه) (راجع ص ١٣٥ من كتاب « مصر ابتداء من سنة ١٧٩٨ حتى سنة ١٩٠٠ » لمؤلفه لوزى بريهيه مدرس التاريخ بجامعة « كليرمون فران » بفرنسا) .

ولما استعصى على ابراهيم وصول المدد إليه بعد هذه الجريمة الدوليـة . ونزل الأميرال لاميزون فى سبتمبر سنـة ١٨٢٨ إلى أرض المورة على رأس جيش فرنسى قوامه ١٥ ألف جندى ، أكره ذلك البطل على أن يذعن للحظ العاثر بعد مقاومات عنيفة ، ومعارك دارت بين الجيوش المصرية المنهوكة وأبرمت اتفاقيـة بين الحكومة المصرية والأميرالين الفرنسى والانجليزى بخصوص الجلاء عن بلاد اليونان فكان ذلك اقرارا بسيادة مصر الخارجية ، وعاد ابراهيم إلى مصر .

هذا شطر من أعمال ابراهيم ، ولا غرابة بعدئذ إذا نحن سمعنا من الأجانب أنه « كان قائداً ماهراً محنكا ، وجنديا باسلا ، وعقلا حربيا فنيا قويا . ولقـد يمكن أن يقال إنه كان قاسيا للغاية ، ولكنه كان عادلا فى قسوته . يكافىء ويقتص فى نصفة ونزاهة ، ولذلك أحبه جنوده حبا جماً ، ولقد أتى بالمعجزات فى حربه ضد « لا كاندى » وهى معجزات لا يجود بها غير البطل وهو يعرض نفسه للخطر كالجندى البسيط فى سبيل شراء المجد بأغلى الأثمان » (راجع صحيفة ٨٨ من كشف القناع عن عجائب مصر الساحرة لمدام أولمب أودووار) .

لقد تقدمت لك أعمال ابراهيم فى الشام وآسيا الصغرى ، ولما انتهت الحرب مع تركيا بمعاهدة لندرا التى لم ترق فى عين ابراهيم الذى كان سرّ عمله الطموح إلى تحقيق الاستقلال ، جعل ابراهيم يشارك والده فى القيام بالأعباء الجديدة ناهجا أقوم منهاج حتى قالوا فيه : «إن تحقيق سعادة مصر ورفاهتها كان يقضى بأن يكون حكمه ٧٥ سنـة عوضا عن ٧٥ يوما » (راجع ص ١١٠ من كتاب عجائب مصر الساحرة لمدام أولمب أودوار) ، وما قالوا فيه هذا القول إلا عن يقين

بأنه كان محور الرقى المصرى أيام ابيه: «فبعقله العملى، وحب الرقى المتغلغل فى أعماق قلبه كان فى الامكان اجتناب سير الشئون المصرية فى السبيل التى سارت فيها من بعده، فلو أن هذا الأمير عاش زمناً طويلا لتابع العمل التمدينى الذى بدأه محمد على، ولأدت عدالته وقوة عزمه ومضاء حزمه إلى اخراج أمة عظيمة من هذه الأمة المصرية، فلقد عنى بالشؤون المالية عناية فائقة» فعند ما بدأ يحكم مصر بنفسه شاهد بعينه حالة النظام المتهدم، ولمس بيده الاسراف والتبذير الذى ساد كل ناحية من مناحى الحياة المصرية، والأمراض التى تفشت فى نفوس الموظفين، فجمع الوزراء وأعضاء أسرته وخاطبهم فى لهجة شديدة قائلا: لقد مر بكم زمن طويل وانتم تمدون أيديكم إلى خزانات الدولة، حتى استنفدتم مافيهـا من أموال، فأصبحت اليوم خاوية، ومن الواجب التفكير فى تغذيتها وملئها، دون أن نفرض ضرائب جديدة، وكفى الشعب المصرى ماينوء بحمله من ضرائب فادحة، أثقلت ظهره، وانقضت مناكبه. لهذا فان الواجب لايحتم عليكم أن لاتمدوا إليها أيديكم فحسب بل يفرض عليكم أن تخدموا البلاد لوجه الله.

«ثم وجه الكلام لعباس (الاول) قائلا: «وأنت ياعباس: انك مدين مهزار، ولا قلب لك ولا أخلاق، وقد اعتزمت أن أدفع عنك ديونك، ولكن عجل بالرحيل إلى الحجاز إذا أردت ألا اقصر قامتك بانتزاع رأسك

ووجه القول إلى سعيد قائلا: «وأما انت ياسعيد فانك رجل طيب القلب وطيب للغاية، ولهذا غرقت فى بحر من الديون فكم ايراد أملاكك؟

«.... اهذا هو ايرادك فقط؟ انك لاتصلح لشىء فى المسائل المالية ولذلك فقد اعتزمت أن أسدد عنك ديونك بشرط أن تتنازل لى عن ادارة أملاكك خلال خمس سنوات، وسأسلمك كل سنة القيمة التى قلت عنها وما زاد يكفى لسداد ديونك، وبعد أن خاطب أعضاء الأسرة فى هذه اللهجة

التفت مرة أخرى إلى الوزراء والموظفين وأسدى لكل منهم موعظة ونقدا قاسياً ، « ثم بدأ يعالج الشؤون المصرية متبعا فى ذلك اجراءات تكفل احياء الرفاهة القومية ، وإنماء الثروة العامة التى استنفدتها حروبات محمد على» (راجع ص ١١١ و ١١٢ من كشف القناع لمدام أولمب اودوار) ، وعنى بالجيش المصرى الذى قدر رجاله الذين قال فيهم للأمير البروسى « پكلرمسكاو » وهو يصف حصار عكا : « ليس فى العالم جنود يفوقون اجنادى فى حماستهم وشجاعتهم فى القتال ، وإن كان هناك من يفوقهم فى النظام الحربى ، وفى الوقوف على أسرار فنون الحرب والصراع ، ولئن بدا من بعضهم تردد وخور فى العزيمة ، فهذا مايبدو على الضباط الاتراك ، ولست اذكر أن بدا على وجوه ابناء العرب شىء من هذا القبيل » (راجع ص ٣٣٢ جزء أول من كتاب سياحات وحوادث للأمير پكلرمسكاو)

على أننا لو نقبنا فى حياة ابراهيم قبل ولايته الحكم لعثرنا على أمثلة عديدة تنهض برهانا على نبل القلب ، وشريف القصد والانسانية الرحيمة نجتزىء عنها بمثل واحد فيه كل شىء ، فقد حدث مرة أن مر ابراهيم بحى الأزبكية فسمع صخباً وصياحا مزعجاً ، فسار فى اتجاه هذا التذمر وتحرى الخبر فقيل له إن عباس يسخر المصريين فى بناء قصر له فما كان منه إلا أن صرف العمال واتخذ من الجدار مناخا لجمال الحكومة فشكره الشعب واثنى عليه . (راجع الكاشف ـ لميخائيل شاروبيم)

ولقد أولته هذه الطبيعة الرحيمة اسمى مكان فى مصر ، فعند ما أسس محمد على سنة ١٨٢٩ « مجلس المشورة » وهو أول مجلس يصح أن يطلق عليه اسم هيئة نيابية ، عين ابراهيم رئيسا لهذا المجلس الذى ضم أعيان البلاد والعلماء وموظفى الحكومة وكان بمثابة جمعية عمومية عددها ١٥٤ عضوا منهم ٣٣ من كبار الموظفين والعلماء و ٢٤ من مأمورى الاقاليم و ٩٩ من كبار اعيان القطر

المصرى ، فجاء هذا المجلس وعلى رأسه نابليون الشرق أفضل فى تمثيل مختلف الطبقات من « الديوان العمومى » الذى أسسه نابليون الغرب أيام الحملة الفرنسية ، إذ كان هذا الديوان مؤلفا يومئذ من أعيان القاهرة دون سواهم ولكنه اقرب فى تشكيله الى الديوان العام الذى أسسه نابليون أيضاً ، فقد كان مؤلفاً من العلماء والأعيان النائبين عن مختلف مديريات القطر المصرى . ولكن هذه المجالس الثلاثة لم يكن لها سوى سلطة استشارية فى مسائل الأدارة والتعليم والاشغال العمومية ، وما يقترحه الاعضاء فى هذا الصدد مما ترشدهم اليه اختباراتهم ، ولهم أيضا أن ينظروا فى الشكايات التى تقدم اليهم .

هذا هو نابليون الشرق فى السلم والحرب بغرائزه وطبائعه وخلقه وظلمه العادل ، وحنقه المنصف ، وارادته الحديدية ، واقدامه الجرىء ، وذكائه الوضاء ورحمته وعدله ووطنيته .

لقد كان ابراهيم رجل المجد ، فقاد الشعب الى ميدان المجد ، وبذلك احتك شعاع جوهر نفسه بشعاع بريق السيوف ولهيب المدافع وشمس المجد ، فتعانقا وازدوجا خلال ربع قرن أو يزيد .



الفصل الثالث

اسماعيل

تاريخ اسماعيل رغم ما غشى بعض جوانبه من ظلال ، هو تاريخ الحركة الاستقلالية الصادقة ، تلك التى لم تقم على فتح أو غزو، وإنما قامت على الوسائل الدبلوماسية فى سبيل إعلان الاستقلال وتكوين وحدة وادى النيل داخل حدوده الطبيعية والتاريخية ، وانقاذ هذا الوادى من آخر رباط يشعر بالتبعية لتركيا ، لذلك فانه إذا لم يكن من المسلم به أن الشعب المصرى هو الوارث الوحيد لهذا المجد . فلا أقل من أن له الحق فى أن يساهم فى بيان الحقيقة التى تعنيه، وتعنى سلالته من بعده ، ويتحمل من هذا العبء حصة من المتاعب تعادل ما يعود عليه من فخر.

لقد انقسم المؤرخون الذين خاضوا عهد اسماعيل الى فريق قادتهم مطامع دولتهم إلى أن يتمالئوا على اسماعيل ويجحدوا حسناته ، ويرهقوه بعقيم الاستنتاج وسقيم الاستقراء ، ويبذلوا فى تدوين تاريخه ، العناية كل العناية بايراد عيوب البذخ والأسراف والمتعة ، والدخول فى تفاصيل هذه العيوب التى كانت ولا تزال خطأ شائعا بين ملوك الغرب وزعمائه ، ناظرين اليها على اعتبارها من شئون الحكم فى تاريخ عظماء الشرق وحدهم ، مع أنها وقد تجاوزت كل حد يمكن تصوره فى الغرب ، لم تحط من قدر أعلام القارة الأوروبية ، أو تلوث من سمعتهم. ولكن

ما الحيلة وسوء النية لابد أن يؤدى حتما الى ايذاء التاريخ، وأن ينطق المؤرخين بالتخرصات والاباطيل ويدفعهم الى النكول عن جادة الحق والعدل والانصاف. ويلزمهم تجاهل الحقائق والاهتمام بالصغائر، واهمال جليل الأعمال، وغمط قدر الشهيد. وتسفيه الفكرة السامية، وحرمان الانسانية من حقها فى الوقوف على الحقيقة المجردة، تلك التى انتزعوا تاجها وقرحوا بالاشواك جبينها. وشوهوا بالسياط جسدها، حتى لا تعرفها الأجيال المصرية المتعاقبة، ولا تستطيع أن تفخر بها، أو يتسنى لها السير معها فى سبيل السمو، لانقطاع حلقة من حلقات مجدها، وكل ذلك تحقيقاً للقاعدة القائلة «ليس للشعوب المستعبدة تاريخ» كى تتاح الفرصة لحضارة الغاصبين. فتربو وتزهو وتزدهر على ضفاف وادى النيل. ولا يمكن تقدير قيمتها لانعدام ما تقاس اليه مما يفضلها ويعلو عليها من أعمال المصريين ومبتكراتهم.

وفريق رزحت حكومته تحت حمل مسؤولياتها إبان احتلال مصر، فعمدوا للدفاع عن دولتهم. والقاء حمل التبعة عن عاتق ساستهم. فزل قلمهم، وطاش حكمهم، وبعد أن خمدت فيهم حرارة الضمير، وحمية الذمة، أبوا الا أن يدهوروا الحقيقة ويصبغوا وجهها بالسواد، حتى لا يعرف العالم روعتها وجلالها نابذين الوثائق والمستندات، غير مراعين، أن الانعدام المطلق للمعلومات الخاصة ببعض فترات من حياة عظيم من العظماء لهو أقل ازعاجا للنفس من حشد الأقاويل والأقاصيص والترهات التى تذاع بصدد هذه الفترات، وان واجب المؤرخ الجاد انما هو استبعاد كل واقعة من هذه الوقائع التى لا يمكن اعتبارها الا ضمن الخرافات والأعاجيب، إلا أن تستند على نوع من الضمانات يجىء التواتر واجماع الرواة مصداقا لصحتها»

وفريق ثالث كان أجير الشهوات، أو عبدا لحقد الخصوم والاعداء، أو خادما لمطامعه الخاصة، فقادته الضلالة إلى أن يلهب تاريخ اسماعيل بسياطه حتى

يدميه، أو يضرم النار فيه حتى يحيـله ركاما أسود تشمئز منه النفوس و يعافه الوجدان الصحيح . ولكن هذا الفريق قد سقط سقطة كبرى ، وكبا كبوة لاقيام له بعدها من فرط تغاليه فى تشويه الحقائق . وافراطه فى الافتراء الذى يلغ حدا حمله على أن يقول: «إن فى مصر خرائب أثرية جميلة : تقوم بكل أسف شاهدا على مجدها البعيد بعداً سحيقاً . ولقد استخدم الوالى هذه الآثار فى بناء مصانع تكرير السكر».

« فعلى مقربة من القاهرة ، قام بناء ضخم جسيم أراد به الانسان أن يتحدى المستحيل . وفى سبيل بنـائه جـد بانيه فى قطع الصخور والجرانيت، ثم كدس منها كتلا رفع بها سلما هائلا . كى يرقى به أسباب السماء. والمقول أن الريح ستذهب بهذه العجيبة ، كما أنهم يؤكدون أن الوالى الحالى اسماعيل باشا سيهدمها ليبنى بأحجارها مصانع لحليج القطن ومخازن واسعة لخزنه ، ولكن يا للاسف ثم ياللاسف ثم يا للاسف يا كيوبس ومانيتون وميكرينوس ! فقدفاتكم أن تتنبأوا بان هذه الآثار التى انشأتموها شاهدة على حكمكم الطويل، ومجدكم الاثيل،وبرهانا على الفارق الجليل بين عبقريتكم وعبقرية الشعوب الاخرى ستكون عديمة القيمة فى نظر واحد من ولاة مصر جاء ليقضى عليها بالعدم كى يستخدم أنقاضها فى تشييد مصانع لحليج الأقطان (تاريخ محمد على لبول موريه جزء ١ ص ٥٨) .

« وكذلك يا أمير المؤمنين . هناك مسلات — هى أعمدة من الجرانيت الوردى ومن المرمر قد أحكم قطعها وصقلت حتى امست أسطحها كالمرآة ، ثم أقيمت وسمت شامخة بأنفها ، بهية بطلعتها خلال طبقات السماء ، ستتهدم وتحطم لاستخراج ما فى مسالك جوانبها ونقوشها من رصاص . فأى انتهاك بعد هذا لاتجسر على ارتكابه أمة أصيبت بجنون الربح والمادة !

وهناك فريق رابع من حملة الأقلام بين رجال الجاليات الاجنبية دفعهم

الفضول المشوب بالحرمان من الكسب على حساب اسماعيل إلى أن ينالوا من تاريخ هذا الرجل نيلا أعمى حتى لقد قيل فى هؤلاء الكتاب « إن الصور التى رسمتها الجاليات الاوربية للخديوى اسماعيل على التوالى ، لهى فى الحق صور غريبة . فبعد أن رفعوه إلى عنان السماء نزلوا به الى الدرك الاسفل من جهنم . ولقد كان واجب الفضول يقضى علينا بالاطلاع أيضا على المديح الذى ساقه المسيو « لونكين » (ضمن الجزء الثالث من كتاب مصر) إلى محمد على كما يقضى بالاطلاع على الشتائم والاهانات التى وجهها إلى عباس الاول مع أن الوقائع التى يسوقها فى أمانة تفند مديحه ولا تبرر شتائمه ذلك بأن الشتائم والمدح والثناء الفاظ مستقلة عن الوقائع المنشورة ، ولا مصدر لهـــا إلا التقاليـد الأوروبية فى مصر »

فاذا علمنا هذا وعلمنا قول ذلك القاضى المختلط فى كتابه «مصر وأوربا» عن هذه الجالية : « ولكن من الواجب أن لا نسلم بالصورة التى تصورها الاوروبيون عن عباس . فأى جريمة فى نظرهم تعادلها جريمة تضييق مجال الكسب أمام الأوروبيين وحرمانهم من جمع الثروة على حساب مصر ، واقصائهم فى غير رعاية عن حاشيته » فهمنا أن هذه المطاعن والافتراءات التى كالها بعض الكتاب الاوروبيين الذين سدت فى وجوههم أسباب الارتزاق قد فرضتها شهوة الحقد والانتقام ضد اسماعيل الذى كان يقف سيل حثالة الأجانب الجارف شيئاً فشيئا بعد أن شعر بخطر هذا السيل على مصير البلاد . (١)

وهناك فريق من الكتاب عجز عن الدرس والتمحيص وأراد الوصول إلى أن يحقق بنفسه ولنفسه شهرة المؤلف والمؤرخ فغمس قلمه فى محبرة هذا

« ١ » راجع هامش (٢) ص ١٦ من اسرار مصر المكشوفة طبعة ١٨٦٥ لمدموازيل اودوارد

وهامش (٣) ص ٧٧ من كتاب مصر وأوروبا لقاض مختلط

أو ذاك أو فى جميع المحابر ، ساطيا على فكرة ، أو ملتقطاً نقطة من الحبر يسود بها عمله حتى رأيناه يفكر بعقل مختلط ، وعين حائرة مرتبكة ، ولسان أعجمى لاهو بالفصيح ، ولاهو بالعيي الكسيح ، ومنطق قلق مفكك ، دون أن يعنى بأن يحكم ضميره فى وزن ماسطر كل فريق . فجاءت مؤلفاته ضغثـــا على ابالة .

لقد كان شأن هؤلاء المؤرخين جميعا مع اسماعيل شأن ذلكم الذين أحلوا اعلام الرجال وقادة اللصوص مثوى واحدا ، لاضمان فيه لراحة الفريقين ، ولااطمئنان معه على ماضيهم ، فدهش الناس وجعلوا يتساءلون عن ذلك العدل الذى أوحى بمشروع رد الشرف والاعتبار لقطاع الطرق ، كما جعلوا ينقبون عن الانصاف الذى الهمهم الهبوط بعظماء التـــاريخ من عليماء مراكزهم إلى الحضيض ، فكانت نتيجة هذا التساؤل والاستقصاء ارغام العالم على الشك فى نزاهة هؤلاء المؤرخين الذين انقادوا للسياسات ولم يجعلوا فى الحكم شرطاً أساسيا للتاريخ الذى انشأوه على اعتباره اداة انصاف سياسى وتغليب عدل حزبى .

لقد نحا كثير من المؤلفين هذا النحو الممقوت فقلبوا الحقائق وشوهوا الوقائع ، ولما كانت العجائب لاتلد الا العجائب ، ولما كان مؤرخو «نيرون» قد حاولوا فى القرن التاسع عشر أن يرفعوا جثته من مستنقع الدماء ليحلوهامكاناً مختلسا فى « البانتيون » ولما كان مؤرخو « أغسطس » و « تيبير » قد أوغلوا فى تخريفهم ، وغالوا فى تحريف الآيات البينات بأن تعمدوا القاء « أغسطس » من فوق قاعدة تمثاله ليحلوا مكانه تمثال « تيبير » بعد انتشاله من أوحال « كبريه » وتطهيره من دناياه وأوساخه ، فلا بد أن يحتذيهم المؤرخون السياسيون من انجليز وفرنسيين وغيرهم ازاء اسماعيل ، وأن يموهوا عظمته ووطنيته ونهضته الأدبية والعلمية والفنية تمويها أسود منتحلين فى تبرير جريمتهم بعض معاذير

ليس لارادة اسماعيل دخل فيها ولا لشخصيته تأثير فى وجودها .

على أن بين المؤرخين فريقا يزعم انه محايد ، ويقول أنه يتحدث عن الرجل كما هو ، وعن سياسته كما هى ، ويقيم الوزن بالقسطاس المبين بين حسناته وسيئاته على اعتبار أن لكل منها وظيفته ومهمته فى الميزان ، وإلا كان الحكم فاسدا أو على الأقل ناقصا نقصانا يبعدنا عن العطف على الرجل فى نكبته ، ويلقى فى خلدنا الكراهية له ، ولكننا نرى أن هذا الفريق يكاد يكون منعدما ، فمن قام منهم بانصاف اسماعيل فى ناحية ، تعمد ظلمه فى نواح عدة . ولذلك فانهم جميعا قد امتهنوا بهذا المنهج حق التاريخ على المؤلفين وازدروا بحقوق الأمم فى تعرف الحقائق التى لا تعدم أنصارها فى الوقت المناسب .

إن جميع هؤلاء المؤرخين قد تناسوا كل جانب من جوانب اسماعيل الحسنة ولم يجدوا امامهم إلا أن ينهشوه من ناحية بذخه وإسرافه وولوعه بالحضارة وبث الدعاية لبلاده ، ولوعا ابتلع بعض الملايين من الجنيهات ، وقد ذهب البعض إلى اتهامه بأنه «خديو ألف ليله وليله» ولكن فاتهم سير الملوك الأوروبيين أو تعمدوا اغفالها لغاية فى النفس ، ولو كان حقاً أنهم مؤرخون يعرفون واجبهم ويقدرون ذكر الحقائق التى كان لزاما أن تجرى على اسنة أقلامهم لارسلوا سيرة اسماعيل كما هى بعيدة ، عن مخترعات المسارح الجريئة ، ولا تنتزعوا من فوقها ذلك الغلاف الذى نسجوا خيوطه من النميمة والافتراء والخديعة ، عما لا يصح الاعن عصور ملوكهم ، ولاستخذوا من قول الفرنسيين عن عصر لويس الرابع عشر : « فرغما من أقوال سان سيمون ، ورغما من أقوال ميشليه لا يزال أغلبنا مصمما على اعتبار تاريخ عصرنا الاعظم منظراً من المناظر الفخمة المنتظمة ، عرض فى مسرح ليس له خبيئة ولا دخيلة ، فالزخرف الساطع الذى هيأ فرساى ، وقيام المجمع الأدبى ، واشعار « راسين » الخالدة ، كل ذلك أبقى وسيستبقى نفوذ ذلك العصر زمنا بعيداً ، ولكن من يريد الاعتقاد بأن هذه

الحدائق الغناء قد دنستها القاذورات ، وان هذه القصور الذهبية والمرمرية قد انسلكت فيها مسالك مظلمة قذرة وترع تفوح منها روائح النتن الذى أفسدها ولوثها ؟ إن بوردالو ، وراسين قد نظرا فى أعماق جميع الهاويات ، ولكن الناس دائما يقرأون مؤلفاتهما كما يقرأون اللغة اللاتينية التى تعرف كيف » تجرح النزاهة لسبب وحيد هو انها لغة تحفظها العيون ولا تشعر بها النفوس وليس فى مقدورها أن تحرك فى عنف أعصابنا الجامدة » (ص ٨ من كتاب مأساة السموم — لفرنك برنتاتو ـ مقدمة البير صوريل)

على أن هناك فريقاً آخر من المؤرخين قد حسنت نياتهم . وصدقت طوياتهم ولكن حماسهم الوطنى ، وأحساسهم القومى كلاهما قد انقاد لنظريات فلسفية جليلة الشأن عند اصدار الحكم على اسماعيل ، فخانتهم قوة التقدير تحت ثورة العواطف ، فاستحال عليهم فهم الحقيقة والتبس عليهم الأمر فلم يخلطوا بين السبب والدافع ، وانما خلطوا بين المجرم المدجج بالسلاح والحارس الساهر على إرباء الوديعة وانمائها ، وهو مطمئن للزمن غاضب على اهراق الدماء وامتشاق الحسام واستخدام السلاح ، وقضوا بمسئوليته عن كارثة سنة ١٨٨٢ بحجة اسرافه وتصرفاته المالية . فتنكبوا سبيل الانصاف باهمالهم تقدير أهم عامل فى الموضوع ، ونعنى به عامل المطامع السياسية الأجنبية عامة ، والفرنسية والانجليزيه خاصة وغاب عنهم تقدير موقف الامة من ناحية جانبها الخلقى المطبوع فى اعماق نفسها ، وعجزها عن استكناه مرامى الرجل ، تلك التى اراد بها ان يعود بمصر إلى شىء واحد يمكن ان تقاس به وهو ماضيها ، ذلك المنبع الذى لا يمكن ان يقال فيه إلا ماقاله بالأمس « توماس مان » بنادى الضيافة المصرية .

«فى حكايات الجن أنه لا يدخل الحقول المسحورة فى غور الآبار إلا الأطفال الذين ولدوا يوم الأحد ، فهذه الآبار فى أقاصيصهم هى ماضى الانسانيــــة ،

وتلك الحقول المسحورة لا يمثلها لنا إلا هذه البلاد التى تتقلب بين آلاف من القرون . وينتقل العقل فى تاريخها على نور لامع فياض بالحب والاحترام المتغلغلين بين تلك الآثار الباقية على الدهر ، أولها فجر الانسانية ويوم بزوغها ، وظهور آدابها ، على هذا سرنا وطفنا مدى أربعة أسابيع فى أعماق مضيئة ضوءاً تعجز الألفاظ عن تصويره والتعبير عنه ، كما تعجز عن وصف ما استفادته نفوسنا وانطبع على صفحات قلوبنا .

« والآن وقد ضمتنا بين جوانحها عاصمتكم القاهرة العظيمة الجامعة بين الرشاقة والفخامة — فيسوغ لى أن أقول انها أجذب العواصم للقلوب ، وأعلقها بالنفوس ، وبقايا ذلك الزمن القديم فيها ليست أقل قيمة مما فى جنوب البلاد

« ولا تستطيع ألفاظى أن تحيط بما يخالج نفسى من الارتياح ، ولكنى أقول لكم أنى ورفاقى قد هبطنا قبور ملوك مصر القدماء بعاطفة من الاكبار والاجلال ، وفى تلك القبور رأينا أشعة الشمس والقمر تنعكس عليها من فوق جوانب الأهرام .

« أما هذه الساعة فانها علمتنا أن هناك مصرا أخرى ، بلادا وشعباً ، ينبعث منهما نور يوحد كل المجهودات فى سبيل الانسانية ، وفى سبيل المستقبل مع مجهودات الأمم الأخرى .

« ولا يحق لبلد من بلاد الله أن تستغنى بعلم أو بأدب خلفه لها الموت كما يحق لمصر .

فيا جمال معرفة مصر وعلمها بأن توفق بين احترام الماضى والأمل فى المستقبل ، والسير فى سبيل النجاح .

« وإن كلمة واحدة لتجمع بين نبل الماضى وحرية الحاضر ، وتلك الكلمة الكبيرة هى كلمة الانسانية »

نعم إن هذه المرامى كانت لا تنطبق إلا مع ذلك المصدر الوحيد الدافع إلى تدفق التأثرات والاختلاجات بقدر ماتدفق من سواحل مصر من نور الآلهة وعظمة الأساطيل المصرية التى كانت تظل سارياتها على دار الخلد الأرضية فينسى الوافد عليها آلام الحياة ، ويبدأ فى الارتواء من منهل الآمال العالمية . فكم دقت قلوب هؤلاء المهاجرين جيلا بعد جيل وهم يشرفون على ارتشاف الآمال العذبة من وادى النيل ، وكم دقت هذه القلوب عند مارفعوا عيونهم لرؤية شمس مصر الذهبية تحمل بين أشعتها غذاء وحياة ونماء وقوة ، لصهر القيود التى أذلت الانسان وتحطيمها وتحقيق تمتعه باحساسه وعاطفته وكيانه على أنه رجل شريف وعضو فى المجتمع يعمل لاخوته وهو غافل عن ذاته دون إغواء ولا خداع ولا غش ، ليخدم الفرد المجموع ، والمجموع الفرد فلا بؤس ولا ابتئاس ، ولا مرض ولا انتكاس ، وإنما صحة وعافية وتضامن فى كلاهما .

لقد أراد اسماعيل أن ترفع مصر علمها خفاقا كما رفعته فى الأزمان الغابرة هادياً ومرشدا للخلائق ، حتى رأينا جحافل الأجانب يفدون عليها فياضين بالراحة والهناء والثقة ، بما لم يعهدوه قبل أن يستشرفوا شواطئها ، ولما ألقت البواخر مراسيها، أدركوا السلام والثروة والمساواة.

هذا ما فات هؤلاء المؤرخين الفلاسفة من رغبات اسماعيل ، ولذلك كان من الجائز الجزم بأنه قد غاب عنهم أيضا ـ بحكم اندفاعهم الشريف وراء أسمى وأقدس غاية ـ أن فى الحياة فترات تتطور فيها الامم، ويقع خلالها من الكوارث مالم يكن فى الحسبان، كما قد يتم أثناءها من المفاجآت ماهو سعيد وما هو شقى، دون أن يكون للجيل الحاضر أى تدخل ، وإنما التدخل كل التدخل للأيدى التى مهدت طويلا للعمل المفاجىء ، سواء فى الحكم أو التشريع أو العادات أو الأفكار أو المطامع ، ذلك بأن الثورة التى تلوح لنا أنها وقعت

بغتة ، قد لا تكون فى أغلب الأحايين إلا عملا مستمرا متتابعاً خفياً من أعمال المدنية ، جاء نتيجة ضرورية لسير هذه المدنية نحو الكمال المحتوم الذى تتطلبه طبيعة الانسان وتنشده ، كذلك كثيرا ما نرى فى الثورات التى تلوح لنا أنها رجعية فى ظاهرها ، شيئاً غير قليل من الواقع ، ونوعا من النور المنبعث حول حقيقة لا يمكن أن نتعرفها إلا إذا عالجنا فحص الجرثومة التى تولدت عنها.

فالقاء المسئولية على عاتق اسماعيل ، لا يمكن أن يكون ، إلا إذا قلنا بمسئولية الثورة الفرنسية الكبرى بعد فشلها الأولى ثم اخمادها بعد الثورة الثانية ؛ ونجاحها بعد الثورة الثالثة لأسباب غير أسباب الثورة الأولى ، وكذلك يكون الامر بالنسبة للثورة الانجليزية وغيرها ، وهنا يحق لنا أن نسأل ماذا كانت مسئولية اسماعيل لو قدر له النجاح دون الفشل ؟

أما وهذه خطط المؤرخين الذين خاضوا عهد اسماعيل فحقروا من قدره ، وغمطوه حقه ، فقد وجب على كل مصرى أن يحاول إنصافه ؛ حتى يكون لشبابنا من عمله خطوة أولية جريئة فى سبيل الحقيقة بأكملها عن طريق موالاة البحث والتنقيب عنها فى استمرار ، كى يشدوا بدورهم أزرها ، ويدعموا باكتشافها ماحاول المغرضون أن يستأصلوه من أعماقنا ، ونعنى به عاطفة تقدير الأعلام تقديراً صحيحاً ، وهى عاطفة إن خمدت أو غربت كان خمودها أو غروبها داعية إلى تدهور القومية أو انطفاء الغيرة الوطنية ، وتضعضع القوة المعنوية ، وهى عوامل لا مناص من الاحتفاظ بها حية سليمة ، على اعتبارها أسس النهضات السياسية والاجتماعية والأدبية .

فعلى مسيرة دهر طوله مائة سنة ، وفى هدوء من التعصب . وعلى بعد سحيق من الأحزاب التى تأثرت بعصر اسماعيل . وفى تنزه عن الغاية السياسية الممقوتة وخدمة للتاريخ والمصلحة العامة ، يجب على كل مصرى أن يدرس اسماعيل على نور الوقائع الصحيحة الواضحة فى المستندات ، حتى يتمكن من استخلاص

حقيقة الروح الذى حرك اسماعيل . ليأخذ هذا العظيم مشهده الخاص، بالكشف عن مدى مراميه وأقطار أعماله وفكرته السياسية .

وفى هذه الأيام التى أمسى فيها تاريخ اسماعيل موضع تناول ، نرجو أن يبعث نهضة وانقلاباً ، يكون لها فى البلاد أجل أثر سياسى واجتماعى وعلمى — نرى أن الأحرى بالمؤرخين أن يقتفوا أثر الحقيقة أنى وجدت . وأن يرفعوا عنها الأتربة التى دفنت تحتها ، مهما تراكمت طبقاتها . وشقيت الجهود فى تقصيها . مدعمين الواقعة بالمستند بعد المستند . والفكرة بالوثيقة ، بعد الوثيقة . دون ركون إلى القصص المتداولة ، إلا ماجاء إجماع الرواة مصداقا له

واذا كان لامناص فى الحكم على أعلام الرجال من مراعاة الاحوال الزمنية والمدنيـة . وما كان ، لا ماهو كائن ، لاختلاف العصرين من جميع الوجوه لأن حياة الشعب فى ذلك الحين قد ولدت معتقدات وعادات وأعمالا لا يمكن أن تكون بذاتها نفس العادات والمعتقدات والاعمال التى تولدت عن الاعمال الشعبية الحاضرة ، فان ضخامة أعمال اسماعيل وعظمتها ، وسمو فكرته السياسية لا يخيف أى مصرى أن ينظر اليها بعين اليوم ، ومعتقدات اليوم ، وقوانين وعادات اليوم ، ومبادىء اليوم . ولا تفزعه إذا هو قاسها بالواقع من جميع الوجوه ، حتى تتضح درجة التراجع الذى حاق بغرضنا الاسمى ويظهر الفارق بين تكييف وحدة مصر وسودانها وملحقاتها ، واستقلال وادى النيل استقلالا صحيحا ناجزا فى هذا العهد فى عهد ذلك العظيم الذى رأى فيه البعض عاهلا مستبدا ، وما استبد الا لينهض بمصر ويخلصها من الجراثيم التى قاومت نهضتها ثم اختفت ساعة الحظ العاثر، ويتجلى الحزم والعزم، فى ارادة إسماعيل بطلان الامتياز الذى خول فرنسا مزرعة بجانب قناة السويس ، عدها اسماعيل نقطة زراعية فى زمن السلم ولكنها لا تلبث أن تنقلب إلى نقطة عسكرية مساحتها خمسة وعشرون ألف فدان إبان الحرب ، فتعطل استقلال مصر ، فابطل

هذا الامتياز بالفعل مقابل دفع تعويض عنها للشركة لا يوازى الخلاص من هذا العائق الذى يحول دون تأكيد استقلال وادى النيل .

على أن تدوين سيرة اسماعيل لا يتطلب الاعتماد على الوثائق دون سواها . وانما يتطلب أيضا أن نضيف إلى مهمة المؤرخ مهمتى علماء النفس والاطباء ولا سيما الشرعيين منهم ، ذلك بأن المؤرخ إذا اقتصر فى العصر الحاضر على تحديد مهمته بحصرها فى جمع الوثائق . كان مثله كمثل العميان والمقعدين يسمعون فى بيوتهم مأساة أوقطعة غنائية بواسطة «التياتروفون» (١) فتصل اليهم أصوات الممثلين وعزف الموسيقى وضوضاء الردهات ، ومناقشة خبيئة المسرح ودخيلته فى وقت واحد ، واذا هم سمعوا أحياناً بعض هذه الاصوات فى وضوح إلا ان الصخب والتدوية والصياح والبكاء والصفير والتصدية ، هى التى تصل إلى آذانهم كتلة واحدة فى أغلب الأحايين . أما المناظر والملابس ولعب الممثلين وحركاتهم وسكناتهم وهمساتهم وانفعالاتهم وابتساماتهم ، ولفتاتهم . فهذا مالا أثر له البتة فى سمعهم ولا فى بصرهم

فالفن التاريخى لا يفى إذن وحده فى هذا العصر إلا لبناء هيكل من هياكل العصور أو من هياكل رجالها . أما امراض الممثلين وعللهم وصحتهم وقوتهم واستعدادهم وذكاؤهم . فلا يستخلصها من الأعمال والحركات والسكنات واللمحات استخلاصا عليا لاقياسيا . الا علماء النفس والاطباء .

إن المؤرخ والفيلسوف يتصان الحوادث ويشرحان تطورها . ويوزعانه حصصها على من اختص بها من الساسة ومحررى الافكار والشعوب ، أثناء بحثهما عن تأثير العقل أو القوة فى أى عمل من الاعمال . ولكن محاولات شرح التطورات وسرد النظريات فى سبيل ترتيب الوقائع وتفضيل الرجال إذا كانت

---

١ — التياتروفون جهاز معد لنقل الاصوات الغنائية الموسيقية بواسطة تليفون وميكروفون .

مفيدة للتاريخ فائدة جليلة ، فإنها ليست كل التاريخ بل ليست الوسيلة المنصفة المجدية جدوى حاسمة إذ يكفي ظهور مستند جديد لقلب أعمال الفلاسفة المؤرخين رأسا على عقب .

على أننا إذا تتبعنا سير النظريات الفلسفية في مختلف العصور وأثرها في العقول وفي تقدير الرجال ، وجدنا أن الارتكان عليها وحدها لا يكفي لاصدار حكم صحيح . فلقد شاهدنا في أوروبا أيام نشأة المذهب البروتستنتي ، أن هـذا المذهب قد آزر قيام جمهورية واحدة هي جمهورية هولندا .

كانت هولندا من الاقاليم الصناعية في البلاد الواطئة. ولقد قام أهلها بنضال عنيف خلال أكثر من أربعة قرون، قصدا إلى الخلاص من نير الأمراء، وأخذوا في إدارة شؤونهم وحكم نفسهم وفاق نظم جمهورية في صورة حكم البلديات

ولـكن من يتدبر هذه النظم التي أطلق عليها اسم الجمهورية . ويزن أعمالها ، يقتنع بأن المذهب البروتستنتي الفلسفي لم يحرر الشعوب ، وإنما خول الرجال حق الحرية الفلسفية دون الحريات السياسية ، وما كانت الحرية الفلسفية في أي وقت مضى قد غزت الحريات السياسية ، اللهم إلا إذا استثنينا فرنسا الكاثوليكية، وإلا فلماذا ألمانيا الفلسفية بطبيعتها والبروتستنتية منذ العهد الأول لهذا المذهب. قد وقفت جامدة في مكانها طوال القرن الثامن عشر دون أن تقطع أي خطوة في سبيل التحرر السياسي ؟ بل لماذا رأينا ديكارت مؤسس مبدأ التشكك العقلي ، موضع اضطهاد رجال الدين في الجمهورية الهولندية وموضع الاكرام والأعزاز لدى كاثوليك روما ؟ وأي سبب دعا إلى هذا الاضطهاد في بلاد الجمهورية الهولندية وفي ألمانيا الفلسفية ؟

إن السبب الاساسي في وقوف ألمانيا جامدة خلال القرن الثامن عشر واضطهاد فلاسفة الدين البروتستانتي للحرية السياسية يرجع بلا شك إلى أن رجل النظريات يحتقر التطبيق احتقاراً شديداً . فمن ذروة نظرياته يحكم على

الأشياء والشعوب ويفكر فى القوانين العامة للجماعة . وقد تصل بطولة مباحثه إلى حد التدخل فى عجائب الطبيعة والقدرة الالهية وأسرارها . فيظن نفسه حُراً طليقاً من أى قيد . ولكنه إذا ما نزل إلى ميدان العمل، غلت يده وطوق من جميع الجهات وملكه العجز والقصور من جميع نواحيه.

فالتفكير فى كل شىء وانعدام عمل أى شىء ، هو الخلق الأساسى للعبقرية الفلسفية وفضيلتها. فهذه العبقرية الفلسفية تريد حقا سعادة النوع الانسانى ويلذها منظر الحرية وهى بعيدة عن المسئولية ، ولكنها إذا هى عملت ، لا يعنيها رؤية هذا المنظر الرائع يطل من نافذة السجون أو يشرف من آفاق المنفى !

إننا نرى هذه العبقرية وهى بعيدة عن الحكم تفكر فى المستقبل تفكيراً عميقاً وتخطىء كل الخطأ إذا هى قاست الأعمال الماضية والشخصيات الغابرة وفاق نظريات لم يكن لها وجود فى العهود الدارسة ، أو وفاق نظريات لم تتحقق بعد ولم تستحل نظاما وخلقا . وإن استحالت فهى ليست من نظم واخلاق العصور المنفرطة . وهذا الخطأ راجع إلى أن هؤلاء الفلاسفة النظريين لا يمكنهم أن يصدروا حكما على الحاضر والماضى إلا وهم عبيد لحقيقة قد تتمخضها الاجيال المقبلة وقد لا تلدها . كما يكونون عبيدا لقوانين خاصة وعادات خاصة يرون أنه كان من الضرورى وجودها فى الزمن الماضى ويفرضونها على رجاله وقادته وزعمائه وسادته، متخذين من هؤلاء وهم يحكمون عليهم، حجارة من الشطرنج لا فضائل خاصة لهم ولا رذائل تتحكم فيهم !

فالواجب إذن يقضى علينا بأن لا نجعل النظريات الفلسفية الحاضرة مقياساً لنظريات الماضى وأداة لحكمنا على أعلام الغابرين كما يقضى علينا بأن نتصور العظماء وحدات قائمة بذاتها لهم زمانهم ومكانهم وشرائعهم وعاداتهم وتقاليدهم وفضائلهم ورذائلهم التى يسترشدون بها . ولاجل هذا حق أن يكون فى مقدمة الابحاث التاريخية مسألة تقدير الغريزة وتأثير الوسط

فكم من وحوش بين الانسانية بجدر الابانة عنهم . وكم بين القديسين وكبار الآلاهيين من أصيب بعلل وأمراض دمرت المعمورة، وبثت فى أنحائها الفضائح والنقائص . وكم بين الأبطال من اضمحلت أخلاقهم وتضاءلت هيباتهم أمام فريسات شهواتهم الدنيئة فسخرتهم فى أحط الجنايات القومية . وكم بين رجال التاريخ من شياطين وعجاوات مفترسة قد ستر مركزهم فضائحهم . وأبعدهم علو قدرهم عن متناول السخط العام . مع أنهم كانوا جديرين بالنزول إلى مصاف المرضى الذين أقعدتهم العاهات المستديمة عن العمل لخير الانسان . وحق القضاء عليهم بالعزل عن حظيرة الوجود الوديع المهذب

لهذا كان لزاما على المؤرخ أن يضم إلى مهمته، مهمة علماء النفس والأطباء فيكون فى بحثه ، المستندات التاريخية وتشخيصه أحوال رجال التاريخ منقبا عن الأثار الطبيعية والنفسية والاجتماعيـــة . فكلما كان الباحث أكثر الماما ودراية بالمعلومات البيولوجية والسوكيولوجيه ،كان أقدر على تفهم التاريخ وتأويله

وإذا كنا قد تلقينا عن سوفوكل وشكسبير وموليير وبلزاك ، درسا جديا أنبأنا بأن حياة الرجال مزيج من العظمة والشقاء . فأن التاريخ قد أرانا دائما أن أعلام الرجال ليسوا إلا أجساما مركبة من القوة والعاهات الانسانية التى تصل فى بعض الأحيان إلى أقصى حد يمكن تصوره . وإذا أسفنا لشيء فانا نأسف لان إدراك هذه الحقيقة لا يمكن أن يتم فى حين تكوين الرجال وبدء حياتهم، بل لا بد فى هذا السبيل من انتظار عمل الزمن ، والاستمرار على التعاون معه على كشف الواقع ولو بعد حين طويل من زوال العصر المراد تدوين تاريخه . فاذا ما تم ذلك كان التاريخ قصة العدالة حقاً

ومتى تقرر ذلك وجب على من يتعرض لتدوين تاريخ اسماعيل أن يمحص من ناحيته، تأثره بقانون الوراثة وقانون البيئة التى تعلم وتربى فيها. فهناك نجد فتاتا

كثيراً لتغذية الحكم الصادق على الرجل . وانما على شريطة أن يدرس هذين القانونين درسا عميقا بقدر الأمكان ويشرحه مرحلة مرحلة، ويطبق كلا منهما على أعماله واحدا واحدا . ليرينا أن اسماعيل كان فى غريزته و تربيته ، ابن الثورة ، وحكم ، فكان أبا الثورة فى كل ناحية من مناحى الحياة المصرية ، الثورة على الذل العـــام بقطع أواصر التبعية التركية ، والثورة على القديم بنشر النور والعرفان .

كذلك يجدر به أن يدرس هذين القانونين بالنسبة للأمة المصرية، وأن يمحص موقف الاجانب فى مصر . ويتبين مدى خطورة هذا الموقف. ويشرح فى توسع، مطامع الدول الاستعمارية، حتى بعد ذلك نعرف العوائق التى حالت دون أن ينجز اسماعيل رسالته التى انبعثت أشعتها من خلال أعمـاله التمهيدية لبنـاء وحـدة مصر واستقلالهـا ، بناء يراه الجيل الحاضر جريمة وخيانة . وما الجريمة والخيانة إلا فى تواضع القوم على الاستضعاف وتواطئهم على التسليم المذل الى الأبد . كما يعرف أن تحديد مسئولية الأفلاس المصطنع أو الازمة المالية الحادة التى سببها الأجانب والدول الأجنبية قضاء للباناتهم ، مع أنه كان فى الامكان تلافيها فنزيح عن تاريخ اسماعيل تلك العتمة التى تعمد المؤرخون المغرضون اسدالها ، وننزع ذلك الثوب الخلق الذى أنعم به عليه غلاة المستعمرين بقياس شخصيته وأعماله الى شخصيات وأعمال أعلام التاريخ . فنكون بذلك قضينا بالحق وأدينا الواجب وانصفنا التاريخ. ورفعنا علم الحقيقة وبخاصة إذا تمكنا من أن نعرف القيمة الصحيحة لدينه بعد عزله. أى إن تمكنا من أن نعرف إذا كان ماله قد زاد على ماعليه بحيث يوفى سداد الديون من ربحه ، لو تركت مصر حرة بين أيد ساهرة على المصلحة العامة ولا تعرف أن تنفق درهما الا فى سبيل الاستثمار، لا السفه المؤدى الى الخسـائر .

ليس اسماعيل بالرجل العادى . وانما هو ذلك الذى قاومته جميع دول

اوروبا خيفة امتداد سلطانه امتدادا يحول دون تحقيق نياتهم الخاصة بتوزيع افريقيا فيما بينهم . وهى نيات كانت موضع هتاف الساسة فى مجتمعاتهم ومداولاتهم ومؤتمراتهم ومؤامراتهم . وانبثقت حقيقتها مع النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، إن لم يكن قبل ذلك بقليل. ولذلك فمن الواجب أن لا نعتمد فى تدوين تاريخ هذا العظيم الآعلى وثائقنا الخاصةوالمحايدة بعد، تمحيصها التمحيص الفنى الدقيق ، الجدير برجل اراد أن يعلن استقلال مصر وجاءت جميع أعماله تنم عن هذا الغرض .

لقد أتم اسماعيل وحدة وادى النيل داخل حدوده الطبيعية والتاريخية فكان ملك مصر يمتد من البحر الأبيض شمالا إلى فلسطين والبحر الأحمر والمحيط الهندى شرقا . وخط الاستواء جنوبا والصحراء غربا . وكل ذلك بأموال مصر . ودماء مصر . وحب الوطن الكامن فى أعماق عظيم مصر .

دعم اسماعيل وحدة مصر . ولكن انجلترا خافت قطع المواصلات مع الهند فلم يرقها تقوية مصر . وتوحيدها فى شكل امبراطورية فعليه . فمدت شبا كها لاسماعيل وحالت دون إعلان استقلال مصر فى مواجهة الأنسانية حتى لاتشع حريتها ولا يطفو نورها على البلاد الشرقية .

أراد اسماعيل أن يعلن استقلال مصر فى مواجهة الأنسانية . وأراد أن يعلنه والسيوف مغمدة . والمدافع صامتة . ولما حالت انجلترا دون ذلك ، تابع تحقيق غرضه الاسمى فعلياً وسلبياً . لوثوقه بأن القوانين والعادات فى بلد غلله سوء الحظ واستعبده . لابد أن تسوق بطبيعتها إلى الطلاق بين زواج متنافر واجتماع متباين العناصر . الا أن دسائس انجلترا ومن ورائها النمسا والروسيا وايطاليا جعلت الساعة تدق دقات مفزعة تؤذن بوجوب التضحية . ثم الاستشهاد فى المنفى . حتى يلج الشهيد أبواب الخلود . دون أن يثلم شرفه أو تلوث كرامته .

نفى اسماعيل ولم يعد . ونفى ثم استشهد من أجل الفكرة السامية . تلك التى لاتساوم على الحق . ولا ترى أن تستظهر على عدوها . وهى ترى تقلبات الانسانية . وذبذبة القوميات . ومرور الأجيال . ولا يعوزها ساعة الفزعة الكبرى فى سبيل تحقيق النصر النهائى الا ان يشد أزرها تعاون وثيق بين حسن الارادة والأقدام . لا يرهب مناورات عدو طبع على أن تكون مهمته الجمع بين حيل السلم وخدع الحرب ومفاجآت السلاح .

لقد رثينا لتضحية اسماعيل واستشهاده بعد أن درسنا أعماله وفكرته . ورثاؤنا للضحايا والشهداء يختلف باختلاف درجة التضحية النبيلة . بل اذا شئت فقل أنه يتفاوت بتفاوت درجات الرجولة، والصبر فى التمادى على تذوقها، خدمة للفكرة التى لا تعرف أن تجتنب مجاهدة العدو الا ريثما تفر من التحالف معه على سحق نفسها ، ولا تهرب من مجالدته الا لتجمع شتاتها ، كى تصرع خصمها ليتسنى لها أن تستحيل جسما بعد معنى ، وحقيقة بعد مجاز .

الرجل عنـــدنا هو ذلك الذى يثق بأن الحياة طبقات من المكاره . ثم لا يتأخر عن الأقدام على مقاساة أهوالها طبقة بعد طبقة . عالما بأن لا مهرب من أن يأخذ قسطه منها جميعا . فى غير سأم ولا غضاضة ولا لعنة . فأذا ماقطع مراحل الشقاء مرحلة مرحلة . واحتسى من الكأس الثمالة ثم وصل عن هذا الطريق إلى عالم النور والوضاحة . وبلغ منزلة السمو وموطن الحقائق . كان جديراً على توالى الأجيال بتقديرها وإجلالها . فالتضحية عنـــدنا هى اذن درجات .

فكمال التضحية فى سبيل الفكرة لا يكون الا فى منفى نزيه مفاجأ . تجرد من خبيئة الاجر العاجل . أو الثواب الآجل . وترفع عن فكرة التواطئ على الوصول الى المنفى، قصدا الى التعاظم عن طريق استغلاله . على شريطة أن يقع النفى بأمر الشعب أو حكومته أبان ثورة يعمى العالم فيها عن حقيقة الواقع . فتغيبه

عنه عوامل تقدير حسن النية . وبواعث وزن الجهود والظروف .

أما سمو التضحية ففى تلك التى بلغت حد الكمال . وسببها أو أوعز بها أجنبى ذو سطوة وسلطان . وله شهوة يريد تحقيقها بقتل الفكرة السامية فى نفس الضحية . قبل أن تنبت وتزدهر وتؤتى أكلها . أو مطامع خفية يكيد من أجلها لخصم عنيد لا يطأطىء رأسه أمام الجبروت . ويستمسك بحقه أو حق بلاده فى غل . ويذود عنه فى صلابة وحقد . ويتقبل الاضطهاد والتنكيل بصدر رحب وضمير نقى حتى يكون إعلانا حيا عن مجد الجريمة المعتم .

وأما جلال التضحية ففى استشهاد الضحية السامية . وسط روعة الحرمان والبؤس والزهد الا فى الشرف بعد الملك الواسع . والسيادة الشاسعة أو الزعامة ذات البأس والسلطان . وإلا فى الضمير بعد الصيت والغنى . وإلا فى الانصاف إبان الوحدة . والا فى الحقيقة وهو فى عالم النسيان . والا فى التمتع بالشمس كاملة بعد إذ تعود الأصباح والأمساء فى دنيا واسعة ضيقة ساطعة مظلمة . سعيدة كريهة غفورة ناقة . واسعة بالفكرة . ضيقة بأفاقها، ساطعة بحق ضيفها . مظلمة بباطن عدوه . سعيدة براحة الضمير . كريهة بشبح الجناية التى اقترفها الخصم ، غفورة بأباء النفس وتعاليها عن الصغائر والكبائر . ناقة على المجد الأقتم . والشرف الأشعث والكرامة الطائشة .

ولعمرك إن المنفى عالم تتسلط شمسه على الضحية عمودية من كل ناحية فلا يرى نفسه الا نورا فوق نور . رمز أنانية الطبيعة المحمودة . أما ما عدا ذلك فهو عالم الغيب والشهادة .

فأى الرجال استشهد . وأى الرجال ضحى واستطاع بتضحيته واستشهاده التفوق على اسماعيل ؟ وقد كان فى مقدوره أن يقاوم ولكنه آثر حقن الدماء على إراقتها . وقابل المنفى بصدر رحب بعد أن مرقت من عينيه دمعة الحب والوفاء لوطنه . وتدفقت قولة الرجاء والأمل فى حسن مصير مصر عندما

شده ابنه توفيق يوم الوداع «كن أسعد حظا منى . .» وهذا ما يملكه مخلص لبلاده ساعة المحنة ؟

فهل رأيت ثمة ضحايا الأغريق وقد تلوثت سمعتهم ، وسدت المنافذ أمامهم وحرموا حق الالتجاء فى المنفى الى مأوى يعصمهم من الغـدر بهم جزاء ما نسب الشعب اليهم من خيانات . .

هل رأيت « تيمستوكل » وقد حارب الفرس فى معركة « سلامين » فهزم جنود كسرى وزلزل أيوانه وأكرهه فى المساء على الفرار دون أن يرى جنديا من حوله . وقد كان لا يستطيع فى الصباح الباكر إحصاء جيوشه . فأنقـذ « تيمستوكل » الوطن من غارة الأعداء ؟ هل رأيته وهو يقيم الحصون حول اثينا ويراوغ اللاسيدمونيين حتى يتمها فيرد عاديتهم عنها ؟ ثم أرأيته وهو يعلن أن حياة أثينا على ظهر البحر . ثم شفع القول بالعمل فكن أثينا من اسطولهـا ، ومكن لسيادتها فى البحار . تجرى فيها السفن الاثينيـه فترهب الأعداء ، وترخى من شدّة الخصوم ، وتخضعهم لأرادتها ؟ أرأيته يتأهب لاقامة رباط من الحصون والقلاع المزدوجة بين أثينا وبيريه استعدادا لرد الخطر وذودا عن حياض الوطن ؟

لقد تحتم على هذا الرجل أن لايشرف على إتمام مشروعه الأخير ، ذلك بأن الشعب قد اتهمه بالخيانة . . . ونفاه ثم استدعاه ، ثم نفاه مرة أخرى ، فهام على وجهه فى آسيا الصغرى طريدا شريدا ، ولكنه لم يستنكف أن يتسول من ملك الفرس عدوه بالأمس ، زادا يسد به رمقه ومأوى يعصمه من تقلبات الجو فكان ما أراد ، ثم مات هناك ونقلت رفاته خلسة إلى بلاد اليونان حيث دفن فى بيريه .

فهناك وفى الطرف النهائى من الساحل وعلى مقربة من السارية التى كانت تهدى السفن ليلا ، نحتت فى إحدى الصخور حفرة يقولون أنها مقبرة تيميستوكل

وفيها يرقد البطل الشهيد فى أرض أغريقية ، والأمواج التى حملت بوارجه إلى سلامين وكفلت له النصر على أعدائه ، توقع من حوله نغماتها وتنشد ترانيمها الخالدة .

ثم أرأيت « سيمون » خصم تيميستوكل السياسى ، وقد تناسى الخصومة ساعة المحنة . وتقدم الشعب إلى الأسطول حاملا درعه ليلة معركة « سلامين » للاشتراك فى الذود عن الأوطان وفاخر بروح التتابع فى خدمة الوطن ، فنفذ مشروع التحصينات الذى وضع تصميمه سلفه فى الزعامة والقيادة ، ثم شيد المعابد والآثار التى تقوم اليوم دليلا على حميته ونشاطه وولوعه بجمال الفن والزخرفة ؟ إن كل ذلك لم يحل دون نفيه !

إن تاريخ اليونان القديمة سلسلة من اضطهاد الزعماء وحرمانهم وشقوتهم . « ملتياد » رغم ما كلل به من غار فى معركة « ماراتون » و « تيميستوكل » رغم إنقاذه الوطن فى معركة « سلامين » . و « سيمون » رغم حصونه ومعابده و « أريستيد » رغم بلاغته ووطنيته ، كل هؤلاء قد نفوا رغم الخدمات الجليلة التى أدوها لأمتهم ، ولذلك اشتهر تاريخ الأغريق بأنه جلاد الابطال ومقبرة الشهداء ، وسجل أعلام العظماء ، إلا أن أثينا لم تعرف فى يوم من الأيام أنها فى حاجة ماسة لواحد من أبنائها ، فالزعماء والقادة كانوا متوافرين ، حتى إذا خلا مكان سيد قام سيد ، فأحلت سيمون بحل تيميستوكل ، وأريستيد محل سيمون وبيركليس محل أريستيد هذا الذى تنطق الآثار بجلائل أعماله ، فعلى واجهات الهرمين الرخاميين القائمين فوق ذروة « الأكروبول » بين « البارتنون » و « الأرخنيون » تقرأ أسماء إحدى وثمانين مدينة من المدن التى كانت تدفع الخراج لأثينا ومقدار خراج كل منها ، وإذا كانت أسماء تلك المدن لم تدون جميعاً فى واجهات هذين الهرمين إلا أن « أريستوفان » قد قال « أن ألف مدينة قد اعترفت بسيادة أثينا عليها ، فاذا كان الأثينيون قد تسلطوا على هذه المدن .

وفرضوا عليها أداء الأموال وتقديم السفن والرجال ، فالفضل فى ذلك راجع إلى أريستيد الذى وضع معاهدة « ديلوس » وفاوض فيها وأبرمها وأخضع بمقتضاها جميع جزر بحر « أيونين » لسيادة أثينا .

إن من يستشرف الأفق من سفح الهرمين اللذين أقامهما أريستيد شاهدا على مجده ، يرى عن بعد ، خليج سلامين الذى قاتل فيه هـذا البطل بجانب تيميستوكل وسيمون ، كما يرى سفح « الأوكربول » ذلك الميدان الفسيح الذى اجتمع فيه عشرون ألفا من الشعب الأغريقى لتقرير نفى أريستيد من بلاد الأغريق !!

هذه كانت حياة الضحايا الاغريق ، وأنها لحياة تنبعث منها أشعة المجد ، كما تتصاعد منها زفرات الآلام وأصوات الفجيعة ، ومع ذلك فهى قبل كل شىء حياة تطمع فيها النفوس الكبيرة فأن هؤلاء الضحايا قدعاشوا للوطن وعظمة الوطن ، واستشهدوا من أجل خدمة الوطن ، أما نكران الشعوب للجميل فانه لايمحو من صفحات الضمير الانسانى ، ذكرى الخدمات التى أداها عظماء الابناء لأوطانهم ، وقد اعترف هذا الضمير الحى على المدى بتلك الخدمات .

هكذا كان الشأن فيما هو خاص بضحايا الأغريق ، أما اسماعيل فأنه قد سما بتضحيته ذات الجلال والوهج ، فهى لم تكن لخيانة قضى بها شعب أوحكومة شعب ظنوا باسماعيل الظنون ، وأنما كانت تضحية قضت بها دسائس أملتها سياسة الجشع ، وأرشدت إلى تنفيذها عبقرية فذة فى الختل وارتكاب الجرائم السياسية ، توصلا إلى قتل فكرة سامية ، تشبعت بها الفريسة وأرادت أن تغرس بذورها فى أرض صالحة فياضة بالخصب ومعدات النماء .

لم يكن عزل اسماعيل تضحية خاصة به ، بل كان تضحية فكرة وحدة وادى النيل ، لتحل محلها فكرة التخريب والانحلال والموت ، فهى إذن تضحية أمة نضب فيها معين الزعماء وجف ينبوع المصلحين ، وسادها الظـلام

مما خلفه حكام مصر بعد انقراض العهد العربى النشيط العـــامل ، من تركة متهدمة وفوضى مروعة وإفلاس كشر للوجود عن ناب ، فاسماعيل قد قام على أطلال وسط الصحراء وأخذ يبنى ويبعث الخصب والطمى فى كل ناحية. والرياح تعاكسه وتلفح وجهه بما تحمله من رمال خبيثة ، ولما كاد يتغلب عليها تكاتفت وأبعدته عن حظيرة التمدين والاصلاح ، فكان الكيد لأمة بائسة ولم يكن لاسماعيل وحده.

نعم انها كانت تضحية مصر ، وتضحية السودان ، بل تضحية وادى النيل داخل حدوده الطبيعية ، فضاع الغرض المصرى الاسمى الذى فكر فيه اسماعيل ثم خلته وصوره فى أحسن صورة ونماه ودعمه وجعله حقيقة بمجهوده وجهود أمته فى مدى عشر سنوات لم يظهر فيها بمظهر الوطنى المخلص الناهض ليخفى تآمره على تدبير صيغة للتسليم فى حقوق البلاد ! ولم يتبع سنة المتوحشين فيجتث الشجرة لجنى الثمرة ، ولذلك كانت تضحيته عامة ، وكان استشهاده فى المنفى كارثة قومية يجب العمل دائما أبداً على إحياء ذكراها كما تتطلبه كرامة مصر ، وينــادى به شرف الوطن استنهاضاً للهمم واستفزازا للضمائر الحية ، واستثارة للذكريات الخالدة المحركة للعمـــل على تحقيق الغرض الاسمى .

إننا لانطلب إحياء ذكرى غرضنا الاسمى الماثل فى أعماق فكرة اسماعيل القائمة على وحدة وادى النيل ، باقامة التماثيل لعظيم مصر ، رامزة لوحدتنا واستقلالنا وحريتنا فى كل مديرية مصرية وسودانية ، وفى كل شارع وقرية ومدينة ، لانطلب هذا لأن روح العظماء أصبحت لاتقيم وزنا للنصب والتماثيل ، وانما هى تهزأ بها وتسخر منها ، لاسيما بعد أن أجمع العالم على أن أغلبية هذه التماثيل قد أقيمت للدجاجلة والسحرة والمشعوذين ، فى أوقات تحكم فيها الهوس على عقول الشعوب ، أوسادها أبان الفوز المؤقت لأنصار هؤلاء

الدجاجلة ، فكانت خليقة بأن تصهر لاستخدامها فى صنع معدات جهنمية لنسف مقابر هؤلاء العظماء المزيفين الذين أغووا العقول، وسحروا الصدور ، وخدروا القلوب وأسروا النفوس بحرق البخور حول أعمالهم الفتاكة بحقوق الأمم فتكا ذريعا، لاخفائها عن العيون داخل غلاف من الدخان .

نحن لانطلب هذا . وأنما نطلب أن تقر الأمة بالجميل لصاحب أسمى جميل، وأن تعترف بتقديرها لعمله الجليل الذى أتم به وحدة النيل ، بأن يقوم المفكرون بتدوين سيرة اسماعيل خالية من الخزعبلات والافتراءات وعقيم التأويلات وأن يقدموا بمجموعتهم للأجيال المقبلة ، كأساً فياضا بالايمان الوطنى الصحيح والقوة والأمل ، فان يفعلوه كان الله فى عونهم ، وشد أزرهم ، وهزم باطل عدوهم إنه نعم المولى ونعم النصير .

تكاتف الاستعمار ودسائسه

هاجم بعض المؤلفين اسماعيل على أنه السبب فى احتلال مصر ، ولكن يغلب على الظن أن دراسة خالية من الغرض يقوم بها أى مؤرخ فى سبيل تمحيص الوقائع التاريخية للاستعمار الأوروبى ودسائسه فى وادى النيل ، تكشف لنا عن الحقيقة المجردة . وتلبس اسماعيل ثوب البراءة من الوصمة التى يصمه بها هؤلاء .

يقولون إن الدين الذى استدانه اسماعيل من الدول وتوقفه عن الدفع كان السبب فى التدخل الأجنبى . وفى الحق أن هذا القول لا يقوم له وزن إذا نحن وازنا بين دين مصر فى عهد اسماعيل وديون ايطاليا واليونان والصرب ومن إليهم من دول أوروبا أو دول أمريكا الجنوبية .

إن جميع هذه الدول استدانت وأفلست وتوقفت عن الدفع ومع ذلك لم تجرؤ دولة أجنبية على احتلالها أو التدخل فى شئونها اللهم إلا من ناحية ضرب رقابة أجنبية على إيراداتها ومصروفاتها كما كان الشأن بالنسبة لمصر عند تأسيس صندوق الدين . ولكن الذى حدا الدول إلى التدخل فى مصر إنما هى المطامع الاستعمارية فى أفريقيا ورغبة الدول تقسيم هذه القارة فيما بينها .

فسواء أكانت مصر مدينة أم غير مدينة ، متوقفة أم غير متوقفة، فان مصيرها كان بلا نزاع إلى السقوط بين أيدى الاستعمار البريطانى لأن انجلترا كانت تسعى هى وفرنسا فى سبيل احتلال مصر وضمها إلى أملاكهما منذ قرون بعيدة ولولا مزاحمة هاتين الدولتين إحداهما للأخرى ، لاستولت انجلترا عليها منذ أيام المماليك .

الوقائع

كانت مصر حتى الفتح العثمانى سنة ١٥١٧ دولة مستقلة استقلالا ناجزاً من الناحية الفعلية والقانونية ، ولكن الفتح العثمانى أفقدها سيادتها الخارجية والداخلية بوجه التقريب ، وأنزلها منزلة الايالة والأقليم ، يخضع لحاكم يعينه السلطان الذى اكتسب لقب الخليفة .

ولقد استمر هذا الموقف القانونى والفعلى إلى أن اختار الشعب المصرى محمد على واليا على مصر فى ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ دون أن يغيره الاحتلال الفرنسى الذى كان بذاته واقعة لم يتخلف عنها حق، ثم زالت بجلاء الحملة الفرنسية عن مصر .

عهد محمد على

بعد أن اختار الشعب المصرى المغفور له محمد على واليا على مصر سار بها

كدولة مستقلة استقلالا تاما ناجزا من الناحية العملية. دون أن يعنى بالناحية القانونية التى لم يكن يراها فى ذلك الحين من مصلحته التى اندمجت فى مصلحة مصر.

ولكن أهم مظهر من مظاهر الناحية القانونية لم يلبث أن تجلى فى مواقف عديدة تعتبر اعترافا دوليا ضمنيا على الأقل باستقلال مصر وهى

(ا) فى عقد معاهدة سياسية بتاريخ ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧ مع انجلترا بخصوص جلاء الانجليز عن الأسكندرية ورد الأسرى الخ

(ب) فى عقد معاهدتين سياسيتين مع انجلترا وفرنسا فى أغسطس سنة ١٨٢٨ بخصوص إخلاء الجيش المصرى بلاد المورة وعودته إلى مصر بعد أن اختلف محمد على مع تركيا، ورأى من الحكمة أن لا يجعل سياسة مصر مرتبطة بسياسة تركيا.

(ج) أن وصف معاهدة كوتاهية التى عقدت فى ٨ ابريل سنة ١٨٣٣ بين محمد على وتركيا بأنها معاهدة صلح، قد أكسبت محمد على صفة المحارب. وصفة صاحب الحق فى إعلان الحرب حتى على صاحب السيادة على مصر.

فماذا تم بعد ذلك ؟

فى الوقت الذى تمت فيه نهائيا المسائل المعلقة بين بلجيكا وهولندا بمعاهدات سنة ١٨٣٩ التى وضعتها الجوقة الدولية مبدئيا فى الفترة التى تلت ثورة بلجيكا سنة ١٨٣٠، رأينا النمسا تدعو دول الجوقة الدولية الأوروبية الى التدخل فى الشرق لتسوية الخلاف الخطير الذى هدد السلام الأوروبى.

إن الصعوبات التى قامت فى الشرق ترجع إلى ماقبل سنة ١٨٣٩ لأن جذورها قد تغلغلت فى حوادث سنة ١٨٣٠.

بعد سنة ١٨٣١

في سنة ١٨٣١ ثار محمد علي، على السلطان محمود لأن المغفور لهما محمد علي وإبراهيم قد أديا خدمات جليلة الشأن ثم رأيا أنهما لم ينالا جزاء هذه الخدمات فامتشقا الحسام. وتم بعدئذ ما تقدم بيانه حتى معاهدة لندرا: وإذ كنا لا نريد تكرار التفاصيل فأننا نورد هنا ماقاله المسيو فريسنيه وزير خارجية فرنسا في كتابه «القضية المصرية» ص ٩٧ و ٩٨ وهو:

«على هذه الوتيرة انتهت الفترة الأولى من التاريخ السياسي للقضية المصرية وقد كانت فترة عاصفة، في خلال هذه الثلاثة والاربعين سنة التي كانت أمد هذه الفترة — من سنة ١٧٩٨ الى سنة ١٨٤١ رأينا الجيوش الاجنبية تولي وجهها شطر مصر ثلاث مرات، أولاها أيام حملة بونابرت

وثانيتها عند محاولة إغارة الانجليز على الاراضي المصرية سنة ١٨٠٧، وأخيرا عند ما أرادت الدول فض الخلاف الذي شجر بين السلطان ووالي مصر وهذا بغض النظر عن التهديد الذي أعقب معركة ناورين

ومن جهة أخرى فاننا قد رأينا مصر تتخطى حدودها في بعض الظروف بدافع العبقرية المجازفة التي أوتيها محمد علي والمواهب الحربية التي تحلى بها ابراهيم، حتى أصبحت دولة يجب أن يقدر مركزها. ويحسب حسابها. ولقد كان من الممكن ان تكون السبب في تجزئة الأمبراطورية العثمانية لولا تدخل الدول الاوروبية ومنذ ذلك الحين عادت مصر إلى حدودها الطبيعية. وانقطعت عن تهديد التوازن الاوروبي. ولكنها بقيت شاغلة مكانا فسيحا من اهتمام الشعوب وعنايتهم. نظراً للمصالح الكبرى التي تتشعب عنها»

التمهيد الدولي للاحتلال البريطاني

بين روسيا وانجلترا

إن مصالح ضخمة جدا قد حددت سياسة الامم الاوروبية في الشرق تحديدا اعتبر الاغضاء عنه بمثابة تضحية مراكز الدول و السقوط نهائيا . فهناك أحوال تاريخية وجغرافية وجنسية ، تسير هذه المصالح على مقتضاها وتتطلب دوام المحافظة عليها . وهي مصالح لم يسبق تعيينها في جلاء وبعد نظر ، إلا في الاحاديث الشهيرة التي دارت بين نيقولا الأول قيصر الروسيا والسير جورج هاملتون سيمور سفير انجلترا في بطرسبورج ، وهي أحاديث جاءت مقدمة لحرب القرم . ومهما كانت شهرة هذه الأحاديث فانها جديرة بالتدوين هنا مادام لابد من الاعتماد عليها كلما دعت الحال الى دراسة المسألة الشرقية عامة ، والقضية المصرية خاصة . ففي ٩ يناير سنة ١٨٥٣ . وخلال الحفلة التي أقيمت في قصر الأرشيدوقة هيلانه . اختلى القيصر بسفير انجلترا وقال له :

« إصغ إلى : إننا مثقلون بحمل رجل مريض ومريض جدا . وإني لأقول لك في صراحة متناهيه . أن الأمر يكون جد محزن لو أفلت من أيدينا يوما ما وبخاصة قبل اتخاذ الاستعدادات الضرورية

وفي ٢١ فبراير جاء الحديث بين القيصر وسفير انجلترا حاسما فقد قال القيصر للسفير :

« إن هناك كثيرا من الشئون التي لاقبل لي بتحملها مطلقاً ، أما فيما يتعلق بنا أولا فاني لاأريد أن يحتل الروس الاستانه احتلالا دائما ، ولا أريد أن تحتل الاستانه أية دولة كبرى ، سواء أكانت انجلترا أم فرنسا أم غيرهما ، ولاأسمح

بأى حال أن يحاول أحد إنشاء أمبراطورية بزانطية هناك ولا أن تنال اليونان وسعة فى أراضيها بحيث تصبح دولة قوية ، وفوق هذا فانى لا أطيق تجزئة الأراضى إلى جمهوريات صغيرة تكون مأوى معدا لأمثال كوست وماتزينى وغيرهم من الثوار فى أوروبا. ولذلك فانى أوثر الحرب على تحمل اتفاقات كهذه ، وسأستمر فى الحرب طويلا مادام لدى جنـــدى واحد

« وليحمنى الله من أن اتهم أحدا كذبا ، ولكن فى الاستانة والجبل الأسود مشاكل حربية تدور على أعيننا حتى ليحمل الانسان أمامها على الظن بان فرنسا تسعى لاضطراب الحال فى الشرق أملا فى الوصول إلى تحقيق أغراضها بسهولة كأن تضع يدها على تونس.

ولقد أجاب القيصر على سؤال وجهه اليه السفير بقوله.

«يجب عليكم أن تعلموا أننى إذا تكلمت عن روسيا فانى أتناول الكلام أيضا عن النمسا ، فما يلائم الواحدة يوافق الأخرى ، ذلك بأن مصالحنا متماثلة فيما يتعلق بتركيا

« أما فيما يتعلق بمصر فأنى أفهم جيداً أهمية هذه البلاد لانجلترا وكل ما يمكنى أن أقوله لك هو أن تضعوا أيديكم على مصر فى حالة تجزئة الامبراطورية العثمانية بعد سقوطها ، ولن أعترض على ذلك . وأقول هذا القول بصدد كريد أيضاً ، فهذه الجزيرة مما يوافق مصالحكم ولا أرى سبباً يدعو إلى أن لا تكون هذه الجزيرة ضمن املاككم »

فأجاب السير هاملتون : —

« ان ماترجوه انجلترا فى مصر أنما هو التأكد من حماية مواصلات سريعة حرة بينها وبين الهند » (راجع تاريخ حرب القرم لكاميل روسيه طبعة سنة ١٨٧٨ وصحيفة جورنال بطرسبورج بتاريخ ١٢ مارس سنة ١٨٥٤ فان هـذه الصحيفة استندت على حديث القيصر مع سفير انجلترا فى الرد على خطبـــة

اللوردجون رسل ،فاضطرت وزارة الخارجيةالبريطانية لنشر تفاصيل الحديث، ثم راجع كتاب «دراسات دبلوماسية عن حرب القرم لسياسى قديم (البارون جوميني) طبعة بطرسبورج — مكتبة البلاط الامبراطورى — سنة ١٨٧٨ ومحرر فى سنة ١٨٦٣)

فمصلحة انجلترا فى المسألة الشرقية كانت فى الواقع كما ارتآه القيصر نيقولا، فى مصر وفى التحكم فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، أو كما ترجمه السير هاملتون ترجمة صادقة بلغة السياسة الناعمة القائلة «فى ضمان حرية المرور إلى الهند» ذلك بأن الهند هى ثروة انجلترا وعماد سيادتها البحرية والاقتصادية .

فالهند هى إذن الأمبراطورية البريطانية كما قال دزرائيلى وخلفه من بعده . وقيام دولة مستقلة حـــرة قوية فى مصر ماهو الا تهديد دائم ينذر بالخطر الشديدعلى طريق المواصلات مع الهند وسبل التجارةالشرقية (فلسطين وسوريا و آسيا الصغرى وأرمينيا والعراق وفارس)

ولقد شاهدت انجلترا حملة بونابرت على مصر وسوريا ، ورأت جيوش ابراهيم ومحمد على و هى تكتسح الشام وآسيا الصغرى حتى الدردنيل وبلاد العرب والخليج الفارسى ، حيث رفع العلم المصرى خفاقا عليه . فعملت على أن تحول دون هذا التهديد .

وبهذه العين أيضا نظرت انجلترا إلى تركيا القوية ثم عملت على ضعضعتها وإضعاف مصر بالتبعية . ذلك بأن قيام دولة قوية فى الأستانة واستطاعتها المرور فى حرية إلى بحر إيجه ، أو وضع يدها على القوقاز يسهل عليها الوصول عن طريق أرمينيا إلى العراق بجيوش جراره،حتى تحتل الخليج الفارسى وتهدد على الدوام طرق المواصلات البرية والبحرية (والجوية فى المستقبل) المؤدية إلى الهند .

أما الصحراء التى تحيط بالقناة فليست وقاية كافية لقناة السويس كما رأى دزرائيلى وسيمور ، إذ أن حملة قمبيز والاسكندر وعمرو بن العاص وأخيرا

الجيش التركى أيام الفتح العثمانى والجيش التركى أيام الحرب العظمى، كانت حملات بررت الرأى القائل بوهن قيمة الصحراء من الوجهة الحربية .

سياسة مؤتمر باريس

كانت حرب القرم قدأعلنت قبيل وفاة عباس، وكانت مصرقد اشتركت فى هذه الحرب بخمسة عشر الف مقاتل مدربين أحسن تدريب بفضل نظام خدمة السنة الواحدة فى الجيش، وهو النظام الذى أدخله سعيد باشا فى مصر .

وقد أبلى هذا الجيش بلاء حسنا فى ميدان القتال . بل انه جاء بالمعجزات فقد أوقف زحف القائد الروسى « باسكليفيتش » على الاستانة عند مدينة سيليستريا الحصينة برومانيا بعد حصار دام ٣٩ يوما أكره المصريون الروس عند نهايتها على التقهقر عن سيليستريا .

وكذلك امتاز الجيش بشجاعته فى سنة ١٨٥٥ عند دفاعه المجيد عن «اوپاتوريا» إحدى موانىء القرم .

وإذا كانت مصر لم تستطع فى هذه الأثناء، أن تهاجم، مصر التى عملت تحت لواء سعيد على اقتفاء أثر محمد على واتباع مشورة الفرنسيين القائلة بأهمية موقع مصر لاحتكار المتاجر الهندية، فما ذلك إلا لاشتباكها فى حرب القرم أيضاً مع فرنسا وسردينيا وتركيا ضد روسيا .

لقد كان سعيد استسفر اسماعيل لدى البابا ونابليون الثالث لتوسيع استقلال مصر مقابل معاونته للدولة العلية، فالى أى حد أثرت حرب القرم فى مصر؟ وما هو الأثر الذى ترتب على معاهدة باريس بالنسبة لاستقلالها ؟

لقد اشترك فى هذا القتال خمس دول هم الروسيا وتركيا وانجلترا وفرنسا وسردينيا وقد حاربت مصر بجيشها كما قدمنا ولكنها عاونت على أنها ولاية

عثمانية ، وقد أمضى معاهدة باريس فى ٣٠ مارس سنة ١٨٥٦ كل من النمسة وألمانيا ، علاوة على الدول المحاربة .

فنظرا لمركز هؤلاء الدول فى جوقة الدول الأوروبية ، كان لابد من اشتراكهم فى عمل من شأنه « أن يؤكد بضمانات فعالة مشتركة ، استقلال الامبراطورية العثمانية وكيانها »

لقد جاء هـــذا المبدأ الجوهرى فى صلب معاهدة ١٥ يوليه سنة ١٨٥٠ الخاصة بمصر ، ولكن الدول الذين أمضوا تلك المعاهدة كانوا أربع . إذ لم يكن بينهم فرنسا وسردينيا (إيطاليا اليوم) هـــذا فضلا عن أن ذلك النص كان مؤقتا كالظروف التى انشأته . أما فى مؤتمر باريس فانه أصبح مبـــدأ ثابتا اشتركت أوربا كلها فى اقامته ، ولهذا كانت أهميته استثنائية وهى واضحة فى نص المادة (٧) التى تقول « يعلن امبراطور فرنسا وامبراطور النمسا وملكة بريطانيا العظمى وارلنــدا وملك بروسيا وامبراطور جميع الروسيــا وملك سردينيا ، قبول الباب العالى الاشتراك فى مزايا العمل بالقانون الدولى العام ومنافع جوقة الدول الأوربية ، وقد تعهد جميع اصحاب الجلالة كل من ناحيته ، بأن يحترموا استقلال الامبراطورية العثمانية وكيان املاكهـــا والتزموا مشتركين ، بأن ينفذوا أمر المحافظة على هذا التعهد بالدقة ، وأن يعتبروا من المسائل المرتبطة بالمصلحة العامـــة كل شأن يفضى بطبيعته الى الاخلال بهذا التعهد »

ومنذ ذلك الحين أصبحت مصر موضع ضمانة الدول الاجماعية ، ولا يمكن لواحدة منها مهما كانت مشروعية شكاياتها من مصر ، أن تتهرب من هذا التضامن المنصوص عليه فى تلك المادة الصريحة إذا أرادت أن تأخذ حقها ، وإذا كان هناك شك فى ذلك فأن المادة (٨) من تلك المعاهدة قد نصت عليه إذ قالت : ـ

إذا حدث بين الباب العالى وواحدة أو أكثر من الدول الموقعة على هذا، خلاف يهدد الأحتفاظ بعلاقاتهم . كان على الباب العالى وكل دولة من هذه الدول أن تمكن الدول الأخرى من الأجراآت التى تحسم هذا الخلاف من طريق الوساطة قبل الألتجاء الى القوة »

وهذا هو التحكيم الأجبارى الذى وجد قبل اتفاقية الهاى بزمن مديد ؛ وهو تحكيم يتناول جميع المشاكل التى تنشأ عن المسألة الشرقية ، وهذا ماحدث فى سنة ١٨٦٠ بخصوص جبل لبنان . وفى سنة ١٨٧٧ بعد أن ثارت الصرب والجبل الأسود وبلغاريا . فى سنة ١٨٧٦ ضد تركيا .

وبناء على هذا يكون نابليون الثالث والبابا بيوس التاسع لم يستطيعاتوسيع استقلال مصر وفاق ماطلبه سعيد ، وكل مافعله نابليون الثالث هو أنه اكتسب حق حماية تركيا وصيانة كيان أملاكها ضد الروسيا بالاشتراك مع الدول الأخرى ، كما اكتسب هو والآخرون حق التدخل فى شئون تركيا الداخلية .

على أن مصر تنفست الصعداء أيام حكم سعيد . وأخذت تسير فى سبيل تقوية نفسها ورغما من معاهدة لندرا ومعاهدة باريس ورغم تصديق نابليون الثالث بها على انجلترا — فان مصر هذه بقيت رغم كل ذلك ميدانا فسيحاً لنضال فرنسا وانجلترا ، كما بقى كيان تركيا موضع تزيق الدول التى ضمنت بقاءه مصونا .

مقابلة أوسبرن ٥ — ٩ أغسطس سنة ١٨٥٧

طلب نابليون الثالث أن يقابل الملكة فكتوريا مقابلة خاصة فى أوسبورن فحصل عليها ، وكان الغرض من هذه المقابلة ، اجتناب العوائق التى تعوق

بين الحكومتين.

بدأت المقابلة فى ٥ أغسطس سنة ١٨٥٧ ، ودارت المناقشة مع الأمير ألبير بحضور بالمرستون وكلارندون وكانت المناقشة حادة فى بادىء الرأى ،ولكن الصفاء والوئام لم يلبثا فى ٩ أغسطس أن حلا محل الخصام .

وقد حرر «واليوسكى» فى هذا اليوم مذكرة عما دار فى هذه المقابلة، وافق عليها كلارندون وبالمرستون ، ولقد جاء فى هذه المذكرة : —

« لما كانت الحكومة الانجليزية قد اظهرت استعدادها للعمل فى السبيل الذى تسير فيه بالاستانه ، فأننا قد اعتزمنا — كما فى نيتنا — أن نتفق،معا عن طريق تبادل المصالح والامتيازات »

إن اقتراحات كهذه لم يكن فى وسع الحكومات البريطانية أن تقبلها فى الأوقات العادية ، ولكن الهند مستعمرة بريطانية ، وفى كل يوم كانت الأخبار المفجعة تتوارد منها ، فتظاهر الامبراطور بالتأثر لهذه المصائب التى تنزل بحلفائه ، وعدم احتجاجه على اجتياز الجنود الانجليزية الأراضى المصرية ، بل والسماح لهذه الجنود بأن تجتـــاز الأراضى الفرنسيـــة كل ذلك كان له وقعه (راجـع ص ١٤٦ و ٤١٧ جزء ٣ من الامبراطورية الحرة لأميل أوليفيه)

ولما انتهى الخلاف القائم بين الدولتين فى ٩ أغسطس وساد الوفاق والصفاء والمودة، جعل الفريقان يتحادثان فى صدد تعديل معاهدات سنة ١٨١٥ وأشار الأمير البير إلى الخطر الذى ينجم عن إعادة النظر فى هذه المعاهدات ثم قال الامبراطور نابليون الثالث زعيم مبدأ القوميات ما يأتى

« لقد رأيت دائما أن أفضل الوسائل لخدمة الانسانية هى على الراجح ما يمكن استخدامه خارج أوروبا لا أوروبا نفسها. فهناك أفريقيا أمامنا للعمل فيها، ولن يكون همى أن أجعل من البحر الأبيض المتوسط بحيرة فرنسية كما أراد

نابليون الأول ، ولكنى سأجعل منها بحيرة أوروبية ، لاسبانيا أن تستولى على مراكش ، ولسردينيا أن تستولى على جزء من طرابلس ، ولانجلترا أن تستولى على مصر ، وللنمسا أن تستولى على شطر من سوريا ، ولا أدرى ماذا هناك أيضاً ؟ فجميع هذه البلاد العظيمة أصبحت الآن ولا جدوى منها للانسانية والمدنية بفضل حكوماتها الممقوتة ، وفرنسا أيضا فى حاجة إلى أسواق لترويج سلع عقولها الصاخبة » (راجع ص ٤١٨ و ٤١٩ جزء ٣ من الامبراطورية الحرة لاميل أولفييه)

ولقد قال الامبراطور هذا القول بعد أن أعلن فى خطبة له افتتح بها الهيئة التشريعية ليعلن الحرب على روسيا :

« فأوروبا تعلم اليوم بلاشك أن فرنسا إذا جردت حسامها فانما لأنها مكرهة على امتشاقه ، كما تعلم أن فرنسا ليس لها أية فكرة فى التوسع ، فهى تريد أن تقاوم افتئاتات خطرة ، لذلك أود أن أعلن عاليا أن عهد الفتح قد انقضى ولا رجع له ، إذ ليس بتوسع الأملاك والتخوم يمكن بعد الآن أن تكون فرنسا أمة شريفة قوية وانما يكون ذلك بقيادة الأفكار السامية السخية ونصرة سلطان الحق والعدل فى كل مكان ، ولقد رأينا فى الشرق خلال السلام العميق ملكا يفاجىء جاره الضعيف بطلب مزايا جديدة ، ولما لم يدركها أغار على مقاطعتين من بلاده ، وهذه الواقعة وحدها تفرض على من يثورون على الظلم ، أن يتقلدوا السلاح ليجاهدوا فى الحق »

حرب روسيا والدولة العلية

ولما أعلنت روسيا الحرب على تركيا سنة ١٨٧٦ رأت وزارة خارجية انجلترا فى ٦ مايو انها فى حاجة إلى أن تبلغ وزارة خارجية بطرسبورج

مذكرة أبانت فيها بكل جلاء الشروط التى تقف بمقتضاها على الحياد

ولقد كان فى مقدمة شروطها ، صيانة المصالح البريطانية فى آسيا وحرية قناة السويس وخروج مصر من دائرة العدوان والحرب ، وبقاء الاستانة بيد الأتراك ، والاحتفاظ بحرية البسفور والدردنيل

وأشارت انجلترا فى النهاية إلى بعض مصالح يمكن أن تكون داعية لتدخلها، قصدا إلى حمايتها فى الخليج الفارسى

ولقد عنى القيصر فى حديث بينه وبين سفير الملكة اللورد لفنس فى ٢ نوفمبر سنة ١٨٧٦ « فى ليفاديا » بأن يلقى فى روعه كل أسباب الاطمئنان والراحة

أما المسيو جورتشاكوف وزير الخارجية الروسية فانه أجاب بدوره فى ٢٠ مايو سنة ١٨٧٧ على مذكرة لورد دربى بتجديد هذه الضمانات القيصرية التى طمأنت سفير ملك بريطانيا حيث قرر فى هذا الرد أن «ليس فى نية روسيا أن تمس مصالح انجلترا فى مصر أو فى البواغيز أو فى طرق المواصلات مع الهند أو فى الخليج الفارسى وهى فوق ذلك لا تزعم احتلال الاستانه » (راجع ص٢٣ أوروبا والامبراطورية العثمانيـة لرينيه بنيون) فبأخراج مصر من ميدان الحرب تكون انجلترا قد سلختها من عضوية الولايات العثمانية فى نظر روسيا

وبمذكرة وزير خارجية روسيا تكون قد ضمنت عدم معارضة هذه الدولة لها اذا هى انتحلت لها مصالح فى مصر

ولكن مساعى انجلترا لم تقف عند هذا الحد

فقد كانت تتخذ احتياطاتها فى الشرق عن طريق المفاوضة مع تركيا بشأن التحالف معها تحالفا دفاعيا أمضاه المستر « لابارد » وصفوت باشا فى الاستانة بتاريخ ٤ يونيو سنة ١٨٧٧ « للدفاع بقوة السلاح عن أملاك صاحب الجلالة الامبراطورية السلطانيـة » ولكى تتمكن انجلترا من أن يكون بين أيديها

الوسائل الضرورية لانجاز معداتها فقد قبل صاحب الجلالة العثمانية السلطان أن يخص انجلترا فضلا عما تقدم بجزيرة قبرص لتحتلها وتدير شئونها وتحكمها ، وذلك بينما كانت انجلترا تتفاوض مع الروسيا (راجع نص المعاهدة فى مؤلف البارون أدولف دافرين ص٣٥٥)

كانت فكرة هذه المعاهدة ترمى الى فرض حماية على آسيا الصغرى ثم تحولت هذه الفكرة الى اقامة مراقب للحركات فى أرمينيا وأسيا الصغرى ومصر . فكانت جزيرة قبرص بهذه المثابة قاعدة حربية أمامية محاذية لطرق مواصلات الهند. كما أمست أيضا احتياطا من الاحتياطات التى اتخذت لوضع اليد على مصر

هذا ما أتمته انجلترا حتى انعقاد مؤتمر برلين فى يونيه سنة ١٨٧٨

أما فرنسا فان المسيو وادنجتون وزير خارجيتها قد وقف بمجلس النواب فى يوم ٧ يونيه قبل ان يسافر الى برلين ليفاوض باسم حكومته وأعلن « إن مسألة مصر لن تكون موضع بحث المؤتمر. لأن فرنسا اعتزمت ان تحتفظ فى مصر بنفوذ سام ممتاز على نفوذ باقى دول أوروبا»

وكانت هناك ألمانيا بزعامة بسمرك ـ وسياسة بسمرك واضحة . وهى إشعال نار الفتن بين الدول وإذا شئنا ان نتعرف حقيقة هذه السياسة تماما، وجب علينا أن نعرف روح هذا السياسى. وروحه تعرف من أقواله . ولقد سبق ان قال : « ان المسألة الشرقية لا تساوى فى نظره عظم جندى بوميرانى وأن الضرورة تقضى عليه بأن لا يلقى بنفسه فى أغوار هذه المعضلة حتى لا تخسر ألمانيا صداقات قيمتها أغلى مما ستكسبه من المسألة الشرقية» ثم أردف هذا القول بآخر أشد ويلا وتعاسة حيث صاح صيحة التاجر الفاجر :

« إننا لا نستطيع أن ندلى بنصائح عامة . وإنى لأرى الوساطة ليست فى أن يكون الانسان حكما. وإنما فى ان يؤدى مهمة السمسار الشريف الناجح فى إتمام

العملية التجارية على أحسن وجه» ثم هنأ نفسه« بأن يكون إزاء انجلترا فى ذلك الموقف السعيد الذى لا يشوبه أى خلاف خاص بالمصالح. اللهم الا ما كان خاصا بالمصالح التجارية والاختلافات الوقتية التى تقع من آن لآخر»ولقدقال يسمرك هذا، وعمل عمل السمسار الخائب الذى لم ينل من تركة الأمم الضعيفة الا عظاما خلت من النخاع.

الا أنه مع ذلك أفلح الى حد ما فى العمل على تصادم فرنسا وانجلترا وقد مهد لذلك بقوله:

« إن انجلترا أهم لدينا من زنجبار وجميع الشاطيء الافريقى والشرقى»

ولقدكان يجتنب التصادم بها مباشرة فى الظروف الحرجة وهو يقول: -

« الانجليز » فى مصر، « والفرنسيون فى تونس، لأن مصر وتونس تعكران الصفاء بين باريس ولندرا والكيرنال، « يقصد روما »، ولكن هذا الرجل، رجل الأضطرابات السياسية، فقه بعد معاهدة برلين أهمية الشرق، فوجه همه نحوه ولكن الكارثة الكبرى كانت قد وقعت.

ولندع المستر سكافن بلنت يتكلم (ص ٤٠ وما تلاها من ترجمة صحيفة « البلاغ» لمذكراته قال:

« اجتمع المؤتمر فى ١٣ يونيه، وكانت الأمور المطروحة على بساط البحث على أعظم جانب من الأهمية. ولم يكن ثمة بين المفوضين إلا القليل من الشبه فيما يتعلق بامكان تقسيم تركيا، فاقترح بعضهم من أول الأمر أن يعلم كل مفاوض بادىء ذى بدء أنه حضر إلى مؤتمر غير مقيد بتعهدات سابقة فيما يختص بالمسائل المعروضة للبحث.

وقد فوجىء دزرائيلى وسلسبورى بهذا الاقتراح، ولم يكونا على استعداد للافضاء باعمالها السرية مع سلطان تركيا غير أنه لم يكن لهما من حضور الذهن ما يساعدهما على رفضه، فقبلاه كغيرهما بصفة رسمية.

وقد كان كلاهما حديث عهد بالسياسة ، ومن هنا يمكننا أن نتصور جسامة الدهش وفداحة الفضيحة اللذين ثارا بعد بضعة أسابيع فى برلين حين نشرت إحدى صحف المساء فى لندن يوم ٩ يوليه نصوص المعاهدة السرية ، وكان كورى قد استخدم رجلا يدعى « مارفن » تعود السياحة فى الشرق وعرف لغاته ،فى ترجمة النص التركى ، ولم يكن مارفن هذا موظفاً فى وزارة الخارجية ، فكان من وراء الطيش فى استخدامه،أن باع السر بمبلغ كبير إلى جريدة«جلوب» فانقض نشر هذه المعاهدة انقضاض الصاعقة على المفوضين البريطانيين فى برلين إذ وجدوا أنفسهم أمام حقيقة لا يمكن تأويلها ، وهى أنهم خانوا عهد زملائهم الأوروبيين خيانة جسيمة ، واتهموا بكذب صريح مكتوب ومسجل عليهم ، وقد هدد ظهور السر مؤتمر برلين بالاخفاق العاجل وقد أعلن البرنس جورتشاكوف أنه أهين ، وشاركه فى غضبته وادنجتون ، وتهدد كلاهما بالانسحاب من المؤتمر وأخذ وادنجتون يحزم أمتعته استعدادا للسفر من برلين . وكان الموقف حرجا ولم ينقذه الاخدمات بسمرك المشوبة بالتهكم . وكان قد أعجب بدزرائيلى وعطف عليه لمشابهة بينهما فى خلتى التهكم والجرأة . واستطاع كوسيط أمين أن يوفق بين مفوضى فرنسا وانجلترا على القواعد الآتية

(١) أن يسمح لفرنسا عند أول معارضة من جانب بريطانيا ان تحتل تونس كتعويض عن حصول بريطانيا على قبرص

(٢) ان يكون حظ فرنسا كحظ انجلترا فى التسويات المالية التى تتم فى مصر

(٣) ان تعترف انجلترا بزعم فرنسا القديم فى أن لها حق حماية المسيحيين اللاتين فى سوريا

(.. وعندى أن هذا الحادث العجيب يجب أن يعتبر مبدء نبذ بريطانيا

تقاليدها السياسية الجيدة فى الشرق واتباعها سياسة نهب وخيانة .

(والى دسيسة قبرص هذه يرجع مباشرة وغير مباشرة نصف الجرائم التى ارتكبت ضد حرية الشرق وشمال افريقيا . وهى الجرائم التى شهدها جيلنا الحاضر . والتى القت إلى روح النمسا فكرة ضم البوسنه فى الحال . وساعدت على إخفاق تسوية صحيحة فى مقدونيا . ووضعت تونس تحت أقدام فرنسا ، وبدأت عهد تقسيم افريقيا بين الدول الأوربية، وما تبع ذلك من شتى المخاوف والنكبات التى حاقت بالوطنيين من بنزرتا إلى بحيرة تشاد . ومن الصومال إلى الكونغو . وفوق هذا كله أفقدت بريطانيا سمعتها إلى الأبد فى الامبراطورية العثمانية وغيرت قلوب المسلمين عليها فى عامى ١٨٨١و١٨٨٢. وكانت عاملا مهما فى الحوادث العنيفة التى حدثت فى مصر فى تلك الاوقات المضطربة كما سأبين بعد .

« .. أما النتيجة المباشرة للاتفاق مع وادنجتون فيما يختص بمصر فكانت إرسال تلغراف من برلين إلى ولسن فى الأسكندرية يتضمن أمراً شديداً أحزنه وأدهشه وهو أن يكون حظ فرنسا كحظ انجلترا تماما فى جميع التعيينات المالية ذات العلاقه بتحقيقه الرسمى .

« ومع أن ولسن لم يعرف الحقيقة فى ذلك الحين فقد كان هذا سبب المراقبة الثنائية .

فى سبيل الدفاع عن مصر

الغاء النقطة العسكرية المستترة

قال إسماعيل إن القناة تابعة لمصر أما مصر فليست تابعة للقناة . ولذلك جد

فى تخفيف حمل امتياز القناة

كان سعيد قد منح امتياز قناة السويس. ولكن اسماعيل نظر إلى منح امتياز القناة نظرة قومية عسكرية . فوجد أنه خطر على حياة مصر . وأن الأراضى الممنوحة للشركة لتكون مزرعة يأوى اليها الفرنسيون فى زمن السلم ويرتدون الثياب العسكرية فى زمن الحرب، ما هى إلا حصن حصين يمكن هذا الجيش المدنى الحربى من أن يقضى على استقلال مصر حين تسنح له الفرصة، كى ينفذ خطة حكومة الدير كتوار من جديد . ولذلك فأنه تلمس الأسباب للسعى فى عرقلة هذا الامتياز أو تعديله وألح على الباب العالى فى أن يشد أزره . وجعل السخرة محور عمله فكتب إلى السلطان يقول

« إن عدل أمير المؤمنين لا يسمح بتسخير رعاياه فى عمل قد أضر بالحرث والنسل وذهب براحة أهل البلاد »

ثم أوعز إلى الصحف المصرية فهبت تنادى بالويل والحرب وتستفز رجال الدولة إلى الغاء هذا العمل والاخذ بأسباب الحزم ورفع هذا النير عن أعناق أهل البلاد .

وكان السلطان لم يصدر إلى هذا الحين البراءة بجواز عمل ذلك الاتصال بين البحرين بعد أن سار دى لسبس إلى دار السلطة وأقام بها أياما كثيرة وكلم الصدر الأعظم فى ذلك مرارا. فكتب محمد أمين عالى باشا الصدر الأعظم إلى سفير الدولة العثمانية بباريس بشأن هذا الموضوع يقول : —

« غير خاف على معارفكم أن الدولة العلية أيدها الله قد صرفت كثيراً من أنفس أوقاتها فى بحث أمر الاتصال المراد عمله بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ومع كونها تود من صميم القلب إنجاز هذا المشروع الخطير والعمل المهم، بالاتحاد مع الدولتين البحريتين العظيمتين لعلمها بأهمية وخطورة هذا الاتصال، إلا أنه قد ورد على الباب العالى فى هذا الحين مطالعة

من والى الديار المصرية يطلب فيها إبداء رأى أمير المؤمنين فى هذا الأمر .

ويحزننى جدا أن أرى أنه قد بدىء وكاد يتم عمل ذلك الاتصال، قبل أن يقع الاتفاق على أمر من الأمور بين الباب العالى والدول المتحالفة معه ، كما يعز على أيضا وقف العمل الآن ، وتعطيل مشروع كهذا ، جزيل الفائدة كبير الأهمية ، على أنى مع ذلك أقول : —

إنه لا يمكن للدولة العلية على أى حال كان ، الموافقة على عمل هذا الاتصال إلا بعد اتفاق سائر الدول مع الباب العالى على جعله حرا مستقلا ، تحت رعاية حكومة البلاد التى هو فيها بمثابة بوغاز البوسفور والدردنيل فى دار السلطنة العثمانية. لا سيما وقد تكلفت تلك البلاد - أعنى البلاد المصرية - بتشغيل زهاء عشرين ألفا من أهلها فى حفر هذا الاتصال سخرة ، مع سبق النشر والاعلان بابطال هذه العادة الخشنة التى يأباها العدل والشرف .

ومما يحول دون اعتراف الباب العالى بتتميم عمل ذلك الاتصال، ما جاء فى عقد الاتفاق الموقع عليه محمد سعيد باشا والمسيو دلسبس صاحب هذا المشروع . حيث يعد محمد سعيد باشا المسيو المشار إليه بتنازل حكومة البلاد عن منفعة جميع الأراضى التى تكون واقعة على ضفتى الاتصال المذكور مدة تسع وتسعين سنة ، وعلى ذلك لم يبق مانع يمنع دخول مدينة السويس وجميع ما جاورها من القرى والمزارع وبحيرة التمساح ومدينة بور سعيد وسائر حدود الشام ، أى معظم المملكة المصرية ، فى حوزة وتصرف شركة ترعة السويس ، وينجم عن ذلك ظهور شعوب متفرقة مستقلة بنفسها خارجة عن طاعة أمير المؤمنين . وهو أمر لا تحمد عواقبه .

ولا إخالكم تنكرون علىّ القول بأنه ما من حكومة رزقها الله حسن النظر فى عواقب الأمور ، ولو بقدر مثقال ذرة وألهمها السعى وراء حفظ استقلالها :

وتوسيع نطاق عمرانها ومدنيتها ترضى بمثل هـذه الشروط المفعمة جورا وخذلانا لرعاياه الطائعين .

ولا تظنوا أن أمير المؤمنين يجيز العمل بمقتضى تلك الشروط التى كان قد بعث محمد سعيد بصورة منها إلى الباب العالى ، وهو يعـلم حرسه الله ما وراء ذلك من تعيير الأمم لحكومته ، ورميها بالقصور والمروق عن جادة الحق فان أجازه فأنما يجيزه بعد قبول الأوجه الثلاثة الآتية : —

١ — جعل هذا الاتصال مستقلا تحت رعاية الحكومة المصرية وعـدم منح أية دولة كانت ، امتيازات أوحقوق خصوصية فى أى حال من الاحوال

٢ — رفع نير السخرة عن عاتق أهل البلاد .

٣ — العدول عن مشروع حفر الاتصال المار بالنيل، وأن لا يعطى شىء من الأراضى لشركة القناة، إلا ما كان من ذلك لازما لأنشاء معاملها وورشها.

فاذا تم قبول هـذه الأوجه الثلاثة جاز العمل بالاتفاق مع والى الديار المصرية وسهل التصديق على بقية الشروط المدونة بالعقد . فما نسألكم هو رأى الدولتين المتحالفتين وأعنى بهما فرنسا وانجلترا عما يليق عمله الآن . فهل يليق منح شركة حفر هذا الاتصال عدة امتيازات وحقوق لا يكون من ورائهـا إلا هضم حقوق رعايا الدولة العلية ونفاد ثروة البـلاد وتضعضعها وضياع كثير مما نالته من شبـه استقلال ؟ وهل يوافق أنه إذا لم يتم التراضى بيننا أن تأخذ حكومة أمير المؤمنين على عاتقها بالاتفاق مع عاملها على ديار مصر، إنجاز عمل هذا الاتصال وأن تنفق عليـه من مالها أو تسلمه إلى شركة أخرى بشروط وعهود يقع الاتفاق عليها بحيث لا يبقى للشركة الحالية حق فى المطالبة بالمال الذى أنفقته ، اذ كان اندفاعها إلى العمل بغير إجازة ولا مسوغ ؟ أفيدوا بالجواب »

ووردت إفادة بهذا المعنى إلى اسماعيل فكتب إلى دى لسبس يقول :—

« لا يليق بنا أن نخفى عليك معرفة أنه لما كان ما كان ، من الخلاف فى أمر عمل اتصال البحر الأبيض بالبحر الأحمر ، قد كنا خابرنا دار السلطنة العلية فى ذلك ، وسألنا الباب العالى أن يفتينا فى الأمر فجاءنا منه مطالعة فى هذا الحين تجيز لنا المخابرة مع شركة الاتصال المذكور والاتفاق معها على جميع التغييرات المراد ادخالها على عقد التنازل الموقع عليه من المرحوم محمد سعيد باشا وإلغاء ما فيه مما كان سببا للرفض حتى الآن ، ولا إخالك تجهل أنى منذ وليت الأحكام إلى هذا الحين لم يكن لدىّ من المشاغل ما يعادل هذه القضية، أما ما كان يرفضه الباب العالى ويمانع فيه كل الممانعة للآن ، فأمران: أحدهما تسخير البلاد فى ذلك العمل ، وثانيهما تنازل الحكومة عن منفعة الأراضى الواقعة على شاطىء الاتصال المذكور . فلأجل أن لا نزداد الأمر إشكالا . والأحوال بيننا جدالا « قد رسمت إلى نوبار » بحل عقدة هذه المشكلة بالاتحاد معك - ومع أعضاء الشركة ، وأنى لواثق بأنك تبادر إلى فض هذا النزاع بالتى هى أحسن بما لك من سلامة النيـة . كى لا يقع بسبب ذلك فى مستقبل الأيام ما لا تحمد عقباه .

وقد ضرب لنا الباب العالى أجلا للاتفاق قدره ستة أشهر . فان مضى الأجل ولم تتفق على أمر يحسن السكوت عليه ، لم يعد إذ ذاك فى وسعى إلا أن أعيد الكلام فى دار السلطنة ، فتدخل المسألة فى دور جديد مع الباب العالى ويعز الوفاق، لا قدر الله أن نصل إلى هذا الحد » وسترون أن الذى رسمته إلى نوبار باشا ليخابرك عنه ، لم أراع فيه سوى راحة الرعيـة ورفع المضار عنهم مع إنجاز مشروعكم على النمط المرغوب فيه . هذا وقد جاءنى مرسوم من أمير المؤمنين بأن أبادر إلى تبليغ مقره الكريم حالة ما هو عليه الاتصال المذكور من العمق والطول والعرض المراد جعله حسابا لذلك الاتصال . » وأن يلاحظ بأن يكون الاتصال المذكور قابلا لسير السفن الحربية .

حرب النفوذ وحرب الاقتصاد

الأجانب فى داخلية البلاد

إننا لا نستطيع أن نفهم الاستعمار الدولى فى مصر إلا إذا حللنا الجاليات الأجنبية وفهمنا مراميها والعبث الذى قامت به خلال القرن التاسع عشر وأسباب هذا العبث ونتائجه.

لم يستطع المستعمرون أن ينالوا من مصر بالقوة فعملوا على هدم كيانها الاقتصادى، حتى إذا ما جاعت أسلمت قيادها وإذا ما أفلست وجدوا المبرر لإخضاعها وإرغامها على قبول التحكم فيها. ولقد نجحوا فى هذه السبيل نجاحا لا يمكن قياسه بالنجاح الدبلوماسى، ولا بنجاح استخدام القوة فى إرغام محمد على — على قبول معاهدة لندرا، ولبيان ذلك يجب أن نعلم قيمة الطيور الجارحة التى هبطت أرض مصر وجعلت تمتص الدماء وتسلب الأموال وتنتهب الكنوز.

هؤلاء الأجانب من عناصر عدة وجنسيات متفاوتة، ولكنهم كانوا جميعاً على وتيرة واحدة فى استغلال البلاد.

ولذلك فلا يسعنا إلا أن نمر على أعمالهم مر الكرام، لأنها أعمال اعتادها المصرى من ضيوفه المزمنين. ولكى نتبين ذلك فاعلم أنه قد وقع فى ١٤ يونيه سنة ١٨٧٨ أن المسيو «لابنا» رئيس محكمة الاستئناف المختلطة رفع تقريراً لوزير الحقانية أبان فيه الأسباب التى حدته إلى وضع مشروع قانون يقضى بإلغاء وظائف القضاة المحلفين بمحاكم الجنح الخاصة بالأجانب، وأن هذا التقرير قد أوضح فى صفحة ٣٨ سطر ٩ ما يأتى:—

(١) حيث أن تأليف المحكمة من ثلاثة قضاة وأربعة محلفين يعرض العدل للظلم أغلبية تتألف من أشخاص لا تتوافر فيهم الشروط والمزايا التى يتطلبها

ضمان النزاهة والتجرد عن الهوى .

(ب) وحيث أن الذين يعرفون مصر يعلمون أن الذين يفدون عليها قصدا إلى الأقامة فيها ، يعوزهم فى أغلب الأحايين ما يرغب فيه من مختلف الفضائل .

(ج) وحيث أن المحكمة التى تقتص أو تصدر حكم البراءة ، ماهى فى الواقع إلا أغلبية أربعة من التجار أو الصناع أو الفنانين وأغلبهم من ذوى السوابق التى تدعو إلى الريبة .

هذا إلى أنهم على استعداد لان يتأثروا بأقل مؤثر يأتى اليهم من الناحية القذرة فى الرأى العام . »

كان اعتدال هذا التقرير اعتدالا عظيما . وانطباقه على الواقع تمام الانطباق من شأنه أن يحتم الأخذ به فورا ، بل إنه كان أقل من الحقيقة الجارية على الألسن فى كل مكان ، ولكن إذاعة بعض فقرات هذا التقرير الرسمى الذى لم يعد للنشر قد نفخ من أوداج البعض وأثار كامن دائهم ، إلا أن هؤلاء الذين استشاطوا غضباً وحنقا على المسيو (لابنا) ، ورغبوا فى إبعاده عن منصة القضاء لم يكونوا إلا من الحثالة ، أو الذين انحطت كرامتهم واتضع شرفهم فدفعهم إلى أن يعلنوا اشمئزازهم من الحقيقة التى تضمنها هذا التقرير وسخطهم عليها .

أما الأوربيون الذين تجردوا عن الغاية ولم يسفوا الى الحضيض فانهم لم يسخطوا على المسيو «لأبناء» وانما اندفعوا لسوء الحظ فى التيار متأثرين بضعفهم (راجع ص ١١٤ و ١١٥ جزء أول من كتاب مصر وأوروبا لقاض مختلط)

أوروبا فى مصر

يرى الكثيرون من الأجانب أن النفوذ الأوروبى ما كان الامنقذا لمصر

ولا يمكن أن يكون فى مستقبل الأيام الا كذلك . ولكن هؤلاء الذين يرون هذا الرأى أو يظنون هذا الظن الآثم ، ينسون أو يتناسون أن المدنية والعادات والآداب والأخلاق فى أوروبا ينقصها الشىء الجسيم لتبلغ حد الكمال الذى يصح أن يكون مثلا يحتذى، ويجهلون أو يتجاهلون بجانب ذلك أن الأوروبيين الذين هبطوا هذا الوادى كانوا من أحط نوع أشرب حب السوء ولا قوام له الا بالاثراء قدر المستطاع ، وفى أسرع ما يكون على حساب مصر .

تحكم الأجانب واستغلالهم

لا نريد هنا أن نبحث فى أصل الامتيازات ولكننا نتناول بعض مناحى النتائج التى ترتبت عليها فى الأيام السالفة ونعنى بذلك تخطى حدود الحماية القنصلية

لقد اقتصرت مهمة القناصل فى بادىء أمرهم على التدخل السياسى المتواضع فى سبيل صيانة مصلحة رعاياهم حتى يقوهم شر الاكراه والظلم الذى قيل بأن الحكومة العثمانية كانت ترتكبه فى بلادها ، ولكن تدهور الأمبراطورية العثمانية قد أدى الى اشتداد هذا التدخل ، اذ بدأ القناصل أيام محمد على يتنكرون لمصر ، ويلبسون لرعاياهم ثياب « اللورد الحامى » .

الاستثمار القنصلى

لم تكن مزايا وظيفة القنصل العام قاصرة على «البقشيش» والرشوة وما الى ذلك مما يتقاضاه القناصل العموميون والقناصل ووكلاؤهم مقابل خدماتهم للحمايات، بل كان هناك ايضا جعل يدفعه الوالى اليهم سرا حتى يشدوا أزره لدى حكوماتهم، وهذا ما جعل فى مقدورهم التفاهم معه والبقاء مخلصين له أمناء ، حريصين على وده حتى ينالوا جزاء أوفى وأوفر ، كما كان من اختصاصهم أيضاً القيام

بالتوصيات فى بلادهم على ما يريد الوالى شراءه للبحرية والحربية والسكك الحديدية والزراعة والمصانع وأثاثات القصور الخ. مقابل أثمان مبهظة وإن كانت هذه الأثاثات من عينة بلغت أحط درجة.

أما النزيه منهم فكان يقصر مهمته على التعامل مع متعهدين من أبناء جلدته أو من أصدقائه كى يقتسم معهم الغنيمة والأسلاب.

فاذا رفضت الحكومة المصرية ، أو دائرة الوالى ، البضائع الرديئة الموصى عليها فلا مناص من دفع المبالغ المطلوبة الباهظة التى لم يتفق عليها ، مضافا اليها أتعاب الخدمات التى قام بها الوسطاء مع استخدام المقاولين العديمى الأهلية والخونة المنافقين فى وظائف الحكومة أو دفع كل مايقدره مواطنو القنصل العام أو حماياته أو اصدقاؤه من أجور ومصاريف وأتعاب وتعويضات ، ولا يتأخر القنصل فى جميع هذه الأحوال عن أن يطالب الوالى بالدفع بأسم عميله وزبونه ويؤيد هذا الطلب فى حرارة وحماسة ، رافضا الأصغاء للأسباب التى تدلى بها الحكومة المصرية أو الدائرة مهما كانت منطقية معقولة .وماعلى الوالى إلا أن يصدع بالأمر وينفذه من فوره دون أن يكون فى طوقه أن يقول للقنصل : —

« إنك مخطىء وأنا أرفض الدفع بتاتاً »

وهنا يقتسم القنصل العام المكسب مع زبونه وعميله أو يكتفى بأن يقبل منه « بقشيشاً » لائقاً بمقامه ومركزه الرسمى السامى .

« ولعمرك هذه هى العدالة التى توحى بها الطرق الدبلوماسية التى أشاد بها الوسط الاوروبى » (راجع ص ١٢٦ من كتاب مصر وأوربا لقاض مختلط)

ولا حاجة بنا للقول بأن جميع « القناصل الجنراليين » لم يكونوا جميعا على هذا الخلق الشاذ الوبىء فى جميع الاحوال

فقد كان بينهم القليل ممن كانوا على اتصال وثيق بالوالى والزبائن . ولذلك

كنت ترى هؤلاء القناصل لا يستطيعون أن يضحوا الوالى أو الزبون. ومن المحتم عليهم ان يعدلوا بعض العدل، ولكن هذه « العدالة الدبلوماسية » التى وصفناها كانت القاعدة، حتى لم يكن فى مقدور الوالى أن يفكر فى وضع حد لها عن طريق الشكوى للدول، أو رفع ظلامة فى حق القنصل الذى تخطى فهمه حد المألوف، وما المألوف إلا ما يتصوره عقل أو يحكم به صواب، ذلك بأن الحكومة الأجنبية كانت تثق بقنصلها ثقة ما كانت تخولها الوالى، وكان لا مناص لها من أن تسلم بما جاء فى تقرير القنصل السرى الذى يرفعه ضد أمير مصر وحاكمها وحتى اسماعيل نفسه الذى أوتى شجاعة كبرى كان مكرها على أن يراعى هؤلاء القناصل ليضمن لنفسه معاونة دولهم ضد متبوعه العظيم (راجع ص ١٢٧ من كتاب مصر وأوروبا)

ولقد كان فى الامكان أن يكتفى الانسان بقضاء بضعة أيام فى مصر ليتأكد من ان الأوروبيين هم سادة البلاد، بما لهم من مساع، ومواقف، ولهجة، وعلو صوت، وقلة اكتراث بالأتراك والمصريين سواء أكانوا من الكبراء والعظماء أم من أصاغر الناس، انما كان الواجب نصرتهم بحق وبغير حق، كى يستحقوا تقدير الوطن، ويصفق لهم السوقة من مواطنيهم وتبعث لهم حكوماتهم بالتهانى القلبية بمناسبة ظفرهم بالدفاع عن مصر ضد قطاع الطرق وخشاش الأوباش، وينعموا بلذاذة هذا التحكم الممقوت والتقدير الناجم عنه. فاذا ماسألهم أحد رعاياهم العون أسرعوا بمقابلة الوالى والالحاح عليه كى يدفع التعويضات المطلوبة. ومع ذلك فان كل قنصل من هؤلاء القناصل ما كان يكتفى بالعمل المنفرد بل لا بد من عمل إجماعى، ولذلك رأينا هؤلاء «القناصل» والقناصل الجنراليين» يجتمعون ويشتركون فى المداولة والتأييد ويؤلفون الهيئة القنصلية تحت ستار الدفاع عن قضية مشتركة ضد الحكومة المصرية، فأنشأوا بعملهم هذا داخل الاراضى المصرية سلطانا وسيادة لاحباط سلطان الوالى وسيادته، فعندما كانت تجتمع

هذه الهيئة الشيطانية كان لزاما على الوالى ان يخضع أمام ضغطها وأن يلقى السلاح تلقاء مطالبها ، إذ كان من المقرر ان استنجاد القناصل بدولهم لسبب أو لغير سبب انما هو عمل مشروع لابد معه من خسران القضية المصرية مهما كانت عادلة.

ولم يقتصر الأمر على القناصل العموميين، بل كان من بعدهم طبقات أخرى للضغط والارهاب، اذ يلي القناصل العموميين القناصل ووكلاء القناصل ومستشارو القنصليات الذين أمسوا عتاة ثانويين يحتذون حذو قناصلهم العموميين ويستغلون نفوذاها ثلا يعرفون كيف يرهبون به اذا ما احتشدوا فى هيئة قنصلية محلية .

الحماية البسيطة

لم يكتف القناصل بحماية رعاياهم ومواطنيهم بل سعوا إلى أن يضموا اليهم أكبر عدد ممكن من الرعايا المحليين، هذا الى أنهم كانوا يعينون فى وظائف القنصليات موظفين مصريين يفرضون عليهم حمايتهم

ولقد كان النوع الجديد من هذه الحمايات داعيا الى طمع المسيحيين واليهود فيها حتى يقضوا لباناتهم من غير حرج ولا عراقيل . وكذلك طمع هؤلاء فى وظائف السلك القنصلى الأجنبى كى يدركوا قسطا وفيرا من النفوذ وحظا كبيرا من السلطان. فأدت المزاحمة الشديدة على هذه الوظائف الى تفشى الرشوة ورواج «البقشيش». فالتجار وأصحاب البنوك والمرابون بسطوا أيديهم بالمبالغ الطائلة من أجل الحصول على هذه الوظائف ، فأصبح أمرها فى القنصليات ضربا من ضروب التجارة العادية العامة ».

ولقد جاء بهذا الصدد (هامش رقم واحد من كتاب مصر واوروبا لذلك القاضى المختلط ص ١٢٤ جزء أول) على لسان مؤلفه ما يأتى :

« إن هذا الموضوع مسلم بصحته بين الأوروبيين المقيمين بمصر . ولقد

قال أحد قناصل دول الدرجة الثانية للمؤلف : « لو كنت أردت ان أحذو حذو الكثيرين من زملائي لحصلت على ريع وفير جدا»

لقد كانت الحماية الاجنبية مثمرة أعظم ثمرة حتى أن جميع زبائن القنصليات وعملائها من أوروبيين وشرقيين — رعايا أو حمايات — كانوا فوق القانون ولا يخضعون لقواعده وشروطه . أما من ناحية العدالة فكنت تجد الوطني لا يستطيع ان يتهم أجنبيا بارتكاب جناية الا لدى القنصلية التابع لها، وهي التي لم تنشأ الا لحمايته والذود عنه . أما البوليس فان رجاله قد كانوا يجتنبون دائما أن يمسوا أجنبيا، لذلك كان من السهل عليه ان يلطم ويضرب المصريين الذين هم من الطبقة الدنيا، ولو كانوا غير تابعين له، وليس لهؤلاء أن يقاوموه أو يرفعوا عقيرتهم بالشكوى ، كما كان لهذا الاجنبي ان يتمتع بسبب من أسباب النعيم والترف، بأن يجوب البلاد وبيده كرباج صغير ويحن على أهل البلد بخيره الوفير ، ويوزع فضله العميم. لطمات فوق لطمات.. على من يصادفه في الطريق العام . وهو آمن شر الاعتداء عليه من ضحاياه وفريساته . مطمئن إلى عدم التبليغ ضد فعاله الشنيعة للحكومة المصرية أو قنصليته . واذا ارتكب طباخه الوطني خلال الليل فعلا من الأفعال الذميمة وأفضى هذا الفعل إلى اعتقاله في الضبطية فليس له إلا أن يطلبه من المأمور بحجة أنه في حاجة اليه لاعداد غذائه

وسرعان مايصدر الامر بالافراج عنه فورا . هذا إلى أن جميع خدام الأجانب من الوطنيين كانوا يعفون من الخدمة العسكرية لمجرد أنهم في خدمة أحد الحمايات!

وأما من ناحية الضرائب فإن الأجنبي لايدفع غير المال المفروض على الاراضي الزراعية إلا أن الحمايات ما كانوا يدفعون هذه الاموال إلا إذا

راقهم ذلك ، وإذا رفضوا لسبب أو لغير سبب فليس للمأمور أو المدير أو الوزير أن يجرؤ على تحصيل الضريبة خيفة أن يركن هذا الأجنبي إلى حماية القنصل الذى لا يقبل أى اعتراض حكومى ولا يرى الا أن يبرر مسلك زبونه أو حمايته .

واذا أردت أن تعرف الى أى حد كان ضعف الحكومات المصرية فى ذلك الحين إزاء العميل القنصلى فاقرأ بانعام قضيتى « باپادوبولو » و « لانيادو » اللذين رفضا دفع الضرائب ، واقرأ على الخصوص القضية الأخيرة فان وثائقها قاطعة لا يتسرب اليها أى شك أو لبس أو غموض « فلانيادو الذى لم يكن غير يهودى مالطى حمته القنصلية البريطانية . قد اجترأ على كل شىء بعد نهب مزارعيه وإساءة معاملتهم دون اكتراث بنقطة البوليس التى كانت مجاورة له . فزعة من سلطانه مرتعدة من سطوته ، ولذلك فأنه لم يطلق سراح رجلين من مزارعيه كان قد حبسهما وعذبهما وأوسعهما جروحا ونال منهما بالسرقة والنهب مانال ، الا بعد تدخل إحدى المحاكم المختلطة (راجع هذه النقط بتوسع فى صحيفتى ١٢٨ وما تلاها من كتاب مصر وأوربا جزء أول لقاض مختلط) .

ولقد كان الدائنون الأجانب يطلبون من المدين رهنا مقابل الدين ويزعمون أن المدين قد وهبهم إياه فى حرية واختيار .

أما الحكومة المصرية فما كانت تستطيع العمل على أن ترد للمصرى الأراضى المرتهنة أو الزائد عن الدين من ثمن البيع ، ولقد كانت لهذه الطريقة التنفيذية مزايا لا يستهان بها . إذ كان فى الوسع استخدامها دون الالتجاء الى استصدار حكم ، وليس من حاجة للدائن هنا الا أن يزعم أن فلاحا جاهلا مجردا من السلاح مدين له فى مبلغ من المال معين ، بموجب سند كان يحرره كاتب الدائن ، ويبصمه بخاتم المدين دون حضور شهود . أو دون خاتم المدين والاكتفاء بأقرار شاهدين « بمضيان السند ويعترفان بأن لا خاتم للمدين وأنهما

ختمها نيابة عنه » وبهذه الطريقة كان فى الأمكان أن يسجل الدائن فى السند ما يشاء أو يضيف اليه فيما بعد ما يرى إضافته ، وبما أن السند يتلى على المدين فى الطاقة قراءة ما لم يسطرفيه ، كما أنه من السهل استخدام الخاتم الضائع أو المسروق . أو المودع أمانة لعمل معين ، وبما أنه لم يكن من الصعب صنع أختام مزورة بغير علم المدين فقد ابتكروا طريقة للفرار من التقاضى أمام المحاكم ، وهذه الطريقة تنحصر فى جعل السند قابلا للتنفيذ دون الالتجاء إلى المحاكم .

أما جباية الضرائب فلم تكن لتضر بالمرابين أو تحول دون أرباح ديونهم بل إنها على النقيض من ذلك كانت واسطة مزايا جمة . ذلك بأن المرابى كان يتتبع خطوات الجابى ويتقدم إلى الفلاح بمبالغ باهظة الربح . وهذا ما كان يغرى المحصل على الالحاح فى تقاضى الضريبة كلها ويحمل الفلاح على اقتراض أكثر مما يلزمه لها ما دام أنه يكتفى بتحرير السند .

غير أن هناك مايدعو إلى الدهشة الشديدة وهو ضياع حق امتياز الحكومة فى جباية الضرائب أمام حق الدائن الأجنبى العادى الذى لا امتياز له غير تهديد قنصله . . فقد كان يحدث أن يقترض الفلاح مبالغ لا يستطيع سدادها ولا سداد فوائدها إذا هو دفع الضرائب . أو ما كان يستطيع أن يدفع الضريبة ويسلم الحاصلات التى باعها بثمن عاجل . فالغلبة فى هذه الحالة كانت بجانب الدائن الأجنبى. ولقد ذكرلنا واضع كتاب مصر وأوروبا فى هامش صحيفة ١٣٣ جزء أول : « ويذكر المؤلف أنه حدث فى سنة ١٨٧٦ أن مرابية أو على الأصح زوج أحد المرابين من القناصل ، كانت تشكو مر الشكوى من بوار أعمال زوجها لأن الحكومة قد استولت على حاصلات الفلاح حتى لم يبق لديه شىء يسدد منه ماعليه للتجار ، وكانت تردد فى سذاجة كل ما تلقنه فى هذا الصدد . ولكن الأزمة المالية التى كانت قد اشتدت فى تلك الفترة اشتداداً مزعجا

لا بد أن تكون هى التى أساءت إلى زوجها أكثر مما أساءت إليه مزاحمة الحكومة بجمع الضرائب .. كذلك قال هذا القاضى فى كتابه: «يذكر أيضاً أن محاميا أرلنديا قص عليه خلال سنة ١٨٧٦ أنه قد شهد فى إحدى القرى خلافاً شجر بين الحكومة التى كانت تريد الحجز على حاصلات الفلاحين كى تتقاضى ضرائبها، وبين عميل إحدى المحلات التجارية الإنجليزية الذى أراد هو الآخر أن يستولى على تلك الحاصلات بحجة أنها بيعت إلى ذلك المحل، وقد تمكن المحل الانجليزى بفضل تدخل مندوب القنصل من تسلم الحاصلات على الرغم من الحكومة، وبهذه الوسيلة أصبح المرابون لا يرهبون حق امتياز الحكومة الماثل فى الضريبة» وهذه هى الانسانية الغربية!

حكم اسماعيل

لقد اختفى مظهر اسماعيل الصحيح عن أعين معاصريه وراء سحابة مصطنعة من الأرقام، إذ بلغ الدين المصرى فى عهد سعيد ٦٠٠ مليون فرنكا، أما فى عهد اسماعيل فقد بلغ ٢٥٥٠ مليون فرنكا، حتى استنتج من ذلك أن هذا الوالى كان سفيهاً لا عقل له ولا ذمة، فخرب بلاده، ولذلك وجب أن نفحص زيادة المليارين التى طرأت على الدين، لنرى

(١) أن الدائرة السنية التى ضمت إلى الحكومة ضمنت لها مبلغ خمسمائة مليون فرنكا (٢٠ مليون جنيها)

(٢) وأن إنشاء ثغر الأسكندرية تكلف نيفا ومائة وخمسين مليون فرنكا (ستة ملايين جنيه)

(٣) وأن انشاء السكك الحديدية تكلف أكثر من ستمائة مليون فرنك (٢٤مليون جنيها)

(٤) وأن تعويض شركة القناة تكلف ٨٤ مليون فرنك يضاف إليه ثمن استرداد تفتيش الوادي وقد أبنا تفصيل ذلك فيما تقدم، ثم ثمن أسهم القناة التي دفعت للشركة (عشرون مليون جنيه حسب تقدير كيف)

(٥) اربعمائة مليون فرنك (١٦ مليون جنيه) على الأقل ابتلعها الباب العالي وسلم فيها اسماعيل ليشترى استقلال بلاده ويحطم سلاسل التبعية.

فيكون مجموع ذلك كله ٢٠ زائدا ٦ زائدا ٢٤ زائدا ٢٠ زائدا ١٦ يساوى ٨٦ مليون جنيه خلاف الأعمال الأخرى التي نسرد مفرداتها عند بحث هذا الموضوع ولذلك يمكن القول في غير جدل أن تصرفات اسماعيل المالية عوضا عن أن تضر بمصر قد أفادتها وأغنتها ومهدت لها عصر رخاء وسعادة لولا تدخل السياسة الدولية ودسائسها، فمن العدل إذن أن نقدر الأملاك المصرية التي ضمها اسماعيل لمصر ومابناه من عمل ثم نطرح منها الدين لنعرف قيمة الفائدة أو الخسارة.

لقد كان اسماعيل كريماً إلى حد الاغراق في السخاء، ومحبا للترف إلى حد الولوع به، ولكنه مع ذلك لم يكن سفيهاً أحمق (لقد تكلموا عن ٤٣ قصرا ومائتي ألف امرأة، وكل هذا من أقاصيص ألف ليلة وليلة، فالمائتا ألف امرأة لم يكنّ غير العجائز من جواري السرايات وفتياتهن اللواتي أكره اسماعيل على الانفاق عليهن على اعتباره رأس الأسرة الحاكمة، ومع ذلك فان عددهن كان بعيداً عن هذا الرقم بعداً كبيرا. أما القصور فانه لم يشيد منها غير عابدين والاسماعيلية والجزيرة والجيزة ويمكن أن يقدر قيمة ماصرف عليها بمبلغ ٤٥ مليون فرنك، وأما أكبر نفقة صرفها فهي تلك التي أنفقها يوم افتتاح قناة السويس ومن الممكن تقديرها بمبلغ ٦٠ (مليون فرنكا — تخصم منها ثمن أدوات السكك الحديدية التي دخلت ضمن أملاك الدولة) الا أن الشطر الذي يؤسف له من ديونه هو الربعمائة مليون فرنك (١٦ مليون جنيه) التي

استولى عليها الوسطاء المرابون ، والمكافآت التى منحت للمفوضين الغربيين الذين استغلوا كرم اسماعيل

فاذا رفعنا البرقع عن وجه اسماعيل، بقى الأمير الذى بز كل أمير فى الشرق.

إنه كان صغير الجسم ممتلئه ، متحرك الملامح ذكيا ، سهل الكلام سريعه ، يمضغ نصف كلماته ليتمكن فى سرعة من اللحاق بحركة عقله الناشطة ، يجيد تفهم أسرار أخلاق الرجال وصعوبات الأعمال ، لا يخطىء ولا يخدع ، ولكن من يجيد ذلك فى الشرق إذا أراد أن ينزلق بين خصومات الدول (للاستفادة) أو بين كفتى رحى اتفاقاتهم البغيضة القاتلة للشعوب الضعيفة ،، غير اسماعيل .

إنه لم يكن من هؤلاء الضعفاء الذين يطفىء المتاع فيهم شعلة الذكاء والدهاء ، بل أنه أوتى غريزة العظمة ، بل وإنه أوتى شهوتها وخاطر فى اقتفاء أثرها أينما كانت .

لقد كان يحلم بالخلاص من رابطة الاستانة وانشاء أسرة مستقلة ، وأمبراطورية عربية تكون بمثابة الباب الضخم الفخم لدخول المدنية الحديثة فى أواسط أفريقيا ، وضم لمصر الدارفور وكردفان وسنار ووصل ضباطه إلى البحيرات الكبرى ، ثم أجرى الاصلاح القضائى .. الخ (ص ٢ و٣ و٤ من الجزء التاسع من الامبراطورية الحرة لاميل أوليفييه)

توطيد الاستقلال

ولقد شغلت اسماعيل مسألة توطيد دعائم الاستقلال المصرى ، وكان أول شاغل له من هذه الناحية تأسيس أسرة حاكمة على نمط الأسرات الأوروبية وأنظامها .

إن الوراثة فى الاسلام ليست القاعدة الثابتة فى انتقال السلطان

والحكم الأعلى.

فالولاية العامة هي مبدئيا بالانتخاب. ولكن هناك تقليداً جعل وراثة الملك في أرشد الأسرة عوضاً عن الابن الأكبر، ولهذا النظام ميزة القضاء على الوصاية ومجلسها، ورفع الرجل الكفء القادر على امتطاء صهوة الجواد وقيادة جيوش الشعوب التي انطوت عاداتها على الفتح فوق رأس الحكم، ولكن لها من جهة أخرى ضرر اثارة الاحقاد والضغائن الباعثة على الضغط والاكراه والاستبداد، وهي في بعض الأحيان تؤدى إلى ارتكاب الجرائم ضد الراشدين من الأقارب ليحل الابن الأكبر محل أبيه في القيادة والحكم وليس في الشريعة نص يحول دون اتباع نظام وراثة الملك عن طريق حصره في الابن الأكبر.

ولقد حدث إبان حكم عبد المجيد أن استصدر الصدر الأعظم رشيد باشا من الديوان العالى قرارا باتباع هذا النظام، ولكن السلطان ألغى هذا القرار خيفة استياء الرأى العام، ونظراً لأن ابنه مراد افندى كان في ميعة الشباب وليس أهلا للقيام باعباء الخلافة حتى يعتمد تجديدا كهذا، ولقد ظنوا في بادىء الأمر أن السلطان عبد العزيز لا يوقفه ضمير كهذا، ولكنه لم يخطر بباله أن يفاتح وزراءه في هذا الشأن، سواء أكان ذلك لأن ابنه كان في سن العاشرة أم لسبب آخر. ولكن هذا الموضوع قد طرح بالنسبة لوراثة العرش في مصر.

ففي مؤتمر لندرا سنة ١٨٤٠ تساءل المفوضون كيف تسوى مسألة الوراثة التى منحتها تركيا لمحمد على، فما كان من رشيد باشا وزير خارجية تركيا والعدو اللدود لمحمد على وابنه ابراهيم والذى عارض أولا في منح الوراثة لمحمد على، الا أن احتفظ للباب العالى بحق اختيار الوارث للعرش من بين أبناء الوالى المتوفى. فكان معنى هذا إبعاد ابراهيم عن الوراثة

ولما رفض محمد على ذلك الرأى، اقترح الباب العالى تعيين إبراهيم ولى عهد

منذ ذلك الحين على أن يكون له حق اختيار خلفه . فرفض محمد على أيضا . فنصح المؤتمر للباب العالى بأن يتبع القاعدة المرعية فى تركيا ، وقبل أن تصل هذه الأشارة الى السلطان كان قد أخذ بهذا الرأى ، وحصر الأرث فى أرشد الأسرة دون أن يكون له اختيار ، وهذا النظام هو ما أراد اسماعيل أن يلغيه ليحل محله الأرث المباشر بين الأب والأبن البكرى .

لم يستطع اسماعيل أن يعتمد فى هذا التغيير على انجلترا ، ولذلك فانه أرسل نوبار ليسبر غور حكومة نابليون الثالث فأظهر « دروان ده لوايس » وزير الخارجية الفرنسية حسن استعداد الحكومة الفرنسية نحو رخاء مصر ورفاهة واليها ، ولكنه لم يقطع أى تعهد ولم يعد الا بأنه قد يمحص الموضوع فى رعاية وود ، وقد يدرس النتائج التى يمكن أن يستخلصها السلطان من هذا التجديد ، وقد يستعلم عما قد يجول بخاطر الشعوب الأسلامية من جراء هذا التغيير البعيد المدى الذى سيطرأ على القانون التركى العتيق (راجع خطاب موستييه بتاريخ ٢٧ ابريل سنة ١٨٦٦)

وكان اسماعيل قد كشف القناع عن مشروعه أثناء سياحته فى الأستانة سنة ١٨٦٥ ولكن المقابلة لم تكن سارة فجعلته يعد بأن لا يعود الى هذا المشروع . غير أنه أعاد الكرة عندما وصل إلى الأستانة فى ٢ مايو سنة ١٨٦٦ . ولقد كان الظرف ملائما لأن مصطفى الذى كان فى حكم ولى عهد اسماعيل ، كان على رأس حزب تركيا الفتاة فدعا هذا الأمر الى استياء السلطان منه وسحب منه منصب الوزارة وأرغمه على الرحيل عن الأستانة . فرأى اسماعيل فى هذا الحادث أسبابا قوية لتأييد مطلبه تأييداً حاسما .

ولقد وصل اسماعيل الى الاستانة وجيوبه فياضة بالذهب الذى نثره فى سخاء غير معهود جعله يكسب قضيته ففى يوم ٩ مايو ترأس السلطان مجلسا مؤلفا من الصدر الأعظم فؤاد ، ووزير الخارجية عالى باشا ، ووزير المالية ورئيس

المجلس الاعلى ورؤساء مجلس الخزينة . ثم تكلم وشرح الموضوع فى إسهاب وذكر ان والى مصر قد التمس مرتين تغيير نظام الوراثة . فاذا هو عاد مرة ثالثة الى بلاده بخيبة الأمل كان ذلك حاطا من قدره فى أعين رعاياه ، وهذا سبب كاف لقبول مطلب تجدد فى الحاح كبير . فصمم فؤاد على ان يتحمل السلطان شخصيا مسئولية هذا العمل، ثم قال إن النظام الحاضر من شأنه ان يؤدى بالأمير الجالس على العرش إلى نزعة العمل على اغناء أسرته ، على نقيض مصلحة الأمة. وكل تغيير يعقب الوفاة بناء على النظام القائم يفضى الى انشاء أسرة قوية ويمهد الى عناصر الاقطاعية المهلكة . فوافق السلطان على هذه الاعتبارات وشفعها بقوله أن مسلك مصطفى يجعلنا نستبين ما يمكن لنا اذا هو اعتلى عرش مصر. فقال الصدر الاعظم فؤاد « حقا إنه لو أتيح لمصطفى حكم مصر لقلبها رأسا على عقب وانتهى أمره إلى موتة مفجعة كتلك التى نزلت بعباس»واقتصرت مهمة باقى أعضاء المجلس على التأييد. وبعد ان لاحظ السلطان اجماع الحاضرين على تغيير نظام الوراثة فى مصر قرر ان ينتقل السلطان فى مصر من الأب إلى الابن البكر ، تاركا أمر تسوية التفاصيل الى الوزراء بالاشتراك مع اسماعيل

وللتدليل على رعايته السامية سلم السلطان لاسماعيل يدا بيد فرمان ١٧ مايو سنة ١٨٦٦ وتنازل له تنازلا تاما عن ملكية سواكن ومصوع اللتين لم يكن له عليهما غير حق الادارة مدى الحياة . فما كان من اسماعيل الا أن رفع الجزية «من ٨٠ ألف كيس الى ١٥٠ ألف سنويا » وجعل تحت تصرف الباب العالى جيشا يتراوح عدده بين ١٢ و ١٥ ألف مقاتل .

لم يشتمل الفرمان على أى نص خاص بمجلس الوصاية. ولذلك فقد أشير إلى ذلك فى تلغراف عالى باشا، حيث قيل فيه: «من المتفق عليه ان الوالى يعين مجلس الوصاية وفى حالة وفاته قبل تعيينه يقوم السلطان بهذه المهمة » ولكن موستييه سفير فرنسا فى الاستانة لاحظ لاسماعيل أن تخويل السلطان تعيين مجلس

الوصاية يمكن فى بعض الاحوال ان يمس مساسا جديا بالموقف المصرى الذى تدافع عنه فرنسا . وأن الأفضل أن يعين منذ الآن هذا المجلس وأن يعمل على أن يقره السلطان. ولكن رغما من أن اسماعيل ما كان يحب الرجل الذى يذكره بأنه غير خالد ، فأنه اغتبط بهذه الملاحظة وتفاوض فيها مع الوزراء العثمانيين

وفى هذه الاثناء (٦ يونيه) سقط الصدر الاعظم فؤاد . وكان هذا السقوط بمسعى السلطانة الوالدة والأغوات والحزب الرجعى. فتضايق اسماعيل وخشى ان يعتبر هذا السقوط فى لندرا وباريس انتقاما من أخيه الحانق عليه بسبب حرمانه من الوراثة فتوجه إلى السلطان ورفع صوته عاليا أمامه مادحا أعمال الوزير الذى ضحاه وهاجم خلفه رشدى باشا . فاستاء السلطان أولا ولكنه مع ذلك عاد وطلب من اسماعيل ان يعدل عن السفر وحضر معه عرض الجنود المصرية فى الاستانة وبعد ذلك قبل منه الحضور فى وليمة خاصه تقام فى قصره. فأعرب اسماعيل عن أسفه «على الشدة التى خاطب بها السلطان وتصالح مع رشدى باشا» واستأنف الكلام فى موضوع الوصاية بصفاء ووداد وتقرر أن لا يتدخل الباب العالى فى هذا الشأن على الأطلاق، ولما كان اسماعيل يشمئز اشمئزازا عظيما من إعلان اسم الوصى مقدما . فقد حصل على ارادة تخوله أن يعرب عن ارادته فى وصية بموجب إشهاد يحرر أمام شاهدين

ولما عاد الى مصر منح البلاد نظاما دستوريا حيث أنشأ جمعية شورية ينتخب أعضاؤها الخمسة والسبعون لثلاث سنوات من بين المشايخ والاعيان فى الأسكندرية والقاهرة ودمياط (نوفمبر سنة ١٨٦٦) وقد أمرت الحكومة الفرنسية قناصلها بأن يلتزموا خطة التحفظ حتى لا يظن أن هذا الدستور قد أوحت هى به (راجع الامبراطورية الحرة ج٩ من ص ٤ الى ١٠ لأميل أوليفييه) ولا داعى بنا الى تفصيل مسألته الدستورية لأنها خارجة عن مهمتنا

أعمـــال اسماعيـــل

توسيع فى الاستقلال

كان اسماعيل دائم النشاط فى سبيل تحقيق رغباته وآماله . فما أن حصل على فرمان الوراثة (راجع الكتاب الخاص الصادر من ستوفل إلى بنيديتى فى ٥ سبتمبر سنة ١٨٦٦ حتى التمس من الباب العالى توسيع فرمان سنة ١٨٤١ ولكنه لم ينل ملتمسه ، غير أن ما أدركه كان جسيم القيمة . ففرمان ٨ يونية سنة ١٨٦٧ وإن استبقى التزام اسماعيل بأن يحكم وفاق القوانين الأساسية فى الأمبراطورية ، إلا أنه قد خوله حق الادارة الداخلية فى كل ما يتعلق بالمصالح المحلية وأباح له وضع اللوائح الخاصة التى لها مساس بتلك الادارة ، وإبرام اتفاقات مرتبطة بالجمارك ورقابة الأجانب والنقل والشحن والبريد ، على شرط أن لا يكون لهذه الاتفاقات صبغة المعاهدات الدولية وإلا اعتبرت باطلة . وفى حالة ماتشك الحكومة المصرية فى انطباق معاهدة على قوانين الأمبراطورية العثمانية يجب أن ترجع إلى الباب العالى فى ذلك . ولهذا يجب أن يخطر الباب العالى « فى حالة ما تعقد مصر معاهدة جمركية خاصة . » وإنما يكون ذلك عن طريق المبادلة بحيث (يستشير الحكومات الأجنبية صيانة لمصالح مصر) وبناء على ذلك يكون الباب العالى قد منح مصر بموجب فرمان ٧ يونية سنة ١٨٦٧ حق التشريع وحق المفاوضة الاقتصادية وهو حق تمسك به الباب العالى تمسكا شديداً فيما مضى .

لقب « خديو »

ولكن اسماعيل لم يقف عند هذا الحد ، فقد كان يتألم ويشمئز من الفارق

بين مقابلاته فى الاستانة ومقابلاته فى أوروبا ، حيث كان يلى الصدر الأعظم فى الاستانة ، ومن الواجب عليه أن يكون مع سائر الباشاوات كل يوم جمعة على باب الجامع ليجرى معهم وراء عربة السلطان على طول الربعماية متر التى تفصل السراى عن الجامع . وتاقت نفسه إلى أن يحرز لقب تشريف يميزه عن سائر الباشوات ويرفعه إلى مقام أسمى من مقامهم . ولقد أراد أن يضيف إلى اسمه لقب العزيز . ولكن بما أن هذا اللقب كان اسما للسلطان فقد بحثوا فى (فارس) عن لقب آخر وهو الخديو ومعناه السامى .. وأنعموا به عليه مع تعهدهم بأنه لا يمنحوه لغيره .

ولما ارتقت مرتبته على هذا النحو أخذ إسماعيل يظهر شيئاً فشيئاً بمظهر الحاكم المستقل ، ولقد ظن أن مظاهر الأستقلال تنحصر على الخصوص فى أنه يكون له جيش وأسطول ولذلك فقد أوصى على صنع مدرعتين فى فرنسا كما أوصى على صنع الاسلحة والذخائر . ووسع فى مصر مصانع السلاح والخرطوش واقترض مبلغ عشرة ملايين جنيه انجليزى من أجل ذلك «راجع الأمبراطورية الحرة من ص ٣٢ إلى ٣٤ جزء ٢ لأميل اوليفييه) وكتب على خطابات البريد الحروف الثلاثة الأولى من « بريد مصر الملكى » وبرزت هذه الأحرف فى الأستانة فوق باب كتخداى (الوكالة السياسية المصرية)

ثم تلا ذلك مسعى كان له دوى هائل : حيث استسفر نوبار ليجس نبض الدول بشأن مفاوضات ترمى إلى إصلاح قضائى فى مصر .

الأصلاح المختلط

إن إصلاح العدالة الخاص بالمحاكم المختلطة يتطلب شرح الامتيازات ولكن الأمر يطول بنا إذا نحن طاوعنا أنفسنا ولذلك نقتصر على مفاوضات الأصلاح

القضائى وحده حتى نعرف كيف عمل اسماعيل بما فى وسعه لخير مصر .

لقد ضاعف محمد على فى مصر الوسائل التجارية التى خولتها الامتيازات للأجانب فى تركيا . ولما كان قد ارتأى أن تكون معاملة الأجانب كمعاملة الوطنيين سواء بسواء داخل القطر المصرى . فقد أجاز للأجانب امتلاك الأراضى والتمتع بحق الملكية المطلق . وجعلهم يخضعون للقوانين العامة او السلطة الأهلية فيما يتعلق بأنهم ملاك . وفى الوقت نفسه خولهم محمد على ضمانة قوية انحصرت فى أن يجلس قضاتهم بجانب محافظى القاهرة والاسكندرية ،وأن يختاروا قضاة مساعدين من بين الجالية الأوروبية .

استمر هذا النظام طول الوقت الذى كانت فيه حكومة مصر قوية ، ولما جاء سعيد بضعفه وتهاونه ازداد عدد الأجانب وفسد العمل بهذا النظام ، وما كان من القناصل الا أن استمدوا من الضرورة التى تقضى بحضور ترجمان القنصلية فى القضية ومندوب من قبلها وقت تنفيذ الحكم . قوة سلبوا بها سلطة القاضى الأهلى ، وحلوا محله وأصبحوا فى الواقع القضاة الحقيقيين ، لا فى الدعاوى الشاجرة بين الأوروبيين وحدهم ولكن بين الأوروبيين والوطنيين ، واستخدموا هذه السلطة المغتصبة فى أغلب الأحيان للتغلب على الحكومة فى سبيل الحصول على تعويضات ظالمة ولا شية فيها من الانصاف قصدا إلى التشويش على حكومة مصر الضعيفة وكل ذلك على نقيض القانون .

ولقد آل أمر هذا الافتئات إلى أن يكون ضارا بمصلحة الأجانب ذاتهم ، ذلك بأنهم أمسوا خاضعين لقضاء سبع عشرة دولة ، مختلفة الشرائع والمبادىء حتى سادت الفوضى الهادمة شيئا فشيئا وامسى من الممكن أن يقال ان لاعدالة فى مصر .

فكر اسماعيل فى معالجة هذه الحال التعسة ، وفكر وحده ، وما كان نوبار إلا آلة فى شرح مشروعاته، وتأييدها بالاستعانة برجال القانون الأفذاذ

فى باريس . وليس أدل على ذلك مما جاء فى ملحق الجزء الثانى من كتاب مصر فى عهد اسماعيل ، فاسماعيل هو الذى أراد إيجاد هذا القضاء الدولى وفصله عن سلطة قناصل الدول حتى لايعبثوا بالحقوق من جهة ، ويقوم فى البلاد عدل مستقل يثبت به للعالم أن دولة الانصاف سائدة فى مصر وأن لاظلم إلا ظلم القناصل وأشياع القناصل ومرءوسى القناصل الذين كانوا يساهمون فى شركة استغلال الفلاح واستثماره بأحط طرائق الاستغلال والاستثمار والاستنزاف . ولو كان جباراً طاغياً ومستبداعاتيا ، لما حد من سلطانه ولما فصل سلطة القضاء عن سلطان البلاد وسيادتها الخاضعة له ، والقابض هو على زمامها ، وماذلك الا لعلمه أن البلاد مستقلة وأن الوقت لم يحن بعد للخلاص التام من هذه السلاسل الأجنبية دفعة واحدة كما يقضى به الحال اليوم ، إذ لم يكن فى مصر احتلال ، حتى أصبحت الامتيازات عبئا ثقيلا على مصر لايتفق بأى حال مع رقى البلاد المختلف ومطالب العصر الحاضر . ولما كان هذا النظام قد حرر الفلاح بعض التحرير من ظلم الأجانب واستعبادهم وجلدهم أياه ، من ناحية ، وحرر الحكومة أيضا من شره القناصل واستبدادهم . فقد رأى البعض ان يسمى اسماعيل بالمنقذ السياسى والمصلح الشرقى الأول . ولما كان نوبار قد قال لاسماعيل أن هذا النظام يحد من سلطانه المطلق ، فقد أجابه : « ماذا يعنى هذا الأمر فمادام نظام الوراثة وعلى الخصوص سلطان خلفه قد توطد فسيكون لدى ولدى عدالة منظمة يعتمد عليها »

ولما كان اسماعيل فى باريس سنة ١٨٦٧ أيام المعرض الدولى العام فقد أباح لنوبار أن يعرض على الدول مشروعه الواسع النطاق ، فأذاع نوبار مذكرة به ، وسافر اسماعيل من باريس ولكنه مكث فى فرنسا حتى يؤيد مشروعه . فاستدعاه الامبراطور وقال له : « إن الفكرة عظيمة وسأتكلم فيها مع موستييه » ولكن موستييه رفض الفكرة ومن الممكن أن نقول إنه رفض

في غضب وحنق . إذ كان يرى أن القضاء القنصلي في الشرق كالهودج ، بل كمركب نوح المقدسة « فتحطيمها إنما هو بمثابة العدول عن أى عمل في الشرق ، وتسليم مواطنينا إلى الهمجية الأهلية » .

ومع ذلك فقد وجب أن يظهر موستييه بمظهر الراغب في إرضاء الامبراطور ، ولذلك فأن موستييه عقد لجنة مؤلفة من الأنصار المتعصبين لبقاء الامتيازات .. وجاء المسيو (مونورى) المحامى الباريسى الأشهر إليها لابسا وجه نوبار للدفاع عن المشروع ، وأبان أن الغرض من المشروع اقامة محكمة تتألف من القضاة الاهليين والمستشارين الاوروبيين المختارين من مختلف بلدان أوروبا ، من بين القضاة العاملين في سلك القضاء ويكون لهؤلاء الاغلبية . ليقضوا في المنازعات التى تقوم بين الاهالى والاجانب على أن يخضع الوالى والإدارة المصرية لأحكامها . فأسيء الى نوبار عوضا عن أن يصغى اليه .

ولقد قررت هذه اللجنة أن ما يسمى ظلما وتخطيا لحدود السلطة إنما كان نتيجة محتومة للأمتيازات ، وأنه اذا كان بعض القناصل قد ارتكب عدوانا واستهانة بالسلطة المصرية ، وتعدى حدود وظيفته ، فلا شيء من ذلك يمكن أن يلقى على عاتق القنصل الفرنسى ، ولاحظت أن الأوروبيين المقيمين في مصر قد غرقوا في بحر من الأرهاب لمجرد التفكير في جعلهم خاضعين لعدالة والى مصر ، ولكنها لم ترفض قيام النظام وانما رفضت العمل به على أنه اجبارى بالنسبة للأوروبيين المقيمين في مصر وخولت الاجنبى حق التمسك باختيار التقاضى أمام هذا النظام ، في حالة ما اذا نص في تعهد بين المتعاقدين على اختيار هذه المحاكم ، ولكن استثنى أمر واحد خاص بعقود الأيجار على العموم ، وتقرر اختصاص هذه المحاكم المصرية بالنسبة له ..

رفضت مصر هذا القرار ، وسافر نوبار الى لندرا أملا في أن يجد الجو صالحا للحصول على ما يفضل المقترح الفرنسى ولكنه لم يجد هناك استعدادا

لقبول النظام وإن كان قد وجد التعصب لسلطة القناصل أقلها فى فرنسا. فقد اطلعته الوزارة البريطانية على تحقيق قامت به لجنة اجتمعت فى الاسكندرية، ولكنه كتب فى صورة استشارية تركت للحكومة البريطانية الحرية التامة فى اتخاذ القرار الذى تريده. فما كان من موستييه الا أن أعرب عن أسفه على هذا القرار المتواضع ثم قال :

« إننا لا نتعمد أن نرفض أى اجتماع يراد منه التعاون على تمحيص الموضوع، ونرى أن من الممكن أن تكون الطريقة المجدية فى أن نعهد الى معتمدى الدول المختلفة فى مصر بأمر دراسة التفاصيل الخاصة ببعض النقط، ولكن يظهر لنا أن من الخطر أن نضع المسألة بحذافيرها بين ايديهم وأن نطلب منهم حلا، مع أن تقرير اللجنة الأمبراطورية قد أبان جميع عناصره الجوهرية كما تفضل اللورد ستانلى واعترف بذلك

« إن هذا التقرير كما نرى من جهتنا، يبين الحد الأقصى للمزايا التى يمكن أن نقدمها للحكومة المصرية ولقد قدمنا تقريرنا إلى وزير الخارجية البريطانية باعتبار أن هذه الامتيازات هى الحد الاقصى الذى لا يمكن للوزارة الفرنسية أن تجتازه، كما أنه مفروض فى حكومة لندرا أن لا تتخطاه » (باريس فى ٣ أغسطس سنة ١٨٦٨)

ثم أخذ موستييه يعرقل مساعى مصر فى برلين وفلورانسا، ولكنه لم ينجح. فبلبروك مندوب بسمرك فى برلين وافق موافقة صريحة، وفى عبارات كلها مجاملة « على مقترح انجلترا. أما فى فلورانسا فأن « مينا بريا » قد أقر بأن مركز مصر الآن ليس فى مصلحة الأيطاليين، وأن حكومته على استعداد لأن تبحث الوسائل المؤدية إلى تحسين هذا المركز (خطاب لا فيلسترو إلى موستييه فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٦٨) ولذلك فانه انضم هو الآخر إلى تأييد الاقتراح البريطانى، ولكن هذه التأييدات لا يمكن أن تثمر ما دامت فرنسا معترضة.

الطريق ، ولما عاد نوبار إلى باريس توسل بكافة الطرق المختلفة إلى الامبراطور وروهر وبيهك . . الخ دون أن يستطيع فل مقاومة موستييه ، ولما وصل لا فاليت إلى باريس ، انتعش نوبار قليلا . فقد أصغى إليه هذا الوزير وجعل الآمال تجيش في صدره إلى حين ، ولكن أقلام الوزارة التي كثيرا ما تتحكم في الأمور أكثر من الوزير ، لم يوافقوا على القرار الأصلي ، حتى أن اليأس كان قد بلغ أوجه من نفس نوبار في اللحظة التي وصل فيها الخديوي اسماعيل إلى باريس وانتشله بمسعاه (ص ٨٧ جزء ١٢ الامبراطورية الحرة لاميل أوليفييه) .

لقد جاء اسماعيل إلى أوروبا ليدعو بنفسه الملوك والأمراء لحضور حفلة افتتاح قناة السويس، وقد نزل إلى البر في البندقية وكان نوبار هناك في انتظاره ، وبعد أن زار ملك ايطاليا في فلورانسا ، توجه إلى فينا حيث حصل نوبار اثناء مروره معه على موافقة « بوست » وزير خارجية النمسا على مشروع الاصلاح المختلط ، ومن هناك سافر اسماعيل إلى برلين ، ولقد قوبل الخديو في كل مكان بأعظم مظاهر التجلة والحفاوة ، ولكنه قوبل في باريس مقابلة ملكية حتى أن أحد الحجاب بقصر التويلري أعلن حضوره في يوم من الأيام بقوله «صاحب الجلالة ملك مصر» ولقد وعدت الامبراطورة «أوجوني» بحضور الحفلة كما وعد بذلك امبراطور النمسا وولي عهد المانيا . فحاول نوبار أن يستفيد من هذا الاستعداد الحسن ، وكيف يمكن رفض طلب لذلك الضيف المحبوب السخي المحتفى به؟ توصل نوبار إلى أن يحصل من فرنسا على وعد بأنها لا تعترض على اجتماع لجنة دولية في الاسكندرية لتمحيص المشروع ، ولكن لافاليت طلب أن يكون برنامج هذه اللجنة هو التقرير الذي وضعه موستييه . فهتاج نوبار وزار جميع السفراء ، وتمكن من أن ينتزع من لا فاليت وعدا بالتنازل عن هذا الشرط وتخويل اللجنة حق إقتراح ما تراه متفقا والمصلحة المشتركة

أدرك نوبار هذه الخطوة الأولى بفضل وجود اسماعيل فى باريس ثم انصرف إلى تكوين اللجنة الدولية دون أن يعبأ بالعاصفة التى هبت من الباب العالى لتنقض لجأة على مولاه .

اعتراضات الباب العالى

كان كل رقى مصرى يضايق موظفى الاستانه ويثير احقادهم ضد مصر ، ففى سنة ١٨٣٩ شق محمد على ترعة بين الأسكندرية ثغره الوحيد والنيل، قصدا إلى نقل الصادرات من الحاصلات المصرية عن طريق الأسكندرية حتى يمكن اجتناب الأخطار التى قد تلحق بها إذا هى صدرت من رشيد . فأرسل الباب العالى مندوبا لمنع حفرها ، ولكن لحسن الحظ أنه لم يكن فى ذلك الحين تلغراف ولا بخار ، فلما وصل هذا الموظف العثمانى وجد أن القناه قد تمت وسميت باسم السلطان (المحمودية)

وفى سنة ١٨٥٠ عندما أراد عباس مد خط حديدى بين الأسكندرية والسويس عاد الباب العالى واعترض، وكاد ينجح فى وقف هذا الانشاء بمعاونة فرنسا، لولا أن المشروع كان يهم انجلترا ، وكذلك عارض الباب العالى فى حفر قناة السويس ومن ورائه انجلترا ، ولولا أن المشروع كان يهم فرنسا لما تم .

إن هذه الفطرة التى جبل عليها الباب العالى لم تكن لحسب بدافع الغيرة الحقيرة المسكينة التى كانت تبيح للغير أن يعترض فى بلاد غيره على ما هو عاجز عن عمله فى وطنه ، وانما كانت أيضا بدافع أن كل رقى وتقدم فى مصر دون رضائه ما هو الا محاولة فى سبيل قطع علاقات التبعية والحصول على الاستقلال ، ولهذا فان ذهاب نوبار الى أوروبا وعودته الفينة بعد الفينة ، وخطوات اسماعيل التى كان يخطوها فى مظهر الظافر ، والتنظيمات التى قام بها، والقروض التى اقترضها قد جعلت الباب العالى يرى فيها سحبا تحجب ظله فى

مصر ، حتى أن عالى باشا وزير الخارجية العثمانية الحكيم المعتدل فقد اتزانه ولم يستطع القبض على زمامه أمام الفكرة القائلة بانفصال مصر عن تركيا ، ورأيناه يتوجه الى اسماعيل بكلام قارص فظ ليس من المألوف فى لغة السياسة ، ذلك بأن شكه قد امتلأ بالسم الذى افرغه فيه الأنصار الدساسون الذين أحاطوا بأخيه مصطفى بعد أن حرم وراثة العرش .

على أن السلطان ذاته لم يتمالك نفسه من الغضب ، لأن هذه الوساوس والشكوك قد ساورته واذا صدقنا كلام « بوريه » الذى كان يردد أقوال السراى وثقنا بأن السلطان كان يكن لأسماعيل حقدا عميقا فى نفسه .

فعندما حضر الخديوى اسماعيل الى الأستانة فى سنة ١٨٦٦ لتغيير نظام الوراثة كان قد صمم هو ووزيره فؤاد على رفض هذا الطلب ولكنه وقد قابل فى « الحرم » إحدى بنات اسماعيل وهام بحبها الى حد الجنون فقد أفضى الى فؤاد بأرادته الزواج منها وأن يمنح اسماعيل حق الأرث المباشر . فقاوم فؤاد عبثاً . ونال اسماعيل مبتغاه . ثم تبخر ميل السلطان وعدل عن الزواج ولم يبق له الا الندم على رفض الأصغاء لصدره الأعظم فؤاد . وقد اهتاج السلطان الى حد الثورة عند ما رأى اسماعيل لايظهر له من آيات الشكر على نعمائه حتى يلطف من وقع ندمه على مافرط له فيه من حقوق تركيا بل كان يثير كامن دائه ويذكره بخطورة أخطائه فى منحه، عندما يطالبه بمنح جديدة . ثم جاءت مقابلة اسماعيل فى باريس أيام المعرض وأيام دعوة الملوك الى حفلة افتتاح قناة السويس فأخرجت سلطان تركيا عن طوره فأمر عالى باشا أن يرسل خطابا دوريا الى معتمدى الباب العالى يضمنه احتجاجه على المظاهر الملكية التى يظهر بها اسماعيل .

كان اسماعيل وقتئذ فى فرنسا . فنصح له وزير خارجية فرنسا بأن يظهر بمظهر الود والتساهل ، ونصحه سفير انجلترا بأن يعرج فى عودته على الاستانة

. ولكنه لم يحفل بنصيحتهما حتى لقد قال «ان عالى لن يدخر وسعا فى تدبير وسائل اذلال ، تأبى كرامتى الا ان تفرض على واجب ردها» ثم عاد مباشرة الى مصر

ولما عاد الى مصر وصله من عالى باشا خطاب (بتاريخ ٢ أغسطس سنة ١٨٦٩) سترى نصه فيما بعد

بعد افتتاح القناة

تم افتتاح قناة السويس من ١٧ الى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٦٩ . ولما انتهى الاحتفال وأخذت رسائل التهانى ترد على اسماعيل من أوروبا ، وصل اليه فرمان من الاستانة يحمل بين نصوصه مذكرة مرة . وكان هذا هو الفرمان التفسيرى الذى نصح به « بوست » ولم يتمكن بوريه من منعه . ولقد جاء فى هذا الفرمان « تبعا للنصوص الاساسية التى تجرى على مقتضاها الادارة الحالية فى مصر يجب أن توزع الضرائب وتجبى باسمى . لذلك لا أستطيع ان أقبل بأى حال من الأحوال أن تنفق الأموال المتجمعة من هذه الضرائب الا فى سد الحاجات الجوهرية للبلاد أو ان تفرض ضرائب جديدة على أهالى مصر دون ضرورة مشروعة ومسلم بها . فارادتى المطلقة هى ان تكون عنايتك وجهودك المتتابعة موجهة فى سبيل هذين الشأنين الهامين . كما يجب ان توجه نحو الضرورة التى تقضى بأن يعامل رعاياى فى مصر بموجب قواعد العدل والانصاف ، فانى لا أستطيع بالنسبة للقروض الأجنبية التى تضمنها ايرادات مصر سداد أى قرض منها دون أن تعرض على حكومتى الامبراطورية تفاصيل الاسباب التى اقتضت عقدها وأن تحصل منى بداءة ذى بدء على تصريح بها . فارادتى تقضى بأن لا يعقد أى قرض الا بعد البرهان القاطع على وجود الضرورة المطلقة التى الجأت إلى عقده مع حصولك على تصريحى السابق (٢٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩)

وفى ٣ ديسمبر وصل الى الاسكندرية سرور افندى يحمل هذا الفرمان المزعج فوصل الغضب باسماعيل إلى ان اعتزم طرد الرسول مع رسالته . فتداخل قنصلا فرنسا وانجلترا . وأيدهما نوبار فقابل اسماعيل الرسول وتلا الفرمان فى غير علانية داخل القلعة كالعادة ، ولكن فى غرفة تكاد تكون مغلقة الابواب (١٠ ديسمبر)

لم يرض اسماعيل ان يستسلم لهذه الضربة المذلة . ولما كانت اللجنة الدولية منعقدة بالاسكندرية للبحث فى الاصلاح القضائى فان اسماعيل عمل فيها وهو ظاهر بمظهر الشخصية الاوروبية البارزة المصلحة ، ظهورا كان بمثابة توبيخ لمتبوعه .

ولكن هذا المنظر لم يكن شافيا لغلة اسماعيل لأن موضوع انتقامه أدنى محض . ولذلك عمل فى سبيل القضاء على أثر فرمان ٢٧ نوفمبر ١٨٦٩ . وأخذ يهدد ، وحشد فى الاسكندرية الزعماء السابقين للثورة الكريدية . حتى يكونوا على أهبة الاستعداد وتحت تصرفه .

وشرع يسلح جيوشه ويهدم ويبنى الحصون فى دمياط . ولم يرسل إلى الأستانه المدرعات التى طلبها الباب العالى

ولقد كتب اليه عالى يستعلم . فاستمر اسماعيل راغبا عن الرد عليه . فعاد الهياج ضده وأرسل اليه عالى برقية لم يرد عليها . فشفعها ببرقية تهديدية أخرى لم يكن معها بد من الرد . فاعتذر اسماعيل وعلل تأخيره بأن حسابات مصانع تريستا وتولون لم تصل اليه ، وبمجرد وصولها يرسل الى عظمة السلطان كشفا بالمصاريف

ولما شعر اسماعيل فى النهاية بأن مركزه مهدد وأن لاجدوى من اتباعه سياسة المغامرة التى تتصيدها الدول فتؤيدها طورا وتقاومها تارة ، قصدا إلى جر غنم ، أخطر قنصل اليونان بأنه من غير الممكن إيواء العصاة الكريديين فى

الامبراطورية العثمانية . وأن مصر جزء من الدولة العلية وعلى ذلك فأقامتهم فيها لا يمكن ان تطول.

ولما فكر مليا فى أمر الديون، رأى ان القيد المانع من عقد القروض ليس مضايقا مادام ان الباب العالى لم يعترض على اصدار أوراق على الخزينة ومن الواضح ان الدين السائر كان يدفع عنه أرباح فمن الصعب ان يرفض الباب العالى عقد قرض لتوحيد هذه الديون

ولما وصلت المدرعات إلى الآستانة كف الباب العالى عن رسائله وبهذه الطريقة هدأ نهائياً الشجار القائم الذى كان يتهدد بأقلاق راحة أوروبا.

انجلترا تنذر اسماعيل

لقد أراد اسماعيل أن يعلن استقلال مصر فى حفلة افتتاح قناة السويس. ولكن انجلترا عارضت هذه الفكرة وقاومتها.

ففى تلغراف بتاريخ ٥ سبتمبر سنة ١٨٦٩ مرسل من اللورد كلاراندون. وزير خارجية انجلترا إلى الكولونيل ستانتون صرح الوزير لوالى مصر (اسماعيل) أنه بما أن للدول الاوروبية العظمى الا تسمح للباب العالى بنسخ الحقوق المعترف بها للوالى بموجب الفرمانات أو انتقاصها دون موافقتها، فان لها بناء على هذا الحق أن تعترض على نية الخديوى الخاصة باستقلاله استقلالا تاماً عن السلطان، ولقد وصف اللورد كلاراندون هذه النية بأنها نية مشئومة.

وفى سنة ١٨٧٣ بعث السير هنرى اليوت سفير انجلترا فى الآستانة تقريرا الى اللورد غرنفل شرح فيه مادار بينه وبين نوبار باشا الوزير الاول لاسماعيل خلال مقابلة طويلة فى الآستانة، ولقد جاء فى هذا التقرير أن السير هنرى اليوت صرح باسم الحكومة البريطانية لنوبار «أن انجلترا لا تسمح أبدا لمصر بالانفصال التام عن

الأمبراطورية العثمانية ، وأن من الواجب على الخديو أن يعدل عن كل مشروع من هذا القبيل » (راجع ص ١٠ و ص ٣٨ و ٣٩ من القضية المصرية والقانون الدولى للمسيو ف . ده مارتنس مدرس القانون الدولى بجامعة بطرسبوج طبعة بروكسل سنة ١٨٨٢) هـذا ما كان من أمر انجلترا ، أما موقف تركيا فنستخلصه مما يلى .

خطاب الصدر الاعظم

أمين عالى باشا إلى اسماعيل

بتاريخ ٢ أغسطس سنة ١٨٦٩

«لقد وقف سموكم حتى الآن على ما أحدثه الغرض الجوهرى من سياحتكم فى أوروبا ، وعلى ما دعا إليه المحور الأساسى لهـذا الغرض من أشاعات واعتبارات مختلفة سواء أكان فى الصحف أم فى وزارات الخارجية .

ولقد اتضح لنا فى الوقت الذى ذاعت فيـه هذه الأشاعات فى كل مكان ، أن الوسيلة الضرورية لتبديد الريب والظنون والقضاء على جميع الصعاب التى يمكن أن تتولد عن هـذه الاشاعات إنما هى فى ايضاح صريح أمين ، ولذلك فانى بأمر الحضرة العلية الشأن أنتهز فرصة عودة سموكم لمصر لأتحـدث معكم فيما يأتى .

« أن الثقة العالية والرعاية السامية اللتان طوق بهما حضرة صاحب الجلالة الامبراطورية السلطان جيد سموكم قد قام عليهما أكثر من برهان مادى محسوس ولذلك فنحن فى حاجة إلى أن نعود اليهما ونتفق بصددهما .

« فالحـكومة الامبراطورية لم ترفض ، وهى فى فترة اكتنفتها فيها اضطرابات سياسية من أخطر ما يكون ، أن توافق على طلبات سموكم مع بعض تحوير فيها

مع أنها ما كانت تلوح فى نظر العالم متلائمة واحساسات الولاء التى كان مولانا المعظم ينتظرها من سموكم .

« وهذا الظرف مقترنا بالمسلك العجيب الذى سلكته الجنود المصرية عند وصولها وابتداء اقامتها فى كريد خلال العصيان الأخير الذى وقع فى هذه الجزيرة ، مضافا إلى التعجل فى السفر والعودة إلى مصر ، وغير ذلك من الحوادث المشابهة قد كانت من الحوادث التى كاد صاحب الجلالة الامبراطورية السلطان ينساها ، أملا فى أن يقيم لسموكم برهانا جديدا على رعايته التى لم ينقطع عن أن يكنها لسموكم ، ولهذا فأن ضمير سموكم لا يستطيع إلا أن يوافق على أن صاحب الجلالة الأمبراطورية لا يريد فقط أن لا يعرقل استمرار هذه الرعاية فى الحدود التى رسمها لمركزه ، بل أنه يريد فوق ذلك أن لا يدخر وسعا فى مضاعفة هذه الرعاية وتسهيلها .

« أن مصر ، هذا الأقليم الكبير الذى وضع تحت ادارة سموكم ، هو من أهم أجزاء الأملاك التابعة لصاحب الجلالة الامبراطورية ، وعلى ذلك فأن رفاهة وسعادة سكانه هما بطبيعة الحال موضع عنايته الكبرى ، وبناء على ذلك وعلى حق سيادته هذه البلاد ، كان لعظمة مولانا أن يقوم برقابة على المصروفات التى تبهظ كاهل مصر فى الوقت الحاضر كما تبهظ مستقبلها إبهاظا شديدا . فاذا كانت هذه الرقابة لم تحصل ، واذا كانت الحقوق والواجبات المبينة فى الفرمانات السلطانية التى عهدت إلى أسرة سموكم بالأدارة الوراثية فى مصر ، لم يعمل بها ، فما ذلك إلا لغرض واحد هو أن جلالته كان مقتنعا بأن سموكم لا تتخطون الحدود فى أعمالكم بفضل سامى حكمتكم وتقدرون حسن الصنيع الذى كنتم موضعه فلا تتنكبون أبدا طريق الأمانة والاخلاص .

« ولكن اللحظة التى بلغ فيها هذا الاعتقاد أشده ، وكانت عناية صاحب الجلالة بسموكم تستمر وتتضاعف من يوم لآخر ، أخطار بمشروع سياحتكم التى

اعتزمتم القيام بها فى أوروبا .

« ورغما من أن سموكم قد تفضلتم بأخبارنا عن سفركم الا أنكم لم تروا من الواجب وقفنا على ما قل أو جل من قيمة البواعث التى أسندتها الألسنة العامة إلى هذه السياحة ، ولا أردتم أن تجيبوا أى أجابة على طلبات الاستيضاح التى وجهت إلى سموكم بطريق شبه رسمى .

« ومهما كانت الدهشة التى استولت علينا من جراء هذا الصمت فقدرأينا من الواجب أن ننتظر اللحظة التى نستنير فيها بالواقع .

« وفى خلال ذلك علمنا بالسياحة التى قام بها سموكم من الاسكندرية الى جزيرة كرفو مباشرة قصدا الى زيارة ملك اليونان ودعوته لحضور الاحتفال بافتتاح قناة السويس ، أما خبر هذه الدعوة ذاتها التى قمتم بها نحو باقى الملوك الذين زرتموهم فقد جاء نبؤها بعد العودة الأولى .

« ومن لغو الكلام أن نقول أن مولانا المعظم يشعر بسرور عظيم من رؤية ملوك أوروبا يشهدون افتتاح عمل من الاعمال الجليلة التى تتم فى بقعة من أراضيه ويشرفون برعايتهم واحـدا من أهم أعضاء حكومته قد نصب على رأس الادارة المصرية ما دام هذا يروقهم

« غير أن فطانتكم المستنيرة استنارة عالية لاتدعنا فى حاجة الى أن نذكرها بأن دعوة ملك مستقل من ملوك البلاد الاجنبيـة يجب أن تكون بواسطـة سلطان هـذا البلد المستقل ، وعكس ذلك يمس كرامة المدعو كما يمس حقوق السلطان صاحب السيادة على الاراضى المصرية

« وعلى ذلك فأن الشكل الذى اتبعه سموكم فى هـذا الشأن هو من جميع الوجوه متناقض — من ناحيـة احترام الحقوق المقـدسة التى لمولانا المعظم والرعايات الضرورية لأصحاب العظمة الأمراء الذين دعاهم سموكم .

« ومن جهة أخرى فقـد كان من واجب ممثلى الباب العالى فى الخارج أن

يكونوا تحت تصرفكم على اعتبارهم تحت تصرف واحد من أعاظم نبلاء إمبراطوريتنا وعيونها .

« ولذلك كان من الواجب أن تكون علاقات سموكم الرسمية بواسطتهم ، ومع ذلك فقد لاح لنا أن إسراعهم بأداء هذا الواجب لم يقتصر على أن لا يروق سموكم . بل وأنه فوق ذلك كان له أثر فى نفوسكم جعلكم تستنكرونه ، وبكل مشقة قد لاحظنا تحفظكم الذى رأيتم من الواجب عليكم القيام به فى علاقاتكم مع هؤلاء الممثلين .

« وأن سموكم ليعلم أكثر من غيره أن مصر لا تختلف فى شىء عن باقى الأقاليم وأن أدارتها لا تستطيع انشاء علاقات سياسية مباشرة مع الدول الأجنبية ، وهذا ما هو واضح صراحة فى نصوص الفرمانات الا اذا استثنينا بعض امتيازات لمصلحتكم الخاصة .

« ولذلك فأن المعاهدات القائمة بين الباب العالى والدول الأخرى وكذلك القوانين الأساسية فى السلطنة العثمانية يجب أن تسرى فى مصر بنفس القوة التى تسرى بها فى تركيا

« ولكن رغما من هذه المبادىء الأساسية فإن السياحات التى يقوم بها فى أوروبا ذلك الذى يسمى ويلقب بوزير خارجية مصر ، قصدا الى بذل جهود للحصول لمصلحة مصر على تغيير فى المعاهدات المذكورة وايجاد مفاوضات مباشرة مع الدول فى هذا الصدد ، مضافة الى العناية العظيمة بأخفاء موضوع مهمته عن ممثلينا ، أكثر من أخفائه عن أى شخص آخر ، وامتناعه كل الامتناع عن الأتصال بهم ما هى الا وقائع افتئات على حقوق الباب العالى كما هى وقائع تتناقض مع التزاماتكم ولا يمكن التسامح فى استمرارها الى زمن أطول إذ أصبح من الواضح فى نظر مولانا المعظم أنه إذا كان احترام الحقوق والمعاهدات من المبادىء المقررة لدى الدول ، وكانت هذه الدول قد أظهرت

أنها على استعداد لمساعدتكم ، كان إلغاء معاهدتنا والاستعاضة عنها بأخرى ، هو غرضكم الذى تريدون والهدف الذى اليه ترمون أى باختصار القضاء على مانصت عليه الفرمانات التى يترتب عليها وجود ادارتكم بمصر واستمرارها.

« أما فيما يتعلق بداخلية مصر فان المصروفات المبهظة التى لاتحصى وتسببت عن التوصيات الخاصة بأنشاء مدرعات وصنع مدافع وبنادق وأسلحة أخرى ، صار من شأنها أن تلقى على كواهل سكان هذا الجزء من الامبراطورية تكاليف بعيدة عن طاقة وسائلها الاقتصادية كل البعد وتجعلهم يسخطون على الأدارة .

« ولما كان صاحب الجلالة الأمبراطورية السلطان مولانا المعظم كما قلنا ولسنا فى حاجة الى تكراره كثيرا - يعنى كل العناية برفاهة مصر وسعادتها ويرغب فى أن يرى هذا الاقليم متمتعا بامتيازاته داخل حدودها المشروعة فانه لا يستطيع أبدا أن يرى الضعف يتطرق إلى الصلات التى تربطه بامبراطوريته

« ولما كانت مصر ملزمة برعاية المبدأ القائل بصيانة كيان الأمبراطورية فمن المستحيل ان يسلم مولانا الملك المعظم بالأسباب التى يمكن ان تجعل ادارة هذا البلد ملتزمة باستنفاد الخزانة العامة فى سبيل شراء البوارج المدرعة أو الاسلحة المختلفة الأنواع

« وبما أن الشعب لا يستطيع بحال من الأحوال أن يتحمل إلى أمد بعيد القيام بنفقات كهذه، عظيمة بقدر ما هى عديمة الجدوى ، فأن جلالة السلطان وحاكم البلاد الشرعى وحامى رعاه الطبيعى لا يسمح بها

« وإذا كان من المسلم به فى كل مكان أن هذا الأمر لا يرجع سببه إلا إلى الترف فأن أثر المدنية والرقى الحقيقى ينحصر فى تمام الأصلاحات التى تتخلف عنها هذه المدنية . وعلى ذلك فأن عقل سموكم العادل المستنير من شأنه أن يجعل من لغو الكلام بذل عنايتنا فى أن نبرهن لكم على النتائج المخربة التى يتعرض لها الأنسان عندما يبدأ أعماله بشئون لا يكون لها إلا هذه الآثار مهملا جانب

القواعد العمرانية الأساسية .

(فالغرض من هذه الأيضاحات الجلية الصريحة الوافية هو لفت نظر سموكم بصفة جدية إلى الشئون التى لا يمكن اذا استمرت وثابرتم على اتباعها أن تتفق مع مصالح الاقليم الأمبراطورى المعروفة جليا والتى عهد الى سموكم بأمر ادارتها. أو مع المحافظة على الحقوق المعترف بها لجلالة السلطان ومن المهم قبل كل شيء أن لاتمس أى مساس

(ونحن لانشك على الأطلاق فى أن سموكم ، وقد أوتى عقلا سامياً فى حكمته وعنى عناية جدية بالملاحظات السابقة، يتفضل بالعدول عن كل مايتخطى حدود امتيازاته وتعهداته ، وأنه اعترافا بالحسنات الجليلة التى كنتم موضعها من جانب مولانا المعظم يجدر بسموكم أن تحشدوا من الآن فصاعدا كل جهودكم لبذلها فى إنماء رخاء مصر وضمان حياة سكانها وأملاكهم .

« وكلما ازدادت رعاية سموكم فى حدود القيود التى تقيدت بها امتيازاتكم فأن الرعاية التى لا يزال يكنها مولانا المعظم لكم لن تنقطع عن النماء والمضاعفة .

« ولما كانت هذه القيود معددة طويلا فى الفرمانات المذكورة فمن العبث سردها هنا

« ولما كان من المستحيل على الحكومة الامبراطورية ان تعدل عن نص واحد من النصوص التى اشتملت عليها هذه الفرمانات فانها على الرغم منها سترى نفسها مكرهة على الالتجاء لنصوصها كلما أعوزها اتخاذ اجراءات لردها إلى نصابها وقمع الأعمال التى يمكن أن تحدث على نقيضها ونقيض حماية الحقوق والتقاليد .

« فبناء عليه وعلى أمر صاحب الجلالة السلطان مولانا المعظم قد جئت لأبلغ سموكم فى غير مداورة وبكل صراحة ، الحالة الحقيقية للموقف وأتشرف بانتظار رد جلى حاسم يشتمل على جميع الضمانات الضرورية للمستقبل تلك

التى لايجوز ان تكون حبرا على ورق »

اهتاج اسماعيل من خشونة هذه اللهجة التى لا يخفف من وقعها الا بعض عبارات ناعمة الأدب قد انزلقت بين سطورها ؛ فصمم على عدم الرد أولا ؛ ولكن فرنسا التى كانت لها مآرب لدى الباب العالى، ومآرب فى مصر، انسلت بين التابع القوى والمتبوع الضعيف حتى تستغله فى قضاء مآربها فأوعزت الى قنصلها فى مصر أن يهدىء من ثائرة اسماعيل، بتخفيف وقع ذلك الخطاب على نفسه وان يلوح له بالتخلى عن مؤازرته فيما هو أهم من ذلك اذا هو اعتزم أن يقاوم الى النهاية قبل اتمام افتتاح قناة السويس. فوجد اسماعيل ان من اللياقة، المجاملة فى هذا الظرف وبعث برد مطول وشرح مستفيض ولكن فى لهجة متواضعة، وقامت فرنسا فى الاستانة بالدفاع عنه، ولقد كتب المسيو «بوريه» سفير فرنسا فى الاستانة الى وزير خارجية فرنسا فى ١٣ أغسطس سنة ١٨٦٩ بصدد هذا الموقف يقول: « انى لا أزعم ان هذا الأمير لم يخطىء أبدا. ولكن يلوح لى ان الفارق عظيم بين النيات العدائية المباشرة وبين الميل الى أن يعرض على أنظار أوروبا ترف حاشيته، وابهة بلاطه، وثروة اقليمه، ورغباته فى أن يهتم العالم بالمشروع العظيم الذى يتم تحت رعايته. حتى يعرض هذا النشاط وتلك الحماسة اللذين يشوبهما الخيال الى حد بعيد، فالبلاطات التى زارها الوالى لم يلاحظوا فيما القاه من خطب، شيئاً من ذلك العداء أو الخروج بل بالعكس يشهد جميعهم أنهم لم يسمعوا منه أى كلمة يمكن أن يستخلص الباب العالى منها أنها تلقى الظل على حقوقه، ولذلك فانى لا أستطيع الا فى صعوبة، تفهم التأثر الذى بدا فى الاستانة بهذا الصدد)

ولقد أبدى سفير انجلترا هذا الرأى نفسه، أما « ايتيا نييف » سفير الروسيا فقد تصنع وحده الامتناع عن إبداء رأيه معللا ذلك بأن سيده قد أصدر اليه تعليمات بأن لا يتدخل مطلقا فى العقبات التى يرى أنها داخلية بحته . (راجع

خطاب بوزيه الرقيم ١٥ أكتوبر سنة ١٨٦٩)

ولكن رغما من دفاع السفراء عن اسماعيل فان عالى باشا لم يعلن رضاءه عن رد الخديو . وحدد فى رده عليه النقط الآتية التى أراد تنفيذها وهى :

(١) أنقاص المواد الحربية (٢) التنازل لتركيا عن الدارعتين «٣» تبليغ السفراء العثمانيين المفاوضات التى قامت بها الحكومة المصرية فى الخارج (٤) تقديم الميزانية السنوية المصرية للباب العالى (٥) الحصول مقدما على تصريح من الباب العالى بخصوص القروض (٢٩ أغسطس سنة ١٨٦٩)

قبل الخديو التنازل عن المدرعتين بشرط أن يدفع ثمنهما، وأصدر أمره بأن لاتبارحا تولون واستدعى بحارتهما الا ما كان ضروريا لصيانتهما، وأصدر أمرا آخر الى مصانع انجلترا بالكف عن صنع البنادق التى أوصى بصنعها، ولم يتازع فى أن مندوبيه ليس لهم الحق فى أن يتصلوا مباشرة بوزراء خارجية الدول ، وأن من الواجب تقديمهم لهؤلاء الوزراء بواسطة سفراء تركيا حتى ولو كان الأمر خاصا بمفاوضات اقتصادية لاسياسية . ولكنه صرح بأن من المستحيل أن يتنازل فيما يتعلق بتقديم الميزانية للباب العالى ولا فيما يتعلق بالديون . ذلك لأن اباحة تدخل تركيا فى المالية المصرية هو العود الى ما كان منذ ثمانى عشرة سنة مضت

وكل مايستطيع القيام به فى هذا الصدد إنما هو نشر الميزانية حتى يطلع عليها الباب العالى كما تطلع عليها الدول الأخرى ، أما الديون فانها لم تكن خاضعة فى أى وقت للحصول على إذن سابق من الباب العالى ، ولقد امضى اسماعيل وثيقه آخر قرض على ظهر اليخت الخديوى فى الاستانه ذاتها دون طلب أية أجازة من السلطان، ومع ذلك فان هذا الطلب لافائدة منه مادامت مصر لاتستطيع أن تقترض قرضا جديداً قبل أربع سنوات كما هى نصوص اتفاقاتها المالية الأخيرة (هذا الرد فى أول اكتوبر سنة ١٨٦٩)

تساهل عالى باشا فيما يتعلق بالميزانية ولكنه تشدد وتصلب فيما يتعلق بالديون وأنكر على أسرة محمد على صدور فرمان يمكنهم من حكم مصر ويبيح في الوقت نفسه حق الاقتراض الذى يجوز أن تكون نتيجته عند انقراض هذه الأسرة عودة مصر إلى السلطان مثقلة بالديون (راجع خطاب بوريه وزير خارجية فرنسا فى ٥ سبتمبر سنة ١٨٦٩)

وفى هذه الدفعة قادت فرنسا وزارات الدول الأخرى للدفاع عن اسماعيل، ولقد كتب « لاتور دوفرينا » يقول : « إن فرمان سنة ١٨٦٧ ينص على أنه لما كانت ادارة مصر الداخلية بكل الصور والحالات سواء أكانت المدنية أم المالية أم كانت مصالحها المادية وغيرها، هي من المواد المعهود بها إلى الحكومة المصرية ، فأن حق الاقتراض فى حرية يستخلص فى وضوح من هذا النص ، وفي الواقع فان قرض سنة ١٨٦٨ قد عقد دون تصريح سابق ، والباب العالى لن يكسب شيئاً برجوعه فى هذا الامتياز (٧ سبتمبر سنة ١٨٦٩) ومع كل هذا فان سفير فرنسا فى الاستانه بقى يعطف على الباب العالى الذى قاوم مقاومة عظيمة ، فقد قال عالى باشا

« أنا الذى حررت فرمان سنة ١٨٦٧ ولذلك فأنى ألم بما أردنا أن ننص عليه فيه ، ولم يخطر ببالنا أبدا أن نضيف أى شيء كان إلى الحقوق التى يملكها الوالى فى المسائل الحربية والداخلية والقضائية والمالية ، وكل ما أردناه هو اعتماد هذه الامتيازات ولم يكن هناك ضرورة لفرمان جديد مادام أن معاهدة لندرا موجودة وفرمانات محمد علي معترف بها دون أن ننقضها أو نزيد عليها ، وبناء عليه فأن الخديو الذى لم يكن له حق الاقتراض قبل صدور هذا الفرمان لم يكتسب هذا الحق به » (راجع خطابى بوريه فى ٧ و ١٤ سبتمبر سنة ١٨٦٩).

ولقد عرض عالى باشا رد اسماعيل على مجلس الوزراء فرفضها بالاجماع ، ونفى السلطان أن اسماعيل عقد قرضا آخر دون إجازته، وقال أنه طلبها شفويا.

وبنفسه من متبوعه . ولما اتصل هذا الأمر بالخديو أعلن أن رعاية السلطان أغلى عنده من العالم كله ، ولكنه لن يذهب إلى الاستانة ، ولقد حاول جميع القناصل الا قنصل روسيا أن يثنوه عن عزمه ، ولكن مساعيهم جميعا ذهبت أدراج الرياح ولم يصغ لأحدهم ، ونبذ نصائحهم وهو يقول لقنصل النمسا «ماذا يكون موقفي هناك؟ إن الأمر سينتهي بعالي إلى أن يريدني على أن اصفي مركزي مع السلطان ، ولن استطيع إلا أن أخضع أمام مولاي ، لأن عادتنا لا تبيح لنا أن نعترض أقل اعتراض على رؤسائنا ، ولا تزعم أني استطيع ان أتمسك بالتزاماتي نحو رؤوس الأموال الاجنبية ، لأن السلطان والحالة هذه يبهظني باللوم على أني اجترأت على أن أدخل المصالح الأجنبية في مسألة من اختصاص سيادته ، وهنا أضطر إلى أن أضحي مصر وأضحي مصالح ليس لي حق التصرف فيها » فلاحظ القنصل احتمال أن يصدر السلطان أمراً بعزله وقد لا تستطيع الدول عندئذ أن تقول كلمة . فأجاب اسماعيل « إذن تكون الحرب ! فهل تظن أني اقبل عزلي ؟ أني أجيب على ذلك بأعلان الاستقلال . وللسيف أن يحكم » . فقال القنصل : « ألا يخشى سموكم الروح الاسلامي المتشبع به شعبكم وجيشكم وهو روح قد يحول دون امتشاق الحسام لمحاربة الرئيس الأعلى للمؤمنين ؟ » فقال اسماعيل — « هذه أساطير يقصونها عليكم أنتم معشر الاوروبيين ، في جوامع مراكش لا يصلون باسم السلطان عبد العزيز ، وأنما يصلون باسم سلطان مراكش ، وفي الجزائر يصلون لامبراطور فرنسا وسيتعود الروح الاسلامي أن يصلي في مصر باسم ملك مصر » (راجع خطاب شريتر قنصل النمسا إلى بوست وزير خارجية النمسا الرقيم ١٧ اكتوبر سنة ١٨٦٩)

لاح قطع العلاقات أمراً مقضيا ، فالخديو لم يرد بعد ذلك على خطابات الباب العالي ، والسلطان هدد بسحب فرمان سنة ١٨٦٧ ، فما كان من الخديو هنا إلا أن أعلن قوله : « قد يجوز أن أرفض دفع الجزيه »

ولقد تدخلت الوزارة الفرنسية وحاولت أن تطفىء النار التى تأججت فيما بين الفريقين المتأهبين للانقضاض على بعضهما ، ولكن سرعان ماتبخرت قطرة الماء التى ألقتها فوق الأناء فقد اقترحت أن يتخذ من سابقة القرض الاخير التى أيدها قول السلطان، قاعدة ثابتة فى مسألة القروض ، فلا يعقد أى قرض دون تصريح شفوى شبيه بالرسمى (راجع خطاب ده لاتور دوفرنيا فى ٦ نوفمبر سنة ١٨٦٩) فنازع عالى فى هذا الرأى بحجة أنه تصريح شفوى لا يمكن أن يكون الا رسميا ، فالبلاغات حتى الشفوية منها لها الصيغة الرسمية ، وصرح بأنه واقف عند الحد الأقصى من المنح وأنه يؤثر الاستقالة على أن ينصح للسلطان بأن يتخطى هذا الحد .

كانت هذه هى العقدة التى وقف عندها الخلاف ، عندما وصل إلى الاستانه أمبراطور النمسا وولى عهد ألمانيا والامبراطوره اوجينى لتحية المتبوع قبل إجابة دعوة التابع ، ولقد كانت مقابلتهم من أبهر مايكون ، ولاسيما مقابلة الأمبراطوره ، ولقد رأي الناس أمير المؤمنين لأول مرة يضع ذراعه فى ذراع سيدة علنا .

كانت الامبراطورة حاذقة ماهرة ، فلم تتناول موضوع اسماعيل ولم تذكر اسم مصر ، ولكن بوست وزير خارجية النمسا الذى رافق الأمبراطور فرنسوا جوزيف مع اندراس، لم يتورع عن انتهاز الفرصة للتدخل فى بعض الشئون حتى يكون له بعض الشأن ، فجعل عالى يعدل عن مشروع سحب فرمان سنة ١٨٦٧ ، مع أنه لم يفكر فى هذا — وأشار عليه بما هو أبسط من ذلك فى رأيه ، ألا وهو تفسير هذا الفرمان بفرمان آخر ينبىء عما يريده اسماعيل ، ورغما من أن بوست كان قد وعد بأن لا يعمل فى هذا الصدد إلا مع فرنسا ، فأنه قد أوحى وحده بهذا السلوك

ولقد رأى السفير الفرنسى فى الأستانة أن النصيحة سيئة العاقبة ، فبذل

قصارى الجهد حتى يحول دون تحقيقها ، ولكن مظهر السلطان الذى تظهر به تركيا بناء على هذا الفرمان التفسيرى قد خدع الاتراك الذين وافقوا على رأى بوست .

عامل آخر

أرأيت كيف حارب الاستعمار اسماعيل ؟ أرأيته كيف تآمر عليه فى الداخل والخارج ؟ لم يكن اسماعيل فى الوجود ، ولا كانت مصر مدينة يوم فكرت فرنسا فى احتلال مصر أيام لويس الرابع عشر وفى عهد حكومة الدير كتوار ، ولا كان اسماعيل فى الوجود ولا كانت مصر مدينة يوم تعاقدت انجلترا مع أبى الذهب زعيم المماليك على أن تكون السويس مرسى لمراكبها ، ولا يوم نزلت جنودها فى رشيد ، ولا يوم حاربت محمد على فى نوارين ، ولا يوم هددته عقب معاهدة لندرا سنة ١٨٤٠ ليذعن لارادة الدول ، ولا أيام حرب القرم ومعاهدة باريس ولا أيام مقابلة أوسبورن ، وإذن فلا وزن للقول بأن ديون اسماعيل هى السبب فى كارثة الاحتلال سنة ١٨٨٢ ، وإنما السبب الحقيقى هو حب التسلط والتحكم والاستعمار ، والخوف من رقى مصر واستعادتها سيرتها الأولى يوم قبضت بيد حديدية على مفترق طرق العالم القديم ، وشهرت سيفها البتار فى وجه كل من حاول الاستيلاء على مفتاح التجارة الشرقية .

انحدر اسماعيل من ابراهيم ، وابراهيم كما رأيت ، ولقد وصل ابراهيم الى مصر فى سن تكاد تكون سن الطفولة ، فخضعت غرائزه للطبيعة المصرية حتى رأيناه فى شبابه وقد تأصلت فيه المصرية تأصلا عميقاً وماقدمناه من شهادته للجنود المصريين أكبر دليل .

وفضلا عن هذا فقد رأينا ابراهيم الظافر فى جبال اليونان وهو ينتقل فى

تلك البلاد من قمة جبل إلى قمة جبل آخر وما انتقل من قمة مجد إلا إلى أخرى، بل إن رؤوس المجد كانت من حوله تطأطيء أمام مجده الطبيعي ، والجلال يحفد اليه في خجل يستجدي التقرب من جلاله النفسي ، ولكن خيانة معركة ناورين صدمت هذا الجلال وذياك المجد وهي تحاول تمزيقهما بعد تبييت تلك المؤامره ، وحجب سطوعها بدماء تلك الجريمة التاريخية ، دون أن تستطيع تحقيق ذلك ، الاّ أن هذا التآمر قد روعه ، وأثار نفسه واهتاجها فعاد إلى مصر حانقاً حاقداً ثائر الكرامة والشرف الحربي فتغيرت غرائز ابراهيم بهذا الظرف القاسي وتركز هذا التغيير في نفسه ، فهل الظروف التي اكتنفت ابراهيم في نهاية حرب الموره وغيرت من غرائزه كان لها في نفس اسماعيل ما كان للظروف التي أحاطت برجال الثورة الفرنسية في نفوس أبنائهم : وهل ساعدت تربية اسماعيل في طفولته على نغمات انتصارات أبيه في الشام وآسيا الصغرى على أن تنمو فيه غريزة الألبانيين وغريزة أبيه المكتسبة، حتى يحق له أن يدعى بابن الثورة ، الذي حكم فكان أبا الثورة على القديم والثورة للاستقلال والحرية وتكوين الوحدة القومية ؟

وكان اسماعيل كأبيه صحيح الجسم ، صحيح العقل تأصلت في نفسه غريزة الاستقلال والحرية وتوافرت فيه فضائل البطولة والأقدام ، والعزة والكرامة والحدة والصلابة والوطنية ، وتدفق من عبقريته ينبوع مجد طبيعي ، لا نزعة فيه من نزعات الشهوات الممقوتة ، أو دفعة من دفعات المطامع الخبيثة ، فقد كان يغزو بالسياسة والدهاء لمصر ، كما كان يغزو بجيوش مصر ونقود مصر ، لمصر ولمصر وحدها .

أما مواهب الملاحظة بالحواس الخمس فانها تسلسلت بالتوارث من ابراهيم إلى اسماعيل، فقد حذق حاسة التعمق بنظره في سبر غور الأسرار الانسانية النفسية فقد كان يلقي بنظراته على الشخصيات فاذا بهذه النظرات تترامى في اتساع وعمق

لتاخذ صورة ماارتسم على الوجه. ثم تنفذ فى غير شفقة الى الأعماق لتنقل منها صورة طبق حالة النفس.

وإذا ماانتهى الحديث خلا الى نفسه ودرس الصورتين وأصدر حكمه الذى يجعله قاعدة سياسته مع هؤلاء الشخصيات وأساس معاملته لهم. كما وقع له مع عرابى. حيث حرمه من الترقى الى رتبة أميرالاى اثنتى عشرة سنة كى لا يتمكن من قيادة أربع أورط ويقوم بتحقيق مايجيش فى صدره مما لم يشرع فى التمهيد له إلا بمجرد ترقيته لهذه الرتبة بعد عزل اسماعيل.

أما من ناحية انتقال عواطف ابراهيم الى اسماعيل فتجده فى الشعور الوطنى الذى تدفق فى أعماله الخالدة، فقد رأينا اسماعيل يعمل على استثارة همم جنوده ويحضهم على اداء الواجب وليس أدل على ذلك من البيان الذى أرسله الى الجنود المصرية فى المكسيك وبيانه المرسل الى وزير مصر فى كريد اسماعيل باشا الفريق، ليتلوه على الجيش المصرى هناك تقديرا لبسالته فى معركة ارقازى. وانشغال باله طوال حكمه بتكوين وحدة مصر الوطنية. أما ميوله الدموية الرحالة الجامحة التى كمنت فى نفسه بحكم غرائز الجنس الذى أنحدر منه فانها لم تقو على اثارة مافوقها من رماد حتى فى أدق المآزق الحرجة والظروف العصيبة التى عصفت بملكه ثم أبعدت العرش عنه بعد ان كاد التاج الامبراطورى يستقر فوق رأسه. ذلك بأن الخلق السلمى المتين الذى تخلق به منذ نعومة أظفاره والوسط الذى شب على قواعده ونواحيه فأمسى غريزة ثابتة لا تحويل له ولا تبديل، قد وقاه شر إهراق الدماء ولهذا لم يكن قط رجلا قاسيا بربريا وحشيا متجردا من الرحمة والانسانية. بل كان على جانب من الدعة والبشاشة ينسلك الحب فى قلبه. أما من ناحية العواطف والإحساسات فانه كان أكثر أمارة ونبلا من محمد على. (راجع ص ١٠٠ من كتاب مصر وأوروبا جزء أول له خاص مختلط) ولقد انتقل ذكاء ابراهيم الى اسماعيل حتى لقد أشاد به المستر

بلنت فى كتابه عندما قدر أن له ذكاء أكثر من الذكاء الطبيعى (راجع ص ٩٦ من التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر لبلنت ترجمة البلاغ)

أضف إلى هذا قوة الذاكرة التى كانت تردد مايتلى عليه بعد أزمان طويلة فقد سرد اسماعيل فى حضرة أحد الزائرين « عشرين سطرا من مستند تافه القيمة كان قد قرأه منذ عدة سنوات. فسطر الزائر هذه الأسطر. ولما عاد الى منزله وراجعها ألفاها وفق النص الذى ألقاه عليه اسماعيل مشافهة » (راجع كتاب مورلى بل « خدويون وباشاوات » ص ١٤ و ١٥)

فقانون الوراثة قد أثر فى اسماعيل تأثيراً قويا. فطبعه بطابع أبيه وطابع والدته أيضا . اذ كانت ذكية الفؤاد . تلتهب غيرة. وتذوب طموحا الى العز والسؤدد . وتسعى دائما الى اعلاء كلمتها وتنفيذ ارادتها . برعت فى أساليب الدهاء والسياسة . حتى رأيناها تتدخل فى العمل على بسط سلطان ابنها وتقوم بأكبر المهمات فى سبيل الحصول على أعظم الفرمانات على ماسيجىء بيانه

وإذا كان تأثر الجنين بغرائز الوالدين لا نزاع فيه . فأن هناك من العوامل مالها من السلطان القوى المعرقل لقانون التوارث بعد الوضع. وقد حاول « هيكيل» أن يرتب هذه المؤثرات تحت عنوان عام هو « قانون الملابسة» ورجع بهذه العوامل الى الغذاء والهضم بأوسع المعانى (راجع تاريخ الخليقة الطبيعية لهيكيل جزء ٩) .

ولهذا فأننا رأينا إبراهيم الذى تربى صغيراً فى مصر جنح إلى تقدير المصريين والعمل على النهوض بهم . . أما إسماعيل الذى ولد فى مصر وعاش فى مصر ونفى من أجل مصر حتى استشهد فى سبيل مصر . « فأنه كان خقاً أبعد عن أن يحمل لقب أجنبى ،بعدا يفوق بمراحل ، أسلافه الثلاثة فى الحكم . كما كان أعظمهم منهم نبالة وإمارة» . (راجع ص ٩٩ من كتاب مصر وأوروبا لقاض مختلط جزء أول) أضف إلى ذلك ما قرره لورنج باشا الأمريكى رئيس هيئة أركان

الحرب المصرية قبل عزله وبعده «إن اسماعيل باشا رجل رحيم القلب فى الواقع».
(راجع ص ١٠٠ من كتاب مصر وأوروبا لقاض مختلط جزء أول)

ومن الثابت أن كل هذا التطور السامى إذا رجع إلى (قانون الملابسة) لحد ما فأنه مع ذلك يرجع إلى قانون البيئة إلى حد كبير.

لقد حملت والدة اسماعيل فى فترة ما بين معركتين لا يذكر التاريخ فيهما إلا آيات المجد والبطولة، وإذا كان الحظ قد حفهما بسواد الحداد على نتيجتهما فأن الماس الأسود أندر فى الوجود وأغلى من الماس العادى المبتذل.

ولد اسماعيل وتربى فى حضن أبيه، ثم إذا هذا البطل يذهب على رأس الجيش المصرى لينازل الأقدار، ويطاحن الحظ فى فيافى روسيا وجبال آسيا الصغرى فأحرز النصر بعد النصر حتى تألقت قلادة مجده، تألق الكوكب الدرى، الذى استرده من عبد الله بن سعود بعد أن دوخه وألزمه الخضوع والطاعة.

ثم انتقل اسماعيل إلى رعاية جده محمد على، فدرج على نقرطنبور النصر وطبول الحرب والظفر، دون أن يسمع كلمة إلا عن فتوحات أبيه، أو حديثاً إلا عن مجده، حتى امتلأ قلبه بروح العزة، وفاض بدقات الحماسة، وبهرت فؤاده شموس سطعت خلال دخان المدافع فى معارك عكا وحلب والأسكندرونه وكونيا وكوتاهيا ونصيبين الخ.

ترعرع اسماعيل فى ذلك الزمن، وتشبع بمفاخر تاريخه حتى احتقر الموت واستحث الناس على الزراية به، فكان وكأنه ولد خلال الحرب ليتربى للحرب ولكنه ما تربى إلا للحرب السياسية السلمية وهى أخطر الحروبات.

ولما اشتد ساعده التحق بالمدرسة الخصوصية التى أنشأها محمد على بالقصر العينى لتربية الأمراء، فتلقى فيها الدروس الأولية واللغات، ولقد أصيب بمرض استعصى البرء منه فسافر إلى فينا للعلاج والاستشفاء وهو فى الرابعة عشرة من عمره

فى فينا

مكث فى فينا سنة ١٨٤٤ و١٨٤٥ للاستشفاء من هذا المرض . فأحاطت به ظروف جديدة إذ أخذ مترنيخ داهية السياسة يتعثر ويرتطم بصخور الشعوب الخاضعة لسلطان نفوذه . فمن جرمانيا إلى المجر إلى إيطاليا ، هبت عاصفة الوحدة ونهضت هذه الأمم العريقة تناضل عن حياتها ووجودها . وتقضى على الأكاذيب وتحطم هياكل الزيف . وتذرى فى الهواء الرماد المتراكم فوق جذواتها . وتبدد سحب الليل السياسى .

لقد كان لتلك الأمم وجود سياسى ، فحيث وجد اصطلاح جغرافى ، وحيث وجدت وحدة جغرافية كانت الأمة ، وحيث وجدت الجثة وجد الروح ، وحيث وجد الشبح وجد الملاك الاعظم ، ملاك الشعوب ، الماثل فى الحرية ذات الأجنحة العديدة ، أما القوة فلا وجود لها على الدوام ، وأما الدائم فهو المبادىء ، مبادىء العدل والحقيقة ، أما الدائم فهو الشعوب ، هو الأرواح ، هو قوة الخيال ، الدائم هو الضمير فوق الأرض ، والقدرة فى السماء ، وكلاهما يجعل من الزمن جسما حيا من هيكل الأحلام

لقد سمع اسماعيل صليل سيوف الامم ، وتدوية مدافعها ، بعد أن مهد الأوار لها بالكلمات النارية الماثلة فى الديمقراطية والحرية والاستقلال والوحدة والحياة وسمع حسيس البنيان الذى أقامه مترنيخ وهو يتشقق ويتصدع تأهبا للانهيار ، ثم رحل إلى باريس ليكمل عدة تعليمه وتربيته ، فاذا بالغليان أشد ، فهل أثر فيه هذا المشهد الرهيب ؟ وهل فرك جبهته بيديه على وتيرة أبناء قواد نابليون وهو ابن الشرق حقا ؟ وهل آن الظرف المناسب لانفجار الغريزة المكتسبة حتى يتأثر للعظمة والمجد ؟

فى باريس

وصل إسماعيل إلى باريس سنة ١٨٤٦ · وعاش فيها خلال ثلاث سنين أو يزيد.

إنه تربى إذن فى مهد الحضارة والعمران · ومصدر الثورات الفكرية والفنية والعلمية والسياسية.

إن الظروف التى أحاطت باسماعيل تتطلب إفاضة فى البيان حتى نقف على جميع العوامل التى أثرت فى نفسه. وتتجلى لنا حقيقة الرجل الذى صقل وفاق هذه البيئة. وتشرق بواعث نهضته الصادقة. فنقدر ما أداه من خدمات تقديراً صحيحاً على نور هذه البواعث. وليس لنا أن نتوسع فى هذا الصدد هنا حتى ندرك أثر قانون البيئة الذى قد يصل بقوته إلى حد العمل على مرونة الغرائز إذا لم يستطع استئصالها. إذ كل منا يذكر حالة فرنسا وأحوال دول أوروبا فى ذلك الحين مرحلة مرحلة.

شاهد اسماعيل واقع الحركات القومية، وخبره خبرة أمير، تجيش فى صدره آمال وأحلام. فهل تأثر به ؟ وهل جاءت أعماله وفاق هذا الشريط الحى الذى مر على عينيه فى باريس خلال تربيته ؟

إن قانون الوسط كان قاسيا على اسماعيل. فقد انطبع الواقع أثناء دراسته فى باريس، على لوحته النفسية مرحلة مرحلة. وإنما كان تنفيذه لجميع المراحل فى وقت واحـــد. أثر الوسط فى اسماعيل أعظم تأثير، ونمى فيه الغرائز الألبانية. غرائز الحرية والأقدام والجرأة والعظمة والكرامة. والذكاء والمهارة، ودماثة الخلق. وكون فيه سياسيا جليل القدر خطير الرأى.

لقد تكون فى اسماعيل خلق عصرى جديد، إذ انطبعت نفسه بالديمقراطية السياسية وولع ببث العلوم والفنون والآداب. ونشر النور والعرفان. وترفه

قلبه وصار إنسانا بمعنى الكلمة ، ففكرته السامية كانت إذن عقيدة سياسية خاضعة لفلسفة حديثة ، تنطوى على أن قوانين الجماعة ليست إلا نتائج لطبيعة الانسان التابعة بدورها لضرورات الطبيعة العالمية أو للمطالب القصوى التى يتطلب الوجود الأنسانى تحقيقها. فما دام الوجود الأنسانى الماثل فى وحداته كان يعمل على استقلاله وحريته بتوحيد القوميات ، فلابد لاسماعيل إذن أن يعمل على استقلال وادى النيل وحريته وتأليف وحدته ومساواته بالدول. وإسعاد أهله وتحطيم قيودهم المذلة وتغذيتهم بالعلوم والمعارف. بل وتغذية العالم باستمداد النور من أعرق المدنيات القديمة .

لقد عاد اسماعيل إلى بلاده وهو مشبع بكل ذلك قبيل وفاة والده بزمن يسير . ولما جاء دور التنفيذ رأينا ابن الثورة قد استحال إلى ثورة عمرانية قومية إنسانية فى مختلف مناحى الحياة المصرية .

فى انتظار الولاية على مصر

أتم اسماعيل دراسته فى باريس بمدرسة هيئة أركان الحرب. ثم عاد لمصر كى يستكمل علمه فى مدرسة الحياة والزمن بجانب والده الذى كان قد تولى الحكم بمناسبة مرض محمد على. ولكن المرض أنهك أبراهيم فانتقل إلى دار الخلد فى ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨ . فنالت من اسماعيل الحسرة وتولاه الجزع . ولكنه أخذ يدير شئونه الخاصة . حتى ضاعف أملاكه وأصلح بور أطيانه وأقام بها معملا تجاريا لتكرير السكر .

حكم عباس

تولى عباس ولاية مصر خلفاً لابراهيم ، وقد كان الجفاء مستحكما بين الاثنين ، ولذلك تضاعفت رزيئة اسماعيل .

وماتوفى محمد على فى سنة ١٨٤٩ حتى شجر الخلاف بين عباس وسعيد بشأن توزيع التركة .

ولما كان عباس طاغيا قاسى القلب فقد انضم الأمراء إلى سعيد ومن بينهم اسماعيل ، وقد دفعهم إلى ضم صفوف عصبتهم خشية جشع عباس الذى لا محالة مفضيا إلى ابادة التركة .

قاوم الأمراء عباس مقاومة عنيفة ، وتفاقم النزاع واشتد النفور ، وتحرج موقف الأمراء ، لاسيما وأن ارتكاب الجرائم كان أيسر الأمور على عباس ، وسوابقه فى هذا الباب عديدة ، إذ حاول قتل عمته الأميره زهره باشا المعروفة باسم نازلى هانم أرملة محمد بك الدفتردار ، تلك التى لم تنج من الموت الابعد أن تمكن خدمها وحشمها من تهريبها (راجع ص ١٣٦ فى الكلام عن الدفتردار ونازلى هانم من كتاب مدام ادوار طبعة ١٨٦٥) ولذلك لم ير الأمراء بدا من اخطار الباب العالى بشكايتهم ، والالحاح فى نصفتهم .

فسولت نفس عباس له أن يقدم على تدبير مكيدة لاسماعيل ، ولم يتأخر عن اتهامه بقتل أحد خدمه (راجع ص ٣٠ لماك كون « مصر فى عهد اسماعيل ») ولكن اسماعيل لم يعدم وسيلة فى سبيل هدم هذه التهمة الملفقة ، لما تم الأمر قرر الأمراء الرحيل عن مصر قاصدين الاستانه لعرض مظلمتهم على السلطان .

اسماعيل فى الاستانة

فاستسفر السلطان عبد العزيز المرحوم فؤاد افندى الذى صار فيما بعد فؤاد باشا الصدر الأعظم ، وجودت أفندى الذى أصبح فيما بعد جودت باشا المؤلف التاريخى الأشهر لتسوية الخلاف ، وإصلاح ذات البين ، وإعطاء كل ذى حق

حقه . ولقد نجحا فى مهمتهما . وعاد الأمراء إلى مصر إلا إسماعيل فآثر البقاء فى الاستانة اتقاء شباك قد ينصبها له عباس .

وهنا بدأ التعارف بين اسماعيل وعبد العزيز . وبدأ احتكاك اسماعيل بساسة تركيا وعظمائها وكبرائها الذين تودد اليهم وتحاب . ووثق بينه وبينهم أمتن الصلات حتى يعينوه على قضاء حوائجه إذا ما دعت الظروف إلى معونتهم . وقد أنعم عليه السلطان عبد العزيز خان برتبة الباشوية وعينه عضواً فى مجلس أحكام الدولة العلية لما ظهر عليه من مخائل النجابة وأشراط النبوغ .

ذاعت شهرة اسماعيل وهو يشغل هذه الوظيفة . وتناقل الناس أخبار مشوراته ونصائحه . وتحدثوا ببعد نظره فى حل المعضلات . ولقد مكث فى الاستانة إلى إعلان حرب القرم بين الروسيا وتركيا . ولم يعد إلى مصر الا بعد أن قتل عباس فى سرايه ببنها فى يوليو سنة ١٨٥٤

حكم سعيد

تولى سعيد الحكم . فأسند الى اسماعيل فى الحادية والعشرين من عمره رياسة مجلس الأحكام الأعلى بمصر . فعنى بأمره عناية عظمى وقطع به شوطا بعيدا فى الرقى وأدخل عليه من مستحدثات النظم ما راقه .

مهمة سياسية

وفى سنة ١٨٥٥ بعد فوز الجنود المصرية فى حرب القرم فوزا سطره لها التاريخ بمداد المجد . أوفد سعيد نصيره وساعده الأيمن إسماعيل إلى أوروبا فى مهمة سرية . لما يكشف التاريخ عن حقيقتها ، غير أن استقراء الحوادث يمهد لنا سبيل القول أن هذه المهمة كانت خاصة بطلب التوسع فى الاستقلال

المصرى . لأن الباب العالى كان قد أصدر فرمانا خول بمقتضاه سعيد حق رفع عدد الجيش المصرى ألى ٣٠ الف جندى . ولكن سعيداً اكتفى بجعل الجيش المصرى ١٢ الف مقاتل مع جعل الخدمة العسكرية سنة واحدة وقد زود سعيد اسماعيل بكتابين خاصين . أحدهما للأمبراطور نابليون الثالث والآخر للبابا بيوس التاسع (راجع راقيس « لاسماعيل باشا » ص ٣ و ماك كون « مصر فى عهد اسماعيل » ص ٢٠)

لقد أدى اسماعيل رسالته على خير وجه . فقد قيل أن نابليون الثالث بعد أن وقف من اسماعيل على أحوال مصر وتطوراتها ، وعده بالعناية بمقترحاته فى مؤتمر الصلح أذا وجد إلى توسيع نطاق الاستقلال المصرى سبيلا ، وهو الأمر الذى لم يحصل . لأن سياسة مؤتمر باريس . كانت قائمة على صيانة كيان الدولة العثمانية . وتوسيع الاستقلال المصرى مخالف لهذه النظرية من جهة ، ومغر للروسيا على الألحاح فى مطالبها من جهة أخرى ، والاستمرار فى افتئاتاتها المستمرة من جهة ثالثة .

نيابته عن سعيد

ولما سافر سعيد إلى الشام فى سنة ١٨٥٩ عهد الى اسماعيل بالنيابة عنه فى ولاية الحكم لأول مرة ، فأظهر اسماعيل دراية وحكمة فى تسيير شئون الدولة .

وعند ما قصد سعيد بلاد الحجاز فى سنة ١٨٦١ لأداء فريضة الحج . أقام اسماعيل نائباعنه للمرة الثانية . ولما عاد اغتبط من الوجه الذى أدى عليه اسماعيل واجبه اثناء غيابه ، فكافأه على ذلك بتعينه قائدا على أربعة عشر ألف عسكرى .

اسماعيل فى السودان

وفى نفس هذه السنة عصت بعض القبائل السودانية الضاربة على الحدود

وجال بخاطر سعيد أن يترك السودان وشأنه ، ولكن اسماعيل الذى تعلم أننا لو تركنا السودان ما تركنا، اسماعيل الذى تشبع بفكرة وحدة القوميات رأى الخطر كل الخطر فى تنفيذ فكرة سعيد . لا سيما وقد أصبح ولى عهد .فعارض فى اخلاء السودان ، ولذلك اسند اليه سعيد سردارية الجيش . فسافر لأداء هذه المهمة ، وتمكن بفرط دهائه وحكمته وبعد نظره من أخماد هذه الفتنة بطريقة سلمية .

وفاة سعيد

ولما توفى سعيد فى ١٧ يناير سنة ١٨٦٣ . صعد اسماعيل عرش مصر . وزينت المدينة ثلاث ليال وأقيمت الولائم والأفراح ، واستبشرت الأمة خيرا ، ووزعت والدة اسماعيل الهدايا النفيسة على أركان الدولة والعلماء والمشايخ . والصدقات على الفقراء ، وأقامت الأدعية فى المساجد أياما ، وأمرت بترميم بعض المساجد وأضرحة الأولياء من مالها الخاص . (راجع ص ١٣٨ جزء رابع من الكافى طبعة سنة ١٩٠٠) . فدلت على أنها تفهم نفسية الشعوب

صعد اسماعيل العرش وأخذ يدير دفة الأمور . والمقادير تبتسم وتتربص فبدأ حياته بمنح البلاد دستورا وجعل يتوسع فى استقلال بلاده ، ويتم وحدة النيل .

كان أثر قانون البيئة فى اسماعيل متجها فى سبيل الرقى والاستقرار والقوة ، كان فى سبيل تكوين أمبراطورية أفريقية ذات وحدة طبيعية . سلطانها ضار بالنفوذ الاستعمارى بل مؤد إلى شله بلا نزاع ، فحنق عليه الاستعمار ودس له وحبك الشباك ، وآل الأمر الى نزاع حاد بين اسماعيل من ناحية، وانجلترا وفرنسا وسائر الدول الأخرى من ناحية ، وتم للمستعمر ارضاء شهوته ، فقد عزل السلطان عبد الحميد الخديو اسماعيل ، متأثراً بمسعى وادنجتون

وزير خارجية فرنسا ، ثم تأهب لالغاء الامتيازات التى منحها لاسماعيل وحصر الوراثة فى الارشد من رجال الأسرة العلوية وفاق فرمان أول يونيه سنة ١٨٤١ ولكن الأوامر صدرت من لندرا لباريس ومن باريس للاستانة، بالعدول عن ذلك والتسليم بتعيين توفيق ، فلم يسع اسماعيل الا أن يلقى السلاح أمام المقدور ويركب البحر إلى المنفى . . .

الباب الثانى

حلقة الاتصـــال بين عهدين

الفصل الاول

عــــرض

فى ١٤ سبتمبر سنة١٨٠٧ أمضيت بين مصر وانجلترا معاهدة جلاء الانجليز عن الأراضى المصرية بعد أن طاردهم الشعب وأوسعهم تنكيلا ، ووهنا وتقتيلا

لقد استمرت مصر بعد ذلك فى سبيلها جادة فى تدعيم استقلالها حتى ظفرت بمعركة كوتاهية سنة ١٨٣٣ ، ومعركة نصيبين سنة ١٨٣٩ ، وفى خلال هاتين المعركتين وضعت الام المصرية جد هذا الجيل العامل .

كانت هذه الأم خلال هاتين المعركتين قلقة مضطربة تساورها الهواجس أن تمتد يد الحدثان إلى زوجها فتذهب به مع دخان المدافع وبريق السيوف فى جو المجهول بسوريا أو أسيا الصغرى أو السودان أو على سواحل الخليج الفارسى حيث رفرف العلم المصرى لتطل المدنية المصرية القديمة على المحيط الهادى من خلال طياته

وكان الوالد يأتى إلى داره باجازة من الحظ تؤمنه على حياته حتى يصل إلى بر السلامة كى يعانق زوجه ويرفع ابنه بين يديه ، ثم يضمه إلى صدره المحترق،

ويطبع على جبهته قبلة حارة تضاعف حيويته ونماءه كما تضاعف الأمل في الحياة السعيدة، ثم يستودعه مهده فى وداعة ولين ورفق بينما عبرة تطل ثم تتألق وتنحدر على وجنة الأب وتسقط على وجه الطفل كرذاذ الندى ينعش الزهرة المرتجفة الذابلة ثم يولى وجهه شطر قرص المجد لايدرى الا أن لكل أجل كتابا ، وان لكل ذهاب ايابا ، ومايمن الحرص أن هو عصم الأنسان عن أن يتدرج ثوب الفناء فوق سرير العظمة وتحت شمس المجد، ان لم يكن إذلال الأعناق وابهاظ الكواهل باحمال العبودية والأرهاق ؟

جاء هذا المجد عصبيا ، نحيلا ، قوى الأرادة ، نزاعا إلى الصولة والسلطان ثم ترعرع واشتد على نغمات الموسيقى تعزف أناشيد الحرية والاستقلال، أو على صرير الأقلام ، يترجم عن إلياذة المجد المصرى .

وعظمة النيل يندفع ويتدفق فى غير حاجة الى حواجز أو عوائق أو خزانات الا ما أقامته يد الطبيعة من جنادل وشلالات.

وهل من تعارض بين الحرية والنيل ؟

ان كليهما لايدر الخصب الا بفيضانه ، وهذا وجه الشبه الذى لا تنتقص قدره أقوال الخراصين ولا اراجيف المبطلين .

وبينما هذا المجد يقتبس من وحدة الله وحدة مصر ، وينتزع مع المنتزعين استقلال وادى النيل وحريته ، ورقة ورقة من « الخرشوفه » بثمن قوامه الدماء تسيل على نهر الطونة وفى جزيرة كريد ، وفى الرومللى ، والسودان، ولد الوالد فكان سرابيه .

وكانت آمال هذا الوالد سربا من العصافير الزهر ، تحلق فى السماء ، لتهدى روعة الفجر تحية يحملها اليها رفيف اجنحتها المتألقة ، وهناك فى العلياء ، كان يسمع تغريدها المتواصل ينساب من ينبوع الغبطة ، وكان هذا السرب قد انتشر بعد أن احتسى كأسا دهاقا من ذهب الأشعة الشمسية المرتجفة ، وفى

الحق أنها كانت تغرد فى عذوبة ساحرة . لتطرب طلعة النهار المتوهجة ، حتى يفرد الحماس العام جناحيه متأثرا باندفاع الهواء أمام هذا السرب الطروب ، ويتدفق الحبور على الجوانب اذا ماسطعت ربة الاعاجيب .

كان اسماعيل يعيش وحده فى وادى النيل ، وربما يكون قد أراد أن يعيش وحده فى افريقيا ليبنى مجداً صحيحا يعرف كيف يحتفظ بحرارته داخل بوتقته الطبيعية ، وأن لا يتسع حتى لا ينفذ سلطانه الى ماوراء سيناء فيتحطم هيكله كما تحطم فى كل مرة حاول فيها ذلك كل من سبقوا اسماعيل فى ملك مصر .

لقد عاش اسماعيل للمجد ، وعاش سائر الخلائق فى كنف هذا المجد ، أو على هامشه ؛ ولما زال عروا وسقطوا .

وكان المصريون يقدمون سنويا لاسماعيل فدية هذا الأمل الوهاج ، عشرات الالوف من الجند ، وعشرات الملايين من الجنيهات .

ولم يستطع اسماعيل ان يستأخر حظه أو يستبق جده . فقد لازمه كالظل . وهذه الجيوش الجرارة التى اقتادها قيصر مصر لاتمام نعمة الوحدة القومية . وهذه العشرات من ملايين الجنيهات التى انفقت فى شراء الفرمانات ، واستعطاف الخصوم والاعــــداء ، واستنفار المحاسيب والأولياء ، لم تقو على وقف تيار الدسائس ، وصد هجوم المطامع الدولية . بل قد تكون قد عبدت الطريق لغروب الشمس خلف صخرة نائية على مقربة من نابولى ، ومهدت لاحتلال مصر فى سنة ١٨٨٢ اذ عمى الأنسان عن المطامع الدولية الصاخبة منذ الأزل

ولاتزال أفواه الاباء والأجداد فياضة بالأحاديث المستملحة ، والأقاصيص الطريفة عن عهد اسماعيل .

لقد تواتر أنهم لم يسمعوا عن ليال طار فيها النوم من العيون مثلما وقع فى عهد اسماعيل ، ولم ينبئهم خبير ان أمهات سادهن الحزن على بعولتهن وأولادهن قدر ماساد الأمهات فى عهد اسماعيل . ولم يطرق آذانهم ان سكونا خيم على مصر

كما خيم فى عهد اسماعيل عندما كان الناس لا يجرؤون على أن يتهامسوا بصدد الموت ، أو يؤمنوا بشأن قحط أو أوبئة أو آفات سماوية أو تحاريق نيلية

ومع ذلك فانهم يقولون إنه لم يسبق لعهد من العهود أن جارى عهد اسماعيل فى عزه وحياته وأفراحه وملاذه ومرحه وبذخه .

لقد سطعت شمس اسماعيل فى وادى النيل سطوعا قويا كى تجفف الدماء التى أريقت ، وتذيب الذهب الذى اقترضه لاصطناع لحامات الوحدة القومية ، فجعلت الدسائس الدولية هذا الذهب حلية تنبعث منها أشعة مجد واهنة تزول بزوال الشبح ، وتتوارى بانطواء الخيال ، بل اصفاداً واغلالا ، لازلنا نرسف فيها

ولكن النفس الراضية المطمئنة لاتزال عامرة بالعرفان بالجميل ، مقدرة سطوة القوى الدساس الذى سخر عبقرية الختل والنفاق فى عرقلة الأعمال القومية . وأضاع الجهود الكبرى بذلت لانقاذ عبقرية المدنية المصرية .

كان الأب يستنشق هذا الهواء الطاق الذى حاكى المرآة ينعكس عليها سطوع المجد ، ويتألق فوق سطحها بريق السيوف ، واذا هو قد شابهُ شيء فانما ثياب شف نهنه ، يخلعها دخان المدافع على هذا الجو المنير

لقد كان الوالد واثقا بأنه مردود إلى المجزرة القومية حيث المئزر القرمزى الدافىء ، مئزر المجد ولكنه كان يعلم أن والده ومن قبله الجد ، قد مرا بها ، باذن الله معصومين ، دون أن تصيب القنابل والطعنات منهما مقتلا .

ولم يشغل الوالد نفسه بالتفكير فى هذا الامر . وهل الموت إلا حياة أسعد من حياة الشقاء ؟ ألا إنه عيشة أهنأ من عيشة البؤس وسط أوباء الأحياء ! ما أجمل الموت وما أعظمه ! وما أجله فى حلته القرمزية الدافئة . انه فى ميدان المجد كالأمل تماما ، دائم الشباب وسط الشباب ، لايحصد بمنجله غير أشد السنابل اخضرارا ، وألينها عودا ، أما الشيخوخة فلا يعرفها الموت فى هذا الميدان وان عرفها تخطاها وتجاهلها ، حيث لايشرفه قراعها ونزالها .

ولكن الوالد لم يطل التفكير فى هذا المصير، إذ أدركه ارتباك الأحوال، فاشتعلت الثورة العرابية وفرت شمس الآمال الحلوة إلى المغيب .

ارتدى الوادى ثوب الحداد، واختلط الحزن بعصير نباته، وشاب الوجوم دم الحيوان، ومازج الوجد دم الانسان، وبهت وجه الجماد من الفزع، وشحب لونه من الهول، وسكبت الريح فى هذا الحزن العام قشعريرة بعثها اليأس الخفى، كما سكبت عليه جزعة فاضت بها الخيبة .

فى هذا الميدان نبتت أزاهير جديدة .

شب جيلنا حيث الموسيقى تطرز فوق السكون العميق تاريخ نغمها الحزين، والليل القاسى القلب ينتزع من أعماق نفسه آخر اثارة للرحمة، ليقف مصغياً إلى جوقة الأصوات المتباينة .

لقد اختص هذا الليل الأليم بسيادة فذة، هى سيادة عالم من الأعاجيب لاحصر لها، وجعل يستذل الأزاهير، ويجنح بها نحو مصير كمد، وهى تعالج أن تملص من يديه، فراراً من أن يمزج آلامها بمتاعب الوجود .

وبلغت قشعريرة هذا العالم الأرضى العالم السماوى، فجعل القمر يشهد عناء الانسانية وشقاءها، وعلى وجهه شحوب لاتتميز به إلا وجوه عظيمة حانقة تستأنس بوحدتها .

ولعمرك إنه كان يأسا مزدوجا، ذلك الذى شمل الطبيعة، وطوى الانسان فجعل محيط هذا الجمود كالحلم تراه فى مناسبته الاليمة يمثل دوره ويشهده، دون حاجته إلى نظارة تحييه، أو تهتف له وتصفق .

وفى هذا الخراب الأليل أخذت العيون تبكى وتلعن لعبة الساعة، وشهوة الساعة ! وجعلت الهموم تسرح الطرف فلا تلتقى إلا بعيون الكواكب تجردت من قوة الانفعال والتأثر أمام الكوارث، وتربصت بأعدائها الدوائر لترسل عليهم شواظا من نيازكها، وتثأر لنفسها، وتسترد الحق بقوة إرادتها ..

وعند ئذ صعد فوق الأطلال شباب محموم حزين تحطمت فى أعماقه أمنيات كبيرة ، وتكسرت فى هذه الأعماق آمال كانت تستقيم وتستطيل بعيداً بعيداً ، وتسطع حثيثاً حثيثاً .

إنه شباب الصدمات !

لقد صبت فى الأرحام نقطة حارة من دم الصدمة الكبرى فجاءت بهؤلاء الأبناء المتوترى الأعصاب .

إنهم جميعاً أبناء الغل ولكنه غل يتفاوت تبعاً لعظمة النفوس أو سقوطها الموروثين قبيل الارتجاج الذى طرأ على المصرية عقب الكارثة الكبرى ؟!

وأية كارثة أكبر من خزى التل الكبير لا معركته ؟!

التل الكبير

التل الكبير ! إنها صلة الرحم بين الجريمة والمطامع الخاصة ، إنها الرابطة بين تاريخ مصر الحديث والعار، خطته الشهوات الدنيئة ، إنها ريشة الفنان القذر يلون بها موهبة الاقدام والجرأة والبسالة ، ويثلم بها ناصية الكرامة والشرف ، وهو يظن أنه يجملها وما يجملها ، وإنما باوشحة الجبن والنذالة يمتص دمها امتصاص العلق ويريق ماء حياتها. إن كل شيء يقوم فى أعماق هذا الاسم البشع الذى اشتق من موتين : موت أدبى وآخر مادى . فلنسدل إذن على هذا الاسم حجبا كثيفة من الأعمال الصالحة . حتى لا نراه ولا نذكره .

فى هذه البقعة الكريهة المروعة ، فى هذه الناحية الجرداء علاها بعض الكثبان وقف الجمعان

لقد كانا غابتين من بنى الانسان ، عدتهما الرؤوس ، والأذرع ، والايدى، والسيوف ، والمدافع والخيل والبغال والجمال والحمير قبل كل شيء ، ومن فوقها الفزع يرفرف والموت ينشر أكفانه .

ولكن إحدى الغابتين كانت حية تتحرك وتتنفس وتحس. أما الأخرى، فقد تحجرت فمكنت الأولى من أن تجتازها فى سلام وأمان.

إذن !ماذا كان ذلك الضجيج والعجيج والصخب إذا لم تكن الملاحم دارت، ونار الحرب استعرت، والعيون فى الرؤوس استدارت، والألباب طارت، فتدافعت الأمواج البشرية ،لتدارك فى الهاوية، بعد أن ارتفع التهليل والتكبير، وتجاوب النقع وترددت الهيعة تعقبها الواعية، فى انتظار النقير وانطلاق البشير، بالنفير؟ ماذا كان كل ذلك إذا لم تكن السيوف قد أبرقت وصلصلت، والرؤوس تطايرت، ودوت المدافع وقنابلها فرقعت، فالآجال حصدت، والأرض فجرت .. وبالدماء سجرت، حتى ثملت منها الرماح فى النحور، وتكسرت فى الصدور، واترعت بالاشلاء القبور، وازعج الحشرات الهدىد، واستفزها بريق الحديد، واستحثتها الحشرجة إلى أن تفغر فاها، وتنهش الجثث بعد لقياها؟ إنها كانت صيحة عرابى «أريد أن أعيش على الاطلال».

قال عرابى هذه الكلمة، فكانت كلمة الهاوية. إنها كانت القاضية.

هنا قضت هذه الكلمة على المجد فتبخر، هنا سطت هذه الكلمة على السطوع فأطفأته، وانقضت على السحر فأردته، هنا محت هذه الكلمة من التاريخ القديم، والحديث معارك المصرى فى سبيل الفخار والسمو، وفرضت على تحتمس ورمسيس وصلاح الدين وابراهيم أن يلقوا السلاح، إطاعة لأمر أصدره طماع سفاح، أضاع أمة وسلم فى الشرف والكرامة والوطن، فدية حياته!!

وكان اليوم الثانى لهذه النكبة هو يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ حيث دخل الانجليز القاهرة.

الجيل السابق

ولقد أبى هؤلاء الأزاهير إلا أن يحيوا موات القلوب فجمعوا بين الذكريين،

حتى يثيروا كامن الفضائل ، فتسطع وتنير السبيل أمام البائسين .

كان أول من فكر فى هذه الذكرى مصطفى كامل وفريد وصحبهما . هؤلاء الأفذاذ الذين كانوا فى ساعة الصحو سربا من الشهب تتغذى بنورها الأزهار وتنضج على حرارتها الثمار ، وتتولد النظرات الصائبة الواضحة تحت مفعول أشعتها .

لقد كانوا يطلعون على الامة فى كل صباح ، وكأنهم انحدروا من الشمس ، ونفذوا على أجنحة الهواء خلال روعة الأبخرة الساحرة بتألقها . فتنتعش باشراقهم الحياة ، وتبتسم أمام انتفاضتهم لتسرى كهرباؤهم ، فتستنهض الهمم ، وهزتهم فتشحذ العزمات ، واشعتهم فتقيل من العثرات ، وتسدد الخطوات ، بينما النية الخالصة تسبقهم ، والطوية الصافية تتقدمهم ، وبريقها يعلن مقدم حماة الحق يجردون سيوف الحقيقة .

أما فى الايام المطيرة فكانوا فى جهادهم المحتل ، يحاكون البحر والصخرة . فاذا أنت رأيتهم ، كنت وكأنك ترقب الأمواج الجامحة المعتدية تداعب الصخرة ، بينما البحر يتنكر لها ، ويتفل فى وجهها ، فلا ينال لعابه المتدفق على جسدها إلا أن يغسلها ، ليلمع لونها ، وهى شامخة بأنفها ، جامدة فى مكانها ، صامدة للأهوال . لا تتزعزع ، ولا تجزع بحال ، صامتة ، لا تلعن ولا تتأوه ، ساكنة لا تتحرك ، ولا تتأهب للانتقام ولا تتغير ولا تتبدل . فأف لهولها القاسى ، ويالروعة سكونها المفجع . ويالجلال زرايتها بالعدوان الغشوم الزائل . ويالهيبة عرقها المتصبب على مشهد من جريمة البحر وقد استحالت للناس هاديا ومرشدا . وهكذا ترى لوحة جاءت رمزاً للتضحية وثبات الضحية .

وأما فى اليوم المطير العاصف ، فان الحال غير الحال ، إذ لابد لك - لترى حقيقتهم - أن تبتعد عن الشاطىء ثم تبتعد ، وتقترب من وسط البحر ثم تقترب ، بينا السماء تصحو والجو يصفو ، فتلمح أولا نوعا من الدخان الأشهب يتصاعد من الخضم ، كعامود من الرماد زانته أشعة الشمس ، ثم إذا بك لا

تلبث أن ترى السحابة ، اظلمت وتجلت معالمها تحت وضاحة النهار ، فكانت لوحة تمثل غضب الحليم على المعتدى الأثيم ، إلى جانب اللوحة الأولى .

ولكن الدخان لم يكن فى الواقع سحابة ، وانما كان جزيرة سطت عليها الأمواج الملتطمة ، فعلتها ، وكأنها اكتسحت قممها ، ولكن هذه القمم جعلت تنتأ رويدا رويدا ، وتهم شيئا فشيئا ، وباتت فى النهاية كثيبة حزينة وقد تمنطقت حزاما من الزبد المكفهر الأغبر ، وكأنه حزام النجاة . ثم اشرأبت اعناق الجبال، وظهر ما علاها من رؤوس بركانية ضخمة ، أطلت على البحر ، عدوها الذى أغار على قواعدها ، وامتدت أسنة رماحه متطاولة على هاماتها .

ثم انسحب البحر متهدل الضفائر ، مخبولا ، يحدوه الفشل ، مهرولا فى خطوات سريعة خلال الثغرات التى لاحت فى جسم الصخرة كالوشم الطبيعى، وما هى إلا مسالك عَبَّدتها فرقة المهندسين تؤدى واجبها الحربى فى ذمة وشرف واخلاص لجيش جرار ، عاد فاستأنف الزحف فى وحشية وشراهة وصلف .

وكانت الحقيقة أن الأمطار قد انهمرت من سحابة اختلطت بها أشعة الشمس فغسلت هذه الصخور البركانية التى علا وجهها نقاب من الزبد ، أما منزلقاتها الشاسعة وأجنحتها التى ذاب لحمها ،وبان عظمها. وفى طياته حمم البراكين،مضافة إلى القمم الجرداء التى طلتها الأمطار بلون براق ، فكانت لوحة لها جلالها الوحشى البليذ .

ولولا أن الطبيعة قد أقدمت فحاولت تحريك حق استردادها، بأن حملت فى قسوة متناهية على البحر فأصلته وابلا حاميا من مقذوفاتها الجهنمية ومهلها المستعر الذى جرى جرىَ الدماء سالت واختلطت بالاوحال فى معمعان القتال .

ولولا أن الرماد قد استحال سمادا مخصبا قتالا للجراثيم لبقيت اللوحة عقيمة عارية عن جلال الجهاد والبطولة والخصب .

هذا البركان كان رمز مصطفى كامل وفريد وجاويش والشيمى والرافعى

ومنصور رفعت واحمد وجدى واحمد فؤاد واسماعيل لبيب والصوفانى من الأموات، واخوانهم من الأحياء فى أيام العاصفة .

أما الصخرة فكانت رمزهم فى الأيام المطيرة ، ولا غرابة فى ذلك لجميعهم ابناء النيـــل الذين تأملوا أبا الهول طويلا وخبروه وهو يقوم على حراسة الخرائب الاثرية الضخمة التى انتشرت فوق الرمال الذهبية المحترقة وفاضت جلالا ووهجا رغم عاهاتها المستديمة ، بينما الزمان القهار ذو الرسالات الغامضة حائر أمام ابتساماته الساخرة ، عاجز عن تبديل تلك السحنة المخيفة المتعالية خلال الليل البهيم وتحت التألق السماوى الشاحب كأنها رأس الشاهد المزعج على مرور الأجيال وغرائب الحقب .

نعم : إن هؤلاء الابطال الأطهار قد رأوا أبا الهول جاثما فى بقاع مصر حول الاسوار ، سابحا سارحا تحت القبة الزرقاء ، والدهر يحمل عليه ويهاجمه ولا زعزعة تنتاب سلطانه ، أو زلزلة تهز أركانه ، أو نوازل تصدع بنيانه ، فتحمله على أن يطأطىء هامته الشماء ، أو يخرج عن أقطار تفكيره وخطره وصمته أو تفارقه ابتساماته الضالة البعيدة الغور ، المكتومة للآمال الجياشة فى صدره الجرانيتى ، حتى لقد حار الدهر خلال العصور دون أن يعرف كيف يترسم اتجاه بصره الذى لاحد له ، واخذ يناجى نفسه : هل أبو الهول يسائل السماء أم يستقرىء الغبراء ، أم يستوحى الوادى الخصيب ، أم يستمد النور من الانجم الزهراء ، أم يستلهم المستقبل الصامت ، أم يسائل الماضى الدفين ؟ أى منظر تجمع فى عينه الشاذة ؟ إن كل ماوصل اليه العلم هو أن أبا الهول من صنع الانسان .

أبو الهول الثابت أمام كوارث الدهر حدث من صنع الانسان !! إذن يجب أن يكون مصطفى وصحبه وتلاميذه أصلب عودا مما صنعه آباؤهم واجدادهم

يجب أن يكونوا الصخرة تارة وجبل النار أخرى ، يجب أن يكونوا الطبيعة فى الحياة ، وفى الممات أيضا .

لقد رأى مصطفى وصحبه وتلاميذه أن يقيموا على الخلود غير ناسين أن للزمن آيات الافناء والحصانة ، وآيات العبث والصيانة ، يضربها للناس معجزة على قدرته ، وسلطانا على منته ، وبرهانا على حكمته ، حتى نعتبر فنلزم حداً لا يعدو العبرة بما فات ، فلا نقبل على ماهو آت حتى نمكن لقدمنا ، فلا ننقلها الا لمكان أمين ، لها فيه الحصن المكين ، فكم من عوالم غارت فى احشاء الزمن وجهلنا أسباب غرقها ، وكم من مدائن ارتطمت بصخوره وتحطمت ثم ابتلعتها هاويات الاعمار .

ان كل شىء فى قاع الزمن ظلام ، وكل شىء فى الوجود يتداعى وينهار ويذوب فى غور هذا الخضم العميق ، فالزمن جرثومة الجراثيم ، انه المصدر وإليه المآب والمرجع ، فسحبه الضالة تبطن خفايا العالم ، وتنتزع أسراره ، وتحملها على أجنحتها ثم تنثرها بذوراً صالحة للانبات والحياة والازدهار فالحصاد والفناء .

ان فى فم الزمن انفاس الحياة والحب والرحمة والرقى ، وفيه زفرات السقوط والبغضاء والموت ففى كل يوم يخرج النوع الأنسانى من طيات الزمن المظلمة ، فينفرج الكون أمامه فسيحاً فسيحاً ، ثم تدفعه المصادفات كما تحفز الرياح السحاب ، ولكم ضلت السحب فى السماء وعلى مرآى الشمس ، حتى لتراها بين آونة وأخرى تصعد من برج الى برج ، ثم تنحدر وتتدحرج بين زعزعة وهدوء فهنيهة تتمتع بحرارة الشمس ، وجلال نورها ، وأخرى تستثيرها الأعاصير ، ثم اذا بها تجتلى روعة القمر . وكل ذلك لحظة متاع ولذاذة ، تمل بعدها النعيم ، ويتكل قلبها من فرط الرفاهه ، فتجنح الى السكون والراحة بافراغ ماء حياتها ، وزوال أثر جمالها وروائها ..

لقد عرفت السحب مختلف فصول السنة وانتهى بها المطاف الى طلب الراحة بعد أن تذوقت الايام الذهبية والساعات المزدهرة الندية ، وتمتعت بالوضاحة والنور، والسعة والحبور ، وتأرجحت على غارب الزوابع والاعاصير ، ولما أدركت غايتها السامية وأخلدت إلى النوم السرمدى ، استحالت قطرة ماء تجردت من الفكرة . وسقطت فى اليم فساقها أمامه ودحرجها وداعبها فى غير اكتراث ولا عناية بمصيرها . وهى لا تحس ولا تشعر من فرط ما أدركته من المتعة والألم . فكم ضحكت وكم عذبت حتى تحجرت حواسها ، وفقدت خواصها ، وهذا معنى الحياة ونهايتها ، ومعنى الوجود الذى نرجو مهادنته أملا فى الاطمئنان إلى حقيقة الزوال والموت المطلق من قيد العودة إلى عالم كنود . »

نعم ! لقد رأى مصطفى وصحبه هذا الرأى فى الحياة والوجود ولذلك أعدوا لأنفسهم عدة الخلود . فكانوا الطبيعة في الحياة والطبيعة فى المات . وفى الحقيقة أنهم بقوا فى المات ، تلك الشهب التى عرفناها وضاءة فى الحياة ، ناشرة الدفء فى الأعماق ، والحماسة والغيرة فى الصدق . فهل لا تتجلى السماوات أمامك فى صورة البحر ، لها خطرها وهيبتها ؟ فكم من سفينة انسانية أحاطتها السماء بلجتها وابرزتها زبدا لامعا ساطعا ، وانتظمتها كواكب متألقة الأنوار !!

أفهل رأيت فى السمت ذلك النجم السابح خلال تموجات الاثير المترامى الأطراف ؟ وهل لم ينبئك جوّاب كريم ، ورائد عظيم ، ان هذا المحيط الفضى ليس إلا نعشا حزينا قاتما ؟ نعم ! ان هذه الكواكب نعوش فضية تحمل بين جنباتها رجالا قادوا فى الغابرين قطعانا من الانسانية ، ابتسمت لها الحياة يوم كان هؤلاء الرعاة يبذرون الخصب ، ويغرسون الفكرة السامية . فاذا هم اختفوا اليوم عن العيون العادية ، فان الملاحين الماردين يرون تألقهم فى نهاية الأفق فيذكرون الوضاحة ويفكرون فى الجلال

إن سيرة هؤلاء الأبطال وفلسفتهم التى اقتبست من جهاد أبطال الجلاء فى

سنة ١٩٠٧ هى سيرة مصر الوطنية ، وفلسفة مصر القومية .

مصر الوطنية

رأى شهداء الحركة القومية الحديثة بناء على تقاليد الحركة الوطنية التى نشطت من سنة ١٨٩٨ إلى سنة ١٩٠٧ أن الجلاء هو كمال النجاح وتمامه ، فوضعوا برنامجهم على قاعدة الجلاء ، وصاحوا فى كل ١٤ سبتمبر مطالبين بالجلاء

احتلت انجلترا مصر فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، فرأى الشهداء أن كل شىء فى العالم قد تغير من الناحية الطبيعية ، ولذلك فلا مناص من أن يتغير كل شىء فى الناحية الأدبية والسياسية . وإذا كان قد تم حتى أيامهم نصف تطور العالم فما لا جدال فيه أن يتم النصف الآخر ولو بطريق العدوى .

إن عقل الانسان ليشبه دائما العالم الذى يسكنه . فنصفه مطمور فى الظلام ، والنصف الآخر مغمور بالنور ، ولقد قطعت الشعوب المستنيرة مراحل مدهشة ، وأشواطا بعيدة فى ميدان الفنون والعلوم ، ولكنها لا تزال بعيدة من أن تعرف مبادىء الآداب العامة ، والواجبات الانسانية . انها تعلم كل شىء إلا حقوق الغير وواجباتها نحو الغير . فما السبب فى هذا الخلط بين العبقرية وبلادة الطبع؟ السبب فى ذلك يرجع إلى أن اتقان الفنون والعلوم يعوزه مسايرة الشهوة والعمل وفاقها . وهذا أمر سهل ميسور لكل انسان . أما معرفة حقوق الغير واحترامها ، أداء للواجب نحو الغير ، فأمر يستدعى مغالبة الشهوة وقهرها واخضاعها وصعوبة هذا الأمر جلية ، وعورته واضحة .

على أن لهذا الخلط العجيب سببا آخر ، هو أن الساسة لا يخشون المشرعين والمهندسين والشعراء والفنانين والمدرسين والزراع والتجار قدر ما يخشون الفلاسفة الذين لا تلين لهم عريكة ، وحماة الانسانية الذين لا تفل لهم عزيمة . ومع ذلك فأن النوع البشرى يقف موقفا شاذا لا يمكن أن يطول أمده . فالعقل

الانسانى يضرب بخطوات بطيئة فى مسالك متعرجة متشعبة . ولكنها آمنة ، قصد إلى زعزعة كيان المستعمرين المستبدين ودك حصنهم دك أعزة قادرين ، فالعبقرية تهد النظم الاستعمارية

بينما تلوح أنها تحابيها وتداعبها وتجاريها. وإذا كان فى الوجود سلاح يدافع عن هذه النظم الاستعمارية ويحميها فليس ذلك إلا فى العادات والأوهام والأرهاب ، وفى تحالف المستغلين والمستعمرين وأنصارهم الذين يروعون الضعفاء ويلقون إلى خلدهم الفزع من سلطان التطور ورفع النير عن الكواهل التى ناءت به . ولقد سار الشعب المصرى أيام الحملة الفرنسية على مصر فى سنة ١٧٩٩ جنبا إلى جنب مع رجال الثورة الفرنسية الكبرى بحكم تضامن الأحساس البشرى الخفى نحو الظلم ، وكراهية الاستبداد ، والعمل على الخلاص من الطغاة . ألا رأيت إلى مصر عندما نزلت بها حملة بونابرت بأمر من حكومة الدير كتوار ؟ فقد كانت البلاد من الاسكندرية إلى أسوان شعلة لا تحاكيها غير شعلة سنة ١٩١٩ . وإن قلت هذه عن تلك خصبا وتضاءلت ثمرة ، وذلك بينما كانت أوروبا تركع وتسجد أمام ظل الظلمة الذين أنزلنا بهم النكال فى مصر وبوءناهم مساكن الذين ظلموا أنفسهم فى بلادهم بعد إذ عبس لهم الحظ وبسر ، فكانت أمتنا فى ذلك الحين وكأنها قد سبقت العالم المتمدن فى سبيل الحرية .

لقد كان المزارع والعامل فى أوروبا إلى حين الثورة الفرنسية حيوانا خلق لملاذ النبلاء .

أما فى مصر فأن الطبيعة قد قضت على النبلاء منذ آلاف السنين بأن يستحيلوا زراعا وصناعا يستفلحون الارض ويروون الحرث ويحصدون الزرع . ويصطنعون الثمرة ، فنالوا فى كنف السلام هذا الشرف العظيم الذى لم يدركه النبيل الأوروبى إلا باهراق الدماء .

وبينما كانت أوروبا لا تدرى من الحياة إلا حياة الأقطاع والعبودية ثم

الملوكيات المستبدة ، دون رغبة تدفعها إلى تعرف ما يغاير ذلك ، كانت مصر لا تطيق صبرا على وال ينتدبه الباب العالى ، ولا تحتمل ملوكا يتمتع بالولاية عليها . .

وبينما كانت أوربا تسرف فى هدر دمها لتوثيق عرى الأغلال الانسانية ، وتدعيم صروح الظلم فوق هام البشرية ، كانت مصر تحطم هذه الاغلال ، وتأتى على هذا الروح من أساسه وقد قاد هذا الروح نفسه قائد فرنسا بونابرت .

وبينما كانت أوروبا تعلن العالم بصحة عواهلها وتحيطه خبرا بملاهيهم وملاذهم وولائمهم وأسفارهم وسياحاتهم حتى يكون الخلف على بينة من الساعة التى تناولوا فيها الطعام فطورا أو غداء أو عشاء ويتأكد من اللحظة التى عادوا فيها من الصلاة أو الملهى أو الوليمة . ويحاط علما أيضا بتلك البقعة من الأرض التى تشرفت بوطء أقدامهم الجليلة ، ويعلم من هم هؤلاء العبيد الممتازين بعبوديتهم وذلتهم ، الذين حظوا بطلعة سادتهم أو تشرفوا بنظرتهم عند شروق الشمس ومغيبها .

بينما كل ذلك كان يجرى فى أوروبا . كنت ترى الجبار بونابرت يتملق المصريين فيلاطف الشرقاوى والسادات والبكرى وغيرهم وغيرهم . كما كنت ترى الشيخ العدوى فيما بعد يصارح أمير المؤمنين السلطان عبد العزيز بحقيقة الحال فى غير وجل ولا رهبة من خليفة الله فى أرضه ، شأن البدوى العربى الذى قال لعمر ابن الخطاب ، والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيوف ياعمر .

لقد علم المصريون الذين بايعوا محمد على واليا عليهم ، لقد علم هؤلاء أوروبا الخاضعة أمام نابليون أسماء الأبطال الذين جاهدوا والفضائل التى غالبت الذل فغلبته ، واستظهرت على الاستعباد ، ورفعوا بها رايات الحرية خفاقة على سارية ، لاحت وكأنها سارية اللاسلكى تبعث من المرسل تموجات تحمل الى

العالم سر الخلاص ومعنى النهوض ، وتذيع فى الخافقين الوسيلة التى استخدمها أبناء الفراعنة والعرب فى ارغام المستبدين على ان يعضوا بالنواجذ عبثا على طمى النيل وأمواجه حتى عادوا فى النهاية أدراجهم شاكرين العناية على نجاتهم حامدين للحظ صيانة أعمارهم

مناجاة الشهداء

خلقت الطينة المصرية الجذابة التى خصتها الطبيعة بلطفها ومزاحها ودلالها ورقتها لتكون مباءة للهناءة والسعادة، ومرتعا للمرح والحرية. فهذا الشعب الذى فطره الله من هذه الطينة الوادعة المرحة الحرة الحساسة وخصه بالشمم والكبرياء قد ولد للحرية والاستقلال والمجد والفضيلة . وغريزة كهذه هى التى دفعت شهداءنا إلى أن يناجوا أمتهم دواما بالأناشيد العذبة ، والأغانى المطربة الأخاذة تسمعها فتحلق فى طهر ، بعيدا ثم بعيدا عن حمأة الشهوات والمصالح الخاصة المرذولة الوضيعة .

ولو كان هؤلاء الشهداء أجانب عن مصر — ولو أن المصير لم يربطهم بالوطن الأعز رباطاً محكم الوثاق لما تأخروا أمام وداعة هذا الشعب ورقة شعوره وجميل عواطفه عن أن يضرعوا إلى الله أن يزيده رفاهة وخصبا ولذرفوا الدمع مدرارا حنوا وشفقة وحسرة على سيرة معاركه ، ونقض فضائله ، ولتتبعوا بأنفسهم حركات ثورته المجيدة جميعاً ، فى قلق المحموم من فرط اليقظة والانتباه . أما وهم مصريون ينتسبون إلى هذا الشعب الجميل بوشيجة اللحم والدم فما كان لهم مناص من أن يهبوا مصر حياتهم وأموالهم وجهودهم وكل ما يملكون فداء له وأن يهيبوا به ! أيها الشعب السامى الجليل : تقبل منا تضحيتنا : الصحة والجسم والفن والمكسب والحياة ذخراً لنا فى الآخرة ، وشفيعاً عن استبقاء نسيج دافعنا به عن حقك ونقش تردد فى الصدور

بمجاهدة أعدائك ، اسعد بمن ولدوا فى أحضانك ، ثم اسعد واسعد بمن يستطيع أن يقضى فداء رفاهتك وحريتك واستقلالك ! وأن ينادوا من عهد الوطن إليهم بمصالحه وسلطانه خبرونا عن ذلك الشأن الذى لا تستطيعون انجازه للشعب ومع الشعب وبالشعب ؟ أتستطيعون أن تشرعوا على أسنة أقلامكم مرامى الديمقراطية الصحيحة وقد دعمتها عقائدكم وثبت أقدامها يقينكم ؟ وإذا كنتم فى شك من ذلك مريب فألقوا بنظرة على الأعاجيب الفكرية التى تمت خلال الفترة القصيرة التى تمخض الزمن عنها دون أن يخشى معاقل العبودية انبثت فى كل مكان . ومن هؤلاء الساسة الذين يمكن أن يكونوا نماذج لكم تقتدون بهم فى أعمالكم . ، وتحتذون مناهجهم ؟ أليسوا هم أجدادكم ، قادهم محمد على وإبراهيم ؟ ألا يجدر بكم بعد خبرتكم أن تضربوا بالساسة الأجانب عرض الأفق وأن تؤيدوا طلبات الأمة بالقانون ؟ ان فن الحكم قد صار اليوم على عكس ما يجب أن يكون عليه باعتباره وسيلة للتهذيب والرقى واصلاح النفس والهداية إلى الخير والعمل الطيب .

الخلاصة

لقد استخلص شهداؤنا من كل ذلك أن الفسق عن أمر الحق كان ولا يزال قاعدة العمل على تحجر المشاعر . وأن الفضيلة جوهر الديموقراطية الصحيحة التى لا يأتيها الباطل ولا الزيغ من بين أيديها ، كما استنتجوا منه أن الانقلاب الروحى الذى يجب أن يقوم ليحقق صرح الديموقراطية لن يكون الا الممر الذى يجب أن نجتازه بين عصر الانتقال وسيادة العدل . ولذلك يجدر بنا أن نبنى هذا الخلق لنستمر فى مقاومة النقائص ، ومجاهدة المؤامرات والدسائس التى تعمل على ازدهارها الأوهام وهذا لا يكون إلا إذا فهمنا دسائس الاستعمار وعرفنا مركزنا الدولى حتى الآن ، وعلمنا أن أساس الدول هو حق الفرد ، وأنه

كل مصير يقرره غير الأفراد، باطل من ناحية القانون الدولى . وأن كل استقلال غير طبيعى إنما هو استقلال كاذب، وكل معاملة خارجة عن المساواة فى العلاقات بين الدول ، ليست من القانون الدولى فى شىء ، كما أن كل حرية تتخطى حرية أخرى لا يقرها القانون العام .

عمل مصطفى كامل وخلفاؤه من بعده على تحقيق هذه الأفكار سواء أكانوا فى المنفى أم بعد خروجهم من السجون خلال الحرب العظمى وإبان فترة الحماية الباطلة التى أعلنتها انجلترا على مصر من جانبها فى ٥ ديسمبر سنة ١٩١٤ .

وفى ٩ أكتوبر سنة ١٩١٧ أسندت الولاية للمغفور له فؤاد الأول باسم سلطان مصر حتى ١٥ مارس حيث أعلن استقلال البلاد وأعلن نفسه ملكا عليها .

الفصل الثانى

فؤاد الاول

فؤاد الأول هو ابن اسماعيل، ابن إبراهيم، ابن محمد على

ولد فى ٢٥ مارس سنة ١٨٦٨. وهى السنة السابقة على سنة افتتاح القناة. فحمله وميلاده كان إذن إبان انشغال والده باعلان الاستقلال. فلا غرابة اذن إذا انطبع فى الرغبة والملك والسيادة، ولا غرابة إذن إذا رأيناه أول ملك يعلن استقلال بلاده ويتوج نفسه ملكا على مصر وهو الذى جمع إلى جانب العنصر الكريم وغرائز إسماعيل وإبراهيم ومحمد على، تربية غربية صالحة.

فقد ألحقه والده وهو فى سن العاشرة بمعهد «ترديكوم» بجنيف، ثم لم يلبث أن التحق بعدئذ بمعهد «تورينو» لاتمام دراسته العالية، ومن درس حالة سويسرا وإيطاليا يومئذ. تأكد أن هاتين البيئتين الحرتين أنبتتا نباتا حرا ومن فحص حالة هذين البلدين العلمية والأدبية والفلسفية وثق تمام الثقة أن هذا النبات الحر ستتمشى حريته مع منطق الأشياء والقدرة على التصرف.

حذق فؤاد الأول فن السياسة والكياسة، واطلع إلى حد بعيد على نظريات هذا العلم وتفاصيلها، وميز بين جليلها وعليلها. ثم اكتسب الخبرة الضرورية للملوك، فكان وكأن الدهر يعده ليتبوأ عرشا.

فقد التحق بالجيش الايطالى بعد تخرجه من معهد «تورينو» وتعين ملازما أول بالفيلق الثالث عشر من مدفعية الميدان بروما. ثم اختاره السلطان فى سنة ١٨٩٠ ملحقاً عسكريا للسفارة التركية بالنمسا، ولكنه لم يلبث بها عامين حتى استقدمه الخديو عباس واسند إليه وظيفة سر تشريفاتى وأنعم عليه برتبة اللواء.

فهذه البيئات المختلفة كانت خير مدرب له على الحياة الملكية ، ولكنه مع ذلك لم يستمر فى وظيفته حيناما حتى سئم حياة القصور فاعتزل منصبه ، وتفرغ للعلم ، واضطلع فى سنة ١٩٠٨ باعباء الجامعة المصرية والجمعية الجغرافية ، والمجمع العلمى المصرى ، والجمعية الدولية الاقتصادية ، والمعهد المائى وجمعية الاسعاف على التوالى ، وحباها جميعاً برعايته السامية أيام ملكه حتى ترعرعت واشتدت

وقد كان الابن الوحيد الذى تمتع بحنو والده فى المنفى فكان أحن الناس على ولده ، وأشدهم غيرة على العناية بتربيته .

وفى سنة ١٩١٣ رشح الامير احمد فؤاد لعرش البانيا ، وكاد يرشح بعدئذ لعرش طرابلس الغرب الذى كان محتمل البناء ، ولكن شاء القدر أن لايرث الأمير فؤاد الا ملك ابيه طبقا للقاعدة التى نص عليها فى الفرمانات ، ففى ٩ اكتوبر سنة ١٩١٧ تقلد السلطان فى مصر ، وفى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ أعلن نفسه ملكا باسم فؤاد الاول .

لقد ازدان تاج العلم بسناء عبقرية الملك فؤاد منذ توج ملكا على اريكته بالجامعة المصرية ، وتجملت تيجان الملك بسطوع تاجه يوم تبوأ عرش مصر فكان من سناء هذين التاجين ، وسطوع هاتين الجلالتين مجمع اشعاع أعشى المغرضين وجنبهم سبيل الحق فى القول والعمل .

ولست بحاجة هنا الى سرد تفاصيل الأعمال العلمية الجليلة التى قام بها فؤاد الأول ، ولكن هناك أعمالا ثلاثة بزت جميع أعماله ، بل بزت أعمال الملوك جميعاً وهى اعلان الاستقلال وتشكيل لجنة لوضع الدستور وحل مشكلة المشروعية سلمياً .

إعلان الاستقلال وأثره الدولى

حقيقـــة يجهلها الناس

ان بحث اعلان الاستقلال الصادر فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ قصداً الى معرفة أثره الدولى ، يقتضى معرفة مركز مصر الدولى منذ معاهدة لندرا حتى هذا الاعلان .

مركز مصر الدولى بعد معاهدة لندرا

لسنا بحاجة الى الاطالة فى هذا الصدد ، ويكفينا أن نقول إن مصر كانت دولة تابعة ، ولمعرفة المعنى القانونى لهذه الدولة يجب أن نرجع الى آراء بعض كبار العلماء الدوليين .

قال الفقيه ده لابراديل فى ص ٢٤ وما بعدها من درسه العاشر الذى القاه فى ٥ فبراير سنة ١٩٢٩ بمعهد الدراسات العليا الدولية :

الدولة التابعة ـ إن ماكانت تتميزبه التبعية أيام النظام الأقطاعى هو الاتصال المتبادل بين التابع والمتبوع، فقدكان المتبوع ملزما بحماية التابع وكان التابع ملزما بشكر المتبوع ودفع الجزيةله ـ والرأى عندى أن قيام التبعية بين مصر وتركيا كان بناء على تحليل صحيح . وقد استمرت هذه التبعية إلى اليوم الذى انقطعت فيه كل صلة بين مصر والباب العالى بحكم معاهدة لوزان (٢٤ يوليه سنة ٩٢٣) والتبعية هى أيضا الصلة التى ربطت بين بلغاريا وتركيا بموجب نص صريح هو المادة الأولى من معاهدة برلين حيث قالت « تتألف من بلغاريا إمارة مستقلة فى ظل تبعية (السلطان). فنظام التبعية هو أن تقوم

الدولة التابعة بدفع الجزية وأداء المعاونة الحربية . ولكن بلغاريا لم تدفع الجزية أبدا، وأما بالنسبة للمعاونة العسكرية فلا هي ولا مصر قد قامتا بهذه المعاونة ولا سيما خلال الحرب العثمانية اليونانية

وهذا ما يدلك على أن الدولة بمجرد أن تنتقل إلى نظام التبعية تجنح الى أن تنتقل إلى مرتبة اسمى ، أى إلى الاستقلال التام. فاذا لم تكن على قوة تمكنها من الصعود. فليس أمامها إلا السقوط . فبلغاريا التى كانت أقوى من مصر لم تستطع إلا أن تعلو دون أن تسقط ، أما فيما يتعلق بمصر فان تدخل الدول قد حل نهائيا رباطا لم يكن منذ مدة إلا اسميا (مادة ١٧ من معاهدة لوزان)

فالدولة الخاضعة لنظام التبعية تسير فى سبيل الاستقلال، لأن الاستقلال محدود بسياسة المتبوع من ناحية الجزية والمعاونة الحربية ، ولكن الواقع أقوى من النص، فالتابع إذا رفض أداء واجبات التبعية وما تستلزمه هذه الواجبات من خدمات ، فان هذه التبعية تتراخى وتنقطع ، إلى أن يحين الظرف المناسب لاعلان الاستقلال على النحو الذى نحته بلغاريا فى سنه ١٩٠٨

فمصر كانت دولة نصف سيدة ، ذات أهلية محدودة داخل نطاق الدولة العثمانية بلا مراء. ولقد استمر مركزها هكذا إلى أن جاءت معاهدة لوزان فحررتها من هذه التبعية واعترفت باستقلالها منذ ٥ نوفمبر سنة ١٩١٤ . (مادة ١٧) . ولكن هل الاحتلال البريطانى غير من تبعية مصر لتركيا بعد سنة ١٨٨٢؟

مركز مصر الدولى بعد الاحتلال

انك إذا عرضت أمامك جميع أحوال التدخل التى أشار اليها الفقهاء واعتبرت من أحوال التدخل فى القانون الدولى . وطبقنا حالة احتلال مصر عليها جميعا وجدنا أنها لا تنطبق على أية حالة من أحوال التدخل ولذلك حق

للفقهاء الدوليين أن يتساءلوا عن سند انجلترا فى تبرير بقائها فى وادى النيل طوال مدة الاحتلال .

تدخلت انجلترا فى مصر سنة ١٨٨٢ بحجة بهرج ، وسند باطل ، فادعت أنها تريد أن تقيم للفلاحين فيها « حكومة شريفة » وتربى هيئة من الحكام قادرة على خدمتهم » (راجع عمل انجلترا فى مصر طبعة أدنبورج سنة ١٨٩٢ ، تأليف كونستابل) ولكن اللورد ملنريرى فى كتابه « انجلترا فى مصر » (ص ٤١) أن الاحتلال « تدخل أريد به شذوذ جديد يضاف إلى حالة شاذة . »

فما هو التدخل ؟ انه اقتحام دولة أعمال دولة أخرى سواء كانت هذه الأعمال داخلية أم خارجية (راجع بونفيس وفوشى فقرة ٢٩٥ - ٣٣٢) . ويرى بعض الشراح أن التدخل بمعناه الصحيح لا يكون الا حيث تقتحم دولة ، الشئون الداخلية لدولة أخرى (راجع براديه - فوديريه - الوجيز فى القانون الدولى العام الاوروبى والأمريكى جزء أول فقرة ٣٥٩) . ولكن التدخل على أية حال ليس حقا ، ولكنه واقعة . (راجع فونك برنتانو وسوريل ص ٢١٦ و٢١٧) . ذلك بأن الحق هو استقلال كل دولة ، أما الواقعة فانها انتهاك هذا الاستقلال ، واحلال الارادة الاجنبية محل الارادة القومية . (راجع براديه فوديريه جزء أول فقرة ٣٥٥) . أن الواقعة هى انتهاك هذا الحق سواء أكان شكلها دبلوماسيا أو حربيا ، وأما احلال الادارة الأجنبية محل الادارة الوطنية فنتيجة لازمة لانتهاك الحق ، أى الاستقلال .

فهل لانجلترا أن تحتج فى تبرير تدخلها فى مصر ، على حق صاحب السيادة على مصر ؟ ولكن صاحب السيادة على مصر كان هو سلطان تركيا ومن المسلم به أن شخصا آخر خلافه لم يعترض على التدخل البريطانى فى وادى النيل ، وليس من شخص سواه ألح فى أن يعيد بنفسه النظام إلى مصر . كذلك لا تستطيع انجلترا أن تستند إلى حق الحرب ، لأنها لم تعلن الحرب على تركيا من

ناحية ، ولأن الغرض من اطلاق القنابل على الاسكندرية كان اعادة سلطة الخديو .

وإذا كان للدول أن تتدخل فى أعمال دولة ، فان الشرط الأساسى لهذا أن يكون اجماعيا ، والدول لم تتدخل مع انجلترا فى مصر .

كذلك لا تستطيع انجلترا أن تزعم أنها تدخلت فى مصر بالوكالة عن أوروبا ، فبأى سند قانونى تحتل انجلترا مصر ؟ إنها لا تستطيع أن تستند إلى واحد من أسباب التملك . فلا حق الفتح يمكن تطبيقه ولا وضع اليـــد ولا التنازل . ان مصر ليست مالا مباحا ، وفضلا عن ذلك فلا بد لصحة وضع اليد من انذار الدول وهذا مالم يحصل ، وإذن فهذا الاحتلال لم يغير من الطبيعة القانونية التى كانت لمصر قبله .

معاهدة سنة ١٩٠٤

كانت فرنسا وانجلترا حتى سنة ١٩٠٤ فى نضال مستمر بسبب مصر . ولكن الفرصة الملائمة لعقد اتفاق بينهما سنحت فى سنة ١٩٠٤ . فبعد أن دارت مفاوضات بين الفريقين مدة لا تعد طويلة بالنظر لأهمية الموضوع ، وقـع تصريح بلندن فى ٨ ابريل سنة ١٩٠٤ ولقد جاء ضمن هذا التصريح !

« إن حكومة جلالة الملك تصرح بأنها لا تقصد تغيير الحالة السياسية فى مصر وحكومة الجمهورية الفرنسية تصرح بأنها لا تعترض عمل بريطانيا العظمى فى مصر لا بطلب تعيين أجل الاحتلال البريطانى ولا بأمر آخر .

ثم صرحت حكومات ألمانيا والنمسا وإيطاليا مثل هذا التصريح أيضاً » (راجع تقرير اللورد كرومر سنة ١٩٠٤)

ولكن كل ذلك لم يغير من وضع القضية المصرية كما قال الوزير فريسنيه ، وأن كان قد أطلق يد الانجليز فيها ، ذلك بأن مصر لم تقر هذا التغيير مطلقا ولم

تصحح مركز الاحتلال وتكسبه المشروعية بأقراره .

مركز مصر الدولى

منذ إعلان الحماية حتى اتفاقية بريان كيلوج

تتناول هذه الكلمة بحث اعلان الحماية واعلان تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ واعلان استقلال مصر فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ واعتراف الدول به والآثار المترتبة على هذا الاعتراف والمادة ١٧ من معاهده لوزان الرقيمة ٢٤ يوليه سنة ١٩٢٣ واتفاقية بريان كيلوج .

إعـــــــلان الحماية

أصدرت الحكومة البريطانية بتاريخ ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ إعلانا بسطت به حمايتها الفعلية الباطلة على مصر، ولكنها لم تكن حماية قانونية محترمة ؛ لأن الحماية كما أجمع الفقهاء صلة تعاقدية Lien Contractuel بين دولتين، فاذا انعدمت هذه الصلة. أى إذا لم تعقد معاهدة بين الدولة الحامية والدولة المحميه كانت الحماية باطلة ولا يترتب عليها أى أثر. ولذلك فان الفقهاء قد اعتبروا إعلان ١٨ ديسمبر سنة ١٩٠٤ مجرد إعلان من جانب واحد لم ترتبط به مصر مطلقا . (راجع ده لابراديل — المبادىء العامة للقانون الدولى ص ٢٥ من محاضرة ٥ فبراير سنة ١٩٢٩ الدرس العاشر)

لقد اعترف بعض الدول بهذه الحماية خلال الحرب العظمى واعترفت الولايات المتحدة بها فى ابريل سنة ١٩١٩ ، واعترفت دول الحلفاء والمشتركون معهم فى الحرب، والدول المغلوبة على أمرها فى الحرب، بهذه الحماية فى معاهدات الصلح جميعاً (فرساى وسان جرمان آن لى وتريانون وسيفر) ولكن هذه

الدول قد اعترفت أيضا بان هذه الحماية لم يكن لها وجود ولم يترتب عليها أى أثر ، وتجاهلوا فترتها من يوم اعلانها إلى يوم الغائها حيث نصوا فى المادة السابعة عشرة من معاهدة لوزان الرقيمة ٢٤ يوليه سنة ٩٢٣ على استقلال مصر وعلى سريان هذا الاستقلال على الماضى ابتداء من ٥ نوفمبر سنة ١٩١٤

تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢

كذلك اجمع الفقهاء والشراح على أن تصريح ٢٨ فبراير انما هو اعلان من جانب انجلترا وحدها ، ولذلك فليس له أى أثر قانونى ، ولكن انجلترا تمسكت به وجعلته قاعدة سياستها حتى بعد الاعتراف باستقلال مصر فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ ، وبعد ابرام معاهدة لوزان الرقيمة ٢٤ يوليه سنة ١٩٢٣ ، غير أن الأمة المصرية التى ألفت بذل أرواحها رخيصة منذ ثورة سنة ١٩١٩ استمرت على هذا البذل حتى تدلل للعالم أنها لاتقنع بالسراب وتبرهن على توافر ركن المشيئة الذى يتطلبه تكوين الدولة، توافرا تجلى فى مختلف الصور .

تبليغ انجلترا

ولقد اقترن تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ بتبليغ ارسلته إنجلترا إلى الدول تعلنها فيه بأنها تعتبر كل اعتداء على مصر عمـــــلا غير ودي بل اعتداء على جزء من الامبراطورية البريطانية ذاتها . فماهى القيمة القانونية لهذا التبليغ ؟

إن هذا التبليغ أداة دولية من جانب واحد، ولايجوز ان يقاس بتبليغ « منرو » الذى أذيع فى سنة ١٨٢٣ بخصوص استقلال المستعمرات الأسبانية فى

جنوب أمريكا. وان كانت الصيغة واحدة على وجه التقريب حيث اعتبر فيها ان الاعتداء على أى دولة فى أمريكا ، اعتداء على الولايات المتحدة ذاتها ، ومن السهل أن نعلل الفارق بين التبليغين بالآتى

(١) ان التصريح المنطوى على سياسة دولية أعلنها رئيس الولايات المتحدة سنة ١٨٢٣ فى بيانه إلى المؤتمر (برلمان الولايات المتحدة) ، وأبلغه للدول، وأطلق عليه اسم نظرية «مونرو» قد صدر عن مبادىء أعلنها أمريكيو الجنوب ودافعوا عنها ، كما أعلنها أمريكيو الشمال ، ودافعوا عنها أيضا، قبل ان يذيعها «مونرو» ، أما تصريح انجلترا فلم يصدر عن مبادىء يقدرها المصريون ويعملون بها .

(٢) ان لأمم أمريكا الجنوبية الحق وعليهم الواجب الأدبى فى أن يعلنوا، كل منهم بمفرده، أو جماعة ، تفسير المبادىء الأمريكية الخاصة بالسياسة الدولية، ويحددوا مدى تطبيقها سواء كان ذلك تلقاء علاقات ما بين الأمم الأمريكية وبعضها أو مابين الأمم الأمريكية ودول القارات الأخرى على النحو الذى نهجته الولايات المتحدة بالنسبة لتبليغ الرئيس «مونرو» أما مصر فليس لها ان تعلن تفسير المبادىء البريطانية الخاصة بالسياسة الدولية ولا أن تحدد مدى تطبيق هذه المبادىء أسوة ببريطانيا العظمى.

(٣) ان نظرية «مونرو» التى أعلنتها دولة قوية قد استطاعت ـ عن طريق ضمان خدمة مبادىء السيادة المستقلة للدول الأمريكية ووحدتها الأرضية ـ أن تؤدى مباشرة خدمات لهذه الدول بتمكينهم من تدعيم استقلالهم ، وتقوية شخصيتهم الدولية، أما نظرية بريطانيا التى قام علنها تبليغها فهى نظرية استعمارية ، الغرض منها هدم السيادة المصرية المستقلة، وتقطيع أوصال وحدة مصر الارضية، على نحو ماوقع فى السودان وسيوه وشبه جزيرة طورسيناء، وضعضعة شخصيتنا الدولية.

(٤) إن نظرية «مونرو» وان كانت تصريحا خاصا ضيقا إلا أنها قد وضعت

فى صيغة استقلالية اعتبرت كقاعدة ذات طبيعة دولية سلمت بها جميع الدول المتمدنة ، ولهذا وجدنا هذه النظرية قد أخذت بها جميع دول أمريكا الجنوبية (راجع نظرية مونرو فى عالم التطبيق ـ لسيمون بلاناس سوارس (ص ٣٥٩ من مجموعة دراسات لاكاديمية القانون الدولى سنة١٩١٤ جزء ٤). أما تبليغ انجلترا بالنسبة لمصر فلم تسلم به دولة على انه قاعدة من قواعد القانون الدولى ، لا سيما وان جميع الدول قد اعترفت باستقلال مصر بطريقة فردية عقب اعلان استقلالها فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ ، وبطريقة إجماعية بموجب معاهدة لوزان الرقيمة ٢٤ يوليه سنة ١٩٢٣ .

فتبليغ انجلترا للدول لا قيمة له من ناحية القانون الدولى ، وهو مجرد تصريح لم يصبح اداة دولية ، لأن الدول فضلا عن انها لم تعترف به ، فانها اعتبرته باطلا بموجب اعترافها باستقلال مصر .

اعلان استقلال مصر

فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ وأثره الدولى

أصدر المغفور له الملك فؤاد الأول بتاريخ ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ اعلانا باستقلال مصر أبلغه للدول ، فترتب على هذا التبليغ أثره إذ اعترفت جميع الدول بهذا الاستقلال اعترافا قانونيا نهائيا - Reconnaissance de Jure

اعتراف الدول باستقلال مصر

وما ترتب عليه من آثار

اعترفت الدول باستقلال مصر بعد اعلان الملك فؤاد الأول الصادر فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ . ولقد اعترفت الدول بذلك بعد أن تأكدت من توافر

شرائط الدولة المستقلة ذات السيادة التامة ، في دولة مصر . فماذا ترتب من أثر على هذه الاعترافات ؟

لقد ترتب على هذه الاعترافات النهائية الفردية المتتابعة ، أن أصبحت مصر دولة ، أي شخصية دولية بالمعنى الصحيح للكلمة القانونية ، فصارت ذات سيادة تامة داخليا وخارجيا على رأى ، أو مستقلة حرة لا يحد سلطانها غير القانون الدولى على رأى آخر ، لأنها اكتسبت بهذه الاعترافات النهائية صفة العضوية في العصبة الدولية وصارت مساوية لجميع الدول ، وشريكة لهم في حظيرة هذه الجماعة التي تتمتع كلها بالسلطان الأعلى الذى لا يحده غير حقوق الأعضاء الآخرين المقترنة بما يقابلها من واجبات .

كانت مصر إلى ما قبل هذه الاعترافات دولة نصف سيدة أو تابعة على ما ابنا في الفصل الأول ، ولكنها أصبحت بعد هذه الاعترافات دولة ذات شخصية دولية .

ان الدولة هي أهم الشخصيات الدولية بطبيعتها ، والدول هي الأعضاء التي يتألف منها ما يسميه الفقهاء « جماعة القانون الدولى » ومعنى هذا أن كلمة دولة وشخصية دولية قد يكونان بمعنى واحد ، أى أن كل دولة هى شخص دولى وأن الدولة قانونا هي العضو الوحيد القادر على أن يستغشى الشخصية الدولية ، أى انها أهل لأن يكون لها حقوق وواجبات في القانون الدولى . وهذا ما تجده عندما تبحث عن الحقوق الجوهرية للدولة ومناقشة موضوع السيادة وحدودها ، ولكن المهم هنا هو أن نفهم المعنى المراد من حرفى « قد » في قولنا : « إن كلمة دولة وشخصية دولية قد يكونان بمعنى واحد »

إن المراد هنا من حرفى « قد » هو ان فكرة الدولة وفكرة الشخصية الدولية ليستا واحدة تماما وانهما لا ينطبقان على بعضهما تمام الانطباق ، إذ هناك شخصيات دولية ليست دولا ، كما أن هناك على الضد ورغما من أن

الدولة هى الشخصية الدولية الهامة ، دولا لاتظهر كأنها أعضاء فى الجماعة الدولية العامة ، وهى الدول التي ينقصها مايسمى بالسيادة الخارجية نقصا تاما أو جزئياً كما كانت مصر إلى ماقبل الاعتراف بها فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ ، رغماً من أن أهليتها كانت تمكنها من عقد معاهدات تجارية ، بل ولقد اجترأت انجلترا على أن تعقد معها معاهدات سياسية اعتمد الباب العالى واحدة منها وهى الخاصة بالرقيق والمنعقدة بين انجلترا ومصر سنة ١٨٧٩ واعترفت فيها انجلترا بملكية مصر للشاطىء الافريقى من السويس إلى رأس حافون على المحيط الهادى ، واحتج الباب العالى على اثنتين منهما وهما الخاصتان بالسودان والمنعقدتان بين انجلترا ومصر فى سنة ١٨٩٩ انعقاداً باطلا .

فمصر كما قدمنا أصبحت بموجب الاعترافات الدولية النهائية شخصية دولية مساوية للدول الأخرى داخل الجماعة الدولية، منذ ١٥ مارس سنة ١٩٢٢، ولكن أثر هذه الاعترافات لم يقف عند حد هذه الأهلية التامة للتعامل ـ طبقاً لقواعد القانون الدولى ـ مع الدول على قدم المساواة بل ترتب عليه أثر آخر . هو إعتبار الاحتلال البريطانى فى مصر واقعة لاقيمة لها من الناحية القانونية والا لاعتبرت انجلترا الدول التى اعترفت بمصر دولة مستقلة ذات سيادة معتدية عليها ولنشبت الحرب فيما بينها وبينهم .

فحالة الاحتلال بقيت عقب الاعترافات الدولية النهائية فى نظر الدول عديمة القيمة القانونية بعد إذ رأت هذه الدول أن الارادة القومية سادت بقعة من الأرض ، وزاولت السلطان الأعلى فيها مزاولة منتجة ، واستقلت حكومتها القومية ، بمعنى أنها تميزت عن أية سلطة أخرى حيث لم يعترف الرعايا بغير الحكومة القومية ، ولم يخضعوا إلا لهذه السلطة القومية ، وجعلت هذه الحكومة التي تؤيدها الإدارة القومية تتمتع بسلطة كافية للتكلم باسم البلد الذى عمل على استقرار الأمر لها .

هذا هو فخر فؤاد الأول ، وهذا هو ما تناساه القادة أو تجاهلوه أو جهلوه وماهذا غير أن مصر ، بعد اعتراف الدول باستقلالها ، لم تكن بحاجة قانونا إلى وثيقة تدعم بها استقلالها أو تؤيد بها حقوقها .

معاهدة لوزان

ومركز مصر الدولى

اعترفت الدول باستقلال مصر اعترافات نهائية فردية عقب اعلان ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ ، واعترفت بهذا الاعتراف اجماعيا بموجب معاهدة لوزان الرقيمة ٢٤ يوليه سنة ١٩٢٣ ، ولقد نصت معاهدة لوزان فى مادتها السابعة عشرة على عدول تركيا عن صفاتها وحقوقها فى مصر ابتداء من ٥ نوفمبر سنة ١٩١٤ ، فما هى القيمة القانونية لهذا القول ؟

ان المادة ١٧ من معاهدة لوزان تنقسم إلى قسمين ، قسم يجعل الاستقلال ساريا على الماضى وبذلك تكون الحماية الباطلة التى اعلنت فى ١٨ ديسمبر سنة ٩١٤ وتصريح ٢٨ فبراير سنة ٩٢٢ والتبليغ البريطانى الذى تلا تصريح فبراير ، كل أولئك الادوات السياسية أو الاعلانات الصادرة من طرف واحد لاغية ولا أثر لها منذ الساعة التى اعلنت فيها لانها كلها جاءت تالية لخمسة نوفمبر سنة ١٩١٤

وأما الشطر الثانى فهو الخاص بأثر عدول تركيا عن صفاتها وحقوقها فى مصر . ومعنى هذا العدول أن هذه الصفات والحقوق قد عادت لمصر ، واليك بيان ذلك من الناحية القانونية بغض النظر عن تصريح الحكومة التركية بأن هذا العدول كان لمصلحة مصر .

تقضى العقيدة العصرية الحديثة ، وتقضى السيادة القومية بمعنى آخر على ولى الامر ، بالعجز التام عن ترك أى جزء من أرض أو سكان بلاده بطريق

التنازل ، ولكنها تبيح له ذلك بطريق العدول والتنحى ، ولذلك اصبح من المستحيل نقل ملكية أشخاص ، وكل مافى الوسع هو اعلان هؤلاء الاشخاص بان الدولة كفت عن حمايتهم ، وبما أنهم اصبحوا والحالة هذه مجردين من أى حماية فقد تحللوا من يمين الولاء ، فالسيادة تنسحب عن المسودين ولكنها لاتستطيع أن تنقلهم إلى سيادة أخرى ، واذن فطبيعة السيادة تقضى باعتبار ما اسموه تنازلا عن أرض Cession عدولا Renonciation

ان الاستعاضة عن التنازل بالعدول أمر هام جداً ، فهو يعين حالة الانتقال في القانون العام العصرى من عالم الملكية إلى عالم السيادة .

من الطبيعى فى القانون الخاص أن تباع الأرض ، لان البيع طريق من طرق نقل الملكية . أما فى القانون العام فان الأهالى لاتباع وانما تترك ، فالاملاك ينزل عنها ، se cède ولكن السيادة تستقيل Demissionne ولا يجوز أن يقال من الناحية السياسة عند تجزئة دولة على نقيض ارادتها أنها تنقل لغالبها مالها من حقوق على اجزائها بموجب عقد وضعى ، فهى اذن تعدل عن حقوقها أى تنسحب أو تقلع Abdique, se retire, part لا اكثر ولا أقل

ان لهذا التشاكل الذى له قيمته من الناحية النفسية السياسية مزية فيما يتعلق بقبول الامر الواقع ، واذن فلا يوجد فى حالة التنازل التى قال بها الفقهاء قبل ذيوع نظرية تقرير المصير بالاستفتاء العام ، سيادتان أمام بعضهما وانما يوجد (١) سيادة الدولة المتنازلة ، أى السيادة التى تنسحب ، (٢) سيادة الدولة المتنازل لها . وهى السيادة التى تتقدم وتقترب . (٣) وارادة سكان المنطقة المتنازل عنها ، وهى بحكم عدول الدولة المتنازلة عن صفاتها وحقوقها تعود الى حالتها الطبيعية التى عاش فيها الانسان منطقيا وفلسفيا ، وتاريخيا ، قبل تكوين الدولة ، فاذا كان الاهالى الذين استظلوا بسيادة الدولة القديمة يريدون فى هذه اللحظة أن يؤلفوا بأنفسهم دولة ، أى اذا كانوا اكفاء لذلك ، ولديهم

القوة الكافية لذلك فلا شيء يحول دون هذا العمل ، لانهم يملكون فى هذه اللحظة السيادة باعتبارها السلطان الكامن فى انفسهم ، ومتى كان لهم هذا الحق حق السيادة الكامنة فى أعماقهم ، فلهم من باب أولى الحق فى أن يطلبوا الانضمام إلى الدولة القديمة أو لأية دولة أخرى متى أعربوا عن رضائهم بذلك ، بما أن ضم الاراضى لايكون الا برضاء الاهالى .

فالقاعدة العامة التى تقررت قبل الحرب العظمى باعتبارها مبدأ من مبادىء القانون الدولى العصرى ، والتى حددها الغرض الأسمى من الحرب العظمى كما يقول الفقهاء الدوليون هى أن جزء من أراضى دولة لايمكن أن ينتقل إلى سيادة دولة أخرى، فى أى وقت من الأوقات إلا برضاء تام ، تعرب عنه أغلبية سكان هذا الجزء ـ نصت المادة ١٨ من معاهدة لوزان الرقيمة ٢٤ يولية سنة ١٩٢٣.

L'effet de la rénonciation de la Turquie à tous droits et titres sur l'Egypte de sur le Soudan prendra date du 5 nouvembre 1914

« يبدأ الأثر المترتب على عدول تركيا عن حقوقها وصفاتها فى مصر والسودان منذ ٥ نوفمبر سنة ١٩١٤ » وبذلك عادت السيادة لمصر ولم تنتقل إلى دولة أخرى.
ثم جاءت المادة ١٩ من هذه المعاهدة ونصت الآتى

Des stipulations ulterieures, à intervenir dans des conditions à déterminer entre les Puissances interessées regleront les questions naissant de le reconnaissance de l'Etat egyptiens, auquel ne s' applique pas les dispositions du présent traité relatives aux territoires detachés de la Turquie en vertu du dit Traité

« وتسوى المسائل المتولدة عن الاعتراف بالدولة المصرية التى لاتنطبق عليها نصوص هذه المعاهدة الخاصة بالاراضى المقتطعة من تركيا بموجب المعاهدة

المذكورة بواسطة نصوص توضع فيما بعد متى حددت الدول أصحاب المصالح ظروف ذلك فيما بينهن »

إن هذه المادة قد اعترفت اعترافا إجماعيا بأن مصر دولة . والاعتراف سواء كان ذا طبيعة انشائية Constructif ، أو طبيعة بيانية Déclaratif يضفى على الدولة الشخصية الدولية التى تجعلها عضواً فى جماعة الدول ولها نفس الحقوق التى للدول الأخرى وعليها ذات الواجبات التى على زميلاتها فى تلك الجماعة . فما هى هذه الحقوق التى تمتعت بها مصر بمقتضى الاعتراف الاجماعى الذى نصت عليه معاهدة لوزان والاعترافات الفردية التى أعقبت إعلان ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ ؟

إنها الحقوق الجوهرية التى تتمتع بها جميع الدول أعضاء الجماعة الدولية على قدم المساواة ، ولا حد لها فى دولة إلا نفسها فى دولة أخرى .

فالأثر الذى ترتب على الاعتراف باستقلال مصر عقب إعلان ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ ما كان محتاجا لأن يتجدد باعتراف المادة ١٩ من معاهدة لوزان ، وكفى المغفور له فؤاد الأول وطنية ومجدا . أن أسدى لمصر هذا الصنيع الخالد الذى لم يفهم قيمته القانونية جميع السادة الذين قادوا مصر حتى الآن . .

ميثاق بريان كيلوج

الرقيم ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٨

فى يوم ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٨ أذيع ميثاق بريان كيلوج ، وهو مؤلف من مقدمة ومادتان، أما المادة الأولى فتصريح بأسم الشعوب يستنكر الالتجاء إلى الحرب فى سبيل تسوية الخلافات الدولية ، وعدول فى الوقت نفسه عن الحرب باعتبارها أداة سياسية قومية من جانب الدول الموقعة على هذا الميثاق ، أما المادة الثانية ، فاعتراف من الدول الموقعة ، بأن تسوية المشاكل

والخلافات وحلولها مهما تكن طبيعتها أو مصدرها لا يجب أن يبحث عنها إلا في الوسائل السلمية.

إن هذا الميثاق الذى وقعته مصر لا يهمنا لذاته، لأنه لم يفد العالم حتى الآن فى شيء من ناحية وقف الحرب، وأمامنا مشاكل الصين واليابان ومشكلة الحبشة وإيطاليا. ولكن المهم فى هذا الميثاق هو ما اقترن به من تحفظ بريطانى ورد مصرى على هذا التحفظ.

الميثاق ونظرية مونرو البريطانية

لقد أرسلت انجلترا مذكرة للدول بتاريخ ١٩ مايو سنة ١٩٢٨ حددت فيها المعنى الذى تقصده بريطانيا العظمى من حق الدفاع الشرعى، وصرحت هذه المذكرة بأن بريطانيا ترى أن رد العادية عن بعض مناطق العالم هو بمثابة حالة دفاع شرعى عن الأمبراطورية البريطانية «ولقد سلمت انجلترا بقبول الميثاق المذكور إذا لم يمس حريتها العملية، ثم تكرر هذا التصريح فى مذكرة تكميلية صدرت بتاريخ ١٨ يولية سنة ١٩٢٨ ولكنه تكرر بطريقة أوضح.

ولكننا لم نر حكومة من الحكومات قد لمحت، ولو عن بعد، إلى هذه المذكرة سوى حكومة الهند وحكومة زيلندا الجديدة، وإذا نحن رجعنا إلى ما نشر من مراسلات خاصة بهذا الميثاق نجد أن المستر كيلوج ذاته قد التزم الصمت التام تلقاء هذا التحفظ البريطانى.

إن المذكرة البريطانية قد رمت بتحفظها إلى رد العادية عن مصر وقناة السويس والخليج الفارسى بكل صراحة.

ومع ذلك فليس فى نص هذا الميثاق أى تحفظ صريح أو ضمنى. ولكننا إذا نحن رجعنا إلى المذكرات السياسية نجده، ولا شك فى أن كل دولة وقعت هذه

الوثيقة قد أطلعت على هذا التحفظ وقبلته نظرا للعلانية التامة التى دارت وفاقها المفاوضات الخاصة بهذه الوثيقة

ولكن النظرية الأقليمية البريطانية ليست وحدها التى ارتبطت مذكرتها بالميثاق المذكور بل هناك أيضاً النظرية الخاصه بالقارة الأمريكيه وهى نظرية (مونرو) باعتبارها نظرية الدفاع الشرعى .

قيمة المراسلات الدبلوماسية

فى تفسير المعاهدات

أذاعت الصحف بتاريخ ٧ أغسطس سنة ١٩٢٨ أن وزير خارجية الولايات المتحدة قال ! « إن تفسيرات المحالفة المتعددة الأطراف الخاصة بالعدول عن الحرب ليست بأى حال جزءا من المعاهدة ولا يمكن اعتبارها بمثابة تحفظ ، والتفسيرات» ليست مودعة مع نص المعاهدة »

إن هذا التصريح حق من الناحية الفنية إذا اعتبرنا ان المراد من كلمات «جزء من معاهدة» هو جزء من نص المعاهدة ذاته لأن التحفظات الرسمية لمعاهدة هى تصريحات يدمجها المتعاقدون فى هذا النص نفسه سواء عن طريق النص عليها فى صلب الوثيقة أو فى ملحق بها تتضمنه وثيقة الأبرام . وليس من شىء كهذا فى الحالة التى نحن بصددها لاسيما وأن مصر قد ردت على التحفظ بتحفظ من ناحيتها ، وفى ٣١ أغسطس سنة ١٩٢٩ أعلنت حكومة السوفييت نيتها الصريحة فى التوقيع على هذا الميثاق، ولكنها أعلنت فى الوقت نفسه أنها لا ترتبط بالنظرية الأقليمية البريطانيه، ولا بميثاق عصبة الأمم ومعاهدات لوكارنو ، كما ان مصر وفارس وتركيا سارعت فورا إلى ابداء تحفظات خاصة بالنظرية الأقليمية البريطانية

وهكذا سقط تحفظ وهو متأثر بتحفظ آخر، فضلا عن أن مذكرتى بريطانيا

لم يودعا مع المعاهدة كما صرح بذلك المستر كيلوج وزير خارجية الولايات المتحدة، ولذلك كله فان هذا الميثاق لم يؤثر أى تأثير فى استقلال مصر الذى أعلنه المغفور له فؤاد الأول وسجل فى صحيفة المجد، وجعل يشع منذ اعلانه ويملأ القلوب العامرة بالعلم والمجردة عن الهوى فى آن واحد، نوراً ودفء لأنه استقلال طبيعى لا يستند إلى الحق الطبيعى دون سواه، ولا يترتب عليه إلا الحقوق الطبيعية التى تملكها الدولة بحكم وجودها ذاته، ومتصلة بهذا الوجود وتمثل طبيعة ثلاثية الصفة، فهى مطلقة ومصونة ولا يجوز النزول عن شىء منها .

ولهذا سمعنا المرحوم عبد الخالق ثروت باشا يقول فى خطبة ألقاها بنزل الكنتنتال فى ٢٥ مارس سنة ١٩٢٢ بمناسبة أول احتفال بعيد ميلاد جلالة الملك فؤاد عقب اعلان الدستور مايلى :

« أرى أيها السادة من واجبى قبل كل شىء ان أنحنى بكل احترام واجلال تحية لصاحب عرش مصر على ما أبداه من التفانى فى شد أزر أمته والأخذ بناصرها فى هذا الدور العظيم من أدوار تاريخها الطويل المجيد، لقد كان من بواعث سعادتى ان رأيت بنفسى عن كثب ماقام به ملكنا النبيل من الجهاد فى القضية المصرية فأثبت بذلك ان الدم لا يكذب، وكتب بنفسه فى تاريخ المجد صحيفة خالدة جديرة بابن اسماعيل وحفيد ابراهيم ومحمد على . فليحى سيد مصر المستقلة ولنهتف جميعا من قلب مفعم بالاخلاص والولاء :

ليحيا جلالة الملك فؤاد الاول » ولتحيا ذكراه

وضع الدستور وتنفيذه

أعلن المغفور له جلالة الملك فؤاد استقلال مصر، واعترفت الدول بهذا الاستقلال. فأصبحت مصر دولة مستقلة ذات سيادة ونظامها ملكى، وولايتها العامة الداخلية والخارجية بيده وحده، لاشريك له فى توجيهها فى الوجهة التى

يريدها، ولا حدود لسلطانه غير تقاليد الممالك المستقلة، ولكن فؤاد ابن اسماعيل الذى كان أكبر همه عند بداية حكمه هو منح مصر دستورا ، وأعظم مشاغله فى نهاية حكمه وضع دستور البلاد على أحدث مبادىء دستورية عصرية ، وعمل بدستور يكاد يكون من ناحية اختصاصاته كدستور سنة ١٩٢٣، وابن ابن ابراهيم العادل الذى ترأس مجلس المشورة، ذلك المجلس الذى كان أول مجلس جاء نظامه كفيلا بتمثيل الأمة إلى حد بعيد مع انه انشىء فى سنة ١٨٢٩ ، نقول ان فؤاد الأول الذى انحدر من هؤلاء الأبطال الذين عملوا بالسنن الدستورية والشورية، والذى تربى فى بيئة ديمقراطية لم يرد ان يعيش ملكا مطلقا، بل على العكس رغب فى أن يحدد سلطانه وفقا لمقتضيات العصر الحاضر، وأن ينزل عن كثير من سلطاته سلميا ، على نقيض ملوك العالم طرا الذين لم ينزلوا للأمة عن شىء من الحقوق الا مرغمين وبعد خوض بحار من الدماء الزكية .

لقد أشار الأمر الكريم الصادر للمرحوم عبد الخالق ثروت باشا بتأليف وزارة إلى رغبة حضرة صاحب الجلالة الملك فى تحقيق التعاون بين الأمة والحكومة بواسطة نظام دستورى ، وعهد إلى الوزارة باعداد مشروع ذلك النظام، وقد كان جواب الوزارة على هذا الأمر الكريم انها ستأخذ فى الحال فى اعداد مشروع دستور طبقا لمبادىء القانون العام الحديث ، وان هذا الدستور سيقرر مبدأ المسئولية الوزارية ويكون بذلك للهيئة النيابية حق الاشراف على العمل السياسى المقبل .

ولقد رأت الوزارة يومئذ أن لا تدعوا إلى عقد جمعية تأسيسية واكتفت بأن تستعين فى القيام بهذه المهمة الخطيرة باراء هيئة يكون أعضاؤها من ذوى الخبرة والصفة النيابية .

لقد عاش الملك فؤاد الأول فى كنف الديمقراطيات الأوروبية العريقة خلال حداثة سنه واثناء شبابه ، فانطبع بطابع هذه الديموقراطيات ، وتأثر

جوهره بها ، وقضى بعدئذ ردحا من الزمن يعمل فى سفارة تركيا فى فيينا ، فتأثر بعظمة البلاط النمسوى الذى كان له الشأن الأعظم فى توجيه السياسات الدولية خلال القرن التاسع عشر ، وفقه كيف كان فرنسوا الأول عاهل هذه الدولة يحافظ على حقوقه وامتيازاته صيانة لكرامته مع أن دولته كانت فى ذلك الحين دولة دستورية .

إن تأثر فؤاد الأول بالوراثة ، مضافا إلى تأثره بالديموقراطيات الغربية وبحياته فى النمسا قد خلق منه شخصية ممتازة من الناحية الدستورية ، ولقد لاحت هذه الميزة فى قول مذكرة ثروت باشا الصادرة بتاريخ ٣ ابريل سنة ١٩٢٢ بصدد من تأليف لجنة وضع مشروع الدستور أن رغبة حضرة صاحب الجلالة الملك هى : « تحقيق التعاون بين الأمة والحكومة بواسطة نظام دستورى » . وهذا فى الحق أصح تعبير للحياة البرلمانية التى لا يغشا هاالف ولامداورة . أما الدستور الذى صدر فى ابريل سنة ١٩٢٣ فقد جاء دستوراً قائما على أحدث المبادىء الدستورية العصرية ، بل إنه بزّ جميع الدساتير العالمية حيث جاء مجموعة وعت كل طريف .

فى القانون العام

وهناك عمل ثالث لا يقل فى أهميته عن العملين العظيمين السابقين ، وهو حل مسألة المشروعية حلا سلميا جنّب البلاد مخاطر كثيرة وهزات كانت بحكم الدسائس تؤدى إلى اضطرابات تعوق الرقى الاجتماعى والتطور السياسى خلال فترة الانتقال من حال إلى حال .

عزل الانجليز عباس حلمى باشا خديوى مصر السابق فى ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٤ ، وتولى بعده السلطان حسين كامل ثم السلطان فؤاد الذى تولى الحكم فى اكتوبر سنة ١٩١٧ واحتفل رسمياً بتولية عظمته العرش فى ١٢ أكتوبر

سنة ١٩١٧ حيث خرج فى موكب من قصره بشارع الدرملى قاصداً سراى عابدين ، وجلس إلى يساره دولة حسين رشدى باشا وخلفه الوزراء ، واستقبله فى سراى عابدين الأمراء وأحمد مظلوم باشا رئيس الجمعية التشريعية - وسعد زغلول باشا وكيلها ، والعلماء ومشايخ الطرق وكبار الموظفين والأعيان . ثم استوى على عرش السلطنة المصرية يحف به الوزراء وانتهت التشريفات ظهراء .. وبعدئذ خرج ضبـــاط الجيش إلى ثكنة عابدين وأقسم المسلمون منهم على القرآن والمسيحيون على الانجيل القسم الآتى :

« اقسم بالله العظيم ثلاثا ، وبكتبه ورسله ، وشرفى واعتقادى ، أن أكون صادقاً مخلصاً لصاحب العظمة السلطان أحمد فؤاد « سلطان مصر » ولحكومته السنية ، مطيعاً لجميع أوامره الكريمة ولجميع الأوامر الحقة التى تصدر من رؤسائى منفذا لارادة عظمته فى البر والبحر ، وداخل القطر وخارجه ، معاديا من يعاديه — مسالماً من يسالمه مدافعاً عن حقوق بلاده ومحافظاً على سلاحى لا أتركه من يدى لعدو أبدا حتى أذوق الممات والله على ما أقول وكيل » .

وأقسم الضباط الأجانب قسما خاصا بهم ،

تم التتويج على هذه الوتيرة .

وفى ١٥ مارس صدر الأمر الكريم باعتلاء فؤاد الأول عرش مصر ملكا .

وفى ٢١ مارس سنة ١٩٢٢ صدر الأمر الكريم رقم ٢٥ — سنة ١٩٢٢ الخاص بنظام توارث عرش المملكة المصرية ، فنصت مادته الأولى « الملك وما يتعلق به من سلطات ومزايا وراثى فى أسرة جدنا الجليل محمد على .

ونصت المادة الثانية : « تنتقل ولاية الملك من صاحب العرش الى أكبر أبنائه ثم إلى أكبر أبناء ذلك الابن الأكبر وهكذا طبقة بعد طبقه

وإذا توفى أكبر الأبناء قبل أن ينتقل اليه الملك كانت الولاية الى أكبر ابنائه ولو كان للمتوفى اخوة ويشترط فى كل الأحوال أن يولد الأبناء من زوجة

شرعية . فولاية الملك من بعدنا لولدنا المحبوب الأمير فاروق »
ونصت المادة الثالثة ضمن مانصت على استثناء الخديو السابق عباس حلمى باشا فلا تثبت له ولاية الملك ، على أن هذا الاستثناء لا يتعداه إلى أبنائه وذريته فتجرى فى حقهم أحكام هذا الأمر الكريم .
ولكن رغم هذا الأمر الكريم فان موضوع المشروعية المترتب على عزل الانجليز عباس حلمى بقى معلقا .
قال المغفور له فى المادة الثانية من الأمر الكريم رقم ٢٥ سنة ١٩٢٢ :
« فولاية الملك من بعدنا لولدنا المحبوب الأمير فاروق » فكرة كانت كالشمس فى قيظ الصيف تثير الوجود وتنثر أشعتها الحياة وتنميها . ذلك بان الحب عمادها على نقيض الأفكار المجردة من هذا العامل المخصب فانها كالشمس فى الشتاء تضىء إلى حد ، ولكن الأنسان يموت بردا تحت أشعتها المجردة من الخصب والانماء .
ان الحب الصحيح العامل هو فى الحق رغبة فى التطور والرقى ، بل إنه بداية كل شىء ، وسبب كل شىء ، وغاية كل شىء .
انه بداية السعادة وسببها وغايتها ، ولا سعادة بغير اداء الواجب ، ولا واجب إلا فى العمل والحب العائلى وحب الوطن . واذن فالسبيل الوحيدة للسعادة هى فى اغفال الذات والعمل للغير باتمام موضع اعتقادنا . فالسعداء فى هذا الوجود هم هؤلاء الذى يجنحون إلى أن يكون هدفهم سعادة غيرهم واصلاح موقف الانسانية أو شطر من الانسانية ، ولذلك كان حل مشكلة المشروعية الذى يهيء للأمة المصرية سلاما ورقيا ورفاهة هو الغرض الأول الذى شغل بال الملك فؤاد .
وقف فؤاد الأول من تحقيق المادة الثانية من الأمر الكريم الخاص بتوارث العرش موقف والده من الفرمان الخاص بتولية الأبن الأكبر وابنه من بعده الخ . رغبة فى توفير الراحة لأمته وتجنبها متاعب التشيع لهذا أو ذاك وشر

الزعازع المترتبة على الظروف المفاجئة ، وقد وفق فى حل مشكلة المشروعية توفيقا صان الملك لابنه من بعده ، فقد أقر عباس حلمى الأمر الكريم الصادر فى ١٣ ابريل سنة ١٩٢٢ بخصوص توارث العرش، وهكذا ضمن بالتبعية الملك « للأمير فاروق المحبوب » من بعده ، وختم الشعب بدمائه على رعاية هذا التنازل

وفاة الملك فؤاد

وفى يوم الثلاثاء ٧ صفر سنة ١٣٥٥ الموافق ٢٨ ابريل سنة ١٩٣٦ نعت الوزارة فؤاد الأول بعد عهد حافل بجلائل الأعمال وجسام الحوادث ، ولقد نشرت الوقائع المصرية فى عددها رقم ٤٥ غير اعتيادى النعى الآتى :

إلى الأمة المصرية

فوجئت مصر بفاجعة كبرى إذ انتقل إلى جوار الله مليكها المحبوب حضرة صاحب الجلالة فؤاد الأول فقد قضى اليوم فى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر بسراى القبة .

وان البلاد لتستشعر فى حدادها عليه الخسارة العظمى التى أصابتها بفقده وتبكى فيه أول ملك لمصر المستقلة ، وان الأمة لتتجه إلى ابن الراحل الكريم وإلى أسرته الجاليلة بأخلص العزاء والمواساة .

ولقد كان جلالته للبلاد فى السنين العصيبة، القائد المسدّد الخطى والرائد الموفق ، وكان لها الرئيس المحبوب المبجل . وكان السياسى الكامل الذى نفخ حياة البلاد فى جميع النواحى بقوة مباركة الاثر . وكان الوطنى الذى جعل من حب مصر عقيدة ، ولقد كان يفخر بانه خادم البلاد الأول ، وفى سبيلها تفانى وفنى .

ولم يكن أحب إليه من أن تستعيد مصر ماضيها المجيد .. وبمواهبه الباهرة

وعزمه الصادق رفع شأنها وأعلى كلمتها وزادها كرامة بين الأمم ، ولقد أحاطه شعبه بحبــه واجلاله ، وكان له الاحترام والاعجاب من رؤساء الدول والأمم الأجنبية

وقد أثرت فى صحته الجهود التى كان يبذلها فى سبيل أسعاد بلاده بلا حساب على أنه حتى اللحظة الأخيرة ، وهو يجاهد الموت بقوة نفس أثارت اعجاب من عاده فى أيامه الأخيرة، كانت خواطره مشغولة بمصر ووحدتها ومستقبلها

وستبسط بلا ريب فى جميع أنحاء القطر أكف الضراعة والابتهال إلى المولى القدير ان يتغمده برحمته ورضوانه

وستقدر الأجيال المستقبلة ، بعد ان تنكشف حوادث الزمن أكثر مما نقدر، ماكان لعهد حكمه من جلال وخطر ، وسيحمدونه شــاكرين أثره وسيجعلون له من نباهة الذكر ومكانة الشرف فى تاريخ مصر ما هو أهل له .

على ان الأكرام العتيد المباشر لصاحب هذا العهد هو أن نتوجه مخلصين لابنه المحبوب وأن نجعل له ماكان للأب الجليل من ثقة ومحبة

ولذلك فانه فى الوقت الذى تتجاوب فيه القلوب بصدى الخبر الأليم « مات الملك » يجب أن يلتف المصريون جميعا حول العرش فى ولاء ثابت لا يدركه ضعف أو وهن وأن يحيوا حضرة صاحب الجلالة فاروق الأول وقد نودى به ملكا لمصر

وأن الأمة المصرية التى حبته منذ صغره حبها الصادق لواثقة بأنه سيترسم خطى والده العظيم ويحتذى مثاله عندما يبلغ سن الرشد ، ويصل عمله بعمل الراحل الجليل

عاش الملك

مباشرة الوزارة سلطة الملك

وفى نفس اليوم اذاعت الوقائع المصرية ماياتى

الى الامة المصرية

منيت مصر بفقد مليكها المحبوب وقضى رئيس الدولة

وان أول واجب فى هذه الظروف المحزنة على مجلس الوزراء الذى اضطلع حتى الآن بتبعات الحكم بفضل ثقة ذلك المليك هو العمل على تنفيذ أحكام النظام الذى تلقى مهمته فى ظله

ولذلك فانه ولاء للأسرة المالكة، واحتراما للدستور، وبعدأن نودى بالملك الجديد حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول، يتولى مجلس الوزراء منذ اليوم سلطات الملك الدستورية باسم الأمة المصرية، وتحت مسئوليته حتى الوقت الذى يجب عليه ان يسلم مقاليدها الى مجلس الوصاية

عاش الملك

ترجمة برقية العزاء

المرسلة يوم ٢٨ ابريل سنة ١٩٣٦

إلى حضرة صاحب السمو الملكى الأمير فاروق

من حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء

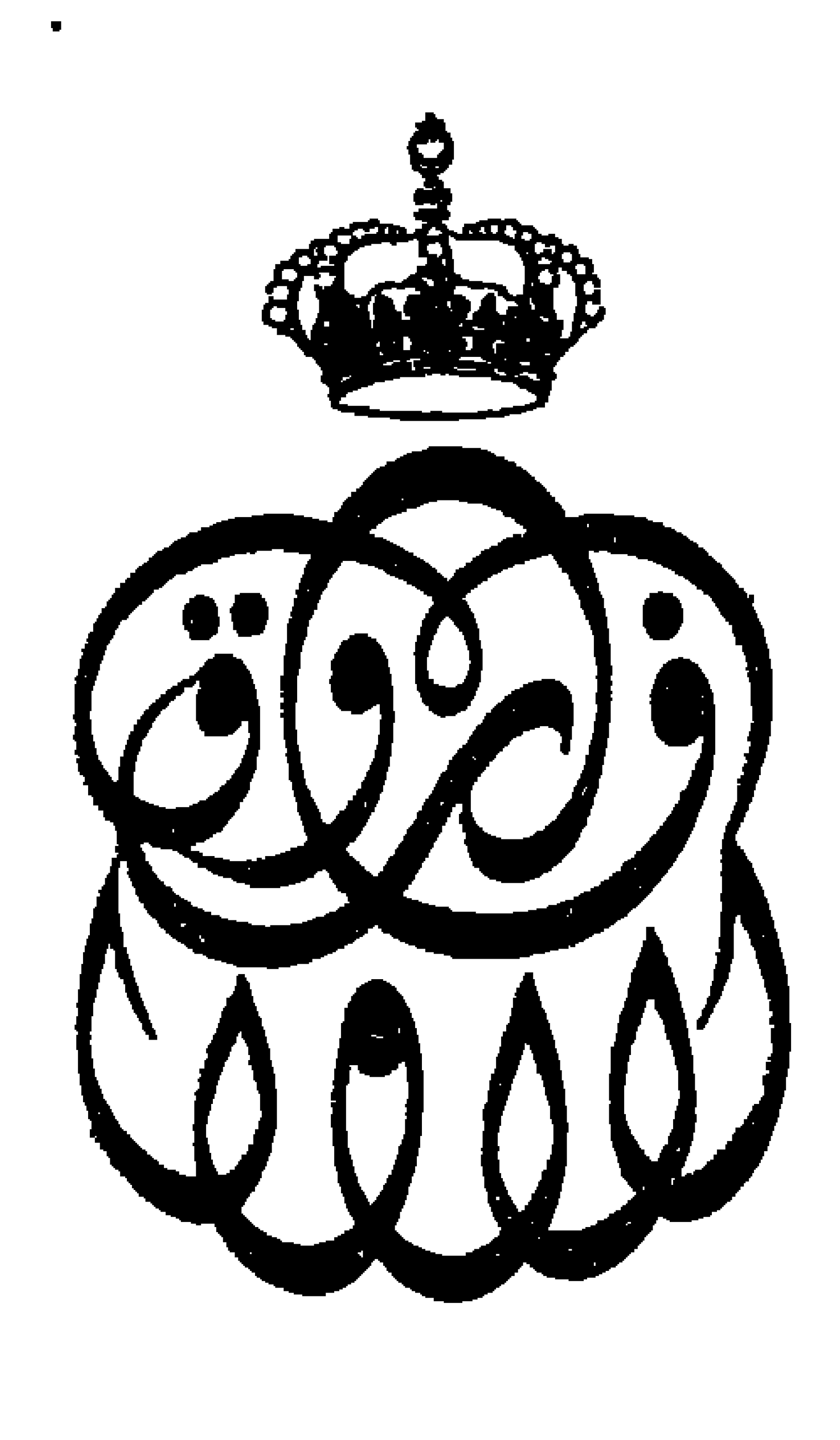
حضرة صاحب السمو الملكى الأمير فاروق

كنرى هوس لندره

أرجو من سموكم الملكى التفضل بقبول عزائى أنا وزملائى وحزننا العميق للخسارة الفادحة التى ألمت بسموكم بفقد جلالة والدكم المحبوب الذى تبكيه مصر بأسرها وتحفظ لعمله المجيد أثراً خالداً لا يمحى ؟

على ماهر

ولقد شيعت البلاد جثمان الفقيد إلى مقره الأخير مستمطرة سحب الرحمه على الراحل الكريم، ذاكرة مآثر عهده فى مختلف ميادين الرقى والعمران والعلوم والمعارف والآداب داعية لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول بالتوفيق فى مهمته، مستبشرة بمقدمه السعيد، موقنة بان حفيد محمد على سينهض بمصر ويرفع بفضل الله ومؤازرة الأمة عرشه فوق الشمس ليزاحم بنوره نورها فيملأ الأكوان بسطوعه . ويضفى على الوجود خصبه



بقلم

أحمد رفيق



من المقدمة

الفصل الاول

نشأة الفاروق وولايته العهد

صاحب الجلالة فاروق الاول هو ابن فؤاد الاول ابن اسماعيل ابن ابراهيم ابن محمد على . ولقد اكتسب بالتوارث جميع غرائزهم مضافا اليها الآثار التى ترتبت مع الزمن على الرقى الانسانى وتطور البيئة وتقدمها فى مختلف ميادين الحياة العلمية والأدبية والفنية ، وهو فى الوقت نفسه ابن صاحبة الجلالة الملكة نازلى حفيدة سليمان باشا الذى شارك ابراهيم ومحمد على بناء الامبراطورية المصرية ، إبان عهد محمد على

لقد عهد محمد على الى الجنرال سليمان باشا بتنظيم الجيش المصرى على الاساليب الحديثة ، فاضطلع بهذه المهمة خير اضطلاع ، ثم اشترك فى حرب المورة وفى حرب الشام والاناضول والحروب السورية الثانية ، وقد عين رئيسا عاما للجيش المصرى واحتفظ بهذا المنصب فى عهدى ابراهيم وعباس ، إلى سعيد باشا وتوفى سنة ١٨٦٠ وقد اعترفت مصر له بالفضل فأقامت له تمثالا بميدان سليمان باشا .

كان سليمان باشا من خيرة الضباط البحريين الذين حضروا معركة الطرف الاغر ، ثم انتقل الى الجيش البرى الفرنسى وحارب الى جانب نابليون فى مختلف معاركه الاوروبية . ولما جاء الى مصر التحق بخدمة محمد على واشترك فى قيادة الجنود وأعجب بهم وأحبهم وقال يصفهم : « ان العرب (يريد المصريين) هم خير من رأيتهم من الجنود ، فهم يجمعون بين النشاط والقناعة والجلد والصبر على المتاعب مع انشراح النفس وتوطنها على احتمال صنوف الحرمان ، وهم بقليل من الخبز يسيرون طول النهار يحدوهم الشدو والغناء ، ولقد رأيتهم فى معركة (قونيه) يبقون سبع ساعات متوالية فى خط النار محتفظين بشجاعة ورباطة جأش تدعوان الى الاعجاب

دون أن تختل صفوفهم أو يسرى اليهم الملل أو يبدو منهم تقصير فى واجباتهم وحركاتهم الحربية » راجع عصر محمد على — للاستاذ عبد الرحمن الرافعى بك جزء ٣ من تاريخ الحركة القومية ص ٣٨٢)

فالفاروق من ناحيتى الوراثة وليد حب المصرى وتقديره كما هو وليد أسمى الغرائز التى تقدم شرحها عند الكلام عن أبيه وأجداده العظماء .

ولكن هناك عاملا طبع الفاروق بطابع حب الشعب ، وكونه من عصارة الديموقراطية الصحيحة وجعل لسانه لا ينطق فى كل مناسبة إلا فى لهجة كلها حنان وحب « شعبي المحبوب » هذا العامل هو حمله إبان نهضة سنة ١٩١٩

فترة الحمل

ولد الفاروق فى اليوم الحادى عشر من شهر فبراير سنة ١٩٢٠ ، فكانت بداية الثلث الثانى من سنة ١٩١٩ هى بداية حمله.

كانت سنة ١٩١٩ سنة استثنائية أشربت روحا خاصاً ،ولقد تجمع فى هذا الروح كل ما يقدسه شعب كريم من أرواح ، ففيه مصر الواثقة بنفسها المعتدة بقوتها ، الذوادة عن حقوقها ، فيه معيار حقيقتنا ، وميزان قدرتنا تعرف به لين عريكتنا أو خور قوتنا ، أو استظهار شبح تجاهلنا أنفسنا ، ونسيان ذواتنا ، وإهمال واجباتنا

لقد كان فى هذا الروح سر حياتنا ، والشرارة المقدسة التى لا تطفئها غير أيدينا إذا نحن أردنا أن نتنكب سبيل اليقظة ، ونتكبكب فى هاوية النوم أو الغفلة

كانت نهضة سنة ١٩١٩ فى أنفسنا ، وليس لها هيكل غير حنايا أضلعنا ، ولا رمز للتعبير عنها غير حركة القلوب ودقاتها ، وأين نعثر على روح مصر الحىّ إن لم يكن فى أعماقنا ؟ وأين نمتع الطرف بتمثاله إن لم يكن فى قرارة النفس منا ؟

لم يكن غرض النهضات المصرية السابقة على سنة ١٩١٩ إلا أن تبعث العصور النائية من مراقدها ، وتسمو بها بعد أن ترفع الأكفان عنها كى تكشف عن حياة لها روعتها وبهاؤها ، أما نهضة سنة ١٩١٩ فكانت الحياة ، كدستها النهضات السابقة ، فهى ابنتها ومجموعها .

لقد كانت نهضة سنة ١٩١٩ هى الحياة ، هى العرق الخصب، الذى روى البقاع المختلفة واختلط بثراها ، عرق الذين سارت مواكبهم فى مصر العليا والسفلى بفئوسهم، وعروق الشجر على أكتافهم ، كأنها فروع الغار تجلوا بها مقدماً شارة للنصر والظفر فى تلك الأيام المقدسة التى اجتمعت فيها الملايين لترسم بالاستقلال ، وتعلن فى وادى النيل حق الانسان .

لقد أرادت هذه النهضة فى أيامها الأولى أن يسود الوئام الوطيد ديارها فكتبت على أعلامها كلمة السلام، كما كتبت الثورة الفرنسية إبان عهدها الأول ، ثم سطرت هذه النهضة على أبواب جهنم آية الحب كما سطرها دانتى الغيبرى .

كان أبطال هذه النهضة فى الواقع ، هم هؤلاء الذين لا يقهر عزيمتهم قاهر ، هؤلاء الذين أرادوا حقن الدماء وتوطيد السلام العالمى باستقلال مصر استقلالا تاماً لا تشوبه شائبة .

ولقد جنحت مصر إلى هذه الفكرة، فكرة الحرية ، فاقتادتها الحرية كما اقتادت الشعوب الحرة التى افتقرت اليها .

ولكن النهضة ليست الحرية وحدها ، وإنما هى بمبادئها ظفر الحق، وبعث العدل، وثمرة الفكرة تجىء فى النهاية لتقيم عرش القانون .

لقد أيقظت نهضة سنة ١٩١٩ تقاليد مصر القوية، سيدة نفسها، وسيدة العالم ، وبدأت بأن زرعت زرعة قوية رابية ، تثمر فى النفس أطيب الأحساسات الانسانية وأسماها ، حتى تستطيع أن تحمل الناس على أن يكونوا إخواناً من تلقاء أنفسهم ، فتصبح الدولة وفاق ما يجب أن تكون عليه : تربية أخوية ، وتهذيباً أخويا ، وحكومة أخوية ، وتعاوناً مشتركا ، وتبادلا عاماً فى النور المتدفق وحده من وحى ويقين وإيمان فى أبها معنى الجمهور ، ومعنى الضوء المنعكس عن عقول المفكرين الذين اكتنزوا العلوم والفنون والفكرة العميقة فى صدورهم .

فهذا التضامن كان له صيحات تتجاوب فى الأرض والسماء والماء ، فى المصالح

والمصانع والحقول والدور ، فتعبدت الطريق أمام الحق وتأهب خلق الله لاقامة صرحه .

لقد أراد الجميع إنصاف الفرد ، وأراد الفرد إنصاف الجميع ولذلك كان روح مصر بعيداً عن الانكماش ، وجعل يمتد ويمتد إلى أن تناول الشرق كله ، وبسط عليه فكرة جذابة فياضة بالعطف والحنان بينما كانت مصر تتقدم رافعة راية السلام، داعية الأمم الشرقية كلها لتشترك فى كنزه العالى : الحرية .

ويلوح لنا أن لحظة الميلاد، لحظة بدأ الحياة هى سبب من أسباب الأنانية المشروعة لدى كل مخلوق . ألا ترى إلى المولود وكيف يريد أهله أن يبقى ويعيش قبل كل شىء . .؟ ولكن أمر موقفنا السياسى لم يكن كذلك الموقف الخاص .

إن الحرية المصرية الوليدة ، عندما فتحت عيناها تماماً لأول مرة ، وعندما قالت أول كلمة سلبت بها عقول الخلائق : « هاناذا وجدت » وأقامت الدليل على هذا الوجود بتضامنها الفذ فى تاريخ العالم ، عندئذ لم ينصب كيانها على ذاتها ؛ بل إن فكرتها التى لم تقتصر على أن تتناول غبطة فردية محدودة ، قد امتدت وشملت حياة جميع المصريين وآمالهم . بل قد تكون انطوت على حياة الشرق وآماله حتى لقد كانت أول حركة من حركاتها أن فتحت ذراعيها ونادت فى لين وعطف ووداد . « هاأناذا وجدت أيها الشعب ، فلتوجدوا أنتم اخواناً»

اختصت نهضة سنة ١٩١٩ فى بدايتها — حيث كانت نهضة شعبية لادخل للأنانية الفردية ولا للأنانية العائلية فيها — بجاذبية وسحر وعطف الزمت الاجماع بأن ينعقد على حبها والولاء لها، فابتسم لها وحياها تحية كريمة . لأن هذه النهضة كانت عبقرية إنسانية بعيدة الغور ، جذبت الناس اليها وجعلت خطواتهم مرتبطة بها ، فقد شجعها الجميع واضرم نارها ودافع عنها وطرب لها ولذكرى أيامها الأولى وأعيادها الصحيحة ، التى تقع فى أيام كتلك التى كان فيها شعب بأسره ، الممثل والشاهد الذى يهب تيار الحياة والحماسة الأدبية ويسترده ، وكان فيها كل قلب يتسع اتساع مصر ، ويمتد امتداد الوطن الذى أعلن حق الأنسانية الشرقية وهو يعلن حقه الخاص.

إن هذه الأيام أو ذكراها تعيد للنفس صورة الحرية البهيجة ، صورة القانون

الطبيعي ، حيث كنت ترى المواكب التى ضمت نخبة المصريين من قضاة ومحامين ونواب ، ومن خلفهم اليتامى والثكالى والايامى والأرامل فى الميادين والشوارع والازقة والقري السحيقة والحقول النائية ، وعلى جوانب وفى وسط هذه المواكب المختلفة التى أشارت إلى الحياة الجادة المنتجة النافعة ، شارات خاصة بالزراعة والحرف النبيلة المختلفة . فقد كنت ترى أفرع الشجر مثقلة بالثمار .وأدوات الحصاد فى يد العامل القوى ، وعلى رأسه تاج من الخضرة علامة السلام ، وقد نبت فيه زهر الليمون رمزالعفة والاخلاص . ولكننا كنا نرى عمالا آخرين يلبسون أردية الحداد غشيت مستطيلا مدببا نحسبه سيفا مردوداً إلى غمده وظنناه نحن لاول وهلة سيف القانون .

كان هذا المنظر وحده فوزا ، فالعدالة التى تلوح بسيفها الحزين لم تفترق عن الانسانية ذاتها .

إن النهضة دولة يسودها القانون، ويستظهر فيها الحق ويصول فى نواحيها القسطاس المستقيم . ولقد قام قانون النهضة المصرية من عهد بونابرت الى عهد مصطفى كامل وفريد على الفضائل السماوية وعدالتها، كما قام هذا القانون ذاته على أركان الوطنية الصحيحة الاخرى كالدين والتقاليد واللغة والفنون والآداب والعلوم . ولقد استمرت النهضة المصرية فى سنة ١٩١٩ وهذا القانون يحكمها الى أن أصبحت نهضة شخصية او ثورة عائلية

ان الأديان عنصر من عناصر النهضة ، فاذا انعدم انعدمت الوطنية إلى حد بعيد ، ولا نزاع فى ان بداية نهضة سنة ١٩١٩ قد قامت على فضائل الأديان مادامت قد وقعت تتمة لنهضات مصر فى أيام الحملة الفرنسية وأيام محمد على وابراهيم واسماعيل

ان فضائل الدين وفضائل السياسة لها جذوع مختلطة اختلاطاً لا يمكن تحليله ولا فرز عناصره أو التفرقة بينها ، ولقد اختلط كل من فضائل الاديان وفضائل السياسة فى الماضى ولا يزالان مختلطين رغم المزاعم القوية بتبجحها ،وسيظهران غدا كما كانا فى السابق وحدة تامة لا انفكاك للحمتها ، فالاختلافات العتيقة التى شجرت ولا تزال

تشجر بين الاشتراكيين وغير الاشتراكيين ، والمبادىء المصرية التى تظهر فى هذا الثوب على أعين الذين يفكرون بين جدران عقولهم، دون أن يجوبوا بها أقطار الماضى ويتغلغلوا فى أحشائه ليرتادوا مجاهله ، هى فى الواقع مبادىء قد اثارها الوثنيون والبوذيون والاسرائيليون والمسيحيون والمسلمون ومختلف مصلحى العالم ، وسائر النهضات قبل أن تثيرها نهضة سنة ١٩١٩ المصرية، فرغما من ثوب الرقى الذى ارتدته النظريات أو استطاعت أن ترتديه المبادىء فى ظلال تدفع الانسانية فى ميدان المزاحمة ، ورغما من الاشكال الحديثة ، والاوضاع الجديدة التى اتخذتها القواعد البشرية ، ورغما من الكليات المصطنعة المختلفة الجوفاء التى ابتكرتها العقول المزهوة فاننا لا نرى مثيراً للهمم وشاحذاً للغيرة ولا سيالا كهربائيا يقتاد الانسانية فى الاحوال التى يريد فيها العقل والقلب والروح اداء الواجب، غير الفضائل الدينية

لقد وجب على كل من يحاول وصف حياة الازمة التى تنبت خلالها فكرة جديدة أن يسائل هذه الفكرة عن علاقتها بالافكار السابقة عليها ، وهل هى استمرارها وتوسع فى ذيوعها ومد فى سلطانها ، أوهى قضاء عليها ومحو لآثارها حتى يطمئن الى المصير ويخلد الى راحة الضمير ، ويعلم ان الفكرة الجديدة هى حلقة تولدت عن سلسلة أفكار ذرعها الدهر كله ، وماقام الدهر من بدايته حتى نهايته الا على فضائل الاديان ، واذن فنهضة سنة ١٩١٩ قد قامت على فضائل الاديان، لانها قامت على العدالة ، وما أساس الاديان الا العدالة .

انها قامت على فضائل الاديان لانها بثت الاخاء ، تلك الكلمة الحلوة التى قالت بها الاديان وعملت على مقتضاها منذ بدء الخليقة ، حيث تكلمت الدول الشقيقة عن الاخاء .

لقد قالت نهضة سنة ١٩١٩ بالاخاء ، فكان المصريون اخوة مادام المؤمنون أخوة . وقالت نهضة سنة ١٩١٩ بالحرية ، فكان المصريون احرارا قبل أن يكونوا اخوانا، لان الحرية أساس الاخاء وإذن فالمساواة هى من فضائل الاديان :

وقالت نهضة سنة ١٩١٩ بالمساواة، فكان المصريون متساوون قبل أن يكونوا

اخوانا ، لان المساواة أساس الاخاء واذن فالمساواة من فضائل الاديان .

ومتى تم تكوين هذا المثلث الماثل فى كل ضلع من أضلاعه إما الحرية أو المساواة أو الاخاء قام الحكم على الديموقراطية الصحيحة ، وإذن كان الحكم الديموقراطى من فضائل الاديان :

ان الانقلابات والثورات والنهضات كلها عوامل تؤثر فى الجنين تأثيرا عميقا ، ولا سيما اذا جاءت هذه الظاهرات فى سبيل الحق والعدل والقانون ، أو العظمة والمجد . ولقد رأيت فى المقدمة (صحيفة ١٥ وما بعدها) كيف كان تأثير هذه الظاهرات فى أبناء رجالات الثورة الفرنسية الذين حاربوا فى صفوف نابليون ، واذن فلا عجب اذا انطبع الفاروق بطابع دين القيمة الذى ترتب عليه قواعد النهضة المصرية فى سنة ١٩١٩ ، بل ذلك الدين الذى كانت جوامعه موئلا احتمت به تلك النهضة فى بدء حياتها لترد عنها العادية وتذود عن أغراضها السامية ، وإذن فلا بدع اذا نحن رأينا الفاروق على نفس تأصلت الديموقراطية فيها وارتبطت ارتباطا وثيقا أساسه تدفق العواطف الكريمة من قلب يدق لمصر دقات منسجمة ودقات قلب مصر ليوقعا معا نغمات الحب المتبادل والاحترام المؤسس على تعرف أقطار الحقوق والواجبات .

ولكن ذيوع النهضة المصرية وامتداد سلطانها ونفوذ قواعدها التى استمدت من فضائل الاديان ، كل أولئك لم يقف بالفاروق عند حدود بلاده وانما جعله فى الشرق عامة كما هو فى مصر خاصة ، أبا رحيما وأخا شفيقا ومرشداً وقائدا يطاع ، وإماماً أملى الخضوع له اتحاد المزاج وتوافق الغرائز والميول والأمانى والآمال ووحدة الخواطر والغرض الاسمى المستمد من وحدة الله .

ميلاد الفاروق

أشرق الفاروق فى أفق الاسرة العلوية فى ١١ فبراير سنة ١٩٢٠ فتهللت الوجوه وفاضت بشرا وهتفت الألسن بصالح الدعوات .

فتح الفاروق عينيه الساحرتين الحلوتين الساطعتين فاكتحلت منها عيون الاسرة السحر والحلاوة والسطوع .

أما الوالد الذى أثقلت مشاغل السياسة جبهته، فقد أفرغت سحابة الهموم ماءها فى تلك الساعة ، وأشرق النور فى جبينه أمام إشراق جبين الطفل البرىء المرح . فأمر باطلاق ٢١ مدفعا إيذانا بهذا العيد السعيد فى القاهرة والاسكندرية ، وتبرع جلالته بعشرة آلاف جنيه لفقراء القطر ، وبألف وستمائة جنيه للجمعيات الخيرية ، وبثمانمائة جنيه لشراء ذبائح توزع على البؤساء .

سرى الخبر كالبرق فى جميع أنحاء البلاد ، فكان الفرح ينتشر انتشار الخبر وينفذ الى النفوس فيهزها .

لقد كان القمح ينمو يومئذ ويربو وتشتد سوقه ، وتتهيأ سنابله ، فدعا الناس ربهم أن يتم على المغفور له فؤاد الاول نعمته فيصيب سنبلات سبع فى كل سنبلة مائة حبة فاستجاب الله الدعاء .

وتحدث الناس فى قدرة الله وفى الوطن ، وفى المستقبل ، وفى المصير ، وجعلوا يصلون لله ويسجدون واليه يسعون ويحفدون ، داعين للفاروق أن يبقيه الحق جل وعلا للوطن يعلى معالمه ، وللجميل ينمى مكارمه ، ويديم له المواهب ، سامية الذوائب ويسخر الليالى والايام مطايا الى أمانيه وآماله .

ونام الوالدان الاعزان فى المساء ، وسرح العقل فى ميدان الاحلام ، ولما شعرا بتنهدات الطفل وكأنها خرير رذاذ الندى بين ورق الاشجار خالا نور الفجر ينبثق ، ووضاحته تترامى فى الحقول لتوقظ جوقة موسيقية جمعت بين الطيور والعصافير ونواقيس الكنائس ومؤذنى المآذن ينادون جميعا حى على الصلاح ، حى على الفلاح ، الله أكبر ، الله أكبر ،

وفى الحق ان الفاروق كان الفجر ينبسق نوره ليفرغه على القلوب ينعشها ، ويسلك الحماسة فيها ، ويحيي الأمل فى مناحيها ويعلن للوجود معنى التعاقب والخلود .

وكانت روح الوالدين هى السهل المنبسط يتلقى أشعة الفجر الأولى فتهتز

رياحينه ووروده وينتشر عبيق طيبها مع أبخرة الصباح فتتضوع به مختلف الارجاء.

وكانت أرواح الرعايا هى الغابة تمتلىء أوراق فروعها بنفحات الخفيف الندى والاشعة الذهبية . ثم هاهو الطفل:

عينان طاهرتان مليئتان بالملاحة والسحر ، ويدان صغيرتان مباركتان فرحتان لم يرتكبا ضرا ولا شرا ، وقدمان لما يمسا أوحال الارض .

والرأس المقدسة ، رأس الملاك الطاهر أحاطت بها قلادة ذهبيـة ، هى حمامة العرش ، أقدامها لدنة لينة لا تقوى على المشى ، وجناحاها من زرقة السماء يعسر عليها التحليق .

كان هذا الطفل ينظر الى العالم دون أن يفهم له حديثا ، ولكنه اذا ما تحدث فقه العالم حديثه ، لان ابتسامته البريئة العذبة ، وصفاء نيته ، وصوته الذى يريد أن يقول كل شىء ، وبكاءه الذى يهدأ فى سرعة ، كل أولئك لغة عالية يفهمها الجميع ولكن لا تتكلمها غير الاطفال .

فما أجمل الطفل وهو يدع نظراته تضل فى الوجود دهشة ذاهلة .

ما أجمل روحه الفتية تتقدم الى الحياة ، وفمه الى القبلات ، وكأنه فى هـذه الحركات يدعو الله أن يحفظ له من يحب : والديه وأخوته وأقاربه وأصـدقاءه وأعداءه أيضا حتى لا يكون الوجود مجردا من الأزهار ، ولا تكون الاقفاص خلوة من العصافير ، والخلايا من النحل والمنازل من الأطفال . والدول من ولاة العهود .

ولى العهد

بين ذراعى والدته

للسيدات نفوذ عظيم فى الحياة الخاصة ، فسعادة الاسرات معلقة بهن الى حد كبير ، ذلك بأن استكمال هذه الحياة ، وايقاظها ، وتجميلها ، وتطهيرها هى أعظم مهنة فى الوجود .

ان السيدات هن عماد العائلات ، لانهن اللواتى ينظمن تفاصيل الحياة المنزلية ،

ويحددن كل مايمس النوع الانساني ،عن قرب أو عن بعد .

فأنت تجدهن من الناحية المادية العامة،قوام الصحة والعناية بالاحتفاظ بالثروات، اما من الناحية الاخلاقية فانهن سيال العواطف يجرى ، وحياة الروح تدب ، ومحرك الأعمال الدائمة ، واذن أنت ترى أن عليهن أداء رسالة قد تكون غامضة تلقاء مصائر الامم وتقلباتها ، ولكنها مع ذلك رسالة بعيدة المدى مترامية الاطراف . فهناك مزايا للامم لا تلوح ولا تستظهر فى الشعوب، إلا اذا بذلن جهدا فى إنمائها . فاذا أنت استبعدت من أقطار الجماعة المواهب التى وهبتهن القدرة الالهية، تضاءلت ذخيرة الانسانية ، وضعفت مؤونتها .

فالسيدات ولدن اساتذة المجتمع، فبينما ترى اخلاق أصحاب السيادة المستقبلة وديعة فى أيديهن، ترى آلاف الامثلة التى يضربنها يوميا ، والرواء الذين ينشرن ليستغشى مصائر العصور ، هى فى الحق اساس اصلاحات جديدة تدخل يوميا على الانسانية .

على انك تستطيع ، من ناحية اخرى ، أن تدرك ادراكا صحيحا أن أثر المواهب المتأصلة فى السيدات وتحكمهن، هو فى الواقع أثر لا قبل لك على أن تشبهه الا بأثر اصواتهن العذبة فى جوقة موسيقية ، فهو رجع نقى طاهر لا يتسنى لك سماعه إلا منهن . فهن لا يضفن مجالا جديدا الى المجال العادى للافكار والعواطف فحسب ولكنهن يقلدن الرجال انفسهم سلطانا يمكنهم من التعبير عن الفوارق بين الاختلاجات ، تلك الفوارق التى ما كان الناس يشعرون بها أو يميزونها لولا وجود السيدات . واذن فأنت تستطيع ان تحكم بانهن يزدن الثروة الادبية العالمية بسبب المواهب التى أولتهن القدرة الصمدانية أو بسبب المواهب التى يعملن على انمائها .

إن تثقيف العقل تثقيفا صحيحا لا يستدعى اهمال الناحية القلبية ، ومن الواجب علينا أن نعلم أن مناقب القلب هى تلك التى نبغت فيها السيدة نبوغا عظيما . إنها مصدر اشعاعها وسطوعها ، بل إن هذه المناقب هى كنز العالم جميعا ولكن طهارة

القلب وطيبته وشفقته وحنانه ورحمته، كل أولئك لا يكفى السيدة ، بل من الواجب أن يكون هذا القلب مصدر السمو والكرامة، حتى يستطيع فى أوقات المحن أن يساند الزوج ويعاونه ويشجعه على اتخاذ أجل القرارات واحزمها ، اذا ما تطلبت الظروف ذلك . وليس معنى هذا أن للسيدة أن تتدخل فى السياسة ، ولكن معناه أن الواجب يقضى عليها أن تلم بالسياسة .

ان رسالة السيدة فى المنزل ، إن التعاون مع الزوج وتأييده وتربية أطفاله كل هذه المهمة لا يمكن أن تؤديها السيدة على أتم وجه اذا هى بقيت غير مكترثة بالسياسة . على أن من يتدبر مليا فى المهمة التى تبذلها السيدة فى صقل حواس الطفل وفى أمد هذه التربية القاسى ، ويتأمل طويلا الاختلاجات الاولى التى يحسها الطفل ، يرى أنها وحى الام ، ولا يتردد لحظة فى أن الام تحمل مصائر الامة بين يديها الضعيفتين الى جانب أخلاق شعب يتربى ويتهذب .

وهكذا كانت مهمة جلالة الملكة نازلى والدة فاروقنا الاعظم فى الايام الاولى من حياته الطويلة السعيدة باذن الله

فقد حملت مصائر الامة المصرية بين يديها، وعنيت كل العناية بصحة الفاروق كما عنيت بصقل اختلاجاته واحساساته الاولى، والسمو بعواطفه حتى لتراه اليوم مخزنا يفيض بالعواطف الكريمة التى نقر بعجزنا عن وصفها أو عن الالمام بمجموعتها إلماما تاما ولكن الى جانب فضائل جلالة الملكة فى ميدان تربية ولدها العزيز نجد فضيلة الحزم مع العدل التى تجلت فى جلالتها واشبعت بها الفاروق، حتى نبت وترعرع قويا مستقيما .

لقد رأت جلالة الملكة ان الام هى ضمير الطفل الظاهر فاذا هى فرطت فى رقابته أو تركته ألعوبة بيد الاهواء ، أو تهاونت فى ملاحظته ونبذت الارشادات القاسية أحيانا، فسد ضميره .

لم يكن الحزم وحده هو الوسيلة التى عولت عليها جلالتها فى تربية الفاروق فقد رأت أن الحزم وحده لا يفى بالغرض ، وأن الواجب يقضى باستبعاد التراخى والرخاوة حتى تتجرد حياة ولدها العزيز من النعومة وتكون أميل الى التقشف

والزهد فى النعيم المثير لشهوة الترف ، وبذلك كانت جلالتها القدوة الحسنة للامهات.

فاذا أرادت الامهات أن يتكون أولادهن رجالا منذ المهد ، يحتقرون عميقا الحاجات الانسانية البهرج التى شاعت وذاعت فى الجماعات فامامهن المثل الاعلى الشاخص فى جلالة الملكة الوالدة يحتذينه ، ومتى علمن ذلك فقد كان خليقا بهن أن يدخلن على تربية أولادهن شيئا من التقشف والزهد والخشونة حتى يتعودوا الطاعة ، لان اعتياد الطاعة يجعل من الرجال وطنيين أقوياء أشداء حازمين ، ولا غضاضة ولا عيب فى أن يطيع الانسان والديه ، لأن التضحية ليست إلا تضحية مزية تلقاء كسب هو أداء واجب .

إن النفوس الذين يتربون على هذه الوتيرة ، ويسنون فى ذلك القالب هم فى الحق الذين يفقهون المعنى الصحيح للكرامة الانسانية ، لان الواجبات التى تلزمنا أن نحنى الرأس ، تلزمنا فى الوقت نفسه أن نرفعه .

فى حضانة الوالد

ولما ترعرع الفاروق واشتد وبدأت طفولته الاولى سادت عناية الوالد ، ورباه أحسن تربية ، واختار له أفضل الاساتذة وأرسخهم فى أساليب التعليم ، وحتم عليهم أن ينادوه باسمه مجرداً من لقب الامارة خلال الدرس ، فكان هذا الامر الذى قضى بمحو الفروق والميزات ، حتى لا يرى الاستاذ أمامه غير تلميذ عادى ، سببا فى تكوين الريحانة تكويناً صحيحا ، وبذر بذور الديموقراطية فى هذه النفس النبيلة وطبعها بطابع الدين ، وتقاليد الاسرة وحب الشعب ، حبا وثيقاً مكنت له الصلة الطبيعية التى ربطت بين الشعب وبين الفاروق منذ حداثته .

ولقد أفرغ المغفور له فؤاد الاول جهده فى أن تكون نشأة ولى عهده نشأة علمية تتفق ومصيره فوضع مع رجال التعليم برنامجا راعى فيه أن يتدرج فى التعليم

شأن غيره ممن فى سنه ، ولكن إقبال عبقريته جعله ينال من برامج الدراسة قسطا وفيراً لا يتسنى لغيره ممن هم فى سنه أن يحصلوه ، فكانت شهادة الاساتذة عن هذه الناحية كما كانت فى غيرها من النواحى ، فطنة وذكاء وذا كرة واجتهاداً.

بدأت تربيـة الفاروق قبل السابعة على وتيرة رياض الاطفال ، مع تعديلات تتفق والمركز السامى . فهى اذن كانت تربيـة رياضية يتخللها تعليم القراءة والكتابة،فكنت تراه تارة ممتطيا جواداً أو مهرا والى جانبه مربيته ، وطورا تراه فى قارب أو على الشاطىء يلعب مع اخوته، وأحيانا تجده قد انقطع عن المطالعة يبتسم للمصور

ولما بلغ السابعة ، وتجاوزها،اختار له المغفورله والده اثنين من الاساتذة لتعليمه اللغة العربية والرياضيات واللغة الانجليزية .

واذا أنت رجعت الى الثقات وجدتهم يرون أن نبوغ الفاروق يثلج القلب ويطمئن على المصير .

فقـد أبدى ولى العهد فى تعلم اللغة العربية والادب العربى شغفا عظيما تجلي فى إجادة القراءة فى فصاحة وبلاغة دلت عليها الكلمات التى ألقاها امام المـذياع فى مناسبات عدة ، فقد كنت ترى البلاغة متدفقة والمقاطع منسقة ، والنبرات حلوة عذبة كالنغم .

وكذلك كان الشأن فى الرياضيات ،فقد ألزم نبوغ الفاروق أستاذه أن يقول: «إنه أمام طالب خبير، يسبقه الى فهم خصائص الأشياء.» وفى الواقع انك اذا جمعتك محاسن المصادفات وتفضل جلالته فحادثك عرفت أنه ينتزع صورة مافى صدرك وعقلك قبل أن تتم حديثك . .

أما تلاوة القرآن فقد اعتادها جلالته منذ حداثة سنه ، ولذلك شب على هذه المطالعة اليومية فى خشوع وانعام، وجعل يقتنى المصاحف الخطية . ولقد نقل أنه قال لاستاذه : « إني لا تعشق اللغة العربية ، وان أحب شىء إلى هو تلاوة القرآن »

ولا نزاع فى أن هذه الطريقة العلمية كانت ذات أثر كبير فى الفاروق ، وأن شغفه بالتعليم كان ولا شك عاملا قويا وضع على رأس مصر تاجا من الكرامة وفير السطوع .

إن التعليم وحده كرامة. فالانسان المتعلم هو رجل أكثر رجولة منه قبل أن يكون متعلما وهو يشعر بذلك، وهذا الشعور إن لم يغير الجوهر النفسى تغييرا تاما فانه مع ذلك يدعم غريزة الخير ويمدها بروح تقوى بها على اضعاف غريزة الشر وإخضاعها و إذلالها . إذ ليس من سلطان فى الوجود يقوى على ذلك، خلاف العلم الصحيح . فالرجل الذى يخدع نفسه ويستغل الناس لايحاول أن يستثمر سفسطته وأوهامه متى عرف أنهم على جانب من النور والعلم يؤهلهم لفهم الحقيقة ، لانه يدرك مقدماً ان سلطان سفسطته وأوهامه عاجز عن أن يؤثر فى نفوسهم .

إن المستخلص من المنهاج الذى وضعه المغفور له الملك فؤاد الأول لتربية ولى عهده، قام على ان الغرض السامى من التربية ليس تهذيب الأطفال طبق حاضر النوع الانسانى ، ولكن وفق فكرة ترمى إلى السمو بحال المستقبل . أى وفق فكرة الانسانية ومصيرها التام ، ومعنى هذا هو إعداد الأطفال لحياة كاملة .

لذلك رأى الوالد أن أساليب التربية هى أساتذة الاستاذ، وان العلم الذى يراد تلقينه فى المدرسة لايجوز أن يكون مسألة ذاكرة ، أو تبحر ، أو علماً للعلم ، وإنما مسألة تثقيف ذهنى وأخلاقى ونفسى . فاقامة التوازن بين مختلف فروع التعليم بمعرفة الفروض الجوهرية لكل منها ، دون التفاصيل التى تفرغ التشويش والاضطراب على العقول ، هى مهمة التربية .

فجميع بذور العلم النافع التى يبذرها التعليم فى نفس الطفل لاقيمة لها إلا إذا عهد إلى التربية بانمائها، حتى تفرغ عليها الخصب والنماء بامداد من حرارة المشاعر والاحساسات الطيبة ، ولقد صدق ذلك المربى القديم عندما قال : « إن عقل الطفل ليس إناء أعد لان تملأه، وإنما هو مركز يجب علينا أن نقوم بتدفئته »

فالغرض من التعليم ليس تجميل الرأس بالأثاثات الفكرية ، وإنما الغرض منه أن يتعلم المرء أن يصوغ أفكارا خاصة . والغرض من التربية ليس هو طبعنا بطابع كائن آخر ، ولا هو أن نحمل التلميذ علي أن يخرج من نفسه صورة أخرى لاستاذه، وانما الغرض منها أن نسهل انماء الحيوية الفكرية والادبية فى التلميذ .

فالافكار الجوهرية والاصول المبدئية، هى تلك الضرورية لكل انسان فى بداية حياته ، وهذا هو الذى اتبع معولى العهد فى تلقينه العلم ،وهذا مااستمر على اتباعه ، فهو لا يزال إلى الآن يقتنى من الكتب ما اختصت بالمبادىء دون التفاصيل، كمختلف الموسوعات .

رياضى بالفطرة

كان المغفور له الملك فؤاد الاول يوقن بأن ولى عهده رياضى بالفطرة ، لأن أصوله كانوا رياضيين،وجنسه كان ولا يزال مولعا بالرياضة . ولكنه أراد أن يكون تدريبه وسيلة لتهذيب هذا العنصر الاخلاقى وفاق مقتضيات الزمن. فلما بلغ الفاروق الثامنة من عمره ، عهد الى أحد كبار الضباط تلقينه التعليم العسكرى فلم يلبث الفاروق أن أتقن فن الفروسية وأدهش مدربه ببراعته فى هذا الفن، وحذقه إياه . وكذلك اتقن مختلف الالعاب الرياضية خلال التعليم العسكرى ، ومن هذه الألعاب لعبة « البولو » زغم صعوبتها واستحالة اتقانها، اللهم إلا اذا كان من يمارسها من فحول الفرسان العسكريين الممتازين .

أما العدو والوثب فقد نبغ فيهما نبوغا عظيما،وحدث ولا حرج عن لعبة السيف وتسلق الاشجار والسباحة والتجديف والتنس والملاكمة وكرة القدم والاسكواش راكت

أما الرماية فقد قال صاحب السعادة اللواء ابراهيم خيرى باشا بصددها :
« فقد بلغ من تفوّقه فى اتقان التسديد وإصابة الهدف أنه كان يصيب العصفور بين عينيه ببندقيته الصغيرة ، ولم يقع ذلك مرة واحدة فقط فتنسب إلى المصادفة ، بل تكرر مرات متعدّدة »

أما فى أوروبا فقد شهد مدير كلية «وولوتش» الحربية بانجلترا ، أيام كان يتلقى ولى العهد العلم فيها بقوله: « إن سمو الامير فاروق قد كوّن لنفسه شخصية رياضية ممتازة لا تقل عن شخصيته الممتازة كأمير ، وانى أعتقد ان الأيام تدخر لسموه مستقبلا فى حياة النهضة المصرية تبلغ فيه أمته ما تصبو إليه من المكانة العظيمة فى الشخصية الدولية . »

ولقد أقيمت مباراة رياضية كبرى فى « ولنجتون » فى سبيل إحراز « كأس البلدية » ، واشترك فى هذه المباراة فرسان المدرسة وجماعة كبيرة من النبلاء والشبان الذين دفعهم إلى الاشتراك فيها أملهم فى الحصول على تلك الكأس ، فكان ولى عهد مصر أسبق المتسابقين ، فقد تخطى الحواجز دون أن يرتكب هفوة ما ، وصار موضع إعجاب الجماهير المحتشدة وهتافها وتصفيقها لما أبداه من مهارة ولباقة ودقة ، مما أشادت به الصحف البريطانية فى حينه .

تفوّقت العبقرية الرياضية فى الفاروق حتى أنه اتخذ من جميع الفضائل رياضة ، فالإحسان عنده رياضة ، والاخاء الانسانى رياضة ، والعمل والكد والجد رياضة .

وقصارى القول ان المغفور له الملك فؤاد فرض على ولده أن يكون أميراً ثم ملكاً ، وملكاً ديموقراطياً ليفرض بدوره على حاشيته وبلاطه ، ثم على أمته أن تقدر الفن والعلم ، والفنانين والعلماء كما فرض عليه أن يغزو مختلف الطبقات ، وبهذا يصوغ البلد فى نموذج فاروقى يخضع للغرض الاسمى النزيه العاطفى الذى تملك عليه قياد روحه .

رأى الملك الراحل الكريم ان يربى الأمير أحسن تربية يترتب عليها سعادة العالم ، لا سعادة قطر واحد ، ولذلك وجه ولى عهده فى سبيل الخير الانسانى ، وأشربه روح التقى والصلاح لتتم بذلك نعمة الله على مصر ، وعلى العالم بالتبعية .

فلما بلغ سمو الأمير فاروق أشده ، سافر فى النصف الأخير من سنة ١٩٣٥ ، فى رعاية الله ، إلى انندرا لاتمام التحصيل .

ولى العهد فى لندرا

عنى المغفور له فؤاد الأول بانتقاء البيئة التى يعيش فيها الفاروق خلال إقامته بلندرا . ولقد كان على رأس هذه الهيئة حضرة صاحب السعادة احمد محمد حسنين باشا « متور هذا العصر » الملقب برائد صاحب السمو الملكى ولى العهد .

إن حسنين باشا هو ابن فضيلة المرحوم الشيخ محمد حسنين أحد كبار علماء الازهر الشريف ، وقد أقام فى شبرا ونحن فى شبابنا الاول ، أما جده فهو الضابط العظيم احمد حسنين باشا ، وكان من كبار رجال البحرية المصرية فى عهد الخديو توفيق ، وأصله عربى ، وكانت والدته شركسية ، فهو اذن عربي شركسى ، أنه كان ، وهذا جنسه المزدوج ، دما جبليا طهره الهواء الطلق ، وحده زرقة الافق فى نهاية اليباب ، أو مدى النظر خلال العباب ، انحدر من سلالة هؤلاء الذين لا يهدأ لهم بال ، ولا يسعد لهم حال ، إلا اذا امتطوا صهوات الصافنات ، وبلغوا من الجبال الذروات ، وحدقوا من الذروات فى الهاويات ، ثم اجتازوا أوعر المنزلقات ، ليترجلوا بين أوليائهم وأوفيائهم ميممين شطر قيناتهم وسط الرياض الشاسعة رقت حواشيها ، وتأنق واشيها ، فأخرجت للوجود أسرارها ، وأظهرت للعالم آثارها ، وأسدلت على المحبين أزهارها ، وخلعت على الكون أثواب آزارها ، تنفس عن أطيب أريج ماطر ، وتسفر عن شذا كريم عاطر ، حول أنهار متدفقة ، سادها النعيم ، وعيون مترقرقة ، غشيتها الاشجار ، تسمع من فوقها ترديد الاطيار ، أحن من نغم الاوتار ، وأرخم من عزف الرباب والمزمار .

ومن هنا كان جمال نفس حسنين باشا وكمالها ، ومن هذه البذرة نبت الرجل الرياضى فاذا أنت أضفت الرجل الرياضى العربى الشركسى ، الى الرجل الحربى الازهرى ، إلى خريج اكسفورد الذى عكف على تلاوة كتب التصوف ، وراض نفسه عليه ، كما عكف على تلاوة الكتب السياسية والاجتماعية ونظم الدول ، فهمت أن أخلاق حسنين باشا مزاجا من الفروسية والمخاطرة والايمان والصبر وحذق أفانين

السياسة والكياسة وكتم الاسرار .

لقد كان للامراء وأولياء العهود أساتذة ، فكان أستاذ « ألبير » زوج الملكة فكتوريا ، البارون «ستوكمر» Stockmer الذى ربى أيضا ولى عهد فكتوريا الملقب فيما بعد بادوارد السابع .

وكان «ستوكمر» طبيبا محترفا ، ومربيا للامراء بالغريزة ، وصديق الملوك الحميم وصانعهم ، كما كان من أنصار عظمة « آل كوبورج » ونصير الوحدة الالمانية . واذن كان ستوكمر « مازاران» Mazarin وانما فى أسرة لا فى دولة ، ولكنه مع ذلك قد نقصه بعض من صفات رائد الفاروق الاعظم ، وهى صفات يصح أن يكون الرائد بمجموعها معملا كيميائيا أخلاقيا ، ومع أن المغفور له الملك فؤاد الاول قد اختار حسنين باشا رائدا لولى عهده ، وأحسن الاختيار ، فان سلالة محمد على وابراهيم واسماعيل وفؤاد خلقت مطبوعة بالطابع المؤهل للولاية العامة والسيادة والحكم والإمامة أو الخلافة ، لأن الجنس الذى انحدر منه محمد على الاكبر كان جنسا تقيا ورعا ، اعتنق الاسلام تقديرا للاسلام ، واستخلص من نفسه حرسا للخليفة

لقد فقه الفاروق المحبوب عبء المسئولية التى ستلقى على عاتقه ، ولذلك انكب على أن يجول جولة فى كل ميدان ليكون من نفسه رجلا صالحاً تقيا ، كما يكون منها إماما من معدن الرقة والظرف المتفوق تقيا .

لقد أعِدّ ولى العهد فى أيام والده ليكون ملكاً ، أى أول رجل فى الدولة المصرية ، له الصدر فى علياء المراكز والمراتب ، وأول رجل فى الدولة لا معدى له عن أن يكون الفاروق بمميزاته ومؤهلاته !

بمظهره وهندامه وملابسه .

بطبيعة علاقاته مع الغير وطريقة معاملتهم .

برغبته فى أن يقوم بقسط وفير مشرف فى الحادثات ومشاغل الجماعات التى تحيط به ، وبكفايته لهذه المواقف .

بتقدير أعباء رئيس الدولة الأعلى .

وقصارى القول: إن الفـاروق قد جاء جميلا ، تكوينا ونفسا وهنداما وعشرة، إنه صورة الجمال شخصت وتجسمت .

فهو إذن الشخصية الجـذابة التى تجلى فيها الجمال بأجل وأبلغ معانيه ، وكان فى أوروبا كما هو فى مصر موضع الأعجاب والتقدير والحب

الفصل الثانى

فاروق الملك

فى ٢٨ ابريل سنة ١٩٣٦ تلقى حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول برقية من حضرة صاحب الدولة على ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء هذا نصها

حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول

بلندره

أرجو من جلالتكم باسم زملائى واسمى أن تتنازلوا فتقبلوا مع خالص ولائنا أصدق تمنياتنا لمجد عهدكم ورفاهيته ، وإنا فى هذا التضامن مع الأمة بأسرها التى تحيي بابتهاج تبوأ جلالتكم عرش مصر

«على ماهر»

فتفضل جلالته ورد على وزير الدولة الأول بالبرقية الآتية

حضرة صاحب الدولة على ماهر باشا

كان للرسالة التى بعثتم بها دولتكم وزملاؤكم الوزراء أكبر الأثر فى نفسى ، وإني أوجه لكم أصدق الشكر على حسن تمنياتكم . وإنى لأشعر تمام الشعور بجلال المهمة وخطورة المسئولية التى تقع على عاتقى ، ولكننى أثق بأنى سأستطيع أن أعتمد على ولاء أمتى العزيزة التى نشأت على حبها وربانى المغفور له والدى على الشعور بواجبي نحوها .

وسأقف قوتى وجهود حياتى ، مترسما فى ذلك خطواته الحكيمة ، على أن تتبوأ بلادى العظيمة ، المكان الذى هى أهل له بين الامم .

وإنى لأسأل الله أن يسدد خطاى وأن يوفقنى إلى مافيه خير البلاد وإسعادها ،

«فاروق»

(راجع العدد ٤٩ غير الاعتيادى من الوقائع المصرية الصادر فى يوم السبت ١١ صفر سنة ١٣٥٥ — ٢ مايو سنة ١٩٣٧

هذه أول كلمة قالها فاروق الملك ، وهى تشف الغريزة التى حكمت الجد الاعلى محمد على ، وابنه ابراهيم ، وحفيديه اسماعيل وفؤاد ، ونريد بها حب الشعب والاعتماد على ولاء الشعب ، كما تشف الأثر الذى ترتب عن حمل الفاروق خلال تطور سنة ١٩١٩ ، وهو الأثر الذى ربط بين الفاروق وشعبه رباطا محكما لا انفصام لعروته .

لقد شعر جلالة الفاروق بعظم المهمة الملقاة على عاتقه ، ولكن الذى خفف هذا الحمل هو انه سيستطيع الاعتماد على ولاء أمته العزيزة التى نشأ على حبها ، ورباه المرحوم والده على الشعور بواجبه نحوها .

وفى الحق إن الاعتماد على الولاء والوفاء والاخلاص رأس مال الوجود الانسانى ، لان المعنى الصحيح لهذه الفضائل هو تفتح القلوب التى تتفجر منها عيون الصراحة والنزاهة ، وتنبت من حولها دوحات جميع السجايا الاخلاقية التى تتفرع عنها .

إن هذه الشجرة الطيبة ، شجرة الصراحة ، هى تلك التى لا تتطلب من الانسان أن يخون نفسه أو يغالطها بقول مالا يفكر فيه .

ولكن هذا الشعور لم يكن من طرف واحد ، وانما كان متبادلا بين جلالة الفاروق وبين الشعب ، ولقد تجلى هذا الاخلاص والوفاء والولاء فى مظاهر الفرح التى عمت البلاد بعد عودة المليك المحبوب من لندرا .

عودة الفاروق من لندرا

بعد المناداة به ملكا

لقد نودى بحضرة صاحب الجلالة فاروق الأول ملكا على مصر فى ٢٨ ابريل سنة ١٩٣٦ ، ونودى بجلالته ملكا وهو فى لندرا ، ولكن الشعب المصرى كان

فى أيام ولاية عهده شغوفا بالوقوف على أخباره ، ولما كان فى لندرا شاعت فضائله ، وذاعت بين الناس دماثته وقراطيته الملكية، فجعل الزمن يوثق بين جلالته وشعبه أواصر الحب ، وأخذت الطبيعة تستمد من قدرة الله قوة تمكنها من أن تصطنع للوجود المصرى من خيوط الفجر أعز ثياب ، وتغشيه بنقاب شفاف انعقد من أطيب أنفاس الاحباب ، وتجرى فى عروقه النابضة دم الشباب، فكان اقبال جلالته اقبال الحب المتبادل يتسع نطاقه ،والوفاء يترامى سلطان اشراقه ،والخير العام يمتد رواقه .

كان حب المليك بلاده فتحاً عزيزاً تفتحت أمامه عيون البلاد ، واشرقت باشراقه وجوه العباد ، وانبسط نوره الكشاف يهدى ضمائر القاصى والدانى ،وينفذ شعاعه إلى الأغوار فيقوى السليم ويشفى العانى .

فلما أقبل عائدا من لندرا رأينا الشباب والشيب يعدون لهذا اليوم العدة حتى يبرز فى مطرفه القشيب ، وتتبرج أرض الوطن وتزين للنظارة ، وقد أشرقت وجوه القوم فى معرض الحسن والتهلل والنضارة . ولا عجب بعد أن ذاع صيت الديمقراطية الفاروقية فى كل مكان، أن ترى فى عودة الفاروق دنيا طروبا ترتل اعذب الالحان على قيثارة الاعتراف بالجميل ، ولا غرابة بعدئذ اذا نحن شهدنا الزمن يوقع له هو الآخر على قيثارته ترانيم الخلود ، وينسل الشعب من كل فج، صفاً صفاً ليحيي مليكه المحبوب، تحت أشعة الشمس ،وهى تصطنع لجلالته من وهجها أكاليل المجد ، ومن حولها زرقة السماء الصافية ، انعكست عليها حبات القلوب فكانت إطارا طبيعيا للصورة المحبوبة ، تحية ولاء واخلاص لا تسمع معها إلا أغانى النيل المرح تنساب انسياب الحوادث المجيدة الشريفة فى بطن التاريخ، لتسجل ذكرى المناداة بالملك الصالح الذى تعلق به شعبه قبل أن يراه ملكا، ثم باهى باخلاقه وفضائله الامم، واحتذاه إماما له يأتم به أينما وجه وجهه .

أجل ! إن يوم عودة الفاروق يوم سعيد ، فما كنت تسمع من أعماق القصور

والاكواخ ، ولا من أغوار الريف والصعيد ، ولا من الشوارع والطرقات ، والنوافذ والشرفات ، ولا من ثنايا الزفرات التى تنعقد أقواس نصر ، والانفاس التى احتبست فتولدعنها أنوار المجد والفخر ، إلا الألسن بالشكر لله ناطقة ، وعلى الولاء لمليكها متطابقة ، بل إنك لم تسمع غير قلب واحد لعب باوتاره الحماس ، وجعل يردد رنات قد انسجمت ، وأناشيد قد اتسقت ، فلاحت قلوب المصريين جميعاً وكأنها طاقة من النغم الاحساسي يحاكى أشهى الزهور المضفورة نبتت فى كل فؤاد ، ثم تجمعت فاذا هى أمة فى فرد ، إذا انت حالته كان كشعاع النور ، ضم شتى الالوان ، ليضىء جميع الاكوان ، فالله أكبر والحمد لبارىء الفاروق .

بعد عود جلالته

عاد جلالة الملك من لندن متزن الجسم ، متزن العواطف ، متزن العقل ، بالغا من النضوج أكبر قسط ، فلقد شعرنا يوم رأيناه الى جانب وزيره الاكبر صاحب الدولة على ماهر باشا بشخصية سماوية نادرة الهبوط الى الارض ، ولكن رسالته جعلته ينزل من عليائه ليرقى بجوهر الاحساسات والعواطف بعد أن حلقت فى جو عقد من السمو ، وأفق صهرته حرارة المجد ، وعشقتها جميع الحظوظ الطيبة ، واشربت القوات جميعا ، حتى قوة السحر القاهرة ، وقوة الاغراء بالفضائل الفاتنة .

ان هذا الوجه الصبوح الوردى الحار ، الذى يشف دما غنيا رائعا جذابا ، خلقته القدرة لتستعير منه الرعية حليتها ، وتقتبس من نور عقله انوارها ، قد قسا عليه القانون كل القسوة ، فحرم الامة من حسن صنيعه وتدبيره وسياسته ، خلال خمسة عشر شهرا تقريبا ، اذ صدر فى ٤ مايو سنة ١٩٣٦ المرسوم بقانون رقم ٤١ باعلان رشد حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول فيما يختص بجميع التصرفات المدنية دون السياسية .

اعلان الرشد المدنى

لحضرة صاحب الجلالة الملك

مجلس الوزراء

بعد الاطلاع على الأمر الملكى رقم ١١٨ لسنة ١٩٣٥ ، وعملا بالمادة ٥٥ من الدستور ، وبناء على ماعرضه رئيس مجلس الوزراء ،

رسم بما هو آت

مادة ١ – مع عدم الاخلال باحكام المادة ٨ من الامر الملكى رقم ٢٥ لسنة ٢٢ الخاص بوضع نظام لتوارث عرش المملكة المصرية يعتبر حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول بالغا الرشد فيما يختص بجميع التصرفات المدنية ،

مادة ٢ – على الوزراء تنفيذ هذا المرسوم بقانون ، ويعمل به من تاريخ نشره بالجريدة الرسمية.

يبصم هذا المرسوم بقانون بخاتم الدولة وينشر فى الجريدة الرسمية وينفذ كقانون من قوانين الدولة ؟

صدر بديوان الرياسة فى ١٣ صفر سنة ١٣٥٥ (٤ مايو سنة ١٩٣٦)

رئيس مجلس الوزراء ووزير الداخلية والخارجية ووزير الصحة العمومية بالنيابة

على ماهر

وزير الاشغال العمومية — حافظ حسن

وزير الحقانية والاوقاف — احمد على

وزير المواصلات والتجارة والصناعة — حسن صبرى

وزير المعارف العمومية — محمد على علوبه

وزير الحربية والبحرية — على صدقى

وزير الزراعة — صادق وهبه

وزير الماليــة — احمد عبد الوهاب

مذكرة تفسيرية

خاصة بسن الرشد لحضرة صاحب الجلالة الملك

تنص المادة ٨ من الامر الملكى الصادر فى ١٣ ابريل سنة ١٩٢٢ والخاص بوضع نظام لتوارث عرش المملكة المصرية على أن الملك يبلغ سن الرشد اذا اكتمل له من العمر ثمانى عشرة سنة هلالية .

وانما يتحدث هذا الامر الملكى المذكور فى قاعدة من قواعد القانون العام ، فانه بمقتضى المادة «٣٢» من الدستور، وهى تحيل صراحة اليه، جزء من الدستور لا يتجزأ.

فسن الرشد المقررة بالامر الملكى لا يلحظ فيها الا أهلية الملك السياسية ، وفى تلك السن يحلف الملك اليمين ووفقا لحكم الدستور ذاته : « ويباشر الملك سلطته الدستورية » (مادة ٥٠)

والقاعدة المتقدم ذكرها هى ، فيما خلا استثناء واحدا (النروج) ، القاعدة المتبعة فى جميع البلاد ذات النظام الملكى الدستورى ، ففى بلجيكا وبلغاريا وايطاليا ودانمارك وأسوج ويوجوسلافيا وهولندا ورومانيا يبلغ الملك سن الرشد السياسى فى الثامنة عشرة من عمره ، وذلك خلافا لقواعد القانون المدنى فى تلك البلاد التى تجعل سن الرشد بوجه عام احدى وعشرين سنة .

وبعد ، فان تحديد السن بثمانى عشرة سنة ، باعتبار أنه من الاحكام الاساسية لنظام توارث العرش ، لا يمكن اقتراح تنقيحه (مادة ١٥٦)

وليس ثمت نص تحدد السن التى يكون فيها للملك الاهلية فيما يختص بمباشرة حقوقه الخاصة وادارة أمواله .

وغنى عن البيان انه لا يجوز بحال من الاحوال وعلى أى وجه كان، أن تزيد هذه السن على السن المقررة للاهلية السياسية ، ولكن هل يتعين أن تتفق السن فى الحالين .

أما الحكم الشرعى فهو انه اذا بلغ المرء سن الخامسة عشرة سنة رشيدا ، أصبحت

له الولاية التامة فى التصرفات ، وأما التشريع الوضعى المصرى فقد حدد سن الرشد المدنى بثمانى عشرة سنة ثم باحدى وعشرين سنة .

على ان سن الحادية والعشرين ليست غير قرينة فى الجملة. واذا كان من الواجب الاخذ بتلك القرينة بالنسبة لافراد الناس، فليس ثمت مايدعو لالتزامها بالنسبة للملك ، لاسيما وان سن الرشد السياسى له قد جعلت ثمانى عشرة سنة، وانها تستلزم صفات فوق مايطلب فى سن الرشد المدنى .

إذن : ليس مايمنع من التمشى مع قواعد الشريعة واعتماد سن دون الثمانى عشرة سنة لأهلية الملك فى جميع التصرفات المدنية، على ان ذلك لايكون إلا بتشريع خاص .

وقد بنيت هذه المذكرة على الرأى الذى أبداه سعادة رئيس لجنة قضايا الحكومة ووافق على بيان الرأى الشرعى فيها، حضرات أصحاب الفضيلة شيخ الجامع الازهر ومفتى الديار المصرية ورئيس المحكمة العليا الشرعية .

وليس من يشك فى أن جلالة مليكنا المحبوب الذى أشرف على السابعة عشرة، والذى دلت آثاره ، بصورة واضحة ، على نضوجه ، حائز للشروط اللازمة لأن يعتبر راشداً من الناحية الشخصية والمالية .

لذلك فاني أتشرف بتقديم مشروع المرسوم بقانون المرفق بهذا إلى المجلس ؟

٣ مايو سنة ١٩٣٦ . رئيس مجلس الوزراء: على ماهر

الرأى الشرعى

يقضى الحكم الشرعى بأنه إذا بلغ الشخص سن الخامسة عشرة رشيداً ، أصبح ذا أهلية تامة للتصرفات الشرعية جميعها ,فيكون له الولاية التامة فى ماله ، ويصح أن يكون ناظراً على الأوقاف وأن يكون ولياً على غيره فى النفس والمال .

٣ مايو سنة ١٩٣٦

شيخ الأزهر	رئيس المحكمة العليا الشرعية	مفتى الديار المصرية
محمد مصطفى المراغى	فتح الله سليمان	عبد المجيد سليم

مجلس الوصاية

ولما اجتمع البرلمان فى ١٠ مايو بفضل الفتوى التى ارتآها حضرة صاحب الدولة على ماهر باشا انتخب مجلس الوصاية من حضرة صاحب السمو الملكى الأمير محمد على توفيق وعبد العزيز عزت باشا ومحمد شريف صبرى باشا . وقد اجتمع هذا المجلس فى نفس اليوم واختار حضرة صاحب السمو الملكى رئيساً، وأبلغت الحكومة ذلك فى يومها .

جلالة الملك وشعبه

وفى ٧ مايو سنة ١٩٣٦ أعرب جلالة الملك المحبوب عن إحساساته الطيبة التى توجه بها إلى الشعب المصرى ضمن الشكر الآتى :

شكر حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الاول

الامر الملكى رقم ١

عزيزى على ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء.

كان لرائع مظاهر الحفاوة والولاء التى استقبلنى بها شعبنا الكريم منذ نعمت بالوصول إلى أرض الوطن العزيز أبلغ الاثر فى نفسى . وإذا كان المصاب الفادح الذى نزل بى وبالامة معا بفقد جلالة والدى المحبوب يجلّ عن العزاء، فانه لما يرفه عنى وسط أحزانى ، ويعمر قلبى بالايمان بمستقبل باسم للأمة، أن أرى حولى القلوب ملتفة متآلفة، تبادلنى حباً بحب، وولاء بولاء .

والآن وقد قمت بواجبى الأول بزيارة المثوى الكريم لوالدى الغالى، بعد إذ حالت الأقدار دون قيامى بواجب تشييع جثمانه الطاهر، وحرمتنى حظوة التزود منه بالنظرة والنصائح الأخيرة ، الآن وقد أقسمت أمام جثمانه الطاهر أن أترسم خطواته الجليلة، وأن أقف حياتى وجهودى على خدمة الوطن وإسعاده ، فأنى أبادر

بالكتابة إلى دولتكم معربا عما تفيض به نفسى من عوامل التأثر البالغ والشكر الخالص على كافة ما أبداه نحوى شعبنا النبيل .

عاش شعب مصر المجيد وعاشت مصرنا الخالدة

صدر بسراى عابدين فى ١٥ صفر سنة ١٣٥٥ (٦ مايو سنة ٩٣٦)

«فاروق»

الأمر الملكى رقم ٢

عزيزى على ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء

إنى وقد عدت إلى مقر العرش المحفوف برعاية الله وحب الشعب الكريم ، وبعدما شاهدت من مختلف المظاهر الدالة على أكيد الاخلاص وعظيم الولاء ، وما بدا من جميع السلطات ورجال القوات البرية والبحرية والجوية والبوليس والادارة وحفظة النظام كافة ، من شديد العناية بأداء مهمتهم وصرفهم كل همة فى سبيل راحتى أثناء قدومى إلى عاصمة المملكة ، تطيب نفسى أن أشكركم من أعماق قلبى وأن أطلب إلى دولتكم إبلاغهم جميعا خالص شكرى مزوداً بتحياتى وعطفى وتقديرى لشعورهم الشريف

صدر بسراى عابدين فى ١٥ صفر سنة ٣٥٥ (٦ مايو سنة ٩٣٦)

« فاروق »

تحية حضرة صاحب الجلاله مولانا الملك فاروق الأول

إلى شعبه الكريم

بطريق الاذاعة اللاسلكية من سراى القبة العامرة

فى الساعة التاسعة من مساء يوم الجمعة ٨ مايو سنة ١٩٣٦

إلى أمتى العزيزة

غادرت مصر منذ سبعة أشهر ، وكلى اطمئنان على صحة المغفور له والدى ،

وقصدت — طوعاً لرغبته — البلاد الصديقة ، والامة العظيمة ، التى اختارها لى ، لأتلقى العلم فى معاهدها ، وأنتهل من مواردها الاصول الحديثة للثقافة والديمقراطية ، ولأتخذ من معرفة الأشخاص والأشياء ، ومن تتبع تجارب الحياة وتصاريف الحوادث عدّة صالحة لمهمة وددت لو أن الله أبعد أجلها .

ولقد كان أكبر رجائى أن أعود إلى والدىَّ ، فأستأنف فى ظل برهما وعطفهما مانشأت عليه ، وأستعين على تبعات المستقبل البعيد ، بصحبتهما الطويلة ، وبما أثر عن أبى الكريم من رأى نافذ ، ونظر موفق فى شؤون الحكم .

ولكن شاءت إرادة الله — ولا رادّ لقضائه — ألاَّ أمتع برؤية أبى . وأن أحرم من تحقيق آمالى الكبيرة فى شخصه المحبوب وعهده السعيد فالى الله أبتهل أن يتغمده برحمته ورضوانه ، وأن يسكنه فسيح جناته .

إنى أستقبل حياتى الجديدة بعزم وثاب ، وإرادة قوية ، وأعاهدكم عهداً وثيقاً على أننى سأقف حياتى على العمل لنفعكم ، وموالاة السعى فى سبيل إسعادكم .

لقد رأيت عن كثب حبكم لى وتعلقكم بى ، لذلك أرى لزاماً علىَّ أن أعلن مااعتزمته من التضامن معكم فى سبيل مصر العزيزة ، فأنى أؤمن بأن مجد الملك من مجد شعبه .

وبعد فانى أحيي شعبي العزيز ، ونزلاءنا الاجانب ضيوفنا الكرام ، أطيب تحية ، وأقدّر حق التقدير ماتحاط به أسرة جدى الكبير من الحب والولاء .

والله أسأل أن يوفقنى إلى إسعاد أمتى ، وأن يهيء لى تحقيق كل ماأتمنى لها من خير ورفعة . إن أريد إلا الاصلاح مااستطعت وما توفيقى إلا بالله .

فى انتظار البيعة

ولقد انتظر حضرة صاحب الجلالة الملك بيعة الشعب من ٥ مايو سنة ١٩٣٦ الى ٢٩ يوليو سنة ١٩٣٧ ، ولكنه شغل خلال فترة هذا الانتظار بدراسة الشعب ،

ودراسة ماضيه وحاضره ومستقبله ..

لقد كانت هـذه الدراسة باعثنا على تجلي الجمـال فى الفاروق الأعظم ونمائه ونشر إشعاعه .

ان دراسة الجمـال على نوعين :نوع يتعلق بمـا فى روح الانسان ، أى بالمواهب التي تتصل بالجمال، كالافكار والاحساسات التى تثير الجمال فى أعماقنا ، أما النوع الآخر فدراسة الجمال فى ذاته ، وفى موضوعاته ، ولكن المهم عندنا اختبار نفس الفاروق وتحليها.

ومما لاجدال فيـه اننا نستطيع اذا نحن وقفنا امام بعض الاشياء،وفى ظروف مختلفة أن نحكم فى تأكيد ،بان هذا الشىء جميل ، ولكن هذا التأكيد لا يمكن أن يظهر فى جلاء دائماً ، لانه قد لا يظهر أحيانا إلا فى صيحة استحسان وإعجاب ، كما انه قد يأخذ صورة الخاطر، يرتفع فى هدوء الى العقل الذى يدركه ويعرف كنهه .

إن أشكال هذه الظاهرة تتفاوت ، ولـكنها قائمة تشهد بها الملاحظة كما تشهد بها الالسن ، ولكن رغما من أن الأشياء الحساسة هى وحدها التى تحرك فى أغلب الناس القدرة على تقدير الجمال،والحكم عليه،فانها ليست وحدها التى اختصت بهذه المزية ، فميدان العالم الانسانى أرحب من ميدان العالم الطبيعىّ المترامى على أعيننا ، إذ لاحدود له إلا حدود الطبيعة بأكملها ، مع حدود روح المرء وعبقريته . فهـذه الظاهرة تتولد فى أعماقنا امام أى عمل من أعمال البطولة التى تترجم مظاهرة عن تفان عظيم ،وإخلاص كريم ، بل امام فكرة الحقائق العميقة فى معنويتها ، المتشابكة بقوة فيما بينها ،داخل نظام يثير الاعجاب ببساطته وخصبه، كما تتولد فى أعماقنا أمام أشياء من نوع آخر ، أى أمام أعمال الفن ، فنحن نتعرف فى جميع هذه الأشياء المتفاوتة، صفة مشتركة يقع عليها حكمنا ، وهذه الصفة هى ما نسميه الجمال .

لقد أكرهت فلسفة الاحساس على أن تحاول أن تنزل بالجمال الى مرتبة ماهو مرض مقبول ، لتؤدى واجب الوفاء لنفسها ، ومما لاشك فيه ان الجمال دائماً

مايرضى الحواس ، أو هو على الأقل ما لا يجرحها .

إن أغلب أفكارنا عن الجمال تأتي الينا عن طريق السمع والنظر ، وجميع الفنون تتجه بلا استثناء إلى الروح عن طريق الجسم ، فالشيء الذى يؤلمنا لا يمكن أن يكون جميلا ، ولو كان أجمل ما فى الوجود ، لان الجمال ليس له أى سلطان على نفس شغلتها الآلام ، ولكن إذا كان إحساس الرضاء يقترن دائما بفكرة من الجمال فى أغلب الاحيان ، فليس من الواجب أن نستنتج ان أحدهما هو الآخر .

ولقد دلت التجربة على أن جميع الاشياء المرضية لا تلوح لنا جميلة ، وأن اكثر الاشياء قبولا ليست هى أجملها ، ذلك بأن الشيء المرضى ليس هو الشيء الجميل ، اذ لو كان أحدهما يماثل الثانى لما وجب أن ينفصلا عن بعضهما مطلقا ، ولوجب أن يكون الواحد متناسبا مع الآخر .

على أنه بينما حواسنا تشعرنا بمشاعر مرضية ، فان لثلاثة منها فقط مزية ايقاظ فكرة الجمال فينا ، وهى : السمع والبصر والشم .

لذلك أراد جلالة الملك أن يمتع حواس السمع والنظر والشم ، وانما أراد أن يمتعها باصوات الشعب ، ورواء الشعب ، وطيب الشعب : مصدر الجمال كله ، الشعب بماضيه وحاضره حتى يستخلص مستقبله .

ان الشعب جماعة لها روح واحدة ، وتاريخ واحد ، واذن فلا مندوحة عن توافر شروط جوهرية لقيام شعب معين ، وهذه الشروط هى تعدد حلقات المجد فى الماضى ، وتوافر ارادة مشتركة فى الحاضر ، ومساهمة عامة فى اتمام خير الجماعة ، حتى تكون الامة استمراراً روحياً واحداً ، لان وجود الامة كوجود الفرد ، نتيجة مترتبة على قسط وفير من المجهودات والتضحية والاخلاص والتفانى ، بل إنها تضامن عظيم نسج خيوطه احساس التضحيات التى تمت ، والتضحيات المحتملة ، وفى هذا أسمى وأعظم معنى للجمال .

فهذا الجمال الماثل فى المدنيات المصرية القديمة والمتوسطة والحديثة ، مدنية

الفراعنة والعرب ومدنية محمد على ، وفى حلقات المجد المصرية القديمة ، مجد الفراعنة والعرب ومحمد على ،

هذا الجمال الماثل فى الارادات المنسجمة التى تعمل على أن تكون الامة استمرارا روحياً واحداً ، يترتب على مجهودات وتضحية واخلاص وتفان .

هذا الجمال الذي يترجم عنه تضامن عظيم نسج خيوطه احساس التضحيات التى تمت والتضحيات المحتملة .

ان هذا الجمال كله هو ما اراد جلالة الملك إمعان النظر اليه وسماع احاديثه واستنشاق طيبه عند ماقرر أن يجول فى الوجه القبلى فى العام الماضى حيث شهد آثار الغابرين ، والقى نظرة عميقة على الحاضرين وفكر فى المستقبلين بدافع التنظر تين

إن جلالة المليك لم يقرر هذا القرار بدافع خارجى ، ولكنه قرره بعامل غريزى رأينا أثره فى عنايته بعلم الآثار وذكر كلمة الشعب كلما كان لذكرها مقتض .

« لقد نظم جلالته متحفا خاصا لا ينفك عن اضافة بدائع الفن إليه ، وجعل يفحص برامج البيوع بالمزاد عن التحف الكبيرة القيمة ، وجلالته خبير كل الخبرة بهذه الشئون ، وقد اتصل ذلك بعلماء العاديات وهواتها فى الصيف الماضى خلال رحلة جلالته الى أوروبا فدهشوا مما رأوه فيه من سعة المعرفة »

« وقد جعل مدير المتحف المصرى يمد جلالته باراثه العلمية ، وقدم له مجموعة كاملة عن كل مطبوعات المتحف المصرى ، فاقبل عليها بشغف كما يقبل الشبان على مطالعة الروايات البوليسية » (راجع صحيفة الجورنال الباريسية بتاريخ ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٧)

وقد عنى جلالته باقتناء المصاحف الخطية القديمة كما عنى جلالته أيضا بمكتبته الخاصة فنظمها مسترشدا برغبته فى التفقه فى العلم وتوسيع دائرة معارفه فى أوقات فراغه .

ولكن حب الجمال الذى غذى نفسه ، كما تغذى شهوة المجد عظماء القادة ، قد دفع جلالته الى أن يتفوق فى ميدان آخر من ميادين الجمال ، ألا وهو ميدان التضحية .

جمال التضحيه

ليس المقصود بالكلام هنا تضحية النفس ، ولكن التضحية بالبذل . والتضحية بالبذل جمال مهما كان مصدرها . إنها جمال إذا صدرت عن رجل رشيد يضحى ساعة من زمنه فى سبيل تخفيف بعض الآلام عن أخيه الانسان، وكم فكر جلالة الفاروق فى البؤساء والضعفاء والمساكين فى الداخل والخارج

وهى جمال إذا صدرت عن انسان يغفل هنيهة التمتع بمصدر سعادته ليفرغ حبه على من لا يعرف من الحب غير اسمه .

وهى جمال إذا صدرت عمن لا يملك غير كلمة التأسية يوجهها إلى من يستحقها ، لان عظمة البر لا تقاس بالكمية ، ولكنها تقاس بسماحة الوجه ، وطهر القلب ، وجلالة الملك يقول لك بإحساساته : « إذا أنت أحسنت فابذل الجهد فى تأسية البائس بالرضاء ينعكس على وجهك، ودع البائس يشهد غبطة الأحسان تتألق فى أساريرك، كما تتألق اليوم هذه الغبطة فى أسارير وجه الفاروق كلما أعان انسانا، وتقول أعان لأن العفوة ليست مايجب للانسان على الانسان، إذ البر المهين الذى يتساقط من يد الغنى العابس، وينساب فى يد الفقير البائس ليس هو ما يجب ، أما مايجب فهو العون المادى يقترن بالحنو والشفقة ، والكلمات الحلوة ، تشفى جراح الروح أو تهدىء آلام النفس وتجعل الحب متبادلا والخدمة متبادلة أيضا ، فان لم تكن خدمة فالاعتراف بالجميل ، وهذه أجدى وأكرم ، وأكبر عندالله ثوابا وأعظم .

لقد قال لنا حضرة صاحب السعادة ابراهيم خيرى باشا : « وكان الامير منذ نشأته كثير العطف والحنان على الفقراء، يمسح دموعهم بإحسانه، ويواسيهم بفيض كرمه الجزيل، والشواهد على ذلك كثيرة يضيق عنها نطاق الحصر فى هذه العجالة

« كان سموه يتريض فى أحد الايام فى حدائق سراى القبة فرأى عاملا يبكى، فدنا منه وسأله عن سبب بكائه فقال إنه يعول عائلة كبيرة، وإنه قد فصل اليوم عن عمله للاستغناء عنه ، فرثى الامير لحاله، وأرسل فى طلب ناظر السراى ، وأمر بإعادة

الرجل الى عمله فصدع الناظر بالامر السامى فى الحال ، ثم حباه الأمير بمبلغ كبير وواصل سيره مشيعا بدعاء ذلك المسكين الذى انقلب حزنه فرحا ، وبكاؤه سروراً لان حظه السعيد قد أوجده فى طريق الامير

« وحدث مرة أن رأى الامير فى طريقه شيخا مسنا يسوق ثورا فى ساقية بالحديقة الخارجية لسراى القبة ، فسأله عن حاله، وتلطف فى الحديث معه ، ثم نفحه بمبلغ كبير من النقود، فلما رأى الشيخ كثرة العطاء أطمعه ذلك فى طلب المزيد . فقال — وهو يعلم أنه يخاطب الامير — سأخصص هذا المبلغ للكسوة وغيرها من المطالب ، فاين ثمن اللحم ، ؟ فبش الامير فى وجهه ونفحه بمبلغ آخر كبير وقال يمكنك بهذا أن تشترى اللحم ، ثم ابتسم وقال : وتقدر كمان تشترى « جاتوه » اذا أردت . ثم انصرف مشرق الوجه متهللا .

وكان هذا دأبه مع كل فقير يصادفه فى طريقه فكأنه الغيث لا يحل مكانا مجدبا الا أخصب » (راجع ص ٢٩ من عدد المصور الصادر بمناسبة مبايعة الفاروق الأعظم فى ٢٩ يولية سنة ١٩٣٧)

هذا ماجبل عليه الفاروق ، وهذا ماشب عليه ؛ ولكن هناك ماضحاه الفاروق فى سبيل خدمة الامة ومصلحتها . فنى ٨ مايو سنة ١٩٣٦ تفضل جلالة الملك وأرسل إلى حضرة صاحب الدولة وزيره الاكبر على ماهر باشا الامر الكريم الآتى

أمر كريم

بتخفيض المخصصات الملكية

عزيزى على ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء

« بما أن قانونا سيتولى فى القريب العاجل تحديد مخصصات الملك لمدة الوصاية ولمدة حكمى ، فانه يسرنى أن أخبر دولتكم برغبتى فى أن اجعل تبوئى بداية العرش خفض المخصصات التى كانت محددة لعهد المغفور له والدى بمائة وخمسين الف جنيه الى مائة

الف جنيه ، وارجو دولتكم ان تبلغوا البرلمان هذه الرغبة ، وإنه ليسعدنى أن يستعمل فرق ما بين المبلغين لمصلحة بلادى وخيرها ».

ولكن هذا الجمال الماثل فى هذه التضحية التى ضحاها الفاروق واشترط انفاقها فى مصلحة الامة ليست هى الفرع الوحيد من هذا الجمال، فقد شاهدت الامة هذا الجمال بين لحظة وأخرى، شاهدته فى مواساة البؤساء ، واعانة الفقراء والمصابين فى ميدان الفجائع داخل البلاد وخارجها. فهاهى فاجعة العمال فى الاسكندرية، وفاجعة سوريا، ثم هاهى إحسانات جلالته التى فاضت على الاجانب الذين رغبوا فى شهود مصر لزيارة مقابر أهلهم وذويهم أو لاجتلاء محاسن الآثار المصرية . وهاهم الفقراء إلى العلم يزودهم بالبخارى ، وهاهو عطفه على مؤسسة مطاعم الشعب ومصايف الاطفال .

ولقد ساهم جلالة الملك فى انقاذ مؤسسة مصايف الاطفال ومطاعم الشعب ، فساهم بذلك فى الحرص على فكرة سامية تقوم من أساسها على نظرية شعبية وفكرة قومية، خلقت لاطفال الشعب بيئة جديدة من الناحيتين الطبيعية والادبية .

إن هذا الجمال يدلنا على أن للاحسان والبر فرصة يجب أن يسعى الانسان إلى انتهازها مهما كانت مشقة السعى إلى تحقيقها ، ذلك بان البر والاحسان ليس هبة مافى الجيوب ، ولكنه نسيج النفس والفؤاد ، لا سيما اذا فهمناه على أنه رعاية قومية، أو عناية عالمية ، انطوت على أفضل فضائل الاديان .

وفى الحق إن الغرض من الاحسان ليس نفاد أموالك ، لان المال لم يكن قط أداة حب ولا كان وسيلة ود ، ومن العبث اذن أن تفتح خزائنك، اذا أنت لم تفتح قلبك، مادامت القلوب لا تتفتح الا لسكنى القلوب ، واذن فما يجب أن تعطيه ليس هو مالك، وانما هو رقتك وعنايتك وحبك، انه أنت بالذات، نفسك وروحك وعاطفتك والفرق كبير جداً بين مالك وبين ذاتك، والناس جميعا يشعرون بهذا الفرق ، انهم يدركون تمام الادراك أن مالك وأنت شيئان مختلفان ، مهما كان جهدك الذى تبذل فى سبيل العطاء موفورا ، وجميلك مشكوراً . فكم من عناية أجدى من دفع

بلية ، وكم من رعاية أفضل من ألف عطية ، وهل في مقدورك أن تحصى عدد المرضى الذين هم في حاجة إلى العطية ؟ أو في وسعك أن تستقصى عدد البؤساء الذين هم في افتقار الى استكفاف الايدى الندية ؟

لقد رأى الفاروق ان الاحسان نسيج النفس والفؤاد ، وبرهن على صحة ذلك بأعماله ، بتضحياته ، والتضحية في سبيل النهوض بالضعفاء وسد حاجة البؤساء دفعاً للبلاء هي دعامة الوجود الانساني ولحمة تضامنه ، فابذل على وتيرة الفاروق الذي تخطى عمر بن عبد العزيز في زهده — لكل هضيم قسطه لديك من التضحية ، من جمال النفس حتى تتمتع بتجدد هذا الجمال ، الجمال المطلق من كل قيد ، الجمال الذي لا صيغة له ، ولا قاعدة ، ولا حد ، وليس في الوسع أن يكون التزاماً قانونياً ، بما أنه لاحد له من حقوق الغير التي تقف عندها حدود كل حق من حقوقنا ، وإنما هو التزام أدبي ، حده الارادة الخاصة التي لا يقف أفقها عند قطر .

وإذ أنت ألقيت اليوم نظرة على برنامج احتفالات العرس الملكى ألفيت هذا الجمال مجسماً ، ألفيت الفاروق يهب لشعبه نفسه ، وروحه وذاته ، ولا بدع إذا وهب الشعب المليك نفسه وروحه وذاته بديلا .

لقد أمر جلالته بأطعام مائة ألف من الاطفال الفقراء ، بعد أن لاحظ بنفسه خلو البرنامج من رعاية الاطفال ، وكأني بجلالته وقد شعر ان أطفال هذا العهد خدام الفاروق وخدام نسله الذين يضربون على وتيرة فاروقهم ، قد أمسوا كلهم رياضيين وجعلوا يدعمون منذ حداثة سنهم ميول الفاروق ، وينشرون الرياضة في كل ميدان من ميادين عملهم ، في الغرف ، في الحقول ، في الدرس الخ . ولذلك فأنه يكرمهم ويعطف عليهم بمناسبة زفافه ، فقد نشرت الصحف الصادرة في ١١ يناير سنة ١٩٣٨ مايلى : —

عطف المليك على الأطفال

« وقد شاء عطف جلالة الملك وحدبه على الطبقات الفقيرة من شعبه أن يشمل

ببره أبناء هذه الطبقات، فأمر حفظه الله أن تقام لهؤلاء الصغار حفلة عامة فى حديقة الازبكية، تظل منذ صباح يوم الخميس ٢٠ يناير المقبل إلى غروبه، فتفتح أبواب الحديقة فى ذلك اليوم للأطفال الفقراء من الملحقين بالمدارس الخيرية والملاجىء والفقراء الأيتام الذين تجمعهم محافظة القاهرة، ولغيرهم على اختلاف أجناسهم وأديانهم.

« وسيتناول هؤلاء الاطفال طعام الغداء فى الحديقة. ويقضون يوما حافلا بصنوف الالعاب المسلية بين عزف الموسيقات ودق الطبول، حتى إذا غادروا الحديقه آخر النهار تزود كل واحد منهم بهدية ملكية يحملها معه ».

ثم ماذا؟

لقد فاضت عواطفه السامية وغمر جمال أخلاقه جميع الأنحاء المصرية فلم تقو الحدود على وقف تيار هذا الطوفان المعمر المخصب حيث تجاوز حدود مصر حتى وصل الى الصين أولا ثم إلى بلاد العرب.

« لقد أوفد أخيرا حضرة صاحب العظمة سلطان داخلية حضرموت رسولا من قبله هو السيد عبد الرحمن على الجفرى من كبار أعيان حضرموت على رأس بعثة من أبناء هذه السلطنة العربية لالحاقهم بالمدارس المصرية، وقالنا انه حمل هذا الرسول كتابا خاصا لرفعه إلى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول ضمنه أسمى التحيات والشكر على رعاية جلالته الدائمة لأبناء البلاد العربية والاسلامية ثم ختم عظمته هذا الكتاب بأن رجا جلالة الملك فى أن يأمر بتعليم أعضاء البعثة الجديدة التى أوفدها مع الرسول على حساب جلالته، فلما رفع هذا الكتاب إلى جلالة الملك الصالح بواسطة صاحب السعادة مراد محسن باشا أمر حفظه الله باجابة الطلب والعمل على عجل لادخال أعضاء هذه البعثة بالمدارس المصرية وتوفير أسباب الراحة لهم.

« وقد تلقى صاحب المعالى الدكتور بهى الدين بركات بك وزير المعارف هذا الامر الملكى الكريم بالاكبار والاجلال وأسرع فى تنفيذه وعهد إلى صاحب العزة

الاستاذ محمد العشماوى بك وكيل وزارة المعارف بتعهد هـذا الامر ، وقد اختار حضرته مدرسة الاورمان ليتعلم فيها اثنان من طلبة البعثة هما السيد طه عبد الرحمن والسيد حسين أبو بكر وخصص لهما فى هذه المدرسة غرفة لمبيتهما . أما الطالب الثالث فى البعثة واسمه عبد الله بن سالم فقـد اختيرت له مدرسة المحاسبةوالتجارة المتوسطة فى الظاهر ، علىأن يكون مبيتهفىمدرسة شبرا الثانوية .

ومما يذكر أن جلالة الملك لم يكتف بالامر بتعليم هؤلاء على حسابه الخاص ، بل أضاف إلى ذلك، حفظه الله ، أن تكون كل نفقات اقامتهم فى مصر ماداموا فى دور التعليم على حساب جلالته كذلك ،أدامالله جلالتهمصدراً للخيرات(راجع البلاغ فى ١٢ يناير سنة ١٩٣٨)

ولقد أراد جلالة الملك فىانتظار المبايعة أن تتفتح فى نفسه زهرة الجمال، حتى إذا ما تمت بيعته تضوعت الاجواء بطيبه. فسافر إلى أوروبا ليعود عند حلول يوم التتويج فى ٢٩ يوليه سنة ١٩٣٧

فى اوروبا

قضى جلالة الفاروق أثناء ولايتهالعهد أطيب أيام الطفولة والشباب فى رياض سراى القبة ، فعشق الزهر والريحان ، ولـكن غريزته التى تولدت من جنسه جعلت تنمو وتربو إلى أن حن جلالته لاجتلاء محاسن الطبيعة خلال فترةانتظار البيعةفتوجه أول ماتوجه الى سويسرا ومنها الى انجلترا ثم عاد الى فرنسا ومنها الى مصر .

فى سويسرا

كان الوقت الذى ذهب فيه جلالة الملك الى سويسرا هو موسم الانزلاق على الثلج . وقد بقى هناك إلى بداية الصيف .

وصل جلالة الملك إلى «سان موريتز» بالتيرول ، وقد ارتدى جوها ثوبا قشيبا ناصع البياض ، اصطنعته يد القدرة من نسيج الجليد ، وانسدل على الزمان داخل

المنازل والفنادق وقاء وردي صنع من نار المجامر، تشوبها وضاحة تامة، تنبعث من وجوه وضّاءة، وجمال عقده بارئه ملهما للفن الروحاني، فلا يحا كي رقته غير رقة فاغية الكروم

ولقد أخذت الشمس الشتوية تغيب أحياناً، وأحياناً تخطو على مهل، وتنساب أشعتها في بطء فتحسبها ديمة من لجين تهمي، فيرد رذاذها الدافىء إلى الانفس شيئاً من مرح الحياة، ويجري دم الشباب في قيثارة الدهر، وهي قيثارة لا تردد شتاء غير نغمات نشاز تؤذن بالزوال والفناء، ولا توقع في أغلب الاحيان على أوتارها الناقصة غير ألحان الشجا والشجن، رمز القلب الانساني المسنى الأليم، وإيعاء إلى فؤادها المعنى الكليم.

تطلع هـذه الشمس فيتدفق سيالها البطيء في أسلاكها الذهبية ايكسو بوهجه وجوه الأوانس النواعس، تجلت في تفاصيلهن قدرة الصانع عندما صاغت الصباحة في الوجه الوردي، والوضاءة في البشرة البيضاء، والجمال في الأنف الأشم، والحلاوة والجاذبية في العينين، والملاحة في الفم الذي إذا دققت في منظره تكاد لا ترى خط المبدع في صحيفته، والظرف في اللسان الذلق، والرشاقة في القـد اللدن، واللباقة في الشمائل الطلية، حتى إنك لتستنفد جهودك في الدرس فلا تغيض لذة نظراتك، كأنك تفحص واجهة أحد مخازن الأزياء الـكبرى التي تتصيـدك بجاذبيتها، فلا يعينك طوقك على فراقها، لفرط ما يفيض أمامك، بين لحظة وأخرى، من مسرة الخاطر، ولذة للناظر.

ولعمرك هل تصيب غير الاعجاب، أو يساورك غير الدهش من تاج ذهبي لألاء اعتلى وجهاً ورديا، وحليتاه الجانبيتان اذنان من لؤلؤ وردي، تشع تحت حافته ما ستان يسطع قرصهما الازرق خلال غلافة من الاهداب الطويلة، اعتادت أن تخفق فوق الوجنتين، وترسل عليهما الظلال الوارفة في اضطراب ويقظة، بينما تسقط عليهما الدمعة العالقة بهما في تردد لتروي ظماهما وتطفىء نارهما.

هـذه فتاة سويسرا المتكئة على عكازتها قبل أن تبارح المنزل لتنزلق فوق

الثلوج المتراكمة فى كل مكان ،أو فوق البحيرة المتجمدة .

هذه زهرة الحياة ! انها تعيش هناك فى فصل الشتاء فى اشعاع رائع ، عجيب فى اتساقه ، باه بجماله ، زاه بحيويته ذات الطبيعة المتحمسة .

لقد تعددت ألوان هذه الزهرة ـ وتفاوت اخضرارها واخضلالها ، ولكن زهرة « الايدلويس » Edelweiss — زهرة قدم السبع أو الخالدة فى الثلوج — تلك التى لا تجدها الا ابتداء من ارتفاع ألفى متر عن سطح البحر ، وتمتاز ببياض وبرها هى زهرة بعيدة المنال صيفا وشتاء . أما صيفا فلبعدها عن متناول الرواد ، وأما شتاء فحالة الجو تحول دون الوصول إلى اقتطافها .

فى الشتاء تجد السماء الحلوة حزينة ناعسة ، والشمس تطل خلال الابخرة البيضاء تحكى الاحساسات العميقة العذبة التى تعدنا بالتفكير والتأمل والاحلام فى ظلال الشجر ، وفروعه العارية التى سلب الموت قواها ، فلا يحركها ريح ولا يهزها أعصار .

إن كل شىء تلحظ فيه الموت غير بنى الانسان الذين عمرت الارادة قلبهم ، والفتوة فاضت على جوانب نفوسهم .

كل شىء يرحل من هذه النواحى إبان الشتاء ، فالعصافير ترحل جريا وراء السعادة ، والارض ترتعد تحت الصقيع وتلوح عن بعد بيضاء كالقمر المتشد فى السماء ، والرياح تزمجر ، والاعاصير تزأر كأنها الاسود تطارد بنى الانسان ، والجليد يطرز النوافذ ، وفى داخل المنازل تسمع بكاء الاحطاب فى الأتون .

والسماء تهطل فتطفىء حرارة عصير الشجر فى السوق والاعناق فتتوارى البهجة فى غضون الأحلام ، ولا يتجلى غير الوجود المتحجر .

هزأ الفاروق بذلك كله ، واتقن فن الانزلاق على الجليد وارتاد هذه البقاع شتاء .

مقدمات الربيع

ودنا الربيع كما دنا عهد الفاروق . واستعد الوجود ليتنفس انفاس الاحباب ويعير الارض أثواب الشباب ، فرأيت أشجارا وأنهارا وبحيرات وجبالا وأطيارا ، إنه منظر رائع ، تعجز يد الانسانية عن صنعه ، ولا حيلة امام تأنق صانعه الا أن تقول : « الله أكبر » .

هذه لوحة كلها معجزات ، ابدعها منشىء العبقريات، لتجملك وانت المستغرق فى بحران عميق ، والمنتشى نشوة منها لا تفيق ، تتوه بين تاصيلها التى تحسبها زائلة ، بينما هى واقفة ، تتجدد فى كل لحظة . ويمشى فيها عصير الشباب باستمرار ، فيغذى عقلك مشهد تناسقها ، وتنتشى روحك بطيبها الذكى ، ويبهرك معدنها وصخرها وماؤها وثلجها .

انها جنة . فهناك الأحواض المائية ، والجنادل الصغيرة الصخرية ، تنسل من منعرجاتها الامواه إلى مجار أرجوانيـة ، ومسالك ذهبية . ومنعطفات نحاسـية ، ومنحدرات ياقوتية ؛ ومغارات بيضاء ثلجية ، أو هى تندفع فى هاويات سوداء مظلمة ، يقع نظرك بعدها على شلالات ضخمة كأنها ستائر حيكت من البلور ، وشدت إلى حوائط معدنية ، ثم يلى ذلك بسط من الماء تمتد على أعين الدهر فى زرقة حلوة بين أفاريز وردية ، أو خضراء طبيعية ، تلوح لك كالأحجار الكريمة حول الأمواج الساحرة ، ثم لا تلبث أن ترى أطراف هـذه البسط قد تحالت وذابت ، وانصبت كنوزها فى مناجم ماسية تتلاقى فيها نظرات العاشقين فتطمئن القلوب إلى صـدق الولاء المتبادل .

يتلاقى العاشقون حول تلك البسط الطبيعية ، فلا تلحظ إلا عيوناً سكرت من ذكاء الطيب ، وثقل الاريج ، وإلى جانبهم يجرى الماء . وهو مسترسل فى الثرثرة التى لا تعرف الصمت أبداً ، ولا تريد إلا أن تتحدث دائماً إلى نشوة الحب : بينما الورد قد أنشأ يعكس ألوانه على الوجوه ، وكأنها الدموع انسابت من السحب فأنعشت أفئدة تأججت نارها ببروق اللذة فنهضت بالأرواح تحلق فى السماء البهجة .

وإلى جانب هذا الموقف الطروب تسمع العزف وتوقيع الأناشيد ، وترى امتلاء الكؤوس . فاذا ماحان حين الرشف، انتشت النفوس ، وعمل طبيب القلوب والاسماع ، ومحى الخواطر والطباع ، فأجزل الطرب على الحواس والسرور ، وقدح فى الصدور النور ، وانتقل الناس من عالم إلى آخر تمتزج فيـه الاحلام بالحقائق ، وتلوح منه الخيالات كالشقاشق ، ويفيض الوجدان بالشعر الرائق .

الربيع فى سويسرا

وفى أيام الربيع، فى السهل أو فوق قمم الجبال تزهر الرياحين ، حتى لتراها وكأنها خضم زاهر أطبق عليك، فلا يسعك إلا أن تظن أن هذه الجبال قد أخذت زخرفها وازينت تشرفا بمقدمك وفرحا ببسالة فرسانها أوضيوفها الذين جاءوا يجتلون محاسن العفة والطهر والنضارة لم تحجبها عن العيون أستار من النيران ، وانما الرياض امتدت ألفافاً عالية ،فى لون الشمبانيا والدم ،انسدلت إزارا عليها وخماراً .

إن مناظر هذه النواحى السويسرية مليئة بالعواطف والسحر . فتبعا لدوران الارض تجد الحياة .

ليلة الصيف فى بلاد سويسرا

ثم هاهو نسيم المساء يحف فى هدوء وصمت بورق الاشجار فيهزها لتثير آلاف الذكريات التى لاتزال حية ، طروبا لعوبا فى حنو ومرح .

وإلى الامام ، وعلى سطح السماء النقية ، يرتسم منظر الجبل بأشجاره الباسقة فى رشاقة وجاذبية خاصة ، حتى لترى كل شىء فى وضوح وعراء ،لا يغشاه غير ثياب شفاف من البخار والوحدة والاستجمام .

ولعمرك ان فى ذلك لآية ، فالنفوذ السعيد الذى يتسلح به هـذا المنظر ، وسلطانه الملطف ، لما يخدر فى أعماق القلب أوصاب الحب ، ومتاعب الهيام ، ويحمل الحبيب على أن يفكر فى قلب محبه الرحيم الشفيق ، فلا يلبث أن يرى وجهه الرائع المرتجف،كما يلوح ضياء هذه الليلة ،بين الوردى والذهبى .

وإذا بالقمر يشرق واذا بالديك وكأنه ينـادى حى على الفلاح ، فيتبعثر صوته خلال الاناشيد والاغانى التى تشبعت بها الحقول والمروج والغابات ، واذا بالذكريات تحز بلذائذهـا التى تغيب فى جوف الآلام ، واذا بالعاشق الولهـان يناجى ليلة الصيف الحلوة التى تسير مع الريح تحمل أريج الرياحين ، ومع القمر يلقى النور فى

كل مكان ويوحي اليها أن قولي للعاشقين اسجدوا ، وإلى القلوب اسعوا واحفدوا ». هادئة صبوحة تنطبع على الجبهات المنتقدة

ياليلة الصيف الحلوة ! يامن تحملين الرياحين على الازهار ، خلال الحشائش ، والورود على الازدهار فوق الفروع ، قولي لقلوب العذارى تتفتح حتى تجرى الاسراب البيضاء تحت ستار من الاشجار النضرة .

ياليلة الصيف الحلوة ! يامن تلطفين ، على شاطىء البحيرة الزفرات المتصاعدة من التماوج النفسى ، قولي لمن آنستهم الوحدة : لينوا ولا تستبدوا ، ثم أفرغى على فكرتهم الثائرة سلاماً من سمائك الطاهر .

ياليلة الصيف الحلوة ! يامن تخافتين العالم ، وتمشين فى نعومة لا يحس وقعها أحد ، واذا تكلمت كان صوتك مخدرا . حتى لا تتقلق الاموات ، ولا تبعثيهم من مقابرهم الى مرقد حبك الذى لا يستطيعون اليه سبيلا .

اما اذا أنت انتقلت الى شاطىء النهر فى ليلة من هذه الليالى الفياضة بالاحلام والسحر ، فلا ندحة لك عن أن ترى بين خطوة واخرى اثنين جالسين تحت السماء الصافية تفرغى عليهما سلاما لا يوصف ، وتلفيهما بين طيات من صوت الهدوء الذى لا يعرف ، وهما يصغيان الى صوت يكاد لا يصل الى آذانهما ، هو صوت الشكوى والانين المتصاعد من الامواج تلفظ النفس الاخير تحت اقدامهما . وترتدين من الرمال ادراجا لا تبليها الارض.

وعلى حين غرة ، وفى جوف الليل نسمع قيثارة بعيدة .

إنك لتسمع هذا الصوت السماوى وكأنه يتهادى اليك ، أو يتردد فى ترامية نحوك ولكنه صوت يطرب النفس ، ويشنف السمع ، ويذهل العقل فى شدة تحكم العشاق ، فتشعر بلمس الحنان ، حتى لتقول إن اللحظة لحظة قبلات وتنهدات ووداع وفراق .

وهكذا تقتفى احلامنا سبيل النغم الشجى .

انك تسمع هذه القيثارة توقع دوراً جميلا فى حنينه الشجى . كأنها تقول :

ما أحزنك أيتها الورود الذابلة .

ما أحزنك ايتها الايام الضائعة والليالى المولية.

وما أتعس الحب الذى يكفى طلوع الصباح ليتساقط زهره

وما أبأسك ايتها العين الدنسة التى لا يفيض ماؤها .

وما أمرك ايها الجمال الذى يحمله الزمن القاسى على اجنحته ، وما أشقى عذرة القلب التى نامت

ولكن ما أحلى الازهار وأعذب الحب اذا ولد أبهما ساعة الفجر ليعيش ابدا .

ما أحلى قبلات الاخلاص ، وما أروع الزوجين فى ريعان الشباب يسيران والاذرع المرتجفة تطوق القامتين العاليتين تحت المظلات الخضراء : فرحين مرحين، كل منهما هو عالم الآخر ودنياه .

وما أجمل الخطيبين وهما يتمتعان بروح فى روح مسحور . لا يداخله فسوق ولا فجور . والامال العذبة تستبق الحياة السعيدة ، موقنين أن فى مقدورهما اجتياز العقبات بالاخلاص والولاء والوفاء .

وما أجمل العاشقين النبيلين اللذين لا يسلكان سبيلا يهدم الغرض السامى ، ويحسان الحب وهو يدب فى الاعماق دبيب الفضيلة ، ويسمعان دقات القلب تعلن نشوة الطفولة التى لا يغشاها حجاب ، والقلب نفسه ملىء بالاحساس العميق كعمق البحر ، وبالطهر امتلاء السماء .

وهكذا غنت القيثار ألحانها المطربة تحت سماء بلاد سويسرا الصافية ؛ وعلى مقربة من عزف الامواج ثم اظلمت السماء وسكتت الموسيقى، فهطلت عيون العشاق فى هذه اللحظة الساحرة، وبكت ما تذوقته فى توافق خطير لذيذ لا نهاية له ، كالحب والبحر والسماء !

* * *

انقضت فترة استيعاب جمال الطبيعة وتغذية النفس بعناصر هذا الجمال.. وسافر

حضرة صاحب الجلالة الملك إلى انجلترا، ثم إلى فرنسا فكان فيهما كما كان في سويسرا، مثال أول رجل نبيل شريف في أمته.

ولقد كتب المسيو جاستون برتيه بتاريخ ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٧ مقالا في صحيفة الجورنال جاء فيه بصدد ما نقول: « لما ذهب جلالة الملك فاروق في الصيف الماضي إلى باريس استمال اليه قلوب أهلها بما امتاز به من لين الجانب، وروعة الشباب، والبراعة في الالعاب الرياضية، والابتسامة الدالة على صفاء دخيلته، وجميع الكبراء الذين تشرفوا بمقابلته أثنوا على توقد ذهنه، وحدة فكره، واستمالت صفاته الممتازة عواطفهم اليه » .

« وقد تشرفت بالمثول لدى جلالته في فيشي إذ قدمني اليه معالي فخري باشا، فدهشت من لطفه، وطلاقة وجهه، وبعد عشرة أيام شاهدت في القاهرة حفلة تولية الملك فرأيت تغيرا عظيما في شخص جلالته، فانه بدا للانظار لابسا بزته الملكية الفاخرة التي ينوء تحتها غيره من الملوك، أما هو فانه ظهر بمظهر يدل على أنه خلق للزعامة » .

عودة المليك لتولي الملك

عاد صاحب الجلالة فاروق الأول ملك مصر الى بلاده لتولي ملكه، ولقد أقبل وكأنه زهرة اللوتس تغلغلت جذوعها في البحيرات الكبرى وانطلق ساقها النخيل خلال هواء الصحراء الجاف، وتفتحت أكمامها على شواطىء البحر الابيض المتوسط، والنسيم يحف بها كأنفاس الأحباب في الأسحار، وأريج الرياض عقب الأمطار، مليء بالحياة تبدل من حزون الشكاة، سهول المعافاة، ومن شدة الالم، رجاء النعيم، حتى لكأن هذا النسيم في انطلاقه ملاك منزل، يشعر العالم بالهدى والنور، أو ريح سلام مرسل، يمر على الأكوان، ليطفىء النيران، ويقضي على الشرور وروح العدوان، ويحيل مختلف البقاع ربيعا يفرغ على النفوس الغبطة والاهتزاز

والجبور ، ويبشر أفق الحرية بأسعد الأوقات ، وينبت فى رياض المروءة أذكى نبات.
فيابشرانا بالاقبال الميمون حده ، المبارك جده ، المضمون سعده ، فقد جاء وعليه خاتم الفضل وطابعه ، ومن حوله سهم الخير وطالعه فدقت القلوب على أوتار الحماس والغيرة ، وتعطرفى الوجودكل سهل وذروة ، وتجمل بالرياحين كل منبسط وسنام ، نزله أسعد مليك وأتقى إمام ، وجعلت الشمس تحيي الروعة الالهية التى استغشاها جلاله ، وتلبسه بأشعتها تاجا يزيده جمالا على جماله ، ليكون يوم عيد جلوسه الأول يوما لاينطفىء له نور ، ولا ينتهى فيه سرور ، ولا تمل القلوب الاعجاب به ، ولا تكل الافواه من أن تغنيه شكراً لله على الفضائل التى سلكها فى كل ماابتدعه ، والسمو الذى جعله مبدأ كل حياة سعيدة .

ان كل الوجود ، ان هذه الامواج الهوائية التى جاءت مزاجا من الذهب والنور والزرقة لم تكن غير الذرات تجرى خلف مشيئة الله لتتبارى يوم عيد الجلوس الاول لجلالة الفاروق وهى تقول :

انقض أيها النهار فى سلام ، وانت أيها الليل أدر صحف السماوات ليتعلم الانسان معنى الوئام ، وانت ايتها النجوم تحركى فى انسجام ، لترى العالم سر النظام .

وأنت أيها النسيم ! اطو اجنحتك ، وقف لتحيي سيادة الاخاء بين الآنام .

وأنت أيتها الزهور ، المنتفضة من هول الآثام ، انشرى أوراقك الذابلة لتستعيد أزهارك شارة المرح ، وتلقى أول عيد جلوس للفاروق فى بهجة وفرح ، وأنت ايتها الارض خففى من مجاويب أصدائك وألزمى الصمت .

بل أنت أيتها الطبيعة ذات آلاف الالسن والاصوات احتشدى فى صعيد واحد .

وأنت أيها الشعب قف مع هذه الجوقة السعيدة صفاً صفاً لتحيوا فى هذا اليوم المبارك بمجد الفاروق الاعظم فى كل مكان :

تحت سناء الاكواخ .

في بطون القصور .

في السهل والجبل .

في البرارى والقفار .

في أقاصى الغبراء ، وفوق الماء ، وفي عنان السماء .

وأنتم أيها الابناء تجمعوا أبد الدهر لتسألوا أمهاتكم أن يقصصن عليكم دواماً سيرة الفاروق وتاريخ مجده ، وما سيرة الفاروق وقصة مجده إلا سيرة النيل وقصة مجد النيل إنهما متشابهان.

لحوض النيل يشمل البحيرات الاستوائية الكبرى ، وأعلى الجبال الافريقية ، وأكبر مدينة فى أفريقيا ، ويقوم عرش الفاروق هكذا على مجرى النهر الاعظم ، وتخضع له مختلف الشعوب التى تستمد منه السلطان والحول ، والقوة والطول ، كما تخضع للنيل وتستمد منه القوة والخير .

ويجرى النيل ، وفى خطاه الخصب ، كما فى خطى الفاروق البركة والسعد .

وكلاهما الجدول فى نشأته وشبابه ، والنهر فى عنفوانه .

أنظر إلى الجدول وهو ينحدر من الجبال ، يسطع فرحا ، كنظرة النجوم تتألق فى السماء وقد غذت طفولته الناتئة بين الصخور المخضلة عباقرة أطلوا عليها من فوق السحاب ، وإذا ما اشتد وترعرع وثب فى جوف الفضاء يجر فى ذيله ، وهو يتدفع ، ينابيع الاخاء ، فلا تعطل سيره الاودية المظلمة ، وإنما يندفع بمجراه نحو الوادى ويدخله معجباً بأمواجه الفضية ، ويعجب به الوادى ونهيرات الفلوات ، وجداول الجبال ، وهى تحييه فى مرح هاتفة : أخى ! أخى ! خذ بيد أخيك ، واقتده نحو الوالد الازلى القديم : المحيط ، فقد نهشتنا الرمال المحرقة خلال الصحراء المقفرة ، وامتصت الشمس دماءنا وهى تسلط علينا أشعتها الحارة من فوقنا ، وجعلت التلال تعوق سيرنا ، ثم إذا بالجدول يزداد قوة وسلطانا ، لان أمة بأسرها تحمل الامير إلى ذروة العظمة وترتسم المدن والاقاليم على مجرى خطاه . وها هى المدن على كتفه ومن فوقها

آلاف الاعلام تشهد بمجده وتحدد مدى أمبراطوريته .

هاهو النيل يجرى من المنبع الى المصب ، يعاونه اخوته وأبناؤه ، وعلى متون تياراته كنوزها ، يوزعها ذات الشمال وذات اليمين،على الفلاح الذى ارتبطت حياته بحياة النيل رباطاً وثيقاً منذ القدم .

وفى الحق إن مصر هى البلد الوحيد فى العالم الذى يجرى النيل دائما تحت أنظار سكانه .

إنه يمونهم بالماء والغذاء .

إنه أزلى بفيضه وفيضانه .

إنه متضامن مع سكانه ،ويوثق الاخاء بينه وبين أهله، بينه وبين روافده .

فالأمهات سيفصلن للأبناء هذه القصة أبداً، قصة النيل ، قصة الفاروق ، قصة الخلود باذن الله .

إنهن سيشرحن لأبنائهن معنى التضامن الملكى والاخاء الفاروقى ، وسيتساءلن أمامهم: علام تترتب طمأنينتنا ان لم تترتب على تبادل الخدمات ؟ إن الضمانة الوحيدة لحياتنا ، ومعقلها الذى يرد عنها الهجمات المفاجئة، ويحميها من الكيد، إنما هى فى اربح تجارة تكفل للجماعة صيانة كيانها ، ألا وهى التجارة الفاروقية ، تجارة المعروف وحسن الصنيع وتعميم الخير فى نزاهة ونصفة وعدل . أما إذا انقطع رباط حسن العلاقات الذى يشدنا إلى بعضنا ، وصار كل منا بمعزل عن الآخر، فاننا نكون على الرغم منا فريسة الحيوانية ، بل أضعف فريسة لها .

فرواج التجارة الفاروقية الرابحة يتطلب من جميع أعضاء الجماعة المصرية أن يتحدوا اتحاداً وثيقاً تلبية لنداء الواجب، مادامت مصلحة الجميع فى بقاء كل فرد ، ومادام النظام العام يتطلب ادخار حياة الفرد ، إذ الكل ولدوا ليعيشوا حياة مشتركة، وإذن فالتجارة الفاروقية تملى علينا أن لاسلام للجماعة إلا فى ميدان الجد والتعاون المتبادل ، لأن الناس لاقبل لهم بأن يعيشوا عيشة راضية، إلا إذا تعاون الجميع مع

الفرد ،وتعاون الفرد مع الجميع. فقد ربطت الضرورة بينهم جميعاً ، لان الفرد عاجز وحده عن أن يكفى نفسه إذا هو لم يحاول أن يتعدد بتعاون الغير معه . فاذا نحن ألقينا نظرة على النواحى العامة من المجموعة الانسانية ، ألفينا الفرد ليس إلا هيئة تامة، أوشخصاً كاملاً ،ضمنته الهيئة الاجتماعية إليها بحكم الضرورة . ذلك بأن الضعفاء فى حاجة إلى دعامات ، والمصابين فى افتقار إلى مواساة ، والمظلومين يعوزهم قضاة. وإذن فكل انسان مضطر إلى أن يوزع على إخوانه كل ما فى نفسه من طيبات ، وإلا فأنه يكون هو والعدم سواء .

ان المصلحة الخاصة هى دائماً فى المصلحة العامة ، وليس معقولاً أن يعمل الانسان عملا شريفاً يخدم به نفسه إلا إذا صدر هذا العمل الشريف عن عمل عام ، ذلك بان العدالة نحو الغير إحسان لأنفسنا ، والتملص من العمل للمصلحة العامة فقدان للذات

إن فكرة التضامن القائمة بين النيل والمصريين أزلية قديمة ، أما بين مصر وولاة أمورها فهى حديثة كسبها الفاروق من الطبيعة،من ماء النيل وروافده ، ذلك بأن لكل فرد مصلحة فى مساعدة الآخرين ، لكل فرد مصلحة فى أن يكون له فى الحياة شركاء أقوياء أصحاء سعداء موهوبون ، ومعنى ذلك فى نظر الفاروق الثاقب هو القضاء على الوهم العتيق الذى قضى فى سالف الأزمان بأن تقوم سعادة بعض الافراد ويؤسس سلطانهم، على هدم مصالح الآخرين وزوالها ، ولذلك فقد تجسمت فكرة التضامن بين جلالة الفاروق وشعبه ، وسطع نورها سطوعاً يعجز معه المكابرون عن نكرانه ، وأيقن كل فرد بأنه لا يملك نفسه مادام كل منا لا شئ بذاته ،لأن الطبيعة كلها تتجاوب فى أغواره ، وإذن فكلنا فى أعماق الفرد أصدقاء متساوون متضامنون،وكل فرد فى أعماق الجميع .

كل منا جزء مكون لكل متضامن، وكل منا يزيد دواماً فى مجموعة الخير أو الشر الانسانى بأعماله اليومية أو ينتقص منها ، فكما ان جذوع الحاضر متغلغلة فى الماضى لتمتص عصيره ،وكما أن حياة أسلافنا،ومثلهم العليا تؤثر فينا أبداً بسلطانها القاهر ،

فإن أعمالنا اليومية تعاون فى تكوين أحوال الوجود وأخلاق الأجيال المستقبلة ، لأن الوجل الحى ثمرة ناضجة ترتبت على ثقافات الأجيال السابقة ، وإذن فنحن لانولد لأنفسنا ولا نعيش لذواتنا ، وإنما نولد ونعيش للجماعة ، الجماعة المستمرة ، القديمة والحاضرة والمستقبلة ، كما تولد الاعضاء وتعيش للجسم وللهيئة الاجتماعية ، وهذا مافيه المعنى الصحيح لإيتاء الخير المشترك والإحسان والعدالة بما فى وسعنا وطاقتنا .

فالواجب يقضى إذن أن نساهم فى سعادة إخواننا جميعاً ، كما نساهم فى سعادة أقاربنا ، وأن لا نحقق سعادتنا ومصالحنا ورفاهتنا وراحتنا بما يتعارض والهناءة المشتركة ، وأن نفكر فيما يتوسمه الجمهور فينا ، وفيما نتوسمه فى غيرنا إذاهم حلوا محلنا .

وإذن فلا مناص من أن تقضى الحياة فى إقامة آثار نافعة ،تدل على قدرنا طول الطريق الذى انطبع بخطانا ، وهذا مايعلمنا إياه جلالة الفاروق ، فمثل جلالته العليا تعلمنا يومياً أنه يوقن بأننا نولد مثقلين بالتزامات طبيعية متنوعة نحو الجماعة ، فالقول بأن فى الوجود بؤساء لايكفى ، بل الواجب يحتم زيارتهم لنراهم فى موطن آلامهم حتى نتعرف كيف يتأوهون ويتأففون ، وكيف نواسيهم ونسليهم ونعينهم على تحمل المكروه ، بل كيف لا ندع الفرصة تفلت من أيدينا حتى نشعر الناس برباط التضامن بين السعداء والتعساء الأشقياء ، ونحمل هؤلاء على أن يحسوا بأننا نرى أن راحتنا إنما هى ثمرة متاعبهم . وان صحتنا وحياتنا ووجودنا قد كفلتها آلامهم ودمعها وجودهم ، وإنما مقابل أجز هو الماثل فى عاطفة الاحسان اليهم والبر بهم والعمل على تخفيف آلامهم ..

فاذا أقبل يوم عيد للفاروق الأعظم فانما يكون يوم عيد التضامن الملكى ، وإذن حق أن نتوجه جميعاً الى المولى عز وجل بقلوب مخلصة نقية ، لنسأله أن يجعل أيام مولانا تواريخ وأعيادا ، ويجمع له السعادات آمادا وإمدادا ، ويطيل بقاءه خالدا كالنيل موصول السلطان على الدوام ، مظفر الالوية منشور الاعلام ، مستقر السرير

على الغارب، يحميه بعزيمته من كل جانب ، تدين بالطاعة له مختلف الطوائف ، ويأمن بعدله كل خائف ، ويبارك الله فيما اعتزم، وجعل وصلته وكيدة العقدة ، سرمدية المدة ، فياضة البركة والفضل ، طيبة الذرية والنسل .

فى يوم البيعة

أجاد الشعب المصرى فى اجابة هذا النداء يوم البيعة فى ٢٩ يوليه سنة ١٩٣٧ ، ولقد رأيتم عباد الله فى ذلك اليوم موكب المليك المفدى فى الصباح يسير بين صفوف الأمة المتتابعة الافواج ، المتدفقة الأمواج ، لاتحصيها الاعداد ، ولا تقاس بها الأجناد وقرأتم آيات الظفر فى ذوائب الاعلام والبنود ، وتلوتم سورة الفتح فى رايات النصر ، خافقة على المواكب والجنود ، وتأملتم النجح الخفى يتألق نوره فى نواصى الخيل ، بعد إذ تبدد الظلام واستظهر النهار على الليل ، واهتزت الارض ببشائر عدل الفاروق وخيره ، وعادت الينا ذكرى ابن الخطاب عمر الفاروق وهو على رأس الجيش ، يمشى بين الصفوف أعزل رابط الجأش ، تنبعث من محياه اصالة الرأى والحزم، والتئام التدبير والعزم ، حتى دانت له الطوائف ، وأمن به الخائف ، وأصبح الناس ملأى تهانى وبشارات ، والأولياء شورى بين أفراح ومسرات ، لا تسمع فى الصفوف إلا نطق ألسنة الشكر ، وارتياح أولى الفضل ، لتفتق أنوار الملك والعدل .

فى الصباح

لقد تمت مبايعة البرلمان فى الصباح ، وتمت مبايعة الشعب فى الحفلات العامة .

أقسم صاحب الجلالة فاروق الأول يمين الطاعة للدستور فختم بهذه اليمين المغلظة على تنازله لامته عن حقوقه التاريخية التى كسبتها أسرة محمد على بادوات قانونية دولية فى مصر والسودان ، وأصبح بذلك سلطة تلطيف واتزان وتعاون بين

الشعب والبرلمان ، لما من الاحترام والقداسة والصون مانص عليه الدستور ، كما ليس له أن يعمل إلا بواسطة وزرائه الذين عليهم الطاعة له والاصغاء لآرائه وإلا كانوا عرضة للاقالة وهى حقه الخاص كحقه فى حل مجلس النواب ، وهما حقان يترتب عليهما الاتزان بين مختلف السلطات . فصار منذ ذلك الحين الحصن المنيع الذى تحتمى الأمة فيه وبه ، وإذن وجب على مصر أن تقف حوله صفا بعد صف لتذود عنه ، ذودا عن فضائله ، وتكون هدفا للتضحية تقديراً لتضحيته ، ولا يكون هذا إلا بعبايعته على الولاء له والاخلاص فى سبيل الدفاع عنه ، فان الدفاع عنه دفاع عن الأمة ذاتها .

فالأمة التى اصطفت هكذا حول مليكها المفدى لتبايعه على «السمع والطاعة فى عسرها ويسرها ومنشطها ومكرهها ، وأن تقول الحق أينما كانت لا تخاف فى الله لومة لائم» لهى الامة المرجوة لرعاية الفاروق والتمتع بعدله وانصافه .

ان الامة بعد المبايعة هى جند الفاروق ، يردون عن عرشه العادية ، ويتلقون الضربات ، ولا يبخلون بدمائهم يريقونها ذودا عن حقوق الفاروق المزدوجة بحقوق البلاد ، وعملا على عقد عرشه فى جبهة الشمس أو فى قبة الفلك .

إن هؤلاء الجنود الذين وقفوا حياتهم فداء للفاروق ، يدعون الله أن يلهمه تطهير النفوس من شوائب الفساد ، وأن يوحى اليه أن ينشر فى البلاد ألوية السداد ويرخى من خناق الرعية كلما نزلت بها بلية ، وأن يستنقذها من أنياب ما يحل بها من أذية ، حتى يجمع أهلها على مسالمة كشف المحن ، واستئصال الاحن ، فتستبدل بشدة الوجل ، قوة الأمل ، وبانبساط الأيدى عليها ، انقطاع الاطماع والعوادى عنها ، أطال الله بقاء جلالته مستوليا على ماتخطبه عزمته ، وتنتضيه همته ، نافذ المكارم والعزائم ، ماضى الآراء والصوارم ، وممهد له السعى الرشيد ، والمقام الحميد .

مدينة النور

كانت الساعة السادسة من بعد ظهر ٢٩ يوليه سنة ١٩٣٧ ، وسرعان ماتطورت الحال وانتقلنا فجأة من الشفق إلى مطالع الفجر إلى الضحى ، فتوارى الليل أمام تقاب

صبح بهيج،من أيام ربيع عطر الأريج،تنفس عن أنفاس الأحباب، وأعار الوجود دم الشباب ، وكساه أفخر ثياب ، فتفجرت من شرايين الشوارع أشعة ذهبية ، وتلفحت المنعرجات بأوشحة فضية ، وعلت هامات الساحات والباحات تيجان سحرية ، فريدة الاتساق والاعتدال ، جيدة الروعة والجمال ، ولكنه كان صبحا تم فيه ازدواج تغريد الطيور فوق الافنان . والدوحات والاغصان بسطوع أول شعاع من أشعة الشمس ينفذ من النقاب العام المتألق الألوان ، بل انعقد فى هذا الصبح ماهو أبهى وأجل ، وأبهج وأجمل ، انعقد فيه زفاف جلال النهار على حلاوة الهتافات الحارة الخالصة التى جاءت رجعاً لتوقيع لحن الولاء والاخلاص لمليك البلاد على أوتار قلوب اندفعت باختيارها إلى أداء الواجب، أداءاً دل على أن قلب المؤمن بحب العرش،آلةموسيقيةتامةالاوتار،فكان الازدواج الباهر بين الجدوأفراح النصر ، فألهم المنظر وأوحى،الى الرعيةماأوحى وماألهم.

لقد كانت القاهرة فى يوم البيعة مدينة النور حقا ، فقد انسلك تياره فى المناحى والمناكب . كما انتظمت السماء الكواكب . فكانت آيات بينات ، ومعجزات لولا التقى لقلنا أبدعها منشىء العبقريات لتجملك وأنت مستغرق فى بحران عميق ، تضل الطريق . وتتوه بين تفاصيلها وتراكيبها . فتحسبها زائفة على جوانب المفاوز والمسالك وهى واقفة تتجدد فى كل لحظة وآونة ، فيغذى عقلك مشهد تناسقها وتنتشى روحك بحسن إبداعها . ولا تمالك إلا أن تحمد ذوق من قام بتجميلها ، والثناء على من قام بأمر تنفيذها .

لقد كنت يومئذ تمشى فى مدينة النور حقا ، فان أنت بدت منها ،هالتك الأحواض النورانية تنساب فيها الأنهار الذهبية ، وفى وسطها شلالات ياقوتية. ومن حولها روافد زمردية ، وترع بيضاء ثلجية ، وإن أنت حلقت فوقها انتظم المنظر ستائر بلورية ، شدت الى حوائط معدنية . وعلى أديم أرضها بسط من النور يمتد سناها على أعين الدهر فى صفرة حلوة ، بين أفاريز وردية ، أو خضراء طبيعية

تلوح لك كالاحجار الكريمة حول الامواج الباحرة الفضية . ثم لا تلبث أن ترى أطراف هذه البسط قد تحللت وذابت وانصبت كنوزها في مناجم ماسية ، تتلاقى فيها نظرات المجتمعين ، فتطمئن الى صدق الولاء وحسن الاخلاص لصاحب التاج ورب العرش المصرى الكريم .

اجتمعت أمة حول تلك البسط النورانية ، وأقواس النصر اللألاء الفضية فما كنت تلحظ إلا عيوناً سكرت حيث فاجأتهم نشوة السعادة والغبطة ، وشفاها أبت إلا أن تسترسل فى ثرثرة محمودة ، طبعت على الهيام بالوطن . والاخلاص لولى أمره ، والوفاء له ، كما كنت تلحظ وجوها عكست عليها ألوان الأنوار الوردية والياقوتية . والبنفسجية ، فكان تألق هذا الانعكاس على الوجوه كدموع الاخلاص انسابت فأنعشت أفئدة تألمت وأنت وشكت من بعد الشقة وطول الفرقه بينها وبين مولاها ونصيرها .

وفى الحق إن فى الحياة أيام سلام ورفاهة ونشوة وسعادة ، يود الانسان لو تدوم فلا ينغصها منغص ، ولا يشوبها كدر حتى يرتشف منها القلب عذوبة رواء مايجب أن يكون ، وتستنشق فيها النفس هواء مشبعا بالحب المتبادل ، كي لا يعيش الانسان فى عالم غير العالم ولا يسمع الاصوات كما يسمع أزيز الطائرات تحلق بعيداً فى عنان السماء ، ثم يموت وهو يحسب أنه عاش فى عصر من عصور الاقاصيص والخرافات : سمع عن بعد ولم ير شيئا .

وما هى إلا ساعة حتى شق جوف العاصمة هتافات عالية اهتزت لها مسالك النور ، فتضاعف النور الصناعى بنور الاخلاص الطبيعى ، ثم تضاعف وتضاعف عندما أقبل جلالة الملك خفية ميمون الكواكب . مسعود المواكب . ومن حوله أنصار حقه ، وأعوان ملكه ، ثم أخذ يسير فى جيوشه التى لا تحصرها الاعداد ، وجنوده التى لا تقاس بها الاجناد ، ولكن لا جيش ولا جند ، وانما قلوب شعب أختشد ، وأرواح عالم فى جسد ، كلها رعيته وحراسه ، هم أسود لا جنود ، غص بها الفضاء واستكان لها القضاء ، وضاقت عنها الانظار ، وخشعت لها الاقدار .

إنها كانت فيالق تتدافع أفواجها، وتتلاحق أمواجها، وتترادف صفوفها، وتتتابع صنوفهـا . وقفت عند أقواس النصر ، تقرأ سورة الفتح. وتسأل للبلاد النجح، وتدعو لجلالة الملك بطول العمر ، وكلها فم واحد يدوى بصوته الرهيب فى كل مكان يعيش الملك !

ولقد مكثت البلاد ثلاثة أيام فى عيد لا تسع هذه المقدمة تفاصيله ، ولـكن ريشة الفنان سترسمها فى الجزء الأول« من تاريخ فاروق الأول. »

مباشرة الملك سلطته

باشر جلالة الملك سلطته الدستورية منذ ٢٩ يوليه سنة ١٩٣٧ ، فجعل حبه يزداد فى النفوس رسوخاً بنسبة انطواء الايام .

ولـكنك اذا كنت تستطيع أن تستخلص صورة الناس من أعمالهم وأقوالهم المنشورة التى تجىء فى بعض الاحيان رجع حالتهم النفسية ، فان التحـدث اليهم مضافا إلى ماتقدم، يمكنك من الاطلاع فى مرآة النفس على مايجيش فيها أو يقوم من انفعالات .

لذلك فاننا نتناول هنا الريشة لرسم صورة صحيحة للفاروق كما رأيناها فى أعماله . ثم فى ملامحه عندما تشرفنا بمقـابلة جلالته فى ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٧ بسراى المنتزه العامرة .

صورة صاحب الجلالة

الملك فاروق الاول

كشف لى تشرفى بمقابلة المليك المحبوب كما كشفت لى أعمـاله وبياناته عن فضائل لا تحضى ، وغرائز قوية لا تستقصى ، أشرقت كلها أمامى فأشرق مع نورها حقائق غابت عن كثيرين ممن لم يحظوا بشرف المثول بين يديه الكريمتين ، ولكن

يجمل بي قبل ذلك أن أرسم الصورة التي التقطتها عدسة عيني يوم وصول جلالته في مايو سنة ١٩٣٦ لأنتقل بعدئذ إلى الصورة الصحيحة التي التقطتها يوم تشرفي بالمقابلة الملكية ويوم درست أعمال جلالته وبياناته .

أول ما رأيت جلالته

كانت أول لحظة نعمت فيها برؤية الفاروق الاعظم عقب المناداة به ملكا على مصر، هي تلك التي مرت بي ووزيره الاكبر حضرة صاحب الدولة علي ماهر باشا إلى جانب جلالته في العربة الملكية ، عقب عودته من لندرا الى عاصمة ملكه ، حيث استقر في القلوب جلاله ، وتمكنت من النفوس آماله . بعد اذ انتقل الى جوار ربه ساكن الجنان المغفور له والده الملك فؤاد الاول ، ذلك الملك الذى حقق لمصر استقلالها القانوني الصحيح الذى ترتب على اعتراف الدول به، أن أصبحت مصر دولة مستقلة ذات سيادة،لها شخصية دولية تخولها من الحقوق والواجبات ما لسائر الدول أعضاء الجماعة الدولية ، ثم عمد بعدئذ إلى جعله استقلالا ناجزا ، ولكن الناس لم يفقهوا غايته ، أو يدركوا كنه مراميه وأمنياته خلال حياته ، إلى أن سكن مثواه الأخير ، عليه رضوان الله ، فجعل العقل العام يسترد مكانه من الادمغة الشاذة،أسوة بمن كان على مقربة منه أو بمن تدبر عمله في أناة وتؤدة ، وتجرد من الشهوة ساعة إذ أصدر حكمه ، غير أن من الأيام ما هو جلاد للجميل ، كما بين الرجال من هو حاسد هزيل .

رأيت الطلعة الملكية في تلك اللحظة وقد ارتسمت عليها صورة النفس المتأججة حزنا على الراحل الكريم ، المتوثبة للعمل الصالح خدمة للشعب المصرى العظيم ،وفي أسارير الوجه النضير قد انعكس من المشاعر الانقي ، ومن الاحساسات الانقى ، فكانت ترجمة ذلك في نفسي أن تفاءلت خيراً ، واستبشرت لمصر على يدى المليك المحبوب بمستقبل حافل بالعز الموفور ، وتملك قياد المطالب القومية ، وتنبأت للوطن خلال حكمه المبارك بسطوع المجد تنفرط أشعته ولا تذوب وسط النور .

أنبعث من تحقق الرغائب الوطنية .

لقد توسمت فى الفاروق يومئذ ملكا دستوريا وديموقراطياً - كـكل ملك عصرى غربى - يجب أن يجيء عصارة طيبة نقية ، هى عصارة مختلف الاجيال التى انعقدت للعالم تاريخا ، وخلاصة زكية من الذكاء القومى الذى استنبت العز فى المكان الخصيب ، وأظل الامة بظل الرقى الرحيب ، فكان فى سرير ملكه رأس البلاد المفكر ، وعقلها المدبر ، وحافزها الحى إلى استباق الخيرات ، وحامى سلطانها الحر الرادع ، ومرشدها الوادع ، ساعة الملمات ، يفهم حدود نفوذه المنتج ، ويستبين منها معالم مسئوليته الادبية ، ويزن أعمال السلف الملكى العالمى ، هؤلاء العباقرة اقتادوا العالم فى سبيل المجد الصادق ، واناروا للوجود الانسانى الطريق ، أو أضلوا الخلق فى بيداء البذخ الفاسق ، وهم يلبسون لرعاياهم رداء الصديق ، كل ذلك حتى يضرب المثل الأعلى للخلف بعد اذ يستخلص من أعمال الملوك السابقين وابتلاءاتهم أساس فكرة سلطانهم وتسلطهم ، وأسلوب تنفيذ هذه الفكرة ، ويهذبها طبقا لمقتضيات العصر ، بينما يكون فى الوقت نفسه قد نزل إلى مواطن الاسرار من جليلات الاسفار ، ليلم بشاعر الاغريق « هومير » الذى فاق بعمله « آخيل » حيث اصطنع الاسكندر المقدونى . وشاعر ايطاليا « فرجيل » الذى نشر الهدوء والسلام فى تلك الاصقاع على أطلال الحرب الاهلية ، ليجيء من بعده الشاعر « دانتى الغبيرى » فيهتاج هذه البلاد ويثيرها - ويعلم أن « لوكان » قد كان الارق ساد عيون « نيرون » وتحكم فيها . وأن « تاسيت » جعل من « كبريا » حمأة دفن فيها « تيبير » ، وأن « سير فنتيز » قد أطاح بالفروسية وأن « موليير » قد صاغ من الطبقة المتوسطة أداة أصلح بها طبقة النبلاء ، ومن هذه أداة أصلح بها تلك ، وأن أهل الرأى فى القرن الثامن عشر وعلى رأسهم « فولتير » هم الذين قوضوا الجماعات القديمة وبنوا على انقاضها الجماعات العصرية ، وان زملاءهم فى القرن التاسع عشر قد استطاعوا بالديموقراطية المائلة فى القوة العددية أن يدعموا الجماعات الجديدة أو يزعزعوا أركانها لتصبح أثرا بعد عين وأن الكتاب وحملة

الاقلام حماة الفكرة الانسانية ، يحاكون بفكرتهم الهواء تستنشقه رئتا الانسانية لتنفس هذه وتعيش ، ذلك بأن الفكرة نفس ولكنه يحرك العالم . . . .

ولكن تشرفى بمقابلة حضرة صاحب الجلالة الملك جمل هذه الآراء .

فى حضرة صاحب الجلالة الملك المفدى

اجتزت باب قصر المنتزه العامر فى الساعة الخامسة والربع من بعد ظهر يوم الخميس ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٧ للتشرف بمقابلة حضرة صاحب الجلالة الملك المفدى وسرت خلال طريق أشرفت عليه لوحات طبيعية ، أو صحف من كتاب مصون ، تعرض نفسها عليك لتشعرك بأن يد الله عاونت يد الانسان فى التنسيق والتنميق ، وتفرض عليك التأمل فيها ، ومطالعة الطبيعة ، أمدها الله بالعنفوان والكبرياء ، وأفرغ عليها الهدوء وألبسها رداء الجمال والأمن .

فالقدرة التى أنزلت القرآن معجزاً بأفكاره وطلاوته وجمال تنسيقه ، هى نفسها التى أوحت انشاء المنتزه آية تحمل على التفكير فى المولى سبحانه وتعالى ، كما تحمل على استخلاص فكرة سامية هى أن العقل الطليق الذى يحلق فى السماء مع الطيور ، ويزكو ويطهر فى طيب الزهور ، ويتدفع تدفع الامواج فى البحار ، وينبض كحفيف ورق الاشجار ، ويسمو ويصفو ، ويهدأ فى الذروات ، هو نفسه الذى يفيض ذكاء وعبقرية ، ويتدفق فصاحة وبلاغة بين الناس ، فاذا كنت شخصا عادياً وقضيت يومك وسط هذا البديع الفنى الالهى الغنى وحدقت فى بقعة منه ، ثم تأملت مفترقا من مفترقات طرقه ، وجعلت تذر الدقائق تتساقط تساقط أوراق الشجر ، التقطت بذيلا منها أفكارا سليمة انطبعت بجمال هذه الطبيعة الوادعة المفكرة القوية ، فكيف اذا كنت من ذلك الجنس الذى امتاز بنشاطه الفولاذى ، وكفايته النادرة لأسمى الخدمات العمومية وأجلها ، وقوة المقاومة الكامنة التى تمكن على مجرى الدهر من الاحتفاظ بالشخصية والخلق والتقاليد التى انطوت على نزعة تقاليد الاستقلال والحرية والارادة وعزة النفس والكرامة والشجاعة والاقدام وغيرها

ذلك من الحوافز الانسانية التى تفرغ على الناس الرهب والخشوع - رهب الروعة وخشوع الجلال - ولا تفرق بينه وبين الرضاء والاختيار شابهما الاقتناع، والاستسلام غمره الكبرياء، والطموح الى العمل الصالح يحدوه نور هذا الجلال وتلك الروعة ؟ .

فى ردهة الاستقبال

وأقبلت فى الموعد المحدد على ردهة الاستقبال فتجلى النور، حماية الله تهدى الى فعل الخير : وتقى شر الضير : انه النور الصافى شع من جبين الفاروق المفدى جلس الى مكتبه، وجعل يكشف عما حوله، دون أن يخالطه ظل فيخبث، أو قتام فيكدر، ويبدد تواطأ الحوادث على السمو خلف الاشباح، أوفى ثنايا الظلال، ليعقد سمواً من الجلاء والصفاء، كما انعقد مجد الاسلاف، تألق فى كبد السماء، من عناصر هى بريق السيوف فى الموره وميسولونغى وعكا ونصيبين وصياصى جبال آسيا الصغرى وهامات شواطى البوسفور، كساها الثلج الناصع البياض .

تيجان الفاروق

كشف لى هذا النور عن مستقبل باهر، رسمه الحظ السعيد لمصر والمصريين، كما كشف عن يد الله تدفع الجميع الى تحية هذا المستقبل، وهى تضع على رأس مصدره الاسمى ثلاثة تيجان : تاجا من النور هو تاج العبقرية، وتاجا من الفضيلة هو تاج التضحية فى سبيل النهوض بالبلاد، وتاجا من الجلال هو تاج الملك .

ان لكل من هذه التيجان الثلاثة جاذبية خاصة لفريق من الامة خاص، فلتاج العبقرية سحر خاص يتولد عنه حب متبادل بين جلالة الملك وذوى الرأى . ولتاج الفضيلة التى لاقوام لها غير التضحية فى سبيل نصرة العدل والحق والاحسان الى الفقراء، قوة خاصة يتولد عنها حب متبادل بين جلالة الملك والشعب جميعاً .

ولتاج الملك وهج خاص يتولد عنه الاحترام المتبادل بين جلالة الملك وجميع قطان مصر .

إن هذا الاحترام المتبادل هو معنى الحرية الصحيحة التى تقوم عليها الديمقراطية

الملكية التي عمها جلالة الملك المحبوب، وجعل مقياسها تعرُّف كل فرد حدود واجباته وحقوقه .

فكل فرقة من فرق الامة ، وكل لون من ألوانها، يجدون موئلهم فى تاج من هذه التيجان الثلاثة . وإذن فكل الأمة عصبة واحدة ، بل رجل واحد فى خدمة هذه التيجان الثلاثة تضفى عليه نعمة النور، و نعمة السطوع، و نعمة المجد

صورة الفاروق

لقد أشرقت تحت هذه التيجان الثلاثة صورة لا حت وكأن الخطوط الطيبة جميعاً قد عشقتها ، وان هذه الصورة قد أشربت القوات جميعاً ، حتى قوة السحر القاهرة وقوة الاغراء بالفضائل الفاتنة .

فتمثل أمامك ذلك الوجه الذى انعقد من ذائب الورد فى صباحة حارة، وشف دما غنيا بالاحساس ، رائعاً جذابا ، تستعير من نضراته حليتك ، وتقتبس من محاسنه أنوارك ، وإذا داعب شفتيه بالمقشط وهو يفكر ففيض من الافكار الموجزة فى اعجاز يبنى مستقبلك، ويغذي جنانك ، ويضرم فيك شعلة الكد والجد اضراماً لا انطفاء له ولا همود ولا خمود .

والجبهة العريضة فى رفعة وسمو، تطل عليك وقد تجلت فى أحسن تصميم، وأشرقت فى أروع تقويم ، جملتها قبة ذهبية عقدت من شعر ناعم ، تحاكى الشمس تتألق فى كبد السماء خلال نهار رائع صحو فيتدفق من أشعتها الخصب والرفاهة على عباد الله .

وإذا امتدت يد الفاروق تداعب هذه الجبهة ، سبقت يد الله فكشفت عن غيث فكرى هو اللؤلؤ النضيد ، وانتظمت عقداً من الحكم هو العقد الفريد ، وأخرجت للناس آيات جمعت ببساطتها البليغة أقوم ما يبنى منه الملك والسؤدد .

والحاجب امتد امتداد القوس الناعم المرن، فوق جفن حار نفذ من وتره سهام

وستان تحمى انسان عين لا ينام عن الملاطفة، والمداعبة، والملاحظة، والتأمل، والارشاد، والاستيعاب ، والسؤال والتساؤل عما حوله وما هو أبعد مما حوله،

والأنف جميل ساحر . يحلق بالروح مع الطيب هنا ، والسمع هناك مع الموسيقى .

والثغر يفتر عن برد . يترجم تنسيقه عن اتساق فى الفكر ، وانسجام فى المعانى واستواء فى تراكيب الكلام المخصب، كقطرات الندى تنعش الازاهير ، وتهز الرياحين ، ليتعرف الناس كيف يجرى عصير الولاء فى القلوب. فيبعث فى الوجوه النضارة والى اللفظ الطلاوة ، وإلى الكلام المعنى الجزل .

والذقن الصلب ينم عن ارادة قوية فى الحرص على الوفاء والولاء لمصر، والعبودية لله الواحد القهار .

كانت هكذا صورة الفاروق يوم رأيته وتحدثت اليه لأول مرة ، وهى صورة جماله الأسمى . ونضرة الشباب ، وتفتح زهرته العطرة .

أما جمال مبادئه ففى عبقرية عينه

العبقرية النظرية

الفاروق بهى الطلعة ، وقد أحاط بالجبهة شبه اطار من الشعر الذهبى يعكس صفاء يحاكى صفاء الجو المصرى ، وفمه البسام ينم عن توقد فى الذكاء يبطن عذوبة ولطفاً وايناسا ، وكل هذا من الجمال الصحيح ، ولكن مركز هذا الجمال هو النظرة الفاروقية

ان نظرة الفاروق باهرة ، فلنحللها اذن كما رأيناها ، لنعلم كيف سادت العبقرية الفاروقية الوجود المصرى .

تكونت هذه النظرة من عناصر الوضوح والصراحة والاطمئنان .

إن عينى الفاروق قد اختصتا بالتقاط جميع صور العالم الحساس ، والتثبت من جميع المرئيات التى يحملها شعاعها بعد أن تلحظاها وهى ترتسم على أجنحة هذا

الشعاع النظرى ، ومع كل ذلك فلم تشبهما شائبة ، فقد بقى النظر الفاروقى صافيا لا شية فيه ، لانه لم يحتفظ من المرئيات الا بنواحى الجمال فيها .

إن الملاحظة الجريئة التى اختصت بها نظرة الفاروق قد ازدوجت بقوة التقاط تكونت من العطف والجاذبية . فاذا ما امتدت النظرة ، ثم انكمشت وارتدت الى الداخل عادت محتفظة بما فى المرئيات من سر خفى ، ومعنى شهى ، فهى إذن نظرة مفكرة متأملة لاتعرف الاحلام ، ولا تصغى إلى الاوهام .

على أن هذا الصفاء النظرى المتأمل فى الوجود والمفكر فى الواقع والمدرك كنه الاشياء والبصير ببواطن الامور له انعكاس غريب ، فهو يشع ، ويمتد ، وينتقل الى المتحدث ويعمل ، حتى لقد آنست وأنا فى حضرة المليك المحبوب ان وحيا بصيرا يتساءل فى أعماق، بل لقد كنت احس أن فيضانا من رائعة الحياة قد طغا علىّ سيله المتدفق من تلك الحدقة، كينبوع فوار يتألق ماؤه خلال ظلال الغابة .

فالملاحظة . والتأمل . والاشعاع . هى ثلاث وظائف نظرية للفاروق تقابلها وجهات ثلاث للعبقرية هى قوة الا كتشاف ، وقوة الاذابة ، وقوة الا نشاء .

ومما لاشك فيه أن طبيعة صاحب الجلالة منطوية على استعداد طبيعى يقضى بتوزيع القوات العصبية بطريقة تبيح لتلك القوات الثلاث، او الوظائف النظرية الثلاث، ان تؤدى عملها فى غير جهد ، رغما من انها تعمل بلا انقطاع وفى غير ملل ، منضمة الى بعضها فى اتزان مرن دائم

فعالم الفاروق الداخلى يلتقط العالم المحيط به، ثم يدمجه فى بعض نفسه ويخلقه خلقا جديداً فى مادته ويعجنه وينشئه نشأة تأخذ الشكل الذى يريد ، أو القالب الخاص الذى يشاء .

ومن المهم هنا أن نلاحظ ان جهد الفاروق ، ذلك الجهد المبدع قائم على رغبته فى أن يرى ، وعلى شهوة شريفة ترمى إلى أن تكشف عن المعنى الصحيح للحياة بالتقاط صورة هذه الحياة المحيطة بعدسة عينه ، وإدراك قيمتها والتمتع بها

وهو يصبها فى القالب الخاص بعد أن يذيبها ويخلط هذا الذائب الخارجى بعناصر من روحه . ولقد استطاع جلالة الملك بعد عودته من أوروبا ومبايعته أن ينمى قوته النظرية الثانية ، وهى قوة خلط الحقائق الواقعة أمامه بعناصر نفسه وسنها فى صورة روحه.

وبينما نغم كلامه الفتى يقوم على تفجر الاختلاجات الحيوية ، وتدفقها فجأة ، وفى طواعية وحرية ، أو يقوم مضاعفة بذل الجهد فى خلط المرئيات بعناصر نفسه ، وتحويلها الى عنصر جديد فان مجرى الفكرة يكون دائما ممثلا للمحات بصره التى حللناها .

قوة الملاحظة

لكى يستطيع الانسان أن يلاحظ يجب أن يعرف أن ينظر . ولكى ينظر يجب أن يعرف أن يرى . ولقد كان الفاروق يرى صورة واحدة أينما توجه نظره هى صورة مصر التى خلقها جده الاعلى. ومنذ بداية شبابه كانت عينه تدرك العالم قبل أى حاسة أخرى . وأعماله كلها تدل على انه رصد حياته منذ الطفولة على ملاحظة الحقيقة .

فالافضلية عند الفاروق هى لحاسة النظر على باقى الحواس الخمس . فاذا أنت دققت فى ملاحظة أعماله أدركت انه ما كان يستخدم احساساته الأخرى إلا باعتدال . أما حاسة النظر فهى كل شىء تقريبا . ذلك بأن كل فكرة من أفكاره التى انطوت عليها أعماله وحركاته لم تكن إلا نوعا من التصوير المحكم .

فاذا رأى زهرة شعر كأنه يرى منظراً سماويا . فيقف أمامها دون أن يقدم على شمها، لان تمتع النظر بها وتمتع الحاسة الداخلية برؤيتها أسمى وأجدر بالانسان، وكذلك تقديره لأية فاكهة . وقد تكون هذه نية الطبيعة ، بينما قد يري ان الطبيعة قد أجهدت نفسها ، وأنهكت قواها تحقيقا لاعمالها العجيبة فى سبيل إرضاء الشهوة الانسانية .

وقد يرجع تفضيل هذه الحاسة عند الفاروق على غيرها ، الى دقة العين وعدم الاطمئنان دائما الى ما يسمعه الانسان . وهل لا تؤدى العين مهمة الاذن والتزاماتها وواجباتها ؟ وهل إصغاء الذين يستمعون الى المتكلم ويصغون اليه فى سكون ووقار ليس من أنواع الموسيقى الروحية الصامتة تعزف أشجى النغم وأرخمه على مسمع المتكلم ؟

ان نظر المتكلم يكره الحواس الاخرى على أن تكون فى خدمته أو تزول مؤقتا ليحل محلها فى أداء مهماتها . إذ من الواجب أن يرى من حوله بعين تلمس ، ويلمسهم بيد تبصر ، وهل تماوج المستمعين إلا أنشودة تقرؤها العين ؟ إن عين المتكلم كعين الفنان بلا مراء ، سواء أكان رساماً أم نحاتاً . وهل لبس الأزياء وألوانها إلا ذوق وطعم ؟ ان بعضها مستساغ وبعضها لاذع . لذلك وجب أن تكون عين الفاروق دقيقة ماهرة وساحرة إذا دعت الضرورة ، ليقرأ كجده اسماعيل نفسية المستمعين ويميز بواعث استفزازهم وإكراههم على التحليق فى سمائه بلا أجنحة إكراهاً هو الاختيار بذاته رغم أثر السحر .

لقد كملت وحدة الكائن فى « الفاروق » حتى ان التنوع فى مختلف مناحى الاحساس قد زال ، وتنحى عن مكانه لقوة حاسة واحدة هى حاسة النظر التى حللت شعاع النور وعرفت أنه جملة ألوان مختلفة فى صبغتها الداخلية ، ولما تجمعت لاحت فى صبغة واحدة خارجية هى صبغة النور . كذلك يجب أن تكون وحدة الامة اختلافاً فى الآراء الداخلية حتى تتضح الحقيقة ، ولوناً واحداً أمام عيون الاجانب . كالنور يعطى الفكرة الصحيحة من الوحدة ومن انسجام الألوان إذا ما كان الغرض أداء مهمتها بتبديد الظلام . وعلى هذه الوتيرة يعمل الفاروق حتى تكون الامة شعاعاً واحداً أمام الملأ .

ان طبيعة الفاروق الفياضة بالحياة قد اتجهت فى ريعان شبابه إلى نواحى النور ، وهى نواحى العلم والحرية والحق والحقيقة ، أى إلى الكمال كما قدمنا .

فكل ما كان جسيما فى روعته جسامة نسبية قد جذبه اليه . فالطبيعة والفن

والخلق والأشياء والأشكال والحركات قد تعلقت بنظره وتعلق نظره بها . فكان ينعم ويتم تنعمه إذا مااستطاع أن يحصر الاحداث داخل دائرة نظره . وجعلت جاذبية خاصة تدفع به إلى ملاحظة الحقائق التى تعرض له ، ولقد أمده حب الوطن بمنظار وردى يستعين به وقت الشدائد على أن يرى كل شيء جميلا رائعاً حتى الليل الدامس ، إذ اجتاز الفاروق ليالدامسة ككل مخلوق كليلة وفاةالمغفور له والده ، وكل لحظة يذكره،وكعدم بلوغه سن الرشد فى اليوم الذىتوفى فيه والده ، وذلك رغماً من تعشق الحظوظ الطيبة إياه . ومعنىذلك ان ملاحظته الكشافة لما غاب عن العيون الاخرى وراءحجب شفافة أو كثيفة كانت تدرك حقائق الوجود بدافع قوة الالهام ، وقوة العبقرية .

لقد تعلق الفاروق بالجمال ، تعلقه بالفن الخاص به وبالطبيعة ، تعلق بهمامنفردين ومجتمعين حتى لا يتخبط فى دياجير الحياة . فكل مالا يمكن أن يكون طبيعياً لا يؤثر فى نفسه . وكل ما كان من الفن ترديداً للطبيعة سحره وبهره ، وحمله على التأمل والتفكير الطويل . فتلك الصخرة التى علتها الحشائش لها جاذبيةخاصةتسترعىأنظاره وتأسرها ، ذلك بأن لها صفة يريد أن يخلعها على كل مصرى يقدر كرامته الذاتية ، حتى لا ينفد صبره على احتمال المكاره ، ولا تنوء قوته بعبء الصدمة كلما التحم مع خصم،ويزداد جلده كلما نزل به ابتلاء ،ويتضاعف صبرهأمامعدوهإذا ماتحتم به اللقاء.

على أن الفاروق يعنى بالطبيعة لبساطتها وانعدام تكلفها . فهى تقلع مايعترضها فى غير تكلف،لانه يعترضها ، وتريد حريتها فى غير مواربة لانها حريتها ، وتريد إخضاع كل شيء لارادتها داخل حظيرتها ،لان كل شيء فى حظيرتها هو حقها . وهكذا يجبأن تكونسيادتها،وإلاهدرتحياةالأممجماعاتوأفراداًوهوتسيادتها.

أن مجرى حياة الامم يجب أن يستمر بلا انقطاع ، ولا عائق ، كما هو الشأن بالنسبة لطبقات الارض وتكوين أمواه الأنهر وجريانها فى أحواضها ، واخضرار الرياض وازدهارها أيام الربيع . فنظام الامم هو الحياة ، لان الأمم هى الحياة ، هى تتابع حركات حيوية تصدر عن وجود لا نزاع فيه ، ولا نزاع فى احترامه ،

وإلا فلا حياة . وما خلقت الناس لغير الحياة بشقيها المادى والادبى . أما الفناء . فلا . لأن ذرات الانسانية تقتضى عكس ذلك .

فلعبقرية الفاروق النظرية،الهامها الخاص بمعنى حياة الأمة . والامة مجموعة من الناس ، والانسان إذا أوتى حواساً صحيحة كان بذاته أداة طبيعية كاملة ، دقيقة. لذلك حق للانسان أن يحاكى الطبيعة فى كل خصائصها . وكل حقوقها ، وما دام كل حق يقابله واجب فقد وجب أن يقوم بواجباته .والجماعة أفراد .

إن حركة طبيعة الانسان التى تتدفق فى غير توقف وفى غير هزات خلال تطور مسيره ،قد وهبته قوة طبيعية وأخرى روحية ،تدفعان الحياة فى سبيل خالدة هى سبيل الاتساق الدائم مع مجرى الطبيعة . ألا تلحظ دائما أبداً الهام النفس بما ينطوى على الواقع خارجها ؟ إن هذا نتيجة نظرية الالوان التى أقرت فى العين فكرة الاتساق بين الواقع المحسوس والحالة النفسية ، بل إنها نتيجة استخلاص المرئيات أو عالم العين من ملاحظة الطبيعة على أنها الروح الانسانية تنعكس على الخارج فى صورة مكبرة تتركز فى شكل العالم الخارجى ولونه .

إن هذا الالهام ، إن تلك الهبة الطبيعية والقوة الخارقة التى جاءت لتضاعف من سلطان الفاروق المدرك ،توضح لنا لماذا توجت جميع أعماله بالنجاح .

لم تكن عين « الفاروق » لتقف عند ملاحظة الطبيعة ، بل كانت تنظر اليها وتعرف أن ترى فيها جوانب الجمال الذى يصبه فى قوالب خاصة به،بعد امتصاصه ، واستبعاد مافيه من شوائب

إن الملاحظات التى قدمناها عن قوة الملاحظة عند « الفاروق » لتدل على أنه مقدام فى استخلاص عصير الاشياء ،وتحويله إلى عصير آخر هو مزيج من الطبيعة ونفسه . ولما كانت ملاحظته قد استرشدت دائما بقوة مصورة لا تنام . واقترنت بقوة الهام واثقة بنفسها ، فان نفسه قد صارت مرآة تسطع فوقها الشمس المصرية فتعكس الفضائل ليراها الناس فى صورة صحيحة.

وإذن فلننتقل الى التأمل . وهو القوة الثانية من القوات الثلاث التى اختصت بها العبقرية النظرية للفاروق

التأمل

للفاروق طريقة خاصة يكيف بها الاشياء الواقعة تحت إحساسه وفاق طبيعته ، فهو لا يتتبع سبيل الطبيعيين الذين يحللون الأشياء ثم يردونها إلى أصلها طبقا لقوانين تفسر الظاهرات بظاهرات ، وإنما كان يقف أمام الهدف متأملا .

ليس تأمل الفـاروق بذلك التأمل الذى يذهل الانسان عن نفسه . ولا هو بذلك النعيم الفكرى الذى يقف جميع الوظائف الحيوية ليتطلق الانسان بروعة وقتية، وإنمـا هو تأمل يقضى على جلالته بأن يعيش فى الشيء ، ومع الشيء مفكراً فى عمله، فنظريتـه هى إذن بذل الجهود ، أى امتداد العمل النفسى من أجل تفهم الطبيعة إلى الأقطار الخارجية المحيطة .

فتأمله كان أولا وقبـل كل شيء أن تمتص روحه المرئيات . فشدة قوة التقاط المرئيات وامتدادها ، تجمع كل ما يتصل بها كى تتناوله فكرته وتشكله وتجرى الحياة فيه ، ثم تهيؤه فى صورة جديدة ليست بالسحنة المشوهة ولا بالخلقة الناقصة .

بل إن النتيجة أهم من تلك، فما يصطنعه جهده النفسى بهذه الـكيفية هو من أمـلاك نفسه الخاصة التى أكتسب الحق فيها باجراء تجاربه . فروح الشيء نتيجة فرعية للقوة التى يستمدها الفاروق من أعماق نفسه .

تجرى الظاهرات على مرأى منه يثير الصميم من كيانه، فيتفتح فى أعماقه عالم نورانى لا يلبث أن يشع حتى يغشاه . وهنا يتجلى نوع من تحالف طبيعى بينه وبين الاشيـاء فتلوح هذه الاشياء وكأنها على موعد للالتئام بميوله الصحيحة . وبفضل هذا التناسق بين الداخل والخارج ، بين نفسه وبين العالم، يكشف الفاروق عن الفكرة فى الصورة التى يكونها . فرؤية الخلود فى العالم الدائر أمام بصره قد جعله يعثر على الخلود فى نفسه ويعلنه بعمله .

لقد ولد الفاروق البرىء وناداه الوجود ليتأمله . فرأى فى كل شىء أمته الخالدة فاحتفظ بها وحياها فى كل لحظة فكان فى مصر ومع مصر زينة الخالدين .

ولكن ماهى علاقة الطبيعة بالروح فى نظر الفاروق وماهو مجرى الحياة ؟ وماصلة الادراك الحساس بالجهد المنشىء ؟ وماهى رابطة المرئيات بالاحساسات فى النفس المتأملة ؟

الطبيعة والروح

خلق الله الطبيعة وأوحى اليها أن تشمل العالم كله وتفيض عليه الحياة ، ففى كل مكان وبمختلف الطرق والوسائل . نرى دائما الحق جل جلاله والطبيعة الخاضعة الذليلة والناس الخاشعين المبهورين أمام قدرة العلى الاعلى على اتصال برباط حيوى .

لقد أشرب الفاروق القوة الالهية وعمل بسمعها وبصرها وارادتها وشعر أنها واحدة ابدا ، واحدة لا تتغير ولا تتبدل . واذا هى تفرعت قائما لتبهر العالم . وتظهر آياتها الكبرى بخلق الكائنات التى تسبح بحمدها بكرة وعشيا

لقد سبح الفاروق بحمد الله وأسلم قياده لامره تسليما صحيحاً صادقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وخضع لقدرته التى اذابت الصلب وأحالته روحاً واحتفظت بما تولد عن الروح صلبا . ذلك الرباط العضوى الذى كون الوحدة العالمية على وتيرة جمال الوحدة الالهية . ألا وهو رباط الحياة .

فعبادة الواحد القهار عبادة ظاهرة وباطنه جعلت الفاروق يفقه معنى الوجود الانسانى الصحيح ويأخذ عن هذا الوجود وجماله فكرة الوحدة القومية وجمالها . وأعلن وجوب الصراحة فى كل شىء ، حتى تكون الوحدة بجمالها كاملة لاشية فيها ، أما الطبيعة فاداة من أدوات الخالق . ولقد اكتشفت عين الفاروق وسائل القوة الالهية فى معنى وحدة الطبيعة أيضاً واستخلص الهام جلالته قوانينها وهى قوانين الدوام والاستمرار والجاذبية والسقوط ، وعرف أن ماينطبق على المجموع ينطبق على الذرة . فاشتق من قوانين الانسان ، ثم قوانين الجماعة ، فكان للامة قوانين الدوام والاستمرار والجاذبية فى صورة التضامن . . وقوانين السقوط والتدهور فى صورة

الضعف . أما الزوال وأما الانقراض وأما العدم ، فلا قانون له ازاء الطبيعة لانها من صنع الله وما هو من صنع الله خالد. واذن فلا قانون للزوال والانقراض والعدم تلقاء الانسان، وبالتالى تلقاء مجموعة الناس وهى الأمة .

ولم يكن هذا الكشف عبثاً أو دون علة . ذلك بأن اضطرابات الحياة قد كشفت أمامه أفق المهيمن على حقيقته ، وتعرف من كشف هذا الافق ان الله جلت قدرته قد جمع بين الطبيعة والروح ، ووثق بينهما بلحمة لا انفصام لها .

فكل شىء فى الروح ككل شىء فى العالم ، قد ربطته حقوق واحدة ، بمركز يكشف عن وجوده العجيب، عن ذلك الموقف الذى يجعل جميع أجزاء العالم وأجزاء الروح متحدة ، عن طريق اتساق مدهش خلال ذلك الخضم الزاخر بالاشكال والالوان والصور المتعددة المختلفة المتفاوتة، الغنية بدوافع إبهارها وافتتان الخلق بها، بل وسط الوجود الذى لا أول له ولا آخر ، ولا عمق له ولا ارتفاع ، ولا باطن معين ، أو ظاهر محدود . وبما أن مجموعة الكائن وحدة ، وبما أن كل شطر من الوجود ليس الا تعبيراً مصغراً لهذا الوجود الكلى ، فيكون من الواضح أن كل فكرة تنطوى على حقيقة ، وكل حقيقة تنضوى تحت فكرة ، وأن عمل الطبيعة الصامت الآلى يمتد أيضاً إلى أغوار الضمير وفاق الفكرة المنبعثة من الواحد الأحد . ذلك النور النفاذ. واذن يكون الفاروق قد عرف فى الله فكرة الدوام ، واستخلص من ذلك ضرورة وجود فكرة عالم روحى تتجدد عن طريقها ظاهرات العالم المحسوس باستمرار ، واعتمد على ما اودعته الطبيعة فينا من قوات ملهمة منسجمة مع اللانهاية لأنها وحى من الله ، ولذلك كان العالم الروحى متضامنا مع العالم الطبيعى . وإذن حق تعلق الانسان بوطنه وبتضامن روحه مع أرضه .ووجب أن يعد الفاروق أن وحدة الجنس ووحدة اللغة ووحدة الدين هى بمجموعها وحدة الوطن . بما أن الوطن أرواح وأجساد وعاطفة، بل بما أنه الانسانية المادية. وهذا الرأى الجوهرى الذى عمل الفاروق على مقتضاه هو ماصدر عن تأمله أى عن العلاقة القائمة بين الادراك النظرى والالهام المولد المنتج ، ذلك الصوت الشجى الذى تسمعنا إياه قيثارة الطبيعة

وهى توقيع أنغام التنبؤ والمصير ، وهذا مايدعونا إلى أن ننتقل بالكلام إلى بيان الادراك النظرى أو قوة الالتقاط وعلاقتها بالمعرفة عند الفاروق

قوة الالتقاط والمعرفة

إذا كانت الطبيعة — وهى المخلوق الاكبر — تعمل عملا يؤدى إلى أن تنسلك القوات الحيوية المستمدة من قوة الله فى العناصر وتداع،وتمتد إلى فكرة التأمل التى تتطلب هى الاخرى علاقة المجموع بالاجزاء ،فقد حق على الانسان فى سبيل معرفة جوهر الاشياء أن ينذر الواقع المحيط به يعمل فى حواسه وروحه،ذلك بان من المؤكد أن التأمل ، أى الملاحظة العلمية لا تتخطى بالانسان حدود دائرة الاحساس ، لأن القوات الحساسة والقدرة النظرية على الخصوص تشترك دائما فى تكوين المعلومات

على أن الفاروق ما كان يقدر الحواس بالمعنى الطبيعى،وإنما كان على النقيض من ذلك يرى أن وظيفة الحواس، ولا سيما النظر، علامات تدل على أن مجموع الجهود الانسانية مدعوة إلى معرفة العالم . ولا مبرر لوجودها إلا أن يعرف الانسان كنه العالم . ولذلك دأب على ترقيتها وإنمائها ، واستثارتها حتى يعلم المصرى عن طريقها كنه العالم وحقيقته . ومتى علم ذلك كان جزءاً حياً منه ، لامن المرئيات التى تكون باعث تكوين الافكار دون أن تكون لنفسها أفكاراً عن الواقع أمامها .

فالواجب إذن ان يرى كل مصرى الفكرة بعينيه كما يراها الفاروق لان الفكرة بذاتها بعيدة عن الحياة الحساسة ، مادامت لا تتكون الا من المجرى الطبيعى للحياة فالعالم لا يخلع على العقل الا ما يخلعه العقل على العالم ، والفاروق يحس تماما أن جهده فى سبيل العلم بحقيقة العالم هو الى حد ما مرور الاشياء خلال عقله وانطباقها على شكله الخاص . فالعقل يرد حوضه الذاتى وينتهل من روحانيته ذاتها ، ومن هذا الانتهال يتغذى العقل بثمار الحقائق الخارجيه ، فالعقل كبعض الاجهزة الطبيعية يستهلك الطعام ويمتص آخر ذرة من « فيتامينه » ويطرد مالا يتكيف وطبيعته . دون أى جهد مع ادماج كل جديد من العصارة الخارجية إذا استحق الادماج فى مجرى الحياة . وكل

ذلك بطريقة طبيعية تشعر بأن العقل قد أعد لهذه الحركة الهضمية المعنوية إعداداً سابقاً لعمله .

لقد تأمل الفاروق « الطبيعة » على هذا النمط . ولكنه أراد فى الوقت نفسه أن يكشف عن حقيقة نفسه . وحقيقة وجوده بما فى وسعه ، وأبى أن يأخذ بنصيحة القائلين « اعرف نفسك بنفسك » . ذلك بأن هذه الموعظة تدعو الانسان إلى أن يكون بمعزل عن العمل المنتج فى العالم ، ولان التسليم بدراسة الروح بالروح دراسة تفضى إلى خطأ . لان الانسان لا يعرف نفسه إلا بنسبة مايعرف الناس . وهكذا تمكن الفاروق بجهد جبار لا يكل،من تكوين مصيره الخاص عن طريق تكييف الحياة والطبيعة وفاق روحه . وما هذا التكييف إلا التأمل . ولذلك وجب أن لا ندهش إذا نحن رأينا هذه الشخصية السامية تجمع بين العالم الخارجى والعالم الداخلى وتمزجهما لتخرج لنا السمو والخلود

إن جمال الفاروق كامل فى تكييف جوهر الاشياء وعصارتها. ولذلك بلغ بهذا الروح الفياض أبعد مرحلة من مراحل الكمال المعروف

فطبيعته التى ارتبطت بالمرئيات الحساسة برباط عجيب قد عرفت كيف تختار من هذه المرئيات رموز أسمى الحقائق واهمها . وهذا يدلنا على أن الموهوب أوتى من قوة التأمل ما يستطيع به أن يركز ثروة المرئيات فى حالة روحية يحيلها بعدئذ الى مادة روحية عندما يشع ويعكس على المرآة العامة اجل الاعمال وأمجدها .

ولذلك يجدر بنا أن ننتقل الى الكلام عن اشعاع العباقرة بعد أن تكلمنا عن ملاحظاتهم وتأملهم بمناسبة هذه الشخصية التاريخية الخالدة ،هى شخصية جلالته

الاشعاع

كان اشعاع الفاروق على المرآة القومية آخر حركة تصدر عن الموسيقى النظرية للعامل المجد الاعظم فكلامه وكتاباته واحاديثه وخطاباته فى الميكرفون . كل هذا قد جاء ترديدا لما شاهده بصره ،فحوله تأمله الى عنصر روحى ، جلالته يخضع للدافع

الروحي الذي حكمه ، ويستسلم للمرئيات الحساسة لا ضعفا منه ، وانما ليسلك صورها الحية في تيار حياته ، ولذلك كانت التجربة العملية الحية مؤدية الى انخراط العالم الخارجي في الذات ، فكل ما كان يشع من نفسه يجيء منطبقا وطبيعته ، ومتفقا والطبيعة العامة ، بما أن الطبيعة الخاصة جزء من الطبيعة العامة . وهنا يجدر بنا أن نعجب بهذه الوحدة الطبيعية التي جمعت بين الرائي والمرئيات . تلك التي نشأت عن تأثير المرئيات في الحواس والعقل وكونت النظرة الفنية التي ألقت شعاع روعتها علينا نحن الذين عشنا ولا نزال نعيش في نطاق أشمت عبقرية الفاروق عليه

فالفاروق ينتج اذن ويثمر ويزهر وفاق الطريقة التي يتنفس على مقتضاها . إنه يستنشق الموضوع ثم يتنفسه في غير تعب وفي اتساق وقافية محكمة وأناشيد خلابة رائعة : فهمته انحصرت اذن في تقطير عصير الاشياء التي تعيش في أعماقه قليلا لتكتسب عناصر جديدة بحكم قانون الوسط حتى يخرج العصير مليئا بحياة الفاروق وروحه ، وشعلة شبابه

ان شعلة شباب الفاروق قد اتاحت له إتمام أشياء كثيرة في زمن قليل . فمجهوده الكلامي وأحيانا الخطابي ترتب اذن على ضرورة نفسية . وتتابع هذا المجهود قد استمر كدورة الدم . وطوال هذه الدورة . فقصائده الخطابية التي يحيي بها الشعب او يهنئه ، تجيء كلها أثر نفس الحوادث . فلقد أملتها حادثة اهتاجت قواته المصورة ، واستثارت موهبة الابداع فيه . فهي اذن قصائد جاءت وليد سلطان اسمى الحقائق المترتبة على المشاهدات ، وسمى الحقائق هو الحق الذى يتجلى عن الاصطدام بالواقع ، والواقع هو الظلم . فلولا وجود هذا الحدث لما تحركت الطبيعة ، ولما اهتزت الاعماق لتلك الفكرة السامية

فقصيدة حب مصر . قصيدة « بلادى العزيزة » « قصيدة شعبي المحبوب » وغيرها من القصائد التى وردت فى البيانات والخطب القيت منذ المبايعة لم تكن الا مصدراً للافتتان بمصر والهيام بحبها

فكل أعمال الفاروق وأقواله كانت أعمالا واقوالا رمز بها الى اسمى الاغراض

والحقائق ، ولقد اقتنع جلالته بأن كل مايعمله منطبق وحياته ،ولهذا جاء من أجل الاعمال وابقاها .

لقد حلق الفاروق على أجنحة طهر الحياة فى مناطق السمو ، ولذلك جعل يسلك الحياة فى الصور التى التمستها نفسه فى هذه المناطق فهذه الصور كانت تتفتح وتنمو وتمتد ثم تتركز حتى تصبح كائنات مرئية بعد أن كانت خيالات سارية .

فتصوراته قد اشربت الحياة ، لانها دائما ترديد لحياته الخاصة ، ولكن كيف أنتج تلك القصائد ؟ ان الاشياء الهامة التى كانت تعنيه يراها حسب أهميتها معلقة بمحيط دائرة ، وهى تلوح أمامه كأنها فى أبراج مختلفة البعد عنه ، ولكن أعظمها شأنا هو أدنى هذه الاشياء اليه وأسطعها . انها تلك التى تحل محل الكوكب الدرى يجذب اليه حدقته . ولكن الدائرة تدور بانتظام وفى سرعة فدنت منه جميع الكواكب وتهاوت على مرأى منه . فجعل فى كل يوم يخرج آية تعكس هذه الانجم. فحبه لمصر يشع فى بياناته ورسائله وخطبه . وحلمه برقى الشعوب شع فى مواقفه الدستورية ، وشهوة الحرية تراها فى تقيده بالنزاهة فى الأحكام . وعلاقاته بالشرق وتجاريبه والهاماته ، وصدى تربيته تجده فى الاخذ بناصر أهل الفن والعرب وسوريا فمن هذه الصحف قد اصطنع الفاروق الاناء الزاخر الفياض على التوالى ، بما يستودعه فيه من أفكار جدية لا تصلح إلا أن تكون غذاء لأمة هو سيدها وقائدها وزعيمها وأستاذها ووالدها وأخوها . إناء يسكب فى اناء ، وطبيعة تحيى فى طبيعة على الدوام .

إن هذه العبقرية التى تخرج دائما تجاربها فى بيانات ، من شأنها أن تغدق على الناس قوة إبصار وهزات مبصرة تجعلهم عاجزين عن أن يدنسوا أنفسهم باعمال يتوافر فيها سوء النية ، فالفاروق يريد أن يؤدى عمله مع المصريين الى النتيجة التى وصل اليها المثالون والنحاتون الاغريق . فهو مثلهم أراد أن يعمل وفق قانون الطبيعة بتطبيق كمال التناسب على الاغراض التى رمى إلى تحقيقها من عمله ، مع فارق، هو أنه أراد تجميل الأرواح واشباعها بالنبل بينما المثالون والنحاتون أرادوا أن

يخلعوا الجمال على ماينحتون من حجارة وما يصوغون فى قوالب .

على أن الجمال الذى أراد أن يخلعه المليك المفدى على النفوس المصرية كان فيه شيء من الهزات التى شعر بهـا الفاروق وهو يجتـلى أبا الهول ويعجب بالاهرام وخرابات الصعيد ومقابر الملوك وقوس النصر وتماثيل الحرية الخ .. ولذلك فان حكمته تناهت إلى أن يحمـل المصرى على أن يجعل لحياته شكلا خاصا ولفكرته حياة خاصة وفاق مقتضى الزعامة ، لأنه رغب فى أن لا يكون انتاج العبقرية المصرية ايرادا « فتوغرافيا » لما يقع أمام العدسة العينية حيث أصبح من الواجب أن تغير الفكرة وجه المرئيات ، وأن تشربها الحدقة جاذبية خاصة . وان تجرى الفكرة فى ظاهرها وفاق حاجات الزمن مع احتفاظها بالجوهر .

لقد فهم الفاروق مجموع الحياة . وفهمها بعينه . ولذلك استطاع أن ينفث روح الخلود فى كل حادثة وقتية ، حيث أصبحت حوادث أيامه حيـة على مجرى الدهر . فتنـاول أى بيـان من بياناته أو أى كلمة من كلماته . ودلنى على أى سطر لم تكتب له الحياة ، بل دلنى على أى سطر لا يردد الحوادث كما يعشقها الفاروق وكما نعنيها نحن اليوم ، فخذ خطبته الاخيرة الرمضانية مثلا ، اليست هى لسان حال كل مصرى مؤمن ! اليست هى هى آمالا وأمانى ومطالب وإحساسات وعواطف وجوارح وفؤاداً ووجوداً وحيـاة تجرى فى سماء مصر وأرض مصر ونيـل مصر ؟ وأين يكون الرمز إن لم يكن فى صورة سامية من الحياة ؟ أين يكون إذا لم يكن فى الحياة المتجددة !

ليس الفاروق صورة من الحياة الانسانية تريد الحيـاة بمختلف الأشكال والألوان والوجهـات ، لأن وجوده وحدة . وشكله نغم متسق ولونه لون ورد مصر . ووجهته السماء . فهو إذن ليس علما ومعرفة وتمتعا وعملا . وإنمـا هو عقل صاف . بل حكمة نفاذة أشربت العاطفة والتجاريب .

إنه إذن فياض بالنور . فعينه المتعطشة الى الصور هى التى أنشأت فيـه قوة

الابداع ، ونظراته التى حكمها إلهام حساس تخلع على المرئيات الصبغة التى تريد ، واللون المستفز الذى يرغب فيه ، فالمنظر الذى يريد أن يرسمه ،والشكل الذى يرغب فى تطريزه ، والصورة التى يعمل علي اخراجها للناس ، كل أولئك قد برز شطرا من حياته يدب ويمشى وينطق .

لقد عمل الفاروق على استيعاب الطبيعة بنظره حتى يخترق حجبها ، ولما تمكن من القبض على ناصيتها فاضت حميته على فكرته فامتلأت غيرة ومضاء مترجما بذلك عن اختلاجات يتلقاها فى صور أوامر نفسية مفعمة بالحياة والروعة والسحر . وما مهمته فى هذه الترجمة إلا توسيع الموجات الصادرة من مركز الأذاعة الروحية وإيضاح هذه الامواج بأعمال حية أو خطاب ناطق بحيث يتلقى نفس الهزات والاختلاجات والتموجات كل من سمعه أو قرأه .

أى منظر بهيج ساحر ذلك الذى يرسمه الفاروق بريشة العبقرية الناطقة ! إن فضائله كعصير الشجر ينسلك فى الأزاهير ، إنها فضائل مضفورة بالورود والرياحين، ومن فوقها ملائكة الحب الطاهر تحلق مطلة على ينبوع تفجر منها ليسقى العصافير الغريدة ، والقطعان المنتشرة علي طول الوادى ، أما الحكمة فقد لفت فى سحابة ذهبية لتفرغ الأقوال الغالية . وبجانب كل ذلك نشوة ترتقى بالانسان أسباب السماء على نغم تردده قيثارة الزمن .

وقصارى القول أن الفاروق كالطبيعة.أنها تغطي جسدها الطاهر المحبوب بمعطف أخضر مزهر . وكذلك الفاروق مولع باللون الاخضر ولا يتأخر عن أن يضفى ثيابا من البيانات المزدهرة على ما يمكن أن يجعل الانسان جديرابالاحترام والحب .

ولكن الفاروق لم يحك أبراد البيانات المجيدة فحسب ، بل أن هزاته العادية تتراءى لك وهى تتألق فضية وردية زرقاء كالافق ، رائعة كالفجر،متموجةفى حسيس كالاستبرق ، وكلها هزات وحركات تترجم عنها ابتداعات كلامية تعرف فيها الاقدام المفاجىء الذى لاتجد له مرادفا فى التعبير عنه بأى لغة . ولكنك ترى فيه أحيانا شعاع الفجر يميل إلى نهار وشمس . أو بحرا من النار فى عين مزبدة ، أو

الزمن فى صبغة وردية ، أو كتاب الحب بما فيه من صحف الغبطة .

إن مصر ملء عين الفاروق فما يتغنى به فاروق هو مصر وما يتحسر هو عليه هو فوضى مصر . فمصر صفاء عينه ، وإلهامه ، ولذلك صاح صيحته يوم بيعته فى ٢٩ يوليو سنة ١٩٣٧ .

رسالة حضرة صاحب الجلالة الملك

إلى شعبه المحبوب

بطريق الاذاعة اللاسلكية من سراى عابدين العامرة

فى الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والاربعين من مساء يوم الخميس ٢١ جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ (٢٩ يوليو سنة ١٩٣٧)

شعبي المحبوب

أبعث إليكم بأطيب التحية ، وبودى لو استطعت مصافحة كل فرد منكم لأعرب لكم جميعاً عن عميق شكرى ووافر حبي وعظيم تقديرى لكل ما أبديتموه نحوى من خالص الحب وصادق الولاء .

وانى ليسرنى — وقد باشرت سلطتى الدستورية — أن أفضى إليكم بكل ماوطنت عليه نفسى من احترام الدستور وقوانين الأمة المصرية والمحافظة على استقلال الوطن وسلامة أراضيه ، وأن أعاهدكم على وقف حياتي وجهودى على خدمة البلاد وإعزاز شأنها وإعلاء كلمتها وإسعاد أهلها حتى نظفر لمصرنا الخالدة بالمكانة الجديرة بها وبماضيها المجيد . ولسوف يكون رائدى على الدوام صالح الوطن قبل كل اعتبار ، فأبناء مصر جميعاً ملك للوطن ، كلهم جنوده وكلهم خدامه ، ومليككم أول خادم للوطن ، أحبكم إليه أشدكم رعاية لواجبه ، وأكرمكم لديه أكثركم تفانياً فى خدمة الوطن .

على أنى أصارحكم بأن مجد الوطن يتطلب تضافر كل القوى وتعاون جميع الهيئات والطبقات حتى يحقق لبلادنا العزيزة ما نرجوه لها من عز شامخ وهناءة دائمة وسعادة شاملة .

وإذا كانت إرادة الله قد شاءت أن تلقى على عاتقى فى هذه السن المبكرة عبء النهوض بتبعات الملك والاضطلاع بمسئوليته ، فأنى أشعر كل الشعور بما علىّ من الواجبات ولن أقف عند أية تضحية فى سبيل أداء الواجب وتحقيق خير الأمة وسعادة الوطن .

وانى لأهيب بكم جميعاً على اختلاف ميولكم ونزعاتكم أن تجعلوا شعاركم «الواجب والوطن» وأن تتقوا الله فيما تفعلون.

وأرى من واجبى فى هذا المقام أن أعرب عن خالص شكرى لأمتى العزيزة وضيوفها الاجانب الكرام وحكومتى الوفية والبرلمان الموقر لما أبدوه ويبدونه من آيات الاخلاص والولاء .

شعبي النبيل :

انى معتز بكم فخور بولائكم واثق بالمستقبل ثقتى بالله . فلنوطد العزم ولنعمل معا نفز ونسد وليحيا الوطن . »

وللتكافؤ الطبيعى رأينا الفاروق ملء عين مصر ، فهى تتغنى به لأنه صفاؤها وإلهامها . ولذلك فانها تردد كلمة : «فلنوطد العزم ولنعمل معا نفز ونسد ، وليحيا الوطن ! »

هذه صورة الفاروق مستخلصة من أعماله وأقواله ومن تشرف بمقابلة جلالته وتفضله بالحديث معى .

على هذه الصورة جرى الفاروق الاعظم فى تصرفاته وتدبير شئون الملك ، ولقد اختار الى جانبه من يمت الى هذه الصورة الجميلة بسبب .

رئيس الديوان العالى

لقد أثيرت مسألة رياسة الديوان العالى قبل مبايعة الفاروق وبعدها ، ولكن مجلس الوصاية . دفع بعدم اختصاصه بالفصل فيها لأنها من حقوق جلالة الملك التى لا يجوز مناقشتها إلا بعد بلوغه سن الرشد .

ولما طرحت هذه المسألة بعد المبايعة زعمت الوزارة القائمة ان من حقها أن تعين أو على الاقل ترشح رجال القصر لتستبقى منهم من تريد وتستبعد من تريد ، وتعين من أنصارها فيما يشغر من وظائف القصر من تريد .

ولكن جلالة الفاروق تمسك بحقه فى هذا التعيين دون سواه وقد تمسك بذلك بناء على حجج دستورية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها فدلل بذلك على انه ملم بجميع المبادىء الدستورية المصرية والقديمة إلماما بعيد الغور .

ان نظام الحكم فى مصر نظام ملكى ، ونظام ملكى اصطنعه المغفور له الملك فؤاد ، وقد أمر جلالته بتشكيل لجنة دستورية لوضع دستور على أحدث المبادىء العصرية ، أساسه التعاون بين السلطات فى الحكم لا فى ادارة الشئون الخاصة .

والدستور الذى يقوم على هذا المبدأ ويبيح للبرلمان ادارة شئونه بعيدا عن تدخل السلطة التنفيذية دون أن يحدد سلطة الملك فى ادارة شئونه الخاصة واقامة مشرف أو وصى على هذه الادارة ، لا يمكن أن يبيح التدخل فى ادارة شئون الملك لفرع من السلطة التنفيذية ، هو فرع زائل فى كل وقت ويمكن اجتثاثه لأى ظرف بيد من استودعته الأمة سيادتها واتخذت منه رقيباً على تصرفات الوزارة واباحت له عزلها ونعنى به رئيس الدولة الاعلى .

ولا يجوز الاعتراض على ذلك بما هو واقع فى انجلترا ، لان اعتراضاً كهذا لا يقوم الا فى مخيلة من جهل حقيقة الدستور البريطانى ولاسيما أصل مجلس الوزراء .

ان كل موظفى القصر السياسيين هم أعضاء فى المجلس الخاص ، ومن المجلس الخاص خرج مجلس الوزراء ، فقد لاحظ شارل الثانى بعد عودة الملوكية إلى انجلترا

أن عدد أعضاء المجلس الخاص قد زاد كثيراً ، ولذلك أراد أولا أن يغربله حتى يخرج منه العناصر التى لا ترضيه ، ثم ألف عدة لجان من أعضائه تخصصت كل لجنة فى فرع معين من الشئون ، وأخذت على عاتقها ادارة بعض المسائل فتكونت لجنة الشئون الخارجية مثلا من وزير الحقانية وخمسة أعضاء آخرين كانوا جميعاً من أصدقاء الملك الاخصاء .

ولقد صارت هذه اللجنة فيما بعد مجلس الوزراء بمعناه الصحيح ، أى المجلس الذى كان الملك يعرض عليه جميع المشاكل الهامة قبل عرضها على المجلس الخاص ، وهذه اللجنة هى اذن أصل مجلس الوزراء فى العصر الحاضر بلا نزاع . « راجع علم الدولة ص ٢٠١ جزء ٢ » وإذا أنت أردت أن تعرف تفاصيل انشاء المجلس الخاص واختصاصاته وتطوراتها فراجع ذلك هناك .

فانتقال موظفى القصر من المجلس الخاص إلى مجلس الوزراء جاء تطوراً دستورياً والدستور فى انجلترا دستور غير مكتوب ، إنه دستور عرف وعادات وقرارات برلمانية . ولا بدع إذن إذا كان هذا الدستور يحتم أن يكون رجال القصر الافذاذ من أعضاء الوزارة ، ولا غرابة أيضاً إذا رأينا أن للوزارة هناك بحكم الدستور أن تعين رجال القصر الذين يقومون بمهام سياسية .

أما فى مصر فحقوق الملك قد حددها الدستور ، وما لم يقيده الدستور فمباح وفى الوقت نفسه حق دستورى ، ولا يجوز تحويره او تعديله الا وفاق الشرائط التى يجب أن تتوافر فى تنقيح الدستور . ولا جواز لاى تنقيح دستورى إلا باتفاق ارادتين: ارادة الملك وارادة البرلمان مجتمعا فى هيئة مؤتمر ، وما دام جلالة الفاروق قد تمسك بحقه فى رفض أى تعديل من هذا القبيل فانه يقوم والحالة هذه بعمل دستورى .

ليس المقام مقام شرح هذا الموضوع الدستورى تفصيلا ، وانما المقام مقام الاستشهاد على أن الفاروق الاعظم يعرف حدود حقوقه وحدود واجباته .

صاحب الدولة علي ماهر باشا

ضرب جلالة الملك برأي تلك الوزارة عرض الافق ، لا لأنه يريد الرفض، وإنما لأن الدستور يخوله حق تعيين موظفي قصره كما يخوله تعيين الوزراء أنفسهم،ثم عين حضرة صاحب الدولة علي ماهر باشا لثقته به ولثقة المغفور له والده به،ولثقة البيت المالك من قديم بوالده .

١ — إن دولة علي ماهر باشا هو ابن المرحوم محمد ماهر باشا ، وكان والد محمد باشا من علماء الازهر وعمل في الجيش بصفته مربيا لآلاي الطوبجية ، أما جدة محمد باشا فهي ابنة أحد أفاضل العلماء أيضا ويمت جدها بالقرابة إلى الشيخ الروبي بالفيوم .

وقد تخرج المرحوم محمد ماهر باشا من مدرسة المهندسخانه والتحق بمدرسة أركان حرب وتفوق على اقرانه وتخرج منها برتبة ملازم أول مباشرة . وسافر الى السودان قبل الثورة العرابية وعمل في أعالي النيل ، ولما عاد من السودان عمل مهندسا للتربيع (المساحة) والتحق بالجيش أيام الثورة العرابية ، ثم خدم بالجيش الجديد الذي تكون بعد الثورة ، وعين قمندانا للحدود ، ولما عرض الخديوي السابق في ١٨ يناير سنة ١٨٩٤ الجيش المصري الذي حشده السردار كتشنر تحت قيادة ضباط بريطانيين بوادي حلفا أبدى سموه ملاحظات لوكيل وزارة الحربية محمد ماهر باشا وانتقد نقص تعليم الجنود، ثارت ثائرة الضباط ونقلت انجلترا الموضوع من ميدان خطأ ضباط انجليز في حكم موظفين مصريين ، الى ميدان القانون الدولي حيث ادعت ان الخديوي أهان بعض رعايا انجلترا ، وطلب لورد كرومر إقالة ماهر باشا ، وإصدار بيان خديوي يعلن تهنئة الجنود ، فاجاب الخديو بانه سينقل ماهر باشا عند ما تتاح له فرصة احلاله في منصب يعادل منصبه ، ثم عينه بعد انقضاء أيام مدير مصلحة الدومين المساعد ،وانعم عليه بالنيشان العثماني الاول ، ولما كان الخديو وحيدا أمام انجلترا فانه أذعن وأصدر أمراً كريما أعرب فيه عن طيب احساساته نحو الجيش وافصح عن رضائه التام عن ملبسه ونظامه الخ .

ثم عين ماهرباشا بعدئذ محافظاً للاسكندرية ثم محافظاً للقاهرة

أما والدة حضرة صاحب الدولة على ماهر باشا فهى ابنة البكباشى محمد شريف من بنى سويف وقد تخرج من المدرسة الحربية ، وكان ضابطاً بالطوبجية السوارى .

وأما أمها فهى ابنة السيد ادريس بك من أدرنا بتركيا،وهم من سلالة النبي صلعم وشقيقها المرحوم احمد ادريس بك ناظر مدرسة الاسكندرية السابق وأستاذالرياضة بدار العلوم . وفى ادرنة شارع يعرف بشارع ادريس بك .

فمن هذه الأصول الاربعة تسلسل صاحب الدولة على ماهر باشا ، من هذه الأصول الاربعة تكونت هذه الشخصية الجبارة فى علمها وعملها وارادتها المتأنقة فى ابتكاراتها الفياضة بمشروعاتها الخصبة .

كان على ماهر باشا فى سن العشرين رجلا نشطاً مرحا ، أعد عدته التامة لخوض غمار الحياة ، وربما للقضاء بجرة قلم على التقاليد العتيقة التى عمرت دهراً طويلا،فأدت إلى تلاشى مظهر الحياة فى مصر وامتصت الحيوية المصرية .

إن مظهر على ماهر الخارجى مظهر رجل . فالرأس الطويل العريض يدلك على عظم القوة المفكرة ، والوجه الصلب يدلك على الارادة ، والانف المرتفع يدلك على الكرامة ، والعيون المتأملة تدلك على الرصانة ، أما هندامه واتساق ملابسه مع جسمه الملئ ،فتدهشك أناقته .

وأما أعماقه فيتجاذبها عاملان إشتقا من أصول الوالد والوالدة فترى ،فى أغلب الاحيان طيبة الام وهدوءها ، وفى أحيان،تلحظ ثورة عسكرية أمام مايستثير النفس .

وأما تفكيره فتفكير الفقيه الهادئ ، ولاعيب فيه إلا أنه كملابسه فى التأنق والانسجام التامين .

وأما حزمه فيسر خصومه أن يشوبه شئ من التردد ولومرةواحدةعندالمساجلة أو النزال .

وقصارى القول إن وجوده فى المناصب يزعج خصومه ،ونشاطه يدهش جمهرة

السياسيين الذين جف عصيرهم ، وأما بتكاراته فتلقتهم فى بحران من الهمّ

كان فى كل وزارة تولاها يبذل قصارى جهده فى أن تكون وزارته متقدمة فى مرتبة العمل عن سائر الوزارات الاخرى ، وكانت هذه الخطة هى التى ترشحه من وقت لآخر لان يكون رئيس وزارة .

انه متطرف ومعتدل . متطرف من ناحية الوالد ومعتدل من ناحية الوالدة . ولكنه فى الحياة العملية متطرف فى أداء الواجب ، ومعتدل فى تقدير الحق ، فهو إذن على نفسه دائما السيف المسلول . يجهدها ويزن للناس بالقسطاس المستقيم .

لقد أشعرتنا تصرفاته أنه ليس حزبياً بالمعنى المراد من الكلمه ، ولكنه ديمقراطى . يريد أن يخدم الجميع . ولقد برهن فى المائة يوم التى شغل رياسة الحكم فيها على أنه عمل للامة جميعاً ، حتى لقد كان الناس الذين بلغ بهم الجمود حدّ الموت يستيقظون متسائلين فى ذهول : ماذا يصنع ماهر باشا ، كيف فكر فى هذه المشروعات كلها ، ومتى وضعها ؟!

لقد أراد أن يقاتل الشقاء ويحارب البطالة ، وإذن أراد أن يرفه حال الدولة حتى يتغلب على هاتين الآفتين وأراد أن يفرج أزمة الحرية فوضع القوانين الكفيلة بصيانتها ويلوح لنا أنه كان يتردد فى القضاء على حقوق مكتسبة أضرت امتيازاتها بالأمة ضرراً بليغاً ، لانه يرى مصلحة الجماعة فوق مصلحة الافراد ، ويعرف حقوق الدولة وواجباتها تمام المعرفة .

وفى الحق أن هدم الخرابات بداية العمران . والقضاء على المخازى أداة السمو

إن سياسته فى المائة يوم كانت سامية ، إنها أذاعت ضيته حتى تراحمه كل الاسماء وتجاوبت صدى أعماله فى جميع الانحاء .

وفى الحق أن على ماهر باشا قد أزعج موتى الاحياء باصلاحاته خلال المائة يوم ، إنه أمطرهم قوانين اصلاحية رأوا أن تكون فيما بعد كفنا لهم ، ولكنه غمر الاحياء بطوفان من الحيوية والنشاط ، وجعلهم يرفعون عنهم ثياب الخمول الذى

القاه الزمن عليهم من جراء خمود العاملين والمفكرين .

ولكن لا عجب فى ذلك ، فان على ماهر باشا يعيش وحده بعد استقالته ، ويرصد جهده على المطالعة دائما ، وعلي السياحة أحيانا ، ويقول فى الوقت نفسه أنه اعتزل السياسة .

إنه يقرأ كل جديد ليهدم كل قديم ، ويقيم على أنقاضه آثاره الخالدة رغم اعتداء الشهوات عليها .

إنه لا يخلو من خطر ، لانه لا يريد أن يأمر ، وانما يريد أن يلاحظ ، ويحتفظ لنفسه بحق النقد واللوم . كما احتفظ لنفسه بقسط عظيم من الشجاعة الادبية والجرأة والكفاية لمواجهة نكران الذات فى سبيل استبقاء فكرته .

إنه هادىء صبور ، أجمع الكل علي امتداح ذكائه ، وقدرته على العمل ، واطمئنانه إلى النصر فى كل مرحلة ، لانه لا يشاطر الساسة شهواتهم . وشرف نفسه وعزته وكرامته ، كل أولئك يعوقه عن تصنع مشاطرتهم سياستهم .

إنه يشعر دائما بأنه حساس ، وأنه لا يجرح ، ولذلك لا يلقى السلاح أبدا .

ولقد أعده صفاء عقله ، ودقة ايجازه المعجز لأن يكون أداة برلمانية ، ولكن كرامته تأبى على مايلوح لنا أن يكون برلمانى هذه اللحظة وتؤثر أن يكون الفقيه الضليع والمشرع الفذ ، يغذى بلاده وبيئته بافضل وأنقى غذاء منتج .

لكل هذا اختاره حضرة صاحب الجلالة الملك رئيساً للديوان الملكى العالى ،

تعيين الموظفين وإقالتهم

ولقد عرضت بعد مبايعة جلالة الملك مسألة تعيين الموظفين وإقالتهم ، وعرضت أولاً بمناسبة ترشيح وزير لوزارة المعارف ورفض جلالة الملك اعتماد هذا الترشيح ولكن رئيس الوزراء سلم برأى جلالته ، وما كان له أن يعارض ، إذ ليس له إلا أن يقبل أو يتنحى عن رياسة الوزارة ، ومتي تم التسليم فلا داعى للمناقشة فى حقوق الملك ، لأنها حقوق لا يجوز أن تناقش أو تفسر سواء من قبل شطر من السلطة

التنفيذية أو البرلمان .

لقد كشف جلالة الملك فى هذا الموقف الذى تناول موضوع تعيين الوزير عن اطلاع واسع بالشئون الدستورية ، كما أظهر هذا التبحر الدستورى عند مارفض تعيين مرشح لعضوية مجلس الشيوخ ، وعندما أقال الوزارة النحاسية الرابعة .

حقاً ان الملك لايحكم إلا بوزرائه ، ولكن للملك حقاً دستورياً خاصاً يخوله أن يقيل الوزارة وأن يعين غيرها ، وهذا حق يتفرع عنه تدخل جلالة الملك فى كل صغيرة وكبيرة متى رأى ضرورة لذلك ، ولا ضرورة لذلك إلا إذا عز التعاون بين جميع الهيئآت الدستورية ، أو بينه وبين إحداها أو بعض إحداها ، وهى الوزارة التى لاوجود لها إلا بارادة الملك وحده ولا قيمة لأعمالها إلا إذا استمدت السلطان منه لسريانها .

ان اتزان عمل السلطات مرجعه تدخل الملك الماثل فى حق الاقالة والتعيين ، والملك الدستورى لايستطيع أن يفرط فى هذا الحق إلا بالطرق التى نص عليها الدستور بصدد تنقيحه ، وإذن فلا مناص لسلب هذا الحق من أن تتلاقى إرادة الملك مع إرادة البرلمان منعقداً فى هيئة مؤتمر .

ولكن وزارة النحاس باشا الرابعة زعمت ان الدستور يكفل لها أن تكون إمضاء الملك على قوانينها وتعيينات موظفيها ، طوع إرادتها .

كلمة عامة

إننا لانريد هنا إلا أن نتكلم عن حق الملك فى اقالة الوزراء وتعيينهم بادئين بكلمة عامة عن الواقع فى فرنسا وهى كلمة جاءت على لسان المسيو اسمان مدرس القانون الدستورى فى الجزء الثانى من كتابه ص ٢١٠ طبعة سنة ١٩٢١ قال :ـ

«ان الحق الصريح فى اقالة الوزراء مخول أيضا لرئيس الجمهورية فاذا اعتبرنا الوزراء مجرد وكلاء لرئيس الجمهورية (أو للملك وفاق المادة ٣٨ التى تنص على ان الملك يتولى سلطته بواسطة وزرائه) فان هذا الحق يكون نتيجة المبادىء العامة للوكالة .

أما ان اعتبرناهم موظفين عموميين بالمعنى الصحيح ، فان هذا الحق يستمد من المبادىء الخاصة بتعيين الموظفين واقالتهم (وهى التى شرحت فى صفحة ١١٣ من ذلك الجزء) ولـكنك اذا كنت لا تجد فى الحكومات البرلمانية ان هذا الحق كامل وأنه مجرد حق صورى لا تسمح الفرصة أبدا باستعماله ، (راجع كتاب اوجين بيير: الفقه السياسي والانتخابى والبرلمـانى فقرة ٩٢) فانك تجد استخدامه نادرا جدا ولا يقع إلا فى ظروف استثنائية ،وفى الحقيقه انه لا يطبق إلا باعتماده من ناحية وزير أول تؤيده وزارة قد يمكن أن تحصل على ثقة غالبية مجلس النواب . وهنا يجب أن نفرض مثلا حالة رئيس حكومة أخل إخلالا شديداً بواجباته والتزاماته نحو رئيس السلطة التنفيذية حتى ان زملاءه أنفسهم قد لا يستطيعون تأييـد مسلكه وكذلك حالة وزارة أعلن مجلس النواب عدم ثقته بها مرارا ولـكنها تتشبث بأن لا تستقيل.

«والامر الجدير بالاهتمام هو الحالة الوحيـدة التى أعلن فيها رئيس الجمهورية الفرنسية إقالة الوزارة منذ تنفيذ الدستور هى الحالة التى وقعت فى ١٦ مايو سنة ١٨٧٧ وأعلنت فى بادىء الامر بطريقة تجنح الى التستر . إذ نشر فى الجريدة الرسمية الصادرة بتاريخ ١٧ مايو سنة ١٨٧٧ (ص ٣٦٨٩) المذكرة الآتية :

« لقـد قـدم الوزراء استقالتهم الى رئيس الجمهورية فقبلهـا وكلفهم بأن يستمروا فى انجاز شئون وزاراتهم حتى يتعين خلفاؤهم» ولـكن البيان الذى وجهه رئيس الوزارة الجديدة الى المجلسين قد رد الوقائع الى نصابها (راجع الجريدة الرسمية الصادرة فى ٩ مايو سنة ١٨٧١ ص ٣٧٦٥ حيث جاء فيه « لقد اضطررت إلى أن أنفصل عن الوزارة التى كان يترأسها جول سيمون،وأن أشكل وزارة أخرى » .

كلمة تفصيلية

لقد قال علماء الفقه الدستورى ومن بينهم المسيو ده لابراديل :« إن الوزراء هم المساعدون المباشرون لرئيس الدولة . وفى جميع البلاد ترى هذا الرئيس هو الذي يعينهم ويقيلهم . وفى بعض الاحيان تجده يقوم بهذا الأمر فى حرية تامة، وفى بعض الأوقات تراه ملتزما تمام الالتزام بقبول من يرغب فيهم البرلمان ، وليس ذلك بدافع التبصر وحده ، وانما بحكم الضرورة القانونية »وفى الحالة الأولى (حالة حرية التعيين والاقالة) يسمى النظام نيابياً ، وفى الحالة الثانية يسمى نيابياً برلمانيا أو يسمى باختصار برلمانياً .

أى نظام حكومى فى مصر

يقول الدستور فى المادة الاولى « وحكومتها . . نيابية Rérprésentatif وهذا خطأ فى التعبير ، ولا يمكن الاخذ به ، حتى لا يقال بالحرية التامة لرئيس السلطة التنفيذية فى تعيين الوزراء واقالتهم ، والصحيح أن حكومة مصر « برلمانية Parlementaire ، ما دام الوزراء مسئولين جنائيا ومدنياً وسياسيا ؛ ورئيس الدولة غير مسئول ولا يتولى سلطته إلا بواسطة الوزراء الذين لهم حق حضور الجلسات البرلمانية ولهم أن يسمعوا إذا طلبوا الكلام فى البرلمان أو بحكم كونهم أعضاء فيه، ومن أجل هذا وجب أن نقصر الكلام هنا على حق تعيين الوزراء واقالتهم فى الحكومات النيابية البرلمانية دون النيابية وحدها لنعرف حدود حرية رئيس الدولة فى التعيين والاقالة .

حق التعيين والاقالة

فى الحكومات البرلمانية

إن رئيس الدولة فى البلاد ذات النظام الحكومى البرلمانى هو الذى يعين

الوزراء ويقيلهم مع تقديره مايشعر به البرلمان الذى يستطيع هو الآخر أن يضطر الوزراء إلى الاستقالة برفض الثقة بهم . وبناء على المسئولية الوزارية أمام البرلمان تكون سياسة الوزارة خاضعة لأن تتأثر بوجهات نظر البرلمان ،والوزارة التى تتألف من عناصر تختار من غالبية المجلسين ليست إلا لجنة تشريعية ، ولما كانت الوزارة قد عينها رئيس الدولة وارتبطت بأن تحتفظ دائما بثقته بها وكانت من جهة أخرى مضطرة إلى أن تحصل على ثقة الغالبية البرلمانية ، ثم الى أن تحافظ على هذه الثقة ، فانها تكون والحالة هذه عبارة عن وصلة الالتحام بين السلطة التشريعية ورئيس الدولة ، ولا حاجة بنا الآن إلى تفصيل أكثر من هذا فيما يتعلق بمسئولية الوزراء أمام البرلمان وحل البرلمان وعدم مسئولية رئيس السلطة التنفيذية ، الأمر الذى هو عبارة عن سرد التطورات التاريخية للحكومات ذات النظم البرلمانية ، على أنه وقد أشرنا الى كلمة تطورات الحكومات البرلمانية نرى من الواجب أن نقول إن الحكومات البرلمانية التى امتازت بعدم مسئولية رئيس الدولة ، كما امتازت بالمسئولية الوزارية قد تحدد شكلها فى النهاية تحديدا تاما،وأصبحت حكومة حزبية، وأمام هذا النظام الجديد المتين تضاءلت سلطة الملك فى انجلترا تضاؤلا عظيما فيما يتعلق بتعيين الوزراء وإقالتهم ، على أن للملك اذا ماتعذر تعيين رئيس الحزب السائد تعييناً واضحا أن يختار بنفسه الزعيم وبالتالى رئيس الوزارة (راجع ده لا براديل ص ٣٤١ طبعة سنة ١٩١٢) الا أننا نرى الحزب الغالب يعقد جمعيته العمومية ليختار زعيم المجلس دون أن ينتظر هذه اللحظة التى يتدخل فيها الملك (وهذا ما وقع فى سنة ١٨٩٩ تلقاء السير هنرى كمبل بانرمان)

النظام البرلمانى فى اوروبا

ولد نظام الحكم البرلمانى فى انجلترا ثم انتقل إلى القارة الاوروبية وأخذ يتسع وينمو .

فالدستور البلجيكى الصادر فى ٧ فبراير و ٣١ يوليه سنة ١٨٣١ أدخل هذا النظام فى بلجيكا ، ولكن بينما نرى فى انجلترا أن الوزراء الذين يختارون من البرلمان

لا يدخلون إلا المجلس الذى هم أعضاء فيه، الأمر الذى يجعلهم يمثلون أنفسهم فى المجلس الآخر بعضو منه » نجد فى بلجيكا ـ كما هى الحال فى مصر ـ أن الوزراء الذين يختارون من المجلس أو خارج المجلس لهم حق الدخول فى أى المجلسين «مادة ٦٣ دستور مصرى » .

وبينما نرى الوزراء فى انجلترا غير مسئولين أمام الملك الذى لا يعينهم ولا يقيلهم فى حرية بحكم المادة والتقاليد البرلمانية نجد الملك فى بلجيكا لا يتردد فى أن يستخدم حقه فى دعوة وزير أو وزارة إلى الانسحاب والاستقالة رغما من أنهم حائزون ثقة المجلس « وهـذا ما حصل فى سنة ١٨٥٤ وسنة ١٨٧٠ وسـنة ١٨٧١ » ذلك بأن الحق الملكى المنصوص عليـه فى مادة صريحة تخول الملك حق تعيين الوزراء واقالتهم « مادة ٦٥ بلجيكى المقابلة للمادة (٤٩) من الدستور المصرى » قد طبقه ملوك رأوا التطبيق فى مصلحة الدفاع عن استقلال البلجيك السياسى ، أو فى مصلحة الدفاع عن استقلالها الاقتصادى ، وقد دعت شهرة الاسرة المالكة هناك إلى أن يكون الملك مع الزمن هو الحكم على نقيض الواقع فى انجلترا . حيث للملك « أن يخبر بالواقع، وأن يعذر وينذر، كما جاء فى خطاب الملكة فيكتوريا إلى رئيس وزرائها » وقد يدير ملك انجلترا دفة السياسة أحيانا اذا تعذر على الوزارة أن تديرها كما حصل أيام حكم ادوارد السابع وذكره « مورَوَى فى كتاب ادوارد السابع »

أما فى ايطاليا (راجع دستور ٤ مارس سنة ١٨٤٨) فان الملك يعين ويعزل الوزراء (مادة ٦٥) ولكنه فى الواقع ليس حراً فى اختيارهم بل لا بد أن يختارهم من الغالبية البرلمانية .

فى فرنسا

ولسنا فى حاجة إلى سرد تاريخ نظرية الحكم البرلمانى فى فرنسا منذ ناشئته الاولى، لذلك نكتفى بكلمة مختصرة ابتداء من سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٨٧٥ أولا، ثم نأتى بعد ذلك على تفاصيل الواقع هناك الآن بالنسبة لحق تعيين واقالة الوزارة .

إن طبيعة لويس فيليب كانت دائماً تعارض فى أن يطبق الحكم البرلمانى بدقة

إذ أنه أراد فى كثير من المواطن أن يتدخل فى الاقالة وعدمها ، وكان جيزو رئيس الوزارة الفرنسية يؤيد هذا التدخل من سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٨٤٨ . فعندما كان يصيح « تيير » ،قبل أن يعلم أن النظام البرلماني نظام تعاون بقوله : « الملك يسود ولا يحكم» كان جيزو يجيب: « إن الملك يحكم مع وزرائه » كما هو الواقع فى مصر حيث الدستور يقول فى المادة (٣٣) الملك هو رئيس الدولة الاعلى وتقول المادة (٣٨) إنه يتولى سلطته بواسطة وزرائه . ثم جاء دستور سنة ١٨٤٨ ونص على مسئولية رئيس السلطة التنفيذية فتلاشت مسئولية الوزارة قانونا وعملا . وبعد ذلك حصلت تطورات أخرى انتهت بدستور ٢٥ فبراير و١٦ يوليه سنة ١٨٧٥ فامسى رئيس الجمهورية غير مسئول سياسيا ، وكان من شأن هذه التطورات اقامة حكومة برلمانية بالمعنى الصحيح ، وحل المشكلة التى نحن بصددها، وهى مشكلة الحقوق التى لكل من رئيس الجمهورية والبرلمان بالنسبة لتعيين واقالة الوزراء حلا جاء على قاعدة أن رئيس الدولة والمجلسين لا يستطيع أحدهما عمليا القيام بشىء دون الآخر . ولكن كيف وصلوا الى هذا الحل ؟

لقد اقترح « بريفو بارادول » فى كتابه « فرنسا الجديدة » أن ينتخب مجلس النواب كل ثلاثة أشهر رئيس وزراء،وهذا مايجعل الحكومة مجرد لجنة برلمانية ، ولكن روح النظام البرلمانى،على العكس من ذلك ،تجعل رئيس الدولة صاحب الكلمة فى تعيين الوزراء ثم فى اقالتهم على شريطة أن يتفق استخدام هذا الحق المزدوج مع رغبة البرلمان .

ويقول « ده لابراديل » فى صدد تعيين واقالة الوزراء (بكتابة صحيفة ٣٥٦ طبعه سنة ١٩١٢): « إن هذا الحق هو ملك لرئيس الجمهورية خاصة : بناء على نص المادة (٣) فقره (٤) من قانون ٢٥ فبراير سنة ١٨٧٥ واليك النص : « يعين لجميع الوظائف المدنية والحربية » . (وهذا مايقابل الشطر الأول الخاص بالتعيين فى المواد ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٩ مصرى) وبما أن له الحق فى تعيين الوزراء فله الحق فى إقالتهم وعزلهم ، إلا إذا وجد نص آخر لأن كل ماهو غير محظور مباح . وله بعبارة ألطف ، أن يطلب إليهم أن ينسحبوا من الحكم وهو حق لا يستخدمه رئيس

الدولة، لان الوزراء يحولون دونه ويتقونه بتقديم استقالتهم ، لا إلى مجلس النواب، وإنما إلى رئيس الجمهورية الذى يعينهم، ويكون هذا التقديم بواسطة رئيس الوزراء ؛ ولكن إذا كان الوزراء الذين يختارهم رئيس الجمهورية لايستطيعون أن يحتفظوا بمقاعدهم الوزارية إلا بالاحتفاظ بثقته، فانهم من جهة أخرى مسئولون أمام المجلسين، وليس فى مقدورهم البقاء فى الحكم، إلا إذا وافق على ذلك البرلمان ، ومن أجل هذا فان من الواجب على رئيس الجمهورية الذى يختارهم أن يراعى موافقة البرلمان على اختيارهم ، كما أن من الواجب أيضاً على رئيس الجمهورية الذى يطلب اليهم الاستقالة مراعاة أن يكون خلفاؤهم ممن يرضى عنهم البرلمان . وفى الواقع إن رئيس الجمهورية يتردد فى تجنب الاتصال بوزرائه الذين يحوزون ثقة البرلمان ، ولا يستخدم حقه فى أن يسحب منهم كراسيهم التى وهبهم إياها . (راجع ده لابراديل ص ٣٥٧)

على أنه إذا كانت العادة قد خالفت ان يطلب رئيس الجمهورية إلى الوزراء من تلقاء نفسه أن يستقيلوا فان نظام الاحزاب الضعيف فى فرنسا عنه فى انجلترا قد جعل لرئيس الجمهورية فى حال تعيين الوزراء شأناً أكبر مما لملك انجلترا ولكنه أقل من شأن ملك البلجيك فى هذا الصدد ، ودستور بلجيكا هو مصدر الدستور المصرى، ومعنى ذلك ان لرئيس الجمهورية الفرنسية أن يوعز إلى الزعيم الكفء بأن يجمع حوله الغالبية البرلمانية. فالوزارة الفرنسية مسئولة إذن أمام رئيس الجمهورية كما هى مسئولة أمام البرلمان.

ومتى كانت الوزارة مسئولة أمام رئيس الجمهورية فقد وجب أن تكون محل ثقته ، ولا تكون محل ثقته إلا إذا قدرت مشورته .

هذا حال الوزارة فى الجمهورية ، فما بال حالها فى ظل النظام الملكى ؟ لقد أدرك جلالة الفاروق ان مسئولية الوزراء أمام البرلمان كمسئوليتها أمامه فتمسك بهذا الحق وعمل وفاق هذا المبدأ الدستورى القائم على إيجاد توازن بين الاحزاب وتوازن بين السلطات، فأصاب سن سيف الملك الرياضى مقتلاً من الوزارة فأرداها .

وإذن ننتقل إلى مناقب الفاروق وفضائله على أن نعود إلى تفاصيل كل ذلك عند الكلام عن تاريخ حكم الفاروق.

الفصـــــل الثالث

مناقبه وفضائله

تقـدمة

جلالة الفاروق ملك رياضي ، ولذلك رأينا سياسته كلعبة الشيش حذقها ، فهو يمس في غير قوة ، ولـكنه يصيب النواحي الحساسة ، والضربات الخفيفة التي ينزلها سن شيشه بمن يجرؤ على منازلته لا تصيب منه إلا مقتلا .

وهكذا رأيناه في كل ميدان يطبق فرعا من الرياضة ، وبذلك كان عهده عهداً سعيداً كتبت له الصحة والرفاهة والسعادة والاشراق .

وأي فتح أوفر اشراقا ، وأوسع نطاقا ، من فتح تتفتح له عيون الزمان ، وتضيء بأنواره الخافقان ، فيهتز له التاريخ هزة تتفجر معها ينابيع السطوع والجلال ؟ ألا أنه لفتح يجل عن أن تتطلب نعوته تنميق الأقوال ، وتفخيم شئونه بضرب الأمثال.

في كل يوم يسأل الفاروق الحق جلا وعلا «أن يعيننا جميعا بمعونته ، وأن يؤازرنا بقوته حتى نبلغ بالوطن المفـدى أفضـل ما نرجو له من شوكة ومنعة وعلو وإقبال » .

لقد بهر الفاروق أمته بعواطفه ، فأعجبت بمواقفه ، والاعجاب يسمو دائما بالانســان ، ولا سيما إذا كان متولدا عن واقع ملموس : تتأثر بسلطانه الحواس ، فتهتز له النفوس .

إن الاعجاب حكم أدبي ، انه إذن حالة نفســية جدية تخفي وراءها نوعا من الأصلاح الاخلاقي ، ذلك بأننا ننتقل إلى مستوى أعلى من مستوانا متى صـدر الاعجاب عنا ، فنشعر أننا ارتفعنا فوق أنفسنا وصرنا أكفاء لاعمال ما كنا لها في الأوقات العادية بأكفاء ، وهل لا تسمو النفس إلى مستوى من نفكر فيه ونتأمله ونعجب به ؟

لقد بدأ الفاروق عهده السعيد بان حملنا على أن نفكر فيه و نتأمل فضائله فنعجب به ، إذن قد بدأ باصلاح النفوس ورفعها جميعا إلى مستوى نفوس الملوك وصوى بين أفراد الشعب إذ جعلهم جميعا ملوكا ، فحقق نوعا جديدا من الديمقراطية يحق أن نسميه الديموقراطية الملكية .

لقد رأى الاصلاحيون الدينيون فى القرن السادس عشر أن يجعلوا من كل فرد ملكا حتى يهدموا الملوكية الفرنسية ، ولكن الفاروق رأي بعزة نفسه وصائب فكره أن يحمل الشعب على الاعجاب به ليرفع أفراده إلى المستوى الملكى حتى يصبح كل فرد ملكاً يقدر الملك والملوكية حق قدرهما ،وشتان بين الهدم والاصلاح الخالص لوجه الله .

أعلن الفاروق ديمقراطيته الملكية أول ما أعلن فدلل على أن الكلمة للدم الدم ! الدم !

إن الدم النقى الطاهر يبقى دماً نقياً طاهراً . والفضيلة لا تلد إلا فضيلة .

إن الفضيلة على أى وجه قلبناها إنما هى تضحية الذات ، إنها حالة حرب ، إذ أراد الانسان أن يعيشها كان لزاما عليه أن يصارع نفسه وينازلها حتى يستأصل الشر منها ، ويفسح الطريق لاتمام الخير ، ولقد كان أول عمل من اعمال الفاروق أن نازل نفسه وصارعها بتقوى الله وعطفه على شعبه فى ود ومحبة صادقة خالصة لله.

إن الفاروق قد جعلنا نحكم عليه بأنه يفكر أولا ثم يتبع الفكرة بارادة سامية ، ويتبع الارادة السامية بعمل سام ، وبذلك شخصت فضيلته . وهذه الفضيلة التى تتكون من عمل انحدر عن ارادة تسلسلت من فكرة ،ليست ثروة أو مجدا أو سلطانا يظهر فى صورة امتياز أو استثناء ، وإنما هى سيادة النظام فى أعماق نفس تريد النظام ، إنها ثمرة ترتبت من تلقاء نفسها على حب هو الاساس المشترك لطبيعتنا ، إذن فأسمى خير تريد الارادة أن تحققه ، يتطلب ضرورة اقتران الفضيلة بالسعادة ما دام الحب أساسها .

ولكني أرجو من القارىء الآن أن يتبين حقيقة فضائل الفاروق مما تبينته شخصيا فى جلالته وهو ماثل أمام عينى ملاكا فى ملك .

لقد اجتزت عتبة ردهة الاستقبال الملكية فى يوم ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٧ وقد غمرنى الايمان بأن الفاروق الاعظم ، رمز التقوى والصلاح والطهر ، قد أذن الله بأن ينهض بالبلاد نهضة صادقة فى مختلف الميادين الحيوية ، وغمرنى نوع من التفاعل الروحي ، هو الحب الذى يجىء مزاجا من العقل حيث يجب على الانسان أن يمحص ليعرف ، ويقدر الموقف ، ومن الارادة ليعرب عن الرضاء والقبول ، ومن الحرية ليختار ومن الهزات النفسية — حيث تتجمع الرغبة والأمل والخشوع والغبطة ، ومن الفضيلة — حيث المقام يقتضى المثابرة والاخلاص والتفانى والتضحيه إذا دعت الحال . لان الحب المجرد من الفضيلة هو الضعف بذاته ، أما الحب المقترن بها فانه أداء الواجبات جميعا ، انه العدل بين الانسان ونفسه ، انه الانصاف الذاتى يقضى به القاضى الداخلى الذى جلس فى الاعماق .

استولت على نشوة ذلك الايمان وهذا الحب ، فلم أستطع عقب اجتياز عتبة الردهة الملكية أن أعى كيف زايل الفاروق مكتبه ، ولا كيف وصل إلى ، ولا كم من اللحظات نعمت فيها بحرارة تلك اليد الكريمة أولاها الله أن تسطر فى صحف المجد آيات خالدات تبقى أبد الدهر نوراً وهدى ورحمة وبصائر للعالمين أجمعين ، ولكن الذى أدركته وقتئذ هو أن مليكنا المحبوب قد ازين بتاج رابع غير تاج العبقرية وتاج الفضيلة وتاج الملك ، ألا وهو تاج التواضع المستقل عن تاج الفضيلة ، ولكنه يحاكيه فى مصدره وقوة نوره .

إن هذا التاج يحله يد القدرة كل رأس تفردت بسمو القدر ، وعلو المكانة ، ليشع ويسدل على الانسان حجابا من المناعة والصون ، فيخيل للرائى أنه صيغ من نسيج الاخاء والمساواة والحرية ، ولكنه حجاب اصطنع فى الواقع من خيوط السمو النفسى النقى يؤثر فى النفوس ويستهويها ، ويكسب حبها وتقديرها بل إنه حجاب

يتسدل على النفوس الكبيرة وله من الشأن ما للظلال في عظيمات اللوحات الفنية، إنه يكسبها قوة وبروزاً وعظمة .

ملاك فى ملك

لم ينتقل جلالة الملك المفدى من مكتبه الى مكانى ، ولكنه هبط إلى من عليائه كما يهبط الملاك الكريم وإنما فى صورة ملك تفضل فصافحنى ، فشعرت شفتاى خلال لحظة طويلة بحرارة اليد الملكية وقد جرى فيها الشباب الذى علمنى أشرف معنى للروح المتحفز للنهوض والرقى بالبلاد

وصل جلالة الملك الى المكتب الملكى وجلس فى مكانه الأسمى .

ولقد كنت قد اعتزمت أن أتحدث مع حضرة صاحب الجلالة الفاروق الاعظم واقفا ولكن جلالته تفضل فأذن لى بالجلوس فى صيغة تنم عن تشبع بديموقراطية صادقة صحيحة انطوت على أجل معنى للاخاء والمساواة والحرية والانصاف والعدل وكل عناصر تلك الكلمة التى عصفت بالغرب وعصف بها ، ولكنها حتى الآن لم تجد فاروقها الذى ينصفها ، ويضع قواعد استقرارها ، فاعتذرت وصممت على الوقوف ، غير أن جلالته تفضل مرة أخرى وأذن لى بالجلوس فى الحاح كريم ، وعطف تدفق فى فيض عظيم فانحنيت شاكرا وجلست .

وفى الحق أن جميع تعبيرات المليك المحبوب كانت لاذنى كالنور لعينى

كان الكلام الملكى فى سبيل الفكرة ، وكانت الفكرة الملكية فى سبيل الحقيقة والفضيلة .

وكانت النبرات الملكية روح المقال ، تخلع عليه الاحساس والعظمة والكرامة

وكانت اليد الملكية الكريمة تتناول المقشط لتخفى ابتسامة خلابة ، والعينان يغمضان فى هذه الآونة لصوغ عبارة تفتر عنها الشفتان فتمرق من خلالها فى نعومة ورقة وحلاوة وعذوبة وطلاوة وسحر ، كان جمالا انساب فى جمال .

منطق وحكمة وبلاغة فائقة ، هى بلاغة البساطة التى لا تكلف فيها ولا حشو ولا تنميق ولا تنسيق إلا ما ترسمه الطبيعة

الديموقراطية الملكية

ولقد نفذ روح التحرير الى كل مقال ، وسطعت فيه الديموقراطية التى ترحب بالتطلع المشروع والطموح القانونى والمجاملات الصادقة ، وتحتفظ لكل من الحق والسلطة بمرتبته ، وتشيد بالكرامة القومية والعزة الانسانية ، وتسود معنى العدل تسويدا صادقا . وبذلك كان معنى هذا الروح الديموقراطى السعيد مجموعة من الجهود تتحفز وتقوم فى الوقت نفسه شاهدا على عقل راجح اعتزم اقتياد المصلحة العامة فى سبيل أهدى للتى هى أقوم، من أى سبيل آخر سلكته هذه المصلحة فى أى وقت مضى

إن هذه الديموقراطية الملكية الفنية التى تعمل جادة كادة فى سبيل تدريب قواتها هى ديموقراطية رأس أسرة ارتبطت حقوقه بحقوق الوطن ، ونبتت امتيازاته من تلك البذرة التى نبتت منها امتيازات الوطن . فمصير البلد يتعلق إذن بهذه الديموقراطية قوية ومجد الوطن يرتبط بمجدها ساطعا، وعظمته بعظمتها مشرقة ، ويتوقف على اطمئنانه وأمنه، اطمئنانها وأمنها ، فلكى تعيش هذه الديموقراطية الجديرة بهذا الاسم وتستقر وتؤتى اكلها فى كل حين ، يجب أن يهيىء أعضاء الجماعة المصرية أنفسهم لحكم دولتهم سواء فى الدائرة الخاصة البحت، أى الدائرة العائلية ، أو دائرة العمل العام ، أو فى دائرة العلاقة الدولية ، على أن يكون سلوكهم فى مختلف هذه الميادين قائما على احترام الكرامة الانسانية ، وهو احترام يتناول بطبيعته احترام الحرية والمساواة يدعمهما حب الانسانية المتفرع عنه الاخاء الانسانى، فمستقبل الديموقراطية الملكية التى لم نعهد مثلها فى أى ملك سابق، أو أى ولى أمر قومى تاريخى، مرتبط تمام الارتباط بالذكاء القومى والعقل العام اللذين يتحتم عليهما أن يميزا بين ماهو خالد وما هو فان، بين رمز الدولة المتتابع المستقر الباقى، وما يحمله مد الحياة السياسية من حطام وبقايا إلى القمم ليقذف به الجزر إلى مهاوى النسيان.

ولقد ضربت لنا الديمقراطية الملكية درسا جديدا فى التربية القومية هو تعليم النشاط

الفردى كيف لا ينى ولا يتعب ، وكيف لا يكون له فى الحق قاهر ، وكيف تكون مقاومة الجنوح إلى عقم الانتاج معقولة ، وبذلك استنبت طريقة تكوين الاخلاق ، بل اصطناع الرجال ، وفى الحق إن أقوم وسيلة تدعم الديمقراطية، وتمكن لها فى الوجود انما تلك التى تثير الضمير فى أعماق الفرد، وتحرك فيها الاحساس بما هو حق، وتنمى شجاعة الدفاع عنه والمثابرة عليه ، فبداية تربية الفرد على هذه الوتيرة هى بداية تربية الشعب، ومتى وجدت هذه البداية تحتم الاستزادة منها حتى تستيقظ مواهب جديدة ، ولكن من الواجب تنظيم هذه المواهب وتدريبها ثم تركها مستقلة تعمل عملها وتؤدى رسالتها .

إن هذه المواهب قوات ، ولكنها ليست قوات ميكانيكية تترتب عليها أثارها بمجرد سيرها، ثم تتوقف عن العمل متى أتمت دورتها، ولكنها قوات روحية أختصت بالحياة ونزعة الرقى، وليس فى الوسع وقف حركتها أو اخمادها ، ذلك بأن محركها لا يتآكل، ولا تتراخى قوته بالتمدد أو الانكماش . فبمجرد أن تعرف الروح الانسانى حدود سلطانها ، وكنه قوتها تتعثر كل قوة فى العالم أمامها ، وتنكس على عقبها وتدع حركتها تجرى فى اضطراد وازدياد .

بدأ جلالة الملك حديثه بقوله الكريم :

— « هذا كتاب عصبة الأمم ، ولقد قيل إنه وضع بطريقة خاصة » .

— فشرحت لجلالته موضوع هذا الجزء التاسع من (علم الدولة) ، وأبنت أن جميع المبادىء السامية التى حققتها الانسانية فى ميدان القانون الدولى ، والمبادىء السامية التى تحاول الانسانية تحقيقها ، وهى عاجزة عن ذلك ، انما هى مستمدة من الشرع الاسلامى الذى حققها وجعلها ناجزة قبل أن يحلم بها انسان فى أى بقعة من بقاع العالم .

ولقد أراد جلالة الملك أن يتثبت من صحة هذا القول ، وأن يجمل الحديث فى صورة علمية صحيحة ، فكشفت عن المراجع والمصادر والوثائق والحجج التى تؤيد

صحة الرأى فما كان من جلاله الملك إلا أن شملنى بأ كبر عطف وأولانى أعظم تشجيع بمنطقه السامى قائلا :

— « لقد أعطيتنى الاجزاء الاربعة التى صدرت من « علم الدولة » ولكنها فى مكتبة المغفور له والدى ، وأنا أتأثر كثيراً عندما أدخلها ، فاحضرها لى مرة أخرى وسأبقى « عصبة الامم » مع الاجزاء الاربعة على مكتبي وأقرأها كلما وجدت وقتاً »

الله أكبر ! عاش الفاروق ! وعاشت ديموقراطيته !

ليست الدولة غير أسرة متزامية الاطراف ، فأبو الدولة يعلّم الناس ما هى التربية الديموقراطية ، ويرينا أنها تقوم على تعلم كل فرد ماهية القوانين العظمى الدولية الضرورية لصيانة كيان الوجود الانسانى ، تلك التى تربى المرء واجبات رب الاسرة وترشده الى الافكار الصحيحة الضرورية للوطن ، حتى ترفعه الى مستوى يساعده على أن يؤدى جميع الواجبات فى ولاء وادراك ، وهى الواجبات التى ألقيت تبعتها على عاتق كل عضو من أعضاء الجماعة القومية ، هؤلاء الذين لا يكونون أعضاء فيها بالمعنى الصحيح للعضوية إلا إذا كان كل منهم ابنا صادقا وأباً صادقاً وصديقا صادقاً وزوجاً صادقاً ، كما نص على ذلك دستور فرنسا الصادر فى سنة ١٧٩٥ .

فاذا كان الانسان أباً صادقاً وزوجاً صادقا ، وإذا كان يثابر على العمل ويدعم فى استمرار شعور تقدير الواجب وإحساس صيانة الحق الخاص وإنصاف مواطنيه مهما كانوا ، ويسهر على احترام حريته وحرياتهم ، ويجعل المصلحة العامة واحترام القوانين وأبا القوانين « الدستور » شغله الشاغل ، فانه يكون انسانا له برنامج يحدد مستقبل الديمقراطية ، ولا معنى عن القول بأن بلاد المليكها برنامج كهذا لهى بلاد ديموقراطية طبعا ، وخلقا ، لا زيفا وصناعة ، بلاد نمت فيها الطبيعة الافكار الخالدة التى بذرتها يد الزمن ودعمتها ، وأكملت عبثها للحياة دون حاجة الى الزعازع والعواصف العالمية ، واجتثت منها جذوع الوثنية فى غير ما ضجة أو صخب ، وقضت

فيها على عبادة التماثيل بحكم ذيوع الاخاء الذى يتطلب أولا وقبل كل شيء المساواة، وسيادة الحب المتبادل، وفكرة احترام الحق الخاص والعام ؛ واتصاله اتصالا وثيقا بالديموقراطية .

إن اتصال الحق بالديموقراطية اتصالا وثيقاً لا انفصام لعروته يؤدى حتما إلى زوال الصدأ الذى علا الديموقراطية بمرور الزمن ، ولذلك تراها بعدئذ فى صورة الحق الأتقى ، بل الغرض الاسمى ، استكمل عدته ، وبلغ تمامه ، وجعل يسطع على أعين الناس سطوعاً لم تعهده الانسانية فى غير الحق ، ولكن من الواجب إلى جانب هذا أن تكون الحرية هى المنظم للديمقراطيات العالمية كما يستخلص من كلام الفاروق الأعظم ، ولتحقيق هذا تجب العناية كل العناية بالخير الروحى ، وأن لا ينزل الشعب عن التمتع به ، وأن يعمل على تحقيقه لاعدائه وأصدقائه على سواء ، وأن لا يرى فيه إلا كما يرى فى حق الابتكار وحق الرق : — شباب الشعب المستمر ، وبعثه المتجدد اللذين لا يتحقق فى الوجود بدونهما غير الموت والجمود .

فتشجيع الفاروق هو واسطة الشباب المستمر والبعث المتجدد بين الشعب المصرى ، وما الفاروق إلا الشباب المستمر ، والحياة المتجددة دواماً باذن الله .

استقصاء مبلغ الجهود

لقد تفضل جلالة الملك حفظه الله وبرعايته تولاه ، فتحرى منى صحة الرأى الذى أدليت به خاصاً بأن الشرع الاسلامى مصدر القوانين الدولية الحديثة ، ثم تنازل فسألنى عن المدة التى صرفتها فى إعداد كتاب « علم الدولة » والجزء الخاص بعصبة الأمم منه ، فاتضح لى بعد إجابتى أن جلالته على بينة من صعوبة المباحث القانونية وطول المدة التى تستغرقها ، ولا غرابة فى ذلك فان ما يعرض لجلالته من المشاكل الدستورية قد جعله يقدر المشاق والجهود التى تبذل فى سبيل البحوث القانونية واستيفائها على أكمل وجه ممكن .

ثم انتقل جلالتــه من هذا الى استيضاح أعمالى الأخرى ، فكانت الفكرة الملكية خلال تشرفى بالمقابلة السنية تجرى فى سبيل البحث عن الحقيقة ، حتى يتكون رأى الفاروق الاعظم الثاقب،وحكمه الناضج،على أساس من الصحة متين .

البحث عن الحقيقة

يجرى الانســان العادى وراء كسب قوته اليومى غذاء ،ولــكن العبقرى يجد غذاءه فى الحقيقة ، لانها غذاء أشهى وألذ،فضلا عن انه يخلع على الروح حمية وغيرة ونشاطا إذا ماعرف المرء أن يستسيغ السعى فى الـكشف عنها ، ولذلك فأنت ترى العقول الـكبيرة لاتتعب من السعى فى سبيل العثور على الحقيقــة ، وإن كلت فان عزمها لا ينثنى عن متابعة الدأب على تقصى خطاها وهى فارة أمام الناس ، ومن خلفها أنوارها ترسم طريقها الذى لا يصدف عنه باحث يكبو فيه، لان كل باحث عن الحقيقة انما خلق لها، مادامت من نور الله الذى نهتدى به جميعا .

ولـكنك مع ذلك لاتستطيع أن تقدر قيمة الانسان بالعثور على الحقيقة ، وانما تقدرها بالجهود التى يبذلهـا فى سبيل العثور عليها ، لانها بسيطة بطبيعتها ، معقدة بوجودها ، ظاهرة بنورها ، خفية بعطاردتها وطمس معالمها .

فالجهود الخاصة التى تبذل فى سبيل غزوها هى مقياس القيمة الذاتيــة للساعى وراءها ، لاسيا وان البحث عنها ليس فى وسع الناس قاطبة. ولقدسعى الفاروق الاعظم وراء التأكد من صحة الحقيقة الاسلامية التى بسطتها ، فتجلت أمامى القيمة الاصلية لذلك الفكر الملـكى السامى العميق ، أعده المولى لانفاذ الرأى الوثيق، وهى مبادىء أفعاله ، للتدليل على سمو خواتيم أعماله ، واختاره سبحانه وتعالى ابن الدهر حنكة وتجريبا،وعوداً يقف أمام المعضلات قوياصلبياً .

الوسيلة الملـكية للحكم على الاشياء

لم تخدع الفاروق الأعظم ظواهر النظرية التى أيدتها ، فرغب جلالته فى التثبت والايقان، حتى يجىء حكمه وحى الاطمئنان ، والايمان

فالالفاظ ليست بذات قيمة وإنما الاشياء هى التى تعنى جلالته ، لأنها وحدها ملهمة الاحكام الصادقة الصحيحة التى لا تتغير ولا تتبدل ، حتى لا تروق النظر ويستسيغها الانسان تحت اسم ، ثم يمجها ويمقتها تحت اسم آخر .

تحرى جلالته الاسباب التى دعت الى تأييد نظريتى ، وتحرى عنها فى دقة وفى روح فكهة حتى يتجنب ارتجال الرأى والتسرع فى اصدار الحكم ، لانه لا عدالة فى حكم مرتجل ، ولا نضوج فى رأى مرسل .

وفى الواقع إن جلالته قد أصاب كل الاصابة بهذه الوسيلة ، فكشف عن اقبال التجربة والحنكة والارادة السامية ترغب عن بناء حكمها على مجرد أقوال .

إن القاضى مسئول عن حكمه، وإذن فهو مسئول عن تحرى الدليل الذى يدعم به رأيه ، ومن واجبه أن يتقصى الاسباب الصحيحة، ولا يقضى وفق الاقوال التى يتقدم بها بعض الناس على أنها حقائق ووقائع وما هى غير آرائهم الشخصية يسردون تاريخها ، وينتحلون أدلتها، فيسلم القاضى بأنها وقائع، ويرتضيها حقائق، ويسجل فى حكمه تاريخها ، وما هى غير اختلاق طلى بظاهر الواقع ، وجمل بزهو الحقيقة ، وهكذا وضع جلالته للحكم على الاشياء وسيلة ملكية يستطيع أن يجتث بها أصول الضلالة وفروعها ، ويحصد نجومها وزروعها ، ويبطل الباطل، ويحق الحق، وينزل النقمة على من يفارق عصا المنطق السليم ويشق .

لقد ألقى علىّ جلالة الملك بهذا الموقف درساً من أجل الدروس ، ورسم للعقل المصرى العام مجرى شريفا ، وسبيلا قويماً :

إن هذا الموقف الكريم يوحى أن ليس للعقل البشرى أن تستذله شهوات الغير ، وأن الواجب يقضى على الانسان بأن يجعل آفاق حرية أحكامه على الاراء والاشياء متسعة ، وأن لا يشغل رأسه بسلطان رأى انسان آخر قبل أن يتدبره ويتأمله ويستقر فى عقله بقوته لا بقوة صاحبه، فاذا ما عرضت علينا الآراء وجب إذن أن نختار بعد التمحيص والوزن والترجيح ما نحن فى حاجة إلى تأييده .

إن التفكير لاقتناع الذات،وتحقيق مصلحة الرعايا ، والرغبة فى تكوين آراء عادلة تلقاء الشئون الجوهرية ، والدرس،والجرأة على الاعراب الصريح عن الشعور بالقول الفصيح ، كل أولئك ميزات الطبائع السامية ، وشارات عظماء المختارين ،بل علامات تقوى الله ، والعلم الصحيح ، ذلك بأن اعتياد الاصغاء،والمطالبة بعلة الاشياء والعمل على الوثوق والايمان والايقان والاقتناع، ووزن آراء الغير،لمن فروع العلم الصحيح السهل الذى يقوم تحققه على حسن الارادة ، ولا يتطلب دعامة غير الذوق السليم .

فهنيئا لمصر بفاروقها يبدل لها من الظلمات نورا ، ويعقب من الموت نشورا، ويطلع على العباد كوكب العدل وقد كان خافيا ، ويوضح لهم منهج الامر وكان بالامس عافيا .

حرية الرأى

وكيف لايكون الفاروق الاعظم هكذا ، وقد ضرب المثل الأعلى فى حرية الرأى التى تعلمنا كيف نختار ، وكيف نخاص، وكيف نحب بالمعنى الصحيح للكلمة.

إن هذه الحرية الجوهرية للانسان ، تلك التى يقدرها جلالة الملك تقديرا تاما، هى فى الحقيقة الأساس المتين الذى يستند عليه حقنا فى الحريات السياسية والحريات المدنية ، ذلك بأن الواجب يقضى بأن يكون للانسان ارادة اذا هو أراد أن يطالب بحقه فى احترام ارادته ، فقبل أن أكون عضوا عاملا فى الانسانية يجب أن أتلقى عن جلالة الفاروق أول درس فى الحياة ،هو أن أحس فى أعماقى أننى شخص، أى أن انعدام حريتى يؤدى الى انعدام الواجب والمسئولية ثم الاخلاق الشخصية . واذن فالحرية فى نظر جلالة الملك ليست هى السلطان المؤدى الى عمل، ولكنها سلطان الارادة أو عدم الارادة ، ومتى كان الامر كذلك بالنسبة للفرد فان الحرية تمسى عنصرا ضروريا لحياة كل جماعة نظامية ، مادام انعدام الحرية فى الجماعة يؤدى الى تجردها من المسئولية،ومن الاخلاق ومن الديموقراطية بنوع خاص، ومتى انعدمت

الديموقراطية انعدمت سيادة الانسان وكرامته وانهارت الجماعة بالتبعية .
أجل إن للكرامة المرتبة الأولى فى الحياة الفردية والحياة الدولية ، وإذن فالحرية ضرورية لصيانة كرامة الفرد وكرامة الامة وكرامة الدول ، ولذلك لم يكن فى وسع أى بلد أن ينزل نهائياً عن حريته وبالتالى عن كرامته ، سواء بحكم الضعف أو الفوضى ، دون أن يسقط ويزول من الوجود ، لأن فى هذا النزول نزولاً عن صفة الانسان ، وحقوق الانسان ، وواجبات الانسان ، وسعادة الانسان ، لتتقاطر حوله الملمات ، وإذا بقى شىء من الهناءة ، فهناءة تعس بائس سرعان ماتفقد لونها وطعمها بعد إذ يذلها الاستعباد يضنيها الرخاء الوضيع ، والغذاء الذهنى الضريع . وتفنيها المجاعة الفكرية ، لان الحرية للهيئة الاجتماعية كالصحة للفرد ، فاذا تضعضعت الصحة وفقدها الفرد زال كما لو زالت الحرية من الجماعة ، حيث تخور قواها وتتداعى وتسقط وتتلاشى .
ولكن للحرية حدوداً ، فمن يبحث فى الحرية عن شىء غير الحرية كان ذليلاً . فالحرية إذن تنحصر فى أن تريد تحقيق ماتريد أنت وفاق العدل دون الشهوة ، إنها فى توافقها مع المنطق والعدل ، فكل حرية تتطلب تبعية وشروطاً ، تبعية لحرية الغير وشروطاً هى حدود حرية الغير ، أما أن يكون سيد النفس هو النفس فلا معنى لذلك إلا أن يكون حاكم النفس ظالماً . والفاروق لا يعرف سلطاناً على النفس إلى جانب العدل غير الانصاف والنزاهة .

لقد خصه الله بشرف الولاية ، وبوأه فى الشرق سرير أكبر ملك كان قدما مسند الخلافة ، واسترعاه أمر أمة كانت خير أمة أخرجت للناس ، وأمده بروح تجعل طاعته فرقا بين الهدى والضلالة ، ليحقق على يديه أكبر رسالة ، وأقامه كافل الامة وراعيها ، وسيد البلاد وحاميها ، لادنيا إلا به ومعه ، ولا عون إلا لمن تولاه وتبعه . فقد شرع الفضائل مقياسا للائتمان على الحق ، ووسيلة بسط اليد على الخلق وجعل من درجات الفضائل سلم التفاضل والمساواة فكان فى العلم بالسياسة ، وضروب الكياسة وجامع مصالح العامة الى مصالح الخاصة ، لا يدع بثاقب حكمه منفذاً للفساد يسرى ، ولا لداء الضلال يستشرى ، فابتدع نوعا آخر جديداً من

التضامن الملكى الديموقراطى كما ابتدع نوعا آخر جديداً من الاخاء الانساني الملكى فجاء بكل جديد سعيد المطلع ، حميد المرجع ، مزدهر الفاتحة كريم العاقبة باذن الله تعالى .

الابوة القومية

دلل الزمن على أن الفاروق طاقة من الفضائل تتفتح كل فضيلة منها عند شروق الشمس . ولكنها تتفتح لتعيش أبداً وتنمو وتزكو . وتزداد رواء وحسناً ، وتشتد طيباً ، هو طيب الخلود ، على نقيض الزهرة الطبيعية التى لاتتفتح إلا لتقضى يومها ثم تصبح ذكرى . وهكذا يتم نور الجنس وتتجلى ثمرة الوراثة ، كما يتم نور البيئة ويشرق أثرها .

ولقد تفتحت فضيلة جديدة فكشفت عن الأبوة القومية والاخوة العامة .

كشفت الفضيلة الفاروقية الجديدة عن أب بار رحيم لم يتخذ أسرة محمد على الاكبر وحدها أسرته ، وإنما اتخذ من الامة المصرية جميعا عائلته حتى ينمى فينا حب الاسرة ، وما حب الاسرة إلا البذرة الوحيدة الصالحة لحب الوطن والفضائل الاجتماعية قاطبة .

أجل إن الاسرة ليست شيئا آخر غير أسمى حكومة تعمل على بث أقوم المبادىء وأنتجها ، بل انها مصدر الفضائل ومبدؤها الذى يشع نوره فوق مسرح العالم . شأنها فى ذلك شأن المنبع الخفى الغامض تنساب منه كبريات الانهار التى تغذى أمواهها المحيطات وتربيها . واذن فقيمة كل جماعة وقوتها انما تقوم مبدئيا على أساس من الاخلاق . ومادامت التربية هى آكد وسيلة للتأثير فى الاخلاق، فان من الطبيعى أن تكون أخلاق الاسرة أساسا تقوم عليه الرفاهة العامة وينبنى عليه الرقى العام .

فاكرم بهذا الاساس وأنعم ! فالاسرة تسأل الوالد بل ترغمه على أن ينسى ذاته وأن يوزعها بين أفراد الاسرة ليمتع الجميع . وبذلك يتم الوفاق بين الشخصية والسعادة

المترتبة على الاخلاص والوفاء .

ولكن أين عدل هذه التضحية ؟ يجد الوالد العادي عدل هذا الوفاء وذلك الاخلاص فى مشاعر الحب المنزلى الذى يمكن له فى قلوب أعضاء الاسرة كمكل جذع يتغلغل فى الارض لامتصاص عصير الحياة . فالقوة والسعادة والرفاهة وما إلى ذلك يجده الوالد فى الاحساسات الابوية، وإلا فاين يتعلم الانسان الحب والاجماع والاخلاص والتضحية إن لم يتعلمها فى الاسرة ؟ فصاحب الجلالة الفاروق تعلم كل ذلك فى الاسرة المحدودة ، ولما أصبح والد الاسرة الكبرى بدأ يعمل على أن يتأصل احساس حبه فى أعماقنا حتى يتصل اتصالا وثيقا بمصدر الحياة منا ويقبض على أعز قوة انسانية فى الوجود ، ألا وهى الاسرة القومية التى تدين اليوم للابوة الفاروقية العامة بالاخلاص والتفدية والتضحية .

لقد احتفظ جلالة الفاروق بجميع الاحساسات العائلية منذ رأس الاسرة العامة وعمل على انمائها ، وتقويتها واحتفظ بهذه الاحساسات حتى تتحقق سيادة العدالة والسلام والوئام. فلا تمثل مأساة الفضيلة ، لأن الفضائل العامة إذا لم تصدر عن الفضائل الخاصة كانت فضائل مسرحية ، والينبوع الفاسد الآسن لا يخرج الاماء مسمما ، أما العين الجارية فلا تخرج إلا ماء طيباً ينبت نباتاً طيباً، أصله ثابت وفرعه فى السماء يؤتى أكله كل حين باذن ربك .

ليس الأبناء فى حاجة إلى الخبز فحسب ، وانما هم فى حاجة أيضا إلى من يعاونهم ويشد أزرهم ، ويكون روحهم الفتية ، على أن يؤيدهم ويشد أزرهم بالحنو والعطف ويكونهم بالتدريب والمران على المثل الصالحة ، ومن ذا الذى يستطيع أن يكون إلى جانب الابناء دواما ليبين لهم مواطن الخطر وشدائد الحياة ، ويكشف لهم عن آثار قوة الارادة وعظمة الفضيلة ؟ إنه الوالد بلاريب .

ان روح الاسرة التى يبثها جلالة الملك فينا هى روح عذبة مخصبة كريمة إذا أولاها الانسان حبه واحترامه كما أولاها جلالته . فما هى تلك الروح العائلي التى

يثها الأب الاعظم ؟ انها مزاج من الرهبة والود والاحترام والاعجاب بالفضائل والاعتراف بمعروف صاحب المعروف ، وما إلى ذلك مما يتكون منه احساس واحد معقد هو احساس القداسة .

فروح الأسرة تحول بين الشباب والشهوات الخادشة للشرف ، وتلطف النزعات الجامحة ، لأن الهدوء العائلي ينقي الفكر ويهدىء اضطراب الاحساسات ويبرىء من روح السخرية المريرة ، ويشفي من داء الاستخفاف بالعظائم ، ذلك بأن من يرتضع الاحترام من منهل العائلة يبقى أبداً على استعداد لاحترام كل محترم وحب كل محبوب ، فلا يتعلق بالحماس الزائف ولا يبقى على أنانيته وكبريائه بدافع من وسط الاسرة السامي الذى يعيد الافكار الثائرة إلى صفائها ، ويذل الصلف ويهدمه ، متأثراً ، بوقار أعضاء الأسرة الكبار . فما بالكم ببيئة يسودها جلال الفاروق الأعظم كل يوم وينتشر نور فضائله فى جوانبها ومناحيها عند كل مناسبة .

فالفاروق الذى يطالع المحافل المصرية يوميا، ويرؤس الحفلات الدينية والعلمية والرياضية ويؤدى الفريضة فى المساجد يبث هذه الروح العائلية النبيلة . وبذلك أصبحت لاتخشى شيئا من جانب كل فتى احتفظ بهذه الروح ووعاها ، لأن تشبعه بحب ذويه يحول دون اقدامه على مايخجل ، فتصوره أنه فى حضرة جلالة الملك ، و لد الأسرة القومية المصرية ، يكفى وحده لأن يوقفه وسط المنزلق الذي انحدر منه ويعوق اندفاعه فى سبيل الضلالة والفساد ، بل إن ذكر وجوده فى الحضرة الملكية،أو توقع وجوده فيها،ليحمله على احترام حدود واجباته،ويصده عن البغى والمنكر والعدوان . لأنه يذكر أن الوالد الاعظم إذا كان هو العدالة الدقيقة والانصاف السليم ، فانه مع ذلك القانون النافذ القوى القاسى ، إنه الجمال فى السبيل السوى .

ولقد أملى الواجب على الوالد القومى أن يجعل مصلحة الابن فوق مصلحته الخاصة فأقلق راحة نفسه ولم يشغل إلا براحة أبنائه دون أن يستغل مركزه باستغلال

المخلوقات التى اعتقد أن دمها من دمه، فكان تلقاءها كالمربي الحازم المستقيم تلقاء تلميذه، يقوم بأداء ما يفرضه القانون الطبيعي ، فان لم يستطع فان حزمه الموروث يريه بلا نزاع أن فى ميدان القانون المدنى المتفرع عن القانون الطبيعي متسعا لقانون تضمينات يحتم احترام ما فرضه القانون الطبيعى ، وبهذا يتمتع جلالة الأب القومى بأنه من مصر فى كل مكان ، وفى صورة كل انسان ، يدق قلب الأمة دقات قلبه ، ويشعر شعبه بمشاعره .

إن الأبوة وحدها ، الأبوة الصحيحة التامة الحازمة المستقيمة الماثلة فى التربية القومية هى الواسطة الوحيدة التى يصل بها الانسان إلى الشعور بكل دقات قلبه بالحياة . وأى حياة أسعد من تلك التى يحسها اليوم جلالة الفاروق وهو يسمع دقات قلب أبنائه تردد دقات قلبه وتوقع على أوتارها أناشيد الحب المتبادل؟ انها سعادة شعب بأسره تجمعت فى فرد مصون مقدس بحكم الدستور وتوزعت على كل فرد .

وأية هناءة تلك التى يشعر بها الفاروق الأعظم وهى تنبعث من صخب أطفاله وهم يمرحون ويلعبون أمامه ؟ ان هذا الصخب الخافت الحلو الذي يسمعه جلالته منبعثا من الاجيال المستقبلة تتحرك فى تردد وتخطو فى وجل وخوف ، هو صوت المستقبل ، والهتافات المنبعثة من الاعماق قوية متدفقة مندفعة كسيل العرم ، إنما هى أصوات الحياة القومية تعجب بالوالد القومى ، وتتلقى الدروس عنه لتلقيها بدورها على هذه الاجيال المستقبلة ، على المستقبل النابت فى الأفق .

فالفاروق هو إذن صانع المستقبل بتربية أطفاله وأبنائه تربية توحى بها الفطرة السليمة وفاق مشيئة الله .

ولكن الفاروق رب الأسرة القومية ، الذى تلقى أجل الدروس على خير أستاذ ، وأفضل مرشد من شغف بحب ابنه وعنى كل عناية بتربيته ألا وهو المغفور له والده نور الله برهانه ، والبسه رضوانه ، رأى ، ونعم ما رأى ، أن المغفور له والده قد عقد شركة من عضوين لتربية جلالته ، كان فؤاد الأول أحدهما ، أما العضو الآخر

فحضرة صاحبة الجلالة الملكة الوالدة التى كان لها وحدها أن تتحمل خلال طفولة الفاروق أوفر قسط من عبء القيام بأكبر مهمة فى هذه الناحية السياسية ، فرغب جلالته فى أن تخفف عنه شريكة حياته مهمة الوالد المنزلى أسوة بوالده . وتخفف عنه أيضا حمل مهمة الوالد القومى التى اعتزم أن يؤديها ، فاختار الوالدة القومية لتقوم بين الشعب بانجاز مهمة الوالدة الشعبية تسهر على العناية بأبنائها وفلذات كبدها باذن الله .

لقد عهد الخالق للأم بأوليات الدروس الفكرية والأدبية التى يتلقاها الطفل فالأم هى أول من يعنى بطفلها الذى لا يقوى على الحركة فى بادىء الرأى، وأول من تبسم له وتهش وتعلمه الحنو وتوقظ فيه الاحساسات والمشاعر والرقة والتفكير، والحركة ، إنها هى الأخرى صانع المستقبل وصائغه .

إن تربية الطفل من أهم المهمات الوطنية . واذا كانت الامهات لا تخض الحياة السياسية الا من هذه الناحية فانها مع ذلك أشق مهمة فى الحياة القومية ولكن الذى ييسر القيام بها هو الشيء الوحيد الذى يستحق الاعجاب والتقدير فى العالم، هو قلب الام . فمن يتدبر المهمة التى تبذلها الام فى تدريب الابن على التأثر والشعور ، والقيام والقعود ، والابتسام والضحك والتفكير والنطق ، لا يتردد لحظة فى الاعتراف بأن تكوين أخلاق الشعب إنما من صنع الام كما أن بين يديها الضعيفتين اعداد مصائر الامم . فبارك الله للمليك فى فكرته وأتم عليه نعمته .

لقد رأى جلالة الملك بصائب فكره أن الفراغ كبير بجانب فى ميدان أداء مهمة الوالد القومى ، فعمد إلى أن يشغله ، وهكذا نرى أن جلالته يقول بعمله لكل فرد « إذا أنت عنيت بتربية ابنك فسيسهر إبنك بدوره على تربية ابنه باذلاً نفس عنايتك ، وبذلك ينتقل التراث منك إلى سلالتك لتقوم فى الوجود سلسلة من التربية الحسنة والعادات القويمة أنت إحدى خلفائها »

فأى متعة إذن لا يجدها الانسان فى تربية أبنائه ؟ ان الآمال الخصبة التى تغذيك من جراء هذه التربية ليست وحدها التى تجعلك سعيداً ، وانما هناك المسرات التى

تنعش هذه القلوب الفتية ، فجهلهم قسوة الحياة وفتكها بالناس ليمتلكك رويداً رويداً حتى لتجد نفسك قد انسقت إلى عالمهم ونزلت إلى ميدانهم طائعاً مختاراً ، وتوددت اليهم وتحببت ، ولكنك لاتتودد ولا تتحبب بدافع ماتتوهمه فيهم وانما بدافع مما هم مغمورون فيه وماهم عليه من حال .

فتصورهم المتوقد ، وذوقهم المتعدد يرطب الفكر لامحالة ، وإذا أنت شعرت بأن الفرق بين عمرك وعمرهم لايجيز لك أن تشاطرهم أفراحهم وملاذهم فان منظر سعادتهم ومرحهم يريح صدرك ويدخل السرور على نفسك إذا أردت الاقتصار على ذلك . وإذن فلا نزاع فى ان الفاروق الأعظم يرى فى تبنى الشعب المصرى نوعاً جديداً من الرياضة . فمنظر الطفل ينمى فى الأب والأم قوة أدبية لم يكن لها وجود فى نفسيهما من قبل ، أنه لمنظر يضرم نار الحنو فيهما ويزيدهما قوة على قوة وابتسامته تلين أصلب النفوس وأجفاها ، وحاجاته تنتزع منهما الكبرياء ، فكما أنه يعودهما التفكير فيه فانه يعودهما فى الوقت نفسه أن لا يفكروا فى نفسيهما إلا وفاق الضرورة . وآلامه التى تفتت الأكباد تفتح فى القلوب أبواب الرحمة والحنان والشفقة ، وأناته المروعة وسهده الذى يغذى العيون بالأرق ولا توقع خلاله الألحان الاعلى نغمات انسياب الدموع وخريرها ، وتجاذب عاملى الأمل والخوف بسبب حياته الهشة ، وذلك التعذيب الذى لايشك فى قسوة متاعبه الحلوة حتى من لم يجربه ، كل أولئك مدرسة تتلقى فيها دروس الهمة الأدبية التى يطبقها اليوم فاروقنا لأعظم على شعبه المخلص الوفى .

الأخوة العامة

وكشفت الفضيلة الفاروقية عن أخ عام .

لقد رأى الفاروق ان الوجود الانسانى لايحتم على المرء أن يكف عن ارتكاب الشر فحسب بل يرغم الانسان على أن يضيف الى مثوبة الامتناع عن الشر أريحية فعل الخير .

لقد خلعت القدرة الالهيــة على النوع الانساني صورة واحدة وسنتنا جميعاً في قالب واحد حتى لا نعرف في أنفسنا غير الصداقة المتبادلة والاخوة فهي لم تعمد إلى خلق كل منا داخل حظيرة منقطعة الاتصال بالعالم ، وإنما خلقتنا جميعاً في حظيرة واحدة ، ولم تستسفر الاقوياء والراشدين على أنهم قطاع طرق سلحتهم بأحد الاسلحة وأقطعها ورصنتهم في الغابة العالميــة للسطو على الضعفاء وإرهابهم حتى يسلموا في أموالهم وأرواحهم طائعين أو كارهين ، ولــكنها خلقتهم حتى ترينا في التفاوت آيتها الـكبرى . فاذا كانت قد خصت البعض بقسط وفير من الحظ ، وأولت الآخرين خلاقا أضأل وأقل فانها لم ترد إلا أن تستعيض عن الفروق في الحظ بالحب الأخوى الذى يوزع السلطان على الضعيف حتى يجد في تعدد العون في ميدان الضعف قوة تتزن بها قوات الوجود .

فالاخوّة الفاروقية هي إذن توزيع متبادل للقلب والعمل والخير ـ ومعنى هذا هو ان الفاروق عقل وقلب

فما هو عدل كل ذلك ؟ تفدية

فلنفتد تضحية الفاروق اذن بالانفس كلها والمهج بأسرها ، ولنؤيده بالانصرين الساعد والعضد ، ولنضح في سبيل صيانة ملكه وحراسة تاجه وعرشه بالعمدتين القلب والـكبد .

الحياة جد وعمل

جابه جلالة المليك المفدى أعضاء هيئة مجلس النواب عندما رفعوا اليه أخيرا رد المجلس على خطاب العرش بقوله إن الوقت وقت جد وعمل ، ولقد أراد بذلك أن ينقل إلى أعماق هؤلاء الاعضاء فكرة تقدير ذاته الـكريمة للوقت والحياة .

يرى جلالة الفاروق أن الحياة لحظة ، ولـكنها مع قصرها كافية للشروع في أعمال خالدة ، ومن العبث أن نطلب من هذه اللحظة أن تهبنا أكثر مما في طوقها، وطوق مداها ، أما اذا نحن ظننا أن أمدها سيطول فان الواجب يحتم علينا أن

نفكر ، وأن نعمل وأن نحب ، لان الانسان تفكير ، وتفكير فى السمو ، كما هو تعمير ، ولكن فى سبيل الرقى ، وحب ، ولكن للغرض الاسمى ، وأول غرض اسمى جدير بالحب هو تحرير الوطن ، فهذه اللحظة وان قصرت ، لا تعتبر حياة إلا إذا أتم الانسان فيها نسيجا يضيفه الى زاد الخالف وعتاده ، فشيء من الحكمة ، وشيء من احترام العدل والحقيقة والشجاعة والقوة الادبية والطيبة والرحمة يكفى لاعتبار الانسان قد عمر بين الاحياء حقا .

فالفاروق الأعظم يرى أن الذين يعيشون هم هؤلاء الذين يناضلون ويجاهدون ، هؤلاء الذين تفيض روحهم بعصير حار ، ويشع من جباههم أمل وضاء ، ويتسلقون الذروة الوعرة من القمم السامية . هم هؤلاء الذين يشعرون بأنهم يعيشون ، وما العيش إلا علم ، وعلم بالحقيقة ، وأمل ، ولكنه أمل فى السمو ، وحب ، ولكنه حب الوطن وأعجاب ولكن بالفضائل ، واحسان الى الناس وفى كل هذا معنى العبادة ، فمن عمر أكثر من غيره هو اذن ذلك الرجل الذى عبد بعقله وقلبه وعمله أكثر من غيره .

فالحياة إذن ليست متاعاً ولذة . ولا ألما وغمرة ، ولكنها مشكلة خطيرة ، ألقى على عاتقنا حلها ، ومن الواجب أن تنتهى الى شرفنا وتشريفنا ، ولا تنتهى الى هذا المصير إلا اذا كانت أيامنا أيام عمل ، دون الاهتمام بأنها أيام أعياد ، أو أيام حداد .

فالحياة بذاتها ليست شيئاً مذكوراً ، ولكنها بقيمة ما أثمرت من خير ، وهذا لا يتم إلا اذا كانت خطوات كل منا كخطوات الفاروق : أمل يسطع فى جو الانسانية ، وحب عامل نشيط يقوم على رغبة أكيدة فى التطور والرقى ، لأن الحب ايمان بالملكية ، ومن خصائص الملك السمو والجلال .

اذن لا مناص من أن يساهم الانسان بقسط وفير فى الحياة الادبية . لان الحياة لا تكون فياضة بجلال الخلود إذا اقتصرت على التفكه بأكبر متعة ، والحظوة بأتم لذة . أو اكتناز أعظم قدر من المال ، أو حيازة أهم شطر من السلطان وألقاب

التشريف وبعد الصيت والشهرة بل لا بد أن تنطوى قبل أى شىء آخر على أعظم خلاق من الرجولة واداء أجل الاعمال المثمره وإتمام أهم الواجبات الوطنية التى يبقى أثرها فى النفوس جيلا بعد جيل، لأن الحيـاة كالنار لا تستمر ولا تدوم إلا إذا تنقلت . وهذا راجع إلى القانون الاساسى الذى وضعه علم الحياة وعلمنا به أن الحياة ليست تسلسلا فحسب، ولكنها انتاج وخصب، فهى إذن بذل وكسب، ولقـد بذل الفاروق وكسب ، بذل حبه وكسب حب البلاد، ومن كسب حب البلاد كسب الخلود

عمل الفاروق على أن يتبادل الحب مع شعبه الوفى الامين ، وبذلك وصل الخلود، والخلود ارتفاع عن مستوى الاشياء الزائلة وحياة وفاق أفضل شىء فى الوجود .

الفـاروق يعيش وفاق الكمال : يؤدى الفرائض ويقوم بالواجبـات ، ويحتفظ بالحقوق . وإذن فجلالته يرى أن الحياة ليست فى طول أمدها وانما فى وسيلة استعمالها ، وكلما زادت متاعب الحيـاة طالت ، واذن فالواجب يقضى بأن نؤثر أن تكون الاشواك فى رياضنا حتى نجنى الورود والرياحين فتتجرد رياضنا من الورود ولا يكون ثمة باعث على أن تجرح الاشواك أيدينا . على أن كثرة الأعمال أو قلتها ليست هى ميزان حياة الناس ، ولـكن ميزانها فى النزاهة ، وكذلك فان جلالة الفاروق يبذل كل جهد فى تطهير الأجواء حتى تنتشر النزاهة فى حقل لا يجعل بذورها عقيما ، ولا نباتها زنيا ، ثم تنى بالنافع ، والنافع والنزيه صنوان ، وإن لم يكن النافع متصلا بالحـكمة ولم تكن النزاهة كل ما يكفل للانسان حياة سعيدة.

إن جلالة الفاروق يعمل اذن أعمالا ظاهرة جليلة لا ينفد ريعها ، ولا تنقطع ثمارها ، وعلى كل وطنى مخلص أن يستغلها ، ويستنير بنور جلالها ونبلها . والرجل لا يعرف قدر نفسه إلا اذا درس سير الرجال ، وتدبر تاريخهم والاعمال

ولما كان من الواجب أن نقتدى بطريقة الفاروق وأسلوبه فى عمله فقد حق أن نشرح هذه الطريقة .

حياة المليك اليومية

اعتاد جلالة الفاروق أن يستيقظ مبكراً وعند، استيقاظه من النوم ، فى قصر القبة الذى يفضـله على سراى عابدين ، يطالع الصحف المحلية ، ثم يمضى دقائق فى الالعاب الرياضية ، فاذا لم يكن لديه أعمال كثيرة فى يومه كزيارات المصانع وتشريف الاحتفالات برفع الاعلام على البواخر القومية أو عرض عسكرى مما يذكر بمجد محمد على وابراهيم وأنجاله وفؤاد الاول على ماسنراه مفصلا فى تاريخ الفاروق ، يمتطى جواده لترويح النفس . واذا أراد الذهاب الى سراى عابدين ركب سيارته وقادها بنفسه ، ودخل السراى بدون احتفال رسمى . وبعد ذلك يعود إلى سراى القبة لتناول الغداء مع جلالة الملكة الوالدة وصاحبات السمو الملكى الشقيقات

وإذا لم تستغرق أعمال الدولة كل وقته ، خصص الساعات التالية لبعض خاصته أو عمد إلى الراحة فى متحفه ، ثم تبتدىء المقابلات الرسمية والاستشارات السياسية ، وبعد أن يستوعب بانتباه مايعرض عليه ، لايبدى رأيه فى أمر إلا بعد أن يزنه بميزان التروى ، مستنيراً فى ذلك بوجدانه الخاص .

وإذا لم يكن عنده حفلات رسميه ليلية فانه يتعشى مع جلالة الوالدة وشقيقاته ويقضى معهن السهرة ، ثم يطيل السهرة وحده ، يقضيها فى مطالعة أسانيد تتعلق بالدولة أو كتب جديدة

ولـكن جلالته فى المدة الأخيرة ، بعد خطبته ، غير شيئاً من مجرى معيشته ، وصار يقضى مع خطيبته جانباً من وقت فراغه .

القران السعيد

قدرة الله ألبست الفاروق رداء الايمان واهلته لليمن والأمن والأمان ، وجعلت له فى كل لحظة صنيعا خفيا ولطفا بالرعيه حفيا ، ووصلت الى أولياء الله صلاته ، وبارت هبوب الرياح تقواه وغمر القلوب صلاحه ، فكان منذ مبايعته رحمة للدانين والقاصين وتشفيعا لدى القانون للمذنبين والعاصين ، والهـادى بمنهاجه القويم ، الى الصراط المستقيم ، والدليل إلى النعيم المقيم جامع سداد الامور ، وسداد الثغور ، منزع الراجين ومفزع اللاجين ، إلى سلطانه يعودون ، وبه يعوذون .

ولقد سلك الشعب الوفى الامين ،سلك سنته واقام مشاعر دينه ونفذ شرائعه، وأراد شوارعه ، وورد مشارعه .

كان الناس يحسبون أن الخواقين والملوك كالعقبان ،يختفون وراء العنان ، وما جاءهم الفاروق حتى رأوا الملك الصالح صورة صبيحة وأخلاقا سويه صحيحة ، وشجرة نورت وأسحارا تنفست ، وشمسا تقرب منهم ضياء ولا تبعد عنهم استعلاء ، اذا تكلم كان كلامه كنثر الورد ، أونظم العقد، فاستبدلوا بشدة الوجل، قوة الامل، وبانبساط الايدى عليهم ، انقطاع الاطماع والعوادى عنهم .

وها هى الامة على جانبى الطريق ،كل أسبوع تحيي يوم الجمعة كأنه عيد العمر ، وموسم الدهر ، تباهى بتقوى الفاروق ما طلعت شمس،وانتهى ظلام الى فلق، وتكرر أمس ، واستحال غروب الى غسق ، وتردد نفس.

ان جموع الشعب تقف كل أسبوع على حافتي الطريق المؤدى الى الجامع وقد ضاقت بهم الاقطار ، إنها معبأة كالجيش ، تخضع له الاقدار ، وتحيط بالملك رابطة الجأش ، تقتادها أصالة الرأى والحزم ، مع التئام التدبير والعزم ، معونة الله تتقدمها وصوائب العزمات تخدمها ، تشرع بالسنتها مبادىء النصر ، وتحيي جلالة الفاروق فينتشر الحق وتتجاوب أصداء هتافاتها فى أنحاء مصر

للهم أخرجنا من ظلمة الوهم ، الى نور الفهم .

اللهم اجعل التوفيق للفاروق الاول موافقا ،ولواء النصر عليه خافقا.

اللهم اجعل عدله كافيا كافلا . وانصافه هاميا هاملا .

اللهم اجعل لسان الحق يناجيه عن ضمير الغيب ، صدى لنقاء الجيب .

اللهم اغمر الفاروق بالتأييد ، وعمره عمر التأبيد .

لقد دفع هذا الايمان فاروقنا الذى أصبح والد الشعب الى أن يجد له شريكة تعينه على أداء واجبات هذه الابوة العامة ، وفى يوم الاربعاء ٨ جمادى الثانية سنة ١٣٥٦ الموافق ٢٥ أغسطس سنة ١٩٣٧ نشرت الوقائع المصرية بالعدد رقم ٧٨ غير اعتيادى البشرى الآتية :

ديوان جلالة الملك

بشرى إلى الامة المصرية الكريمة

لقد أتم الله نعمته وتوفيقه على حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم "فاروق الاول" فاتجه بما فطره الله عليه من العصمة والتقى والصلاح إلى المبادرة بالزواج ، استمساكا بالسنة الشريفة المطهرة ، فعقد خطبته الموفقة على سليلة بيت المجد والشرف الآنسة «فريده هانم» كريمة حضرة صاحب السعادة يوسف ذو الفقار باشا .

والله المسئول أن يجعل هذه الخطبة المباركة مشرق يمنٍ واقبال للبيت الملكى الكريم ، وعز واسعاد للشعب الوفى الامين .

الأفراح

تحدد يوم الزفاف الملكى السعيد فى العشرين من ينايرسنة ١٩٣٨ . ولقد أخذت البلاد زخرفها وازينت ، ولاحت وكأنها جميعاً سراداقا عاماً ضم ستة عشر مليوناً من الانفس ، ولقد نشر برنامج الحفلات ، فدل على أن أيام هذا العيد السعيد لا تحاكيها غير أيام الاعياد العامه فى أثينا مضافة إلى أيام الاعياد القومية فى فرنسا كاحتفال ١٤ يولية وأيام التتويج فى انجلترا .

العيد القومى العام

تقوم بعض موضوعات أعياد زفاف الفاروق على مباريات تسطع فيها قوة الاجسام ، وتلمع فيها المهارة ، وتخطر فيها عبقريات الشعراء وتردد فيها وفى المذياع فصاحة الخطباء البلغاء ، ولكنك تجد فيها فوق هذا بلاد القطر كلها كما كنت تجد فى احتفالات آتيناء بلاد الاغريق على بكرة أبيها ، ولذلك فان المنظر يخرج عن أن

يكون منظر لهو ولعب، وسمر وطرب ، فالمنظر منظر مصر، يمثل سلالة الفراعنة الذين أخضعوا وادى النيل والشطر المعروف فى أيامهم من آسيا ، وسلالة العرب الذين بشوا الكرامة والشرف ، ومدنوا العالم القديم الذى دان لهم، وا عتنق دينهم، وعاش فى ظلال مشرفيهم، وكنف مدنيتهم ، وسلالة جنود محمد على وابراهيم واسماعيل وفؤاد، وقد رأيت من قبل كيف فعل هؤلاء الخراقين فى الحجاز وكريت والمورة وآسيا الصغرى يوم زحف فرسانهم وجنودهم ، وانتصرت أعلامهم وبنودهم ، وتبوأ المجد طياتها ، وركبت شمسه متن حفيفها، وسارت تجرى فى الآفاق لتبهر طاغيه بعد طاغيه . وقصارى القول إنك سترى فى هذا المهرجان، الشعب الذى أخضع ربع أفريقيا أو يزيد ، وغلب طغاة آسيا بعد إذ رفعته الفضائل فوق مستوى الانسانية ، بينما عظماء رجاله الذين عملوا للوطن لخادمهم ، يمشون كالشموس فوق هامات الجموع وماحضورهم فى الحقيقة غير درس حىّ فى الوفاء للوطن، والولاء للكرامة، والاكبار من الشهامة ، والحرص على العدل وإنصاف الوطنية وما إلى ذلك مما اختلط بعضه بالبعض الآخر وتكون منه الفاروق الاعظم .

فأيام زفاف الفاروق عيد يضم الشيوخ الوقورين الذين ستطمئن قلوبهم للتمهيد لسعادة مستقبل أبنائهم وأحفادهم وبذلك تتعزى نفوسهم عن طول حياة قضوها تحت نير الاستبداد داخل السجون الذهبية .

انه عيد يشهده الابناء تلاميذ الوطن الناعمين الذين ستنمو مداركهم وتفتل سواعدهم ، وتترعرع أجسادهم حتى يكونوا فى عهد الفاروق عدة مجد الوطن ، وأداة جنى ثمار استقلاله ،

وعلى رأس الجميع ترى سيداتنا اللواتى يعززن الحرية ويكرمنها مع أزواجهن وأبنائهن الذين سيحملون فى النهاية اسلاب النصر على أكتافهم ، بقايا من الاغلال والاصفاد ، وركام من الذل والاستعباد ، بل إنهن السيدات اللواتى يستخدمن نفوذهن فى تدعيم سلطان فضائل مصر الحرة ، وأصبحن جديرات باحترام العالم وولائه وأمانته ولا تستطيع أن تنازعهن نساء اسبرطة بعد أن وطدن العزم على أن

ينجبن أبطالا شداداً يجعلن منهم خداماً للوطن والفاروق أشداءاً يربطهم بهما وثاق لاينقطع ، إلا أن يكون فداءهما وفداء حريتهما واستقلالهما حتى يزداد هذا الوثاق إحكاماً ونماء

إن هذا العيد هو عيد الشعب ونصير الفاروق وليس نصيراً لغير الفاروق

ألا إن الامة لتنذر بالويل كل من يحاول إطفاء هذا الحماس السامي . أو إخماد غريزة الفضيلة التى تدفع إلى تحقيق أنبل الاعمال ،ببث النظريات المؤسفة ، والمبادىء الفاسدة الخذولة، وما على الرجال إلا أن يعملوا لنصرة الفضائل والحقائق ، عليهم أن يسكتوا الاصوات التى ترتفع لنشر الظلام فى صخب عربيد متشرد جاهل ، وتسويد أشأم خضوع على عزة الانام ، وإعلاء شأن الشر على مستوى الخير ، وإلا فماذا نكون إذا لم نؤت الشجاعه الكافية لمجابهة الباطل وهدمه والنهوض بالحق ورفع علمه ؟ إن الاجيال المستقبلة لن تظن أن مخلصى اليوم للوطن والفاروق كانوا موضع مقاومة صادقة ، أو سخرية جدية ، أو تهم مشينة صحيحة :لانهم دعامة المستقبل ولكنهم سيوقنون بان الباطل قد ران على قلب العصابات التى حالفت الزمن والفكرة على تشتيت جند الوطن ، و إبادة قوتهم حتى جعلت هذه العصابات تتهم المخلصين بالاعتدال والجبن لانهم ذكروا الناس بسر الخلود وحكمة البقاء فى عالم الاحياء وعالم الاموات أيضاً .

إن الخلف إذا ما اطلع على هذا السر ، ووثق به يستطيع أن يقضى بأننا لم نرجع بالعقل البشرى قروناً إلى الوراء ، وانما سيعتقد اعتقاداً جازماً بأننا قطعنا به مراحل إلى الامام وأشواطاً فى مجال الرقى ، على نقيض هؤلاء الجبابرة الذين جعلوا طوال حياتهم العقيمة يشحذون خناجرهم الدنسة ليغمدوها فى صدور الامانة والوفاء ، ثمناً للشرك بالوطن ، وما الشرك بالوطن إلا من الشرك بالله .

إن جميع السفهاء قد جعلوا وسيجعلون كل من دافع عن حق بلاده فى إخلاص ونبل هدفا لسخطهم ومقتهم . فلا عجب إذن ولا دهش إذا تحالف جميع أعداء الوطنية على أن يعدوا السم للخدام الابرار . ولكن الواجب يقضى على هؤلاء بانقاذ الوطن قبل أن يتجرعوا هذه الكأس ، فالسفينة التى تقل حظ الامم لايقوى الغرق على

ا بتلاعها ، إنها تسير فى رعاية الشعوب، ولن يبلغ كبرياء العواصف منها إلا أن يحنى لهام أمام مقدمها احتراماً للشعب ، وتمجيداً لجهوده .

فليقف جميع الوطنيين إذن فى موقف العدالة هادئين مطمئنين ، لا تزعزعهم الحوادث ، ولا تفل قواهم هجمات الكوارث، وليثابروا على إشعال نور التبصر ، وليدأبوا على إيقاظ شعلة الضمير العام ، وليزمجروا فوق رؤوس المجرمين قاذفين صواعق الغضب على جميع صنوف الاعداء المتراصين ، وليدلونى بعدئذ على ذلك الذى يجرؤ على أن يرفع صوته لينال من جلال الشعب المضيم فى اشخاص رجاله العاملين المخلصين للفاروق بعد إذ تستحيل هذه العادات النبيلة خلقاً يحفز الشعب إلى المعالى : مواطن الشرف والكرامة .

إن الشعب إذا سار فى سبيل اخضاع النصر له والاخلاص لوطنه ومليكه لوجه الله كان عليه أن يطمر النقيصة فى أكفان الفناء ، لان أعداءه، إنما هم فسدة الاخلاق ضعفاء القلوب ، أما أصدقاء الوطن والفاروق فهم الاتقياء الصالحون كرام النفوس الذين يقدرون الاخلاق الى الحد الذى تقف عنده المعانى الصحيحة لهذه الكلمات . فتحطيم هيكل الاستبداد ضئيل الاهمية إذا قيس بما يجب نحو حمل أعداء الوطن على احترام خلق الشعب . وعبثاً نحاول اعلان العالم أننا نقدس الحرية ونجل الاستقلال إذا استمرت الشهوات تمزق أحشاء الوطن . ولنحذر بنوع خاص نشوة النجاح الابتدائى ، ولنكن صاعقة فى أيام الشدائد والمحن ، متواضعين ساعة النصر والظفر ، ولنثبت دعائم السلام والرخاء فيما بيننا بالحكمة وتحكيم الضمير ، فهذا هو الغرض الصحيح من أعمالنا التى تتبعنا اتمامها وفاق الاسس التى شهدناها فى مهرجان الفاروق، فكانت هى الرسالة القائمة على البطولة الصادقة والاخاء والامانة النزيهة :

إننا نستطيع أن نؤدى شيئاً من كل ذلك إذا اقتدينا بالفاروق التقى النقى ، فلنحزم إذن أمرنا ولنسر على بركة الله ولنجعل ما كسبناه من عيد الفاروق عادة ترسخ فى أعماقنا وتصبح مع الزمن خلقاً يهيء لنا وسطا محافظاً على الرقى ودوام استمرار شعلة الوطنية متقدة لتضيء لنا سبيل الهدى والسلام.

الفن فى العيد العام

ان الزينات التى تقيمها الامة المصرية احتفالا بزفاف الفاروق ، والمهرجانات التى أعدتها البلاد احتفاء بالعرس الملكى ، ومواكب الازهار والرياحين كل أولئك قد استعير من الحواس والالوان والصوت الانسانى ، وجاءت ساعية الى غرض واحد نبيل هو انسلاك الافكار والعواطف والأمانى التى تعيش فى أعماق الامة ، بل فى الشرق جميعا لتحيى الفاروق وتزف اليه باسم الفن الجامع لما تقدم « أبلغ التهانى » .

لقد تغنت الامة بهذه الافكار والعواطف والامانى ، وصورتها ونحتتها فى أنوار الزينات البديعة التى أقامتها تكريما لهذا العرس السعيد حتى تفتح أمام العقل المبهور آفاقا جديدة يعرب فيها عن ولائه وإخلاصه للذات الملكية ، و بذلك كان الفن هو الصلة بين عالمين ، عالم الامة والفاروق الظاهرى ، وعالمهما الباطنى ، والواسطة الجليلة التى تؤدى إلى تمتع مصر باللذات الخفية التى يتضمنها معنى الاخلاص ، وتنبت على مجرى شعاع نور العقل ، ونور العلم ، ونور الصناعة ، وانه لمتاع قوى يحسه القلب الطاهر فيخفف عنه المتاعب والآلام والاوصاب ويشعره قبل الاوان بطعم أفضل المصائر وأبدعها .

ان موكب الازهار هو الفن بعينه ، لانه يسبر غور الحياة و يعبر عنها بصورة صحيحة بل انه يؤدى رسالة هامة فى ميدان تطورات الغد الاجتماعية ، ويؤدى الى ذلك لانه قائم على فكرة ، فكرة نفاذة اذا توجهت الى حاسة وصلت العقل وسكنت الى النفس فهزتها وسمت بها وهى تحلق معها فى اجواء الجمال .

فهذا موكب الازهار موكب الرياحين و الورود يطوف فى كل مكان ، فماذا نتعلم من هذا الفن ؟

ان الزهرة تعيش فى إشعاع رائع ، عجيب فى اتساقه ، باه بجماله ، زاه بحيويته القويه وطبيعته المتحمسة ، باق بشذاه العاطر على مدى الايام ، والخالد ما كرت الاعوام .

فالزهرة تعلمنا الاشعاع ، وتكسبنا الروعة والاتساق والحيوية الزاهية والحماسة الطبيعية والدوام بالاثر الطيب والذكر الحسن .

ان الورود والرياحين تعرض علينا يوم العرس الملكى أكامها المختلفة لتربنا الاخلاص الذى تستشعره ، والصفاء الذى تقيم عليه ، والسعادة التى تؤمل فيها .

على حافة النيل

واذا أنت تركت القاهرة وطفت بالجزيرة وانتحيت ناحية من تلك التى امتازت بظلال الاشجار وجلست الى جانب خميلة ساحرة اذا ما آذنت الشمس بالغيب لتستمع همس المناظر سخرها الله لمطاردة الهموم وتبديد الغيوم ، وسرحت طرفك طليقا لاتقيده مشيئتك ، وأطلقت له العنان ليجرى فى هذا الوادى الذى يدير على عينيك لوحه متغيرة متبدلة كل آونة كالسانحة ، رأيت الطبيعه تحيي الفاروق فوق الارض والجماهير تدعو له وسط انوار علت الجاريات وأضاءت قاع النهر .

فهنا خرير الماء المنساب فى اللانهاية يعزف لحن الخلود ، وهناك بساط من الحشائش الممتدة بمحاذاة النيل قد أخذتها سنة من النوم متأثرة بسحر الكواكب التى جعلت تحدق فيها حتى كستها بردة نضرة تحسبها من الارض هدباً عبث به المشيب واخذتها هذه السنة حتى تستجم استجماما يرهف من سمعها فتنعم بنغم القلوب المخلصة وهى توقع على أوتارها اناشيد خلود الفاروق .

هنا أشجار نسقتها الحضارة ، فى نضارة ، وهزها المرح المصرى فجعلت تتهادى وتسجد لله داعية للفاروق بالعز والاقبال بعد أن تلقت آخر شعاع من الشمس أرسل اليها مع الشفق كلمة وداعه ليوم صحو ، وتحية لليل وضاء ، يبدد دولة الغسق ويحول دون ضغط الظلام على النور الطبيعي فلا يستقر فى أعماق النفس غير الفرح والبهجة وانشراح الصدر اقترن بشكر الله على ايلائه مصر نعمة بيعة الفاروق الصالح والهامه فكرة الخلود بتعاقب النسل والعمل الطيب .

والى جانب ذلك ترى موكب صاحب الجلالة « القمر » ملك الخيالات قد أقبل كالغرض الاسمى، فى كوكبة من الانجم الزهر ليضيء جوانب الروح بنوره الساحر فتنفرج أزمة هـذا الروح، ويستطيع أن يفكر فى ازدهار المصير خلال عهد الفاروق ، بينما يخيل اليك اعتقادك بصادق ايمان المليك ، أنك تسمع فى هذه اللحظة صوت التوحيد ينبعث من المآذن ، أو دقات النواقيس تردد جميعها نغمة قدسية، هى دعاء حار للفاروق بطول العمر وتعدد الذرية .

فاذا أنت انتقلت من بقعة الى بقعة ومن مكان الى مكان طاف بصرك ليحرك لسانك فتهتف بحياة الفاروق ثم يدفعك الى السير فتلتقى بالسعادة وقد كنت لا تحسب أنك منها على موعد ، ولـكن هو حظ الفاروق قد غير حظ مصر والمصريين

لقد كنا ونحن نتأثر خطاها الجبارة فى دورتها الهائلة لا نرى دائما الا الفراغ . والا الصحراء، لاننا ما كنا نعنى بشيء مما تمضى، ولا نرغب فى شيء مما نموه، ولا نرجو من العـالم الغرور فتيلا، لاننا لا نجـد فيه أى أمنية من أمانينا ، أما اليوم فان امنيتنـا فى مجد الفاروق .

لذلك فاننا ننتشى من ورود المصدر الحق الذى نبتغيه وتشرئب اليه أعناق ذوى القلوب الطيبة القديرة على قراءة الحقائق بين سحب الغيب، فيه نعثر على الامل والحب ونتمتع بالغرض الاسمى الذى يبتغيه كل روح ولا يجد له فى هذا الوجود من أثر غير اسمه الساحر قبل ان يتبوأ الفاروق عرشه، إننا نأمل أن نتسلق فى يوم ما خيوط الفجر لادراك غايتنا.

الفصل الرابع

امل الامة فيه

ولد الفاروق كالشمس متأهبا لاداء رسالته ، ولهذا نضج دون أن يلحظ أحد هذا التغيير الوشيك ، ولا عجب فى ذلك ، لان قوة سطوع الشمس المشرقة تضرم النار فى الافق ، وتنشر الذهب الوهاج فى كل مكان ، وتغمر رءوس النخيل العالية فى محيط من لهب ، فنعجز عن أن نتدبر قوتها ، وعظم سلطانها .

إن الفاروق قرص الشمس ، ولذلك فاض اشعاعه الذهبى فغير وجه الافق السياسى ، وزاده رحابة وسعة وطهرا ، حتى صار وأفق مصر الطبيعي أفقا إلهيا ، انعقد من الاخلاص والصفاء والنقاء .

ان كل مصرى هو جندى الفاروق ، وجندى أغراضه السامية التى تعلى قدر مصر وتبوئها مقعدها من الشمس .

ادامه الله وأبقاه ومتعه بالنسل والولد ، مع كثرة العدد ، ورفع أعلامه وبنوده ، وأيد فرسانه وجنوده ، حتى تتم وحدة مصر الطبيعية فيجرى النيل ولا عائق فى سبيله ، ويلقى الخصب فى مختلف المناحى ولا سدود ولا جنادل فى طريقه .

هو الفاروق موئل الامة وموضع آمالها التى علقها آباؤنا وأجدادنا على اجداد جلالته وعلى والده العظيم

فرسالة جلالته هى تكملة دين القومية وتتمة نعمة الوطنية ، هى انجاز رسالة والده واجداده .

« لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب ماكان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »

ملحوظة

فهرست الجزئين الاول والثانى

وكذلك المراجع

تجدها فى الجزء الاول من

« تاريخ عهد الفاروق »

وسيصدر قريباً بإذن الله .






Bibliotheca Alexandrina
0379535